Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

دار الكتب المصرية

القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

الجزء السابع

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

893.7K84
DK5
v.7

فهرس الجزء السابع

تفسير سورة الأنعام

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب ... » الآية . بحث فى الكلام على «مفاتح الغيب» ، والمراد منها . الكلام على من أخبر بما يكون فى غد، وعن الكهانة والعرافة، وعن المكاسب المجتمع على تحريمها . الكلام على تفسير قوله «ويعلم ما فى البر والبحر» ١

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى يتوفّاكم بالليل ...» الآية ٥

تفسير قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده ... » الآية . بيان المراد بالفوقية . الكلام على الحَفَظة . المراد بالتوفّى ٦

تفسير قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث ... » الآية . اختلاف العلماء فى هذه الآية ، هل هى عامة فى المسلمين والكفار، أم هى خاصة بالكفار ... ٩

تفسير قوله تعالى : « واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا ... » الآية . اختلاف العلماء فى هذا الخطاب ، هل هو خاص بالنبىّ صلى الله عليه وسلم . فى الآية دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحلّ، وفيها ردّ على من زعم أن الأئمة لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تقيّةً . مذهب العلماء فى جواز النسيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم جوازه ١٢

تفسير قوله تعالى : «وما على الذين يتقون ...» الآية . الكلام فى نسخ هذه الآية . ١٤

تفسير قوله تعالى : « وذرِ الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهْوًا ... » الاية . المعنى المراد بالدّين هنا . الكلام على معنى الإبسال ١٥

تفسير قوله تعالى : « قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ... » الآيات . قيل : إن الآية نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، كان يدعو أباه الى الكفر، وأبواه يدعوانه الى الإسلام . كلام العلماء عن النفخ فى الصور ١٧

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... » الآية . اختلاف العلماء فى اسم والد سيدنا إبراهيم عليه السلام... ... ... ٢١

تفسير قوله تعالى : « وكذلك نُرِى إبراهيم ... » الآية . أقوال العلماء فى معنى رؤية سيدنا إبراهيم ملكوت السموات ، وكيف وُلِد وربى ٢٣

تفسير قوله تعالى : « فلما جَنّ عليه الليل ... » الآية . المدة التى قضاها سيدنا إبراهيم فى السرب وهو طفل، وبيان قوله « هذا ربى » ٢٥

تفسير قوله تعالى : « فلما رأى القمر بازغا ... » الآيات ٢٧

تفسير قوله تعالى : «إنى وجّهت وجهى ...» الآية . بيان كلام النحاة على لفظ «أنا» وما فيه من لغات ٢٨

تفسير قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب ... » الايات . الكلام على رجوع الضمير فى قوله « ومن ذريته » . بحث فيمن وقف وقفا على ولده وولد ولده ، هل يدخل فيه ولد ولده وولد بناته . بيان القراءات فى قوله « والْيَسَع » ٣١

تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله » الآية . احتج بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص . اختلاف القراء فى قراءة « اقْتَدِهْ » ٣٥

تفسير قوله تعالى : « وما قَدَرُوا الله حق قَدْره » الآية . بيان المعنى المراد من هذه الآية وفيمن نزلت ٣٦

تفسير قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » الآية . الكلام على من تنبأ وزعم أنه قد أوحى إليه . ارتداد عبد الله بن أبى سَرْح كاتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ، وأَمْرُ الرسول بقتله ، وفراره إلى عثمان رضى الله عنه ، ثم إسلامه وتوليته مصر بعد ذلك فى خلافة عثمان . بيان أن روح المؤمن تنشَط للخروج للقاء ربه ، وروح الكافر تنتزع انتزاعا ٣٩

تفسير قوله تعالى : « ولقد جئتمونا فُرادَى ... » الآية. الكلام على معنى « فُرادَى » وما فيها من اللغات ٤٢

تفسير قوله تعالى : « إن الله فالق الحبّ والنَّوَى » الآية . بيان المراد من قوله « فالق الحب » ٤٤

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فالق الإصباح ... » الآية ،وما فيها من القراءات ٤٤

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » الآية . بيان أن المراد بالنفس آدم عليه السلام . معنى المستقَرّ والمستودَع ٤٦

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى أنزل من السماء ماء » الآية . الكلام على ما فى « قنو » من اللغات . فى الآية دليل على أن ينظر الإنسان فى المخلوقات نظر اعتبار وتدبّر . بيان أسماء الثمر فى أطواره . معنى « اليَنْع » الذى يقف عليه جواز بيع الثَّمرة وبه يَطيب أكلها، وفى أى وقت يكون . الكلام على بيع الثمر قبل أن يبدُوَ صلاحه أو إذا أصابته جائحة ٤٧

تفسير قوله تعالى : «وجعلوا لله شركاء الجن ...» الآية. الكلام على سبب نزول الآية. ٥٢

تفسير قوله تعالى : « لاتدركه الأبصار ... » الآية . الكلام على معنى الإدراك . اختلاف السلف فى رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم ربّه ٥٤

تفسير قوله تعالى : « وكذلك نصرّف الايات ... » الآية . بيان اختلاف القُرّاء فى قوله « دَرَسْتَ » ٥٨

تفسير قوله تعالى : « ولو شاء الله ما أشركوا » الآية . فى الآية نص على أن الشرك بمشيئة الله تعالى ٦٠

تفسير قوله تعالى : « ولا تَسُبُّوا الذين يدعون من دون الله » . الآية . بيان سبب نزول الآية ، وأن حكمها باقٍ فى هذه الأمة . فى الآية ضرب من الموادعة ، وفيها دليل على أن المُحِقَّ قد يَكُفّ عن حق له اذا أدّى إلى ضرر فى الدِّين ... ٦١

تفسير قوله تعالى : « وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم » الآية . الكلام على سبب نزول الآية . معنى « جَهْد اليمين » وقول الرجل : الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا ؛ واختلاف الفقهاء فيما يلزمه إن حنث فيها . بحث فى « أنّ » قد تأتى بمعنى « لعل » والشاهد عليها ٦٢

تفسير قوله تعالى : « ونُقلّب أفئدتهم وأبصارهم » الاية. بيان معنى التقليب ٦٥

تفسير قوله تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ... » الآية ، معنى «قُبُلا» ٦٦

تفسير قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوًّا ... » الآية . الكلام على أن لكل إنسان قرينا من الجن ٦٧

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ولَتَصْغَى اليه أفئدة الذين ... » الآية ٦٩

تفسير قوله تعالى : « أفغير الله أبتغى حكمًا ... » الآية . اختلاف العلماء فيمن أوتى الكتاب، هل هم اليهود والنصارى، أم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام ٧٠

تفسير قوله تعالى: « وتمّت كلمة ربك صدقا... »الآية . فى الآية دليل على وجوب اتباع دلالات القرآن ٧٠

تفسير قوله تعالى : « فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه... » الآية . بيان سبب نزول هذه الآية، وأنها أمر بتسمية الله تعالى على الشراب والذبح وكل مطعوم... ... ... ٧٢

تفسير قوله تعالى : « ومالكم ألّا تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه... » الآية . بيان مشروعية الذبح فى محل مخصوص ٧٣

تفسير قوله تعالى: « وذَرُوا ظاهر الإثم وباطنه ...» الآية . أقوال العلماء فى ظاهر الإثم وباطنه... ... ... ٧٤

تفسير قوله : « ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه ...» الآية . مخاصمة المشركين للمؤمنين فى أمر الذبح . اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليه أم لا . كلام العلماء فى تارك التسمية على الذبيحة... ... ... ٧٤

تفسير قوله تعالى : « أوَ مَن كان مَيْتًا فأحييناه ... » الآية . بيان أنها نزلت فى حمزة ابن عبد المطلب وأبى جهل ٧٨

تفسير قوله تعالى : « وكذلك جعلنا فى كل قرية...» الآية. بيان المراد بالأكابر ... ٧٩

تفسير قوله تعالى : « وإذا جاءتهم آية قالوا ... » الاية . بيان امتناع المشركين من الإيمان حتى يوحى اليهم ٧٩

تفسير قوله تعالى : «فمن يُرِد الله أن يهديه ... » الايات . بيان المعانى اللغوية فى هذه الآية . بيان سُنّة الله فيمن أراد هدايته ومن أراد إضلاله ٨٠

تفسير قوله تعالى: « ويوم يحشرهم جميعا ... » الآية. بيان تقريع الضالين والمضلين وتوبيخهم فى الاخرة . الكلام على الاستثناء فى قوله « إلا ماشاء الله » ٨٣

تفسير قوله تعالى : « وكذلك نُولّى بعض الظالمين بعضا ... » الآية. بيان أن الله إذا أراد بقوم شرًّا ولّى أمرهم شرارهم ٨٥

صفحة

تفسير قوله تعالى: « يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » الاية . كلام العلماء في بعثة الرسل ٨٥

تفسير قوله تعالى: «ذلك أن لم يكن ربك مُهْلِك القُرَى بظلم» الآية. بيان أن الله تعالى لا يعذب الأمم قبل إنذارهم ٨٧

تفسير قوله تعالى : « ولكل درجات مما عملوا ... » . في الآية ما يدل على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي منهم في النار ٨٧

تفسير قوله تعالى : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرْث ... » الآية. بيان ما كان عليه المشركون من تخصص جزء من أموالهم لله وجزء للأصنام ٨٩

تفسير قوله تعالى : « وكذلك زَيّن لكثير من المشركين ...» الآية. اختلاف النحاة في إعراب هذه الآية . بيان مافعله المشركون من وَأْد البنات ٩٠

تفسير قوله تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحَرْث حِجْر ... » الآية . بيّن الله تعالى نوعا آخر من جهالة المشركين، وهو أنهم حَرّموا الأنعام والحرث وجعلوها لأصنامهم. بيان معنى الحِجْر لغة ٩٤

تفسير قوله تعالى : « وقالوا ما في بطون هذه الأنعام ... » الآية . بيان ما ابتدعه المشركون من جعل ما في بطون الأنعام حلالا للرجال وحراما على الإناث . في الآية دليل على أنه ينبغي للعالم أن يتعلّم قول من خالفه ليعرف فساد قوله ويردّ عليه ٩٥

تفسير قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَهًا ... » الآية. بيان أنه كان من العرب من يقتل ولده خشية الفقر، ومنهم من يقتل بناته لأجل المَعَرّة، ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ٩٦

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ جنات مَعْرُوشات ... » الاية. بيان أن الكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحلّلوا وحرّموا دلّهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وجعل هذه الأشياء أرزاقا لهم . معنى قوله « وآتوا حقه يوم حصاده » واختلاف العلماء في تفسير هذا الحق ما هو . تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية في إيجاب الزكاة في كل ما تنبت الأرض، طعاما كان أو غيره . أقوال العلماء في زكاة الزروع والثمار. اختلافهم في وقت الوجوب، وخلافهم في القول

صفحة

بالخَرْص . بيان صفة الخرص وما يكفى فيه، ومتى يكون . حكم الثمرة إذا أصابتها جائحة بعد الخرص . بيان أنه لا زكاة فى أقل من خمسة أَوْسُق . إجماع العلماء على أنه لا يضاف الثمر الى البُرّ ولا البُرّ الى الزبيب، ولا الإبل الى البقر، ولا البقر الى الغنم فى تكملة نصاب الزكاة . واختلافهم فى ضم البر الى الشعير والسُّلت ٩٧

تفسير قوله تعالى: «ومن الأنعام حَمُولة وفرشا...» الآية. بيان معنى الحمولة والفرش ١١١

تفسير قوله تعالى : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت فى مالك بن عوف وأصحابه، وأنها احتجاج على المشركين فى أمر البَحِيرة وما ذكر معها . ودلّت على إثبات المناظرة فى العلم . وفيها إثبات القول بالنظر والقياس . وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النصّ بطل القول به ١١٣

تفسير قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى الى محرما ... » الآية . اختلف العلماء فى حكم الآية وتأويلها على أقوال . الاختلاف فى لحوم السباع والحمر والبغال . النهى عن أكل كل ذى ناب من السباع . بيان ما يجوز أكله من الحيوان وما لا يجوز ١١٥

تفسير قوله تعالى: « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر...»الآية. بيان ما حرمه الله على اليهود . فى الآية دليل على أن التحريم إنما يكون بذنب ١٢٤

تفسير قوله تعالى : «سيقول الذين أشركوا ...» الآيات ١٢٨

تفسير قوله تعالى : « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون... » الآية. بحث فى «هلم» وما فيها من لغات ١٢٩

تفسير قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم ... » الآيات . بحث فى قوله « تعالوا » . هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يدعو جميع الخلق الى سماع تلاوة ما حرم الله . وكذلك يجب على العلماء أن يبينوا للناس ما حرم عليهم مما حل . الأمر بالإحسان إلى الوالدين . النهى عن قتل الأولاد خشية الفقر . اختلاف العلماء فى العزل . النهى عن إتيان الفواحش . النهى عن قتل النفس المحرّمة، مؤمنة كانت أو معاهدة إلا بالحق الذى يوجب قتلها .

صفحة

النهى عن التعرض لمال اليتيم إلا بالتى هى أحسن . بيان اختلاف العلماء فى بلوغ اليتيم أشُدّه . الأمر بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عنـد البيع والشراء . الكلام على تفسير قوله « وأن هـذا صراطى مستقيما » أقوال السلف فى أهـل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشـذوذ ١٣٠

تفسير قوله تعـالى : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما ... » الآيات ١٤٢

تفسير قوله تعـالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ... » الآية . كلام العلماء فيما نسب إلى الله تعالى من الأفعال ، كالمجىء والإنزال ونحوه . أقوالهم فى الإيمان والتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها . معنى قوله : « أو يأتى بعض آيات ربك » ١٤٤

تفسير قوله تعالى : « ان الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَعًا ... » الاية . اختلاف العلماء فى هذه الآية ؛ هل هى خاصة أم عامة ١٤٩

تفسير قوله تعـالى : « من جاء بالحسنـة فله عشر أمثالها ... » الآية . بيان المراد بالحسنة فى هـذه الآية ١٥٠

تفسير قوله تعـالى : « قل إننى هدانى ربى الى صراط ... » الآيات . اختلاف الأئمة رضوان الله عليهم فى الافتتاح فى الصلاة ١٥١

تفسير قوله تعـالى : « قل أغير الله أبغِى رَبًّا ... » الآية . بيان سبب نزول الآية . استدل بعض العلماء بقوله تعـالى « ولا تكسب كل نفس إلا عليها » على أن بيع الفضولى لا يصح . بيان المراد فى هذه الآية هل هو فى الدنيا أم فى الآخرة . ١٥٥

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ... » الآية ١٥٨

ســـورة الأعراف

تفسير قوله تعـالى : « المص . كتاب أنزل اليك ... » الآية ١٦٠

تفسير قوله تعـالى : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ... » الآية . دلالة الآية على ترك اتباع الآراء مع وجود النص ١٦١

تفسير قوله تعـالى : « وكم من قرية أهلكناها ... » الآيات ١٦٢

تفسير قوله تعـالى : « فلنسئلن الذين أرسـل اليهم ... » الآية . بيان أن الكفار يحاسبون وأن سؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ وإفضاح ، وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح ١٦٤

*

صفحة

تفسير قوله تعالى : « والوزن يومئذ الحق ... » الآيات . الكلام على الميزان وكيف توزن أعمال العباد ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض ... » الآيات ١٦٧

تفسير قوله تعالى : « قال ما منعك ألا تسجد ... » الآيات . فى الآية دليل على أن الأمر يقتضى الوجوب بمطلقه من غير قرينة . تعليل إبليس بأن عنصره أشرف من عنصر آدم عليه السلام . بيان أن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة . الكلام على القياس وأنه أصل من أصول الدين ١٦٩

تفسير قوله تعالى : « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم ... » الآيات . مذهب أهل السنة أن الله أضل إبليس وخلق فيه الكفر ١٧٤

تفسير قوله تعالى : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ... » الآيات . أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة ووسوسة إبليس لهما . اختلاف العلماء فى تفضيل الملائكة على جميع الخلق ، وبم فُضِّلوا . تغرير إبليس لآدم وحوّاء بحلفه . أكلهما من الشجرة وظهور سوءاتهما . فى الآية دليل على قبح كشف العورة ١٧٧

تفسير قوله تعالى : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا ... » الآية . لا خلاف بين العلماء فى وجوب ستر العورة ، واختلفوا فى العورة ما هى . اختلافهم فى المعنى المراد من قوله « ولباس التقوى » ١٨٢

تفسير قوله تعالى : « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان ... » الآية . اختلاف العلماء فى رؤية أهل الجن ١٨٥

تفسير قوله تعالى : « وإذا فعلوا فاحشة ... » الآيات . احتجاج المشركين بأن الله أمرهم بالفحشاء والرد عليهم ١٨٧

تفسير قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ... » الآية . كان العرب فى الجاهلية يطوفون بالبيت عراة . اختلاف العلماء فى ستر العورة فى الصلاة ، هل هى فرض أم سنة . أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن زائدا على قدر الحاجة . الاختلاف فى القدر الزائد هل هو حرام أم مكروه . بيان أن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى معًى واحد . الاختلاف فى الأمعاء ، هل هى حقيقة أم لا . شىء من آداب الأكل ١٨٨

صفحة

تفسير قوله تعالى : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده ... » الآية . بيان الزينة هنا . دلالة الآية على لباس الرفيع من الثياب والتجمُّل بها فى الجمع والأعياد . اختلاف العلماء فى ترك الطيبات والإعراض عن اللّذات ١٩٥

تفسير قوله تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ... » الآية . بيان تحريم الفواحش والبغى ٢٠٠

تفسير قوله تعالى : «ولكل أمة أجل ...» الآيات . بيان أن المقتول إنما يقتل بأجله . ٢٠١

تفسير قوله تعالى : « قال ادخلوا فى أمم قد خلت ... » الآيات . بيان أن الأمة التابعة تلعن المتبوعة ٢٠٤

تفسير قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح ... » الآيات . بيان أن أبواب السماء تفتح لأرواح المؤمنين دون الكافرين ٢٠٥

تفسير قوله تعالى : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ... » الآيات . بيان أن مما ينعم به على أهل الجنة نزع الغل من صدورهم ٢٠٨

تفسير قوله تعالى : « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال ... » الآيات . كلام العلماء فى أصحاب الأعراف ٢١١

تفسير قوله تعالى : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ... » الآيات . فى الآية دليل على أن سق الماء من أفضل الأعمال . وفيها دليل على أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ، وأن له منعه ممن أراده ٢١٥

تفسير قوله تعالى : « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ... » الآية . بيان معنى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وبيان الحكمة فى هذا . معنى استواء الله على العرش ، وكلام العلماء فيه . بحث فى قوله « ألا له الخلق والأمر » ٢١٨

تفسير قوله تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية ... » الآية . بيان أن الدعاء خُفية أفضل من الجهر . الاختلاف فى رفع اليدين فى الدعاء . معنى الاعتداء فى الدعاء ٢٢٣

تفسير قوله تعالى : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ... » الآية . بيان أن الله تعالى نهى عن الفساد وأمر بلزوم الشرائع بعد أن أصلحها ببعثة الرسل ؛ كما أمر أن يكون الإنسان فى حالة تخوُّف وتأميل لله عز وجل . الكلام على معنى « إن رحمة الله قريب » ٢٢٦

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بُشْرًا » الايات . كلام العلماء فى قوله « بشرا » وما فيه من القراءات ٢٢٨

تفسير قوله تعالى : « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... » الآيات . بيان أقاصيص الأمم وما فيها من التحذير . الكلام على ارسال سيدنا نوح، والاختلاف فى سِنّه ... ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هُودًا ... » الآيات . الكلام على إرسال سيدنا هود ، وذكر نسبه ، وفى أى مكان نزل قومه ٢٣٥

تفسير قوله تعالى : « والى ثمود أخاهم صالحا ... » الآيات . استدلّ من أجاز جواز البناء الرفيع كالقصور ونحوها بقوله تعالى : « تتخذون من سهولها قصورا » . الكلام على عقر الناقة والاختلاف فى العاقر لها ٢٣٨

تفسير قوله تعالى : « ولوطا اذ قال لقومه ... » الآيات . ذكر قصة قوم سيدنا لوط وما كانوا يفعلونه من إتيان الذُّكران . اختلاف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد اجماعهم على تحريمه . اختلافهم فيمن أتى بهيمة . ذكر هلاك قومه ٢٤٢

تفسير قوله تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيبا ... » الآيات . ذكر نسب سيدنا شعيب والاختلاف فيه . كلام العلماء فى معنى قعود قوم سيدنا شعيب على الطرق ٢٤٧

تفسير قوله تعالى : « وقال موسى يافرعون إنى رسول ... » الآيات . بيان الاختلاف فى عدد سحرة فرعون . موضع اجتماعهم . ايمان السحرة ومعاقبة فرعون لهم . الاختلاف فيما كان يعبده فرعون . بيان ما كانت تتيمن به العرب وتتشاءم . الكلام على « مهما » ٢٥٦

تفسير قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطُّوفان ... » الآيات . بيان ما أخذ به فرعون وقومه من إرسال الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع . اختلاف العلماء فى قتل الجراد إذا حلّ بأرض فأفسد . لم يختلف العلماء فى أكله على الجملة، وإنما اختلفوا هل يحتاج الى سبب يموت به إذا صِيد أم لا . النهى عن قتل الصُّرَد والضفدع والنملة والهدهد ٢٦٧

تفسير قوله تعالى : « ولما وقع عليهم الرجز.. » الآيات . بيان الانتقام من فرعون وقومه بإغراقهم فى اليَمّ ٢٧١

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وجاوزنا ببني اسرائيل البحر ... » الآيات . طلب بنو اسرائيل من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلها ورده عليهم ٢٧٣

تفسير قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ... » الآية . دلت الآية على أن ضرب الأجل للواعدة سُنّة قديمة . ودلت أيضا على أن التاريخ يكون بالليالى دون الأيام . استدل الروافض وسائر فرق الشيعة بهذه الآية على أن النبي عليه السلام استخلف عليا على جميع الأمة ٢٧٤

تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا ... » الاية . تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام وطلبه أن يرى ربه ٢٧٨

تفسير قوله تعالى : « قال يا موسى إنى اصطفيتك ... » الآية . بيان اصطفاء الله تعالى لموسى وتكليمه إياه ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « وكتبنا له فى الألواح من كل شيء » الآية. اختلاف العلماء فى عدد الألواح التى نزلت على سيدنا موسى وفى جوهرها وفيمن كتبها ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون ... » الآيات . بيان أن الله تعالى صرف الكفار عن فهم آياته لتكبرهم ٢٨٢

تفسير قوله تعالى : « واتخذ قوم موسى من بعده ... » الآية . الكلام على بنى إسرائيل واتخاذهم العجل من حليهم بعد خروج سيدنا موسى الى الطور لمناجاة ربه . الكلام على نسب السامرى ٢٨٤

تفسير قوله تعالى : « ولما رجع موسى الى قومه غضبان ... » الآية . بيان رجوع موسى عليه السلام الى قومه وغضبه عليهم، وأنه كان أعظم الناس غضبا . بيان ما يذهب الغضب. بيان المراد من إلقاء الألواح . استدلال بعض جهال الصوفية بهذه الآية على جواز رمى الثياب اذا اشتد طربهم على المغنى . بيان المراد من أخذ موسى برأس أخيه . كلام النحاة فى لفظة « ابن أم » ٢٨٦

تفسير قوله تعالى : « ان الذين اتخذوا العجل ... » الايات ٢٩١

تفسير قوله تعالى : « واختار موسى قومه ... » الآية . بيان الرجفة التى أخذت قوم موسى ٢٩٣

صفحة

تفسير قوله تعالى : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ... » الاية . الكلام على من كتب لهم الرحمة ٢٩٦

تفسير قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ ... » الآية . بيان ما أنزله الله على موسى حينما اختار من قومه سبعين رجلا لميقات ربه ، وعناد قومه . معنى الرسالة والنبوة . معنى الأُمّىّ . ما ورد من صفات نبيّنا صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل . الكلام على تحليل الطيبات وتحريم الخبائث ، وما معناهما . ما وضع عن بنى اسرائيل من الأعمال الثقيلة ٢٩٧

تفسير قوله تعالى : « قل يأيها الناس إنى رسول الله اليكم ... » الاية . فى الآية دليل على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم ٣٠١

تفسير قوله تعالى : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ... » الآية . بيان أن من قوم موسى أمة تمسكت بشريعته ثم آمنت بمحمد صلوات الله عليه وهم فى عُزلة عن الخلق ٣٠٢

تفسير قوله تعالى : « وقطّعناهم اثنتى عشرة أسباطا ... » الآيات . بيان ما أعطاه الله لبنى اسرائيل من النعم . معنى السبط ٣٠٣

تفسير قوله تعالى : « وآسألهم عن القرية التى كانت ... » الآيات . أمره صلى الله عليه وسلم بسؤال اليهود عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم ، تقريعا لهم . اختلاف العلماء فى تعيين القرية . معاقبة اليهود بالمسخ لاعتدائهم فى يوم السبت وكيف كانوا يحتالون لصيد الحيتان ٣٠٤

تفسير قوله تعالى : « فلما نسوا ما ذُكِّروا به ... » الآية . بيان أن فى قوله « بعذاب بئيس » احدى عشرة قراءة ٣٠٨

تفسير قوله تعالى : « فلما عَتَوْا عما نُهُوا عنه ... » الآية . فى الآية دليل على أن المعاصى سبب النقمة ٣٠٩

تفسير قوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف ... » الآية . بيان معنى الخلف والعَرَض . ذم الرشا والمكاسب الخبيثة ٣١٠

تفسير قوله تعالى : « والذين يمسّكون بالكتاب ... » الآية . مدح من تمسك بكتاب الله وبدينه ٣١٣

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم ... » الايات . اختلاف العلماء فى تأويل الآية وأحكامها. بيان أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق عليهم . اختلاف العلماء فى الموضع الذى أخذ فيـه الميثاق . الاختلاف فى هذه الآية هل هى خاصة أم عامة . استدلّ بها من قال : إن من مات صغيرا دخل الجنة لإقراره فى الميثاق الأوّل، ومن بلغ العقل لم يُغنه الميثاق الأول ٣١٤

تفسير قوله تعالى : « وآتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ... » الاية . الاختلاف فى تعيين الذى أوتى الآيات . الكلام على قصة بلعام ٣١٩

تفسير قوله تعالى : « ولو شئنا لرفعناه بهـا ... » الآية . بيـان أن من أوتى القرآن ولم يعمل به مثله كمثل الكلب . الكلام على سبب لهاث الكلب . دلالة الآية على ألا يغتر أحد بعلمه ولا بعمله ، وعلى منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره ، وعلى منع التقليد لعالم إلا بحجة يبينها ٣٢١

تفسير قوله تعـالى : « من يهد الله فهو المهتدى ... » . فى الآية رد على من قال : إن الله تعالى هدى جميع المكلّفين ولا يجوز أن يضلّ أحدا ٣٢٤

تفسير قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا ... » الآية . بيان أن الله تعالى خلق للنار أهلا بعدله ؛ لأنهم كالأنعام لا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا ٣٢٤

تفسير قوله تعـالى : « ولله الأسماء الحسنى ... » الآية . سبب نزول الآية . الكلام على حديث « أن لله تسعة وتسعين اسما » . اختلاف العلماء فى الأسم والمسمى . إذا دعا الإنسان باسم من أسمائه تعالى فيطلب بكل اسم ما يليق به . بيان معنى الإلحـاد فى أسمائه تعالى ٣٢٥

تفسير قوله تعـالى : « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق ... » . فى الآية دليـل على أن الله تعالى لا يُخلِى الدنيا فى وقت من الأوقات من داع يدعو الى الحق ٣٢٩

تفسير قوله تعـالى : «والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم ...» الآية . معنى استدراج المكذبين بآيات الله إلى الهـلاك ٣٢٩

تفسير قوله تعـالى : « وأملى لهم أن كيـدى متين ... » . بيان أن الآية نزلت فى المستهزئين من قريش ٣٢٩

تفسير قوله تعـالى : « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ... » . الكلام على سبب نزول الآية ٣٣٠

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ... » الآية . التعجب من إعراض المشركين عن النظر فى آيات الله . استدل بهذه الآية من قال بوجوب النظر فى آياته والاعتبار بمخلوقاته . اختلف فى أول الواجبات، هل هو النظر والاستدلال ، أو الإيمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب . بيان أن النظر والاعتبار لا يكون فى الوجوه الحسان من المرد والنسوان ٣٣٠

تفسير قوله تعالى : « يسئلونك عن الساعة ... » الآية... ... ... ٣٣٥

تفسير قوله تعالى : «قل لا أملك لنفسى نفعا ... » الآية . بيان أن النبيّ صلوات الله عليه لا يعلم الغيب إلا أن يطلعه الله عليه ٣٣٦

تفسير قوله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة .. » الآيات . بيان ما حصل من إبليس مع حواء حينما أحست بالحمل . الاختلاف فى تأويل الشرك المضاف الى آدم وحواء . دلالة الآية على أن الحمل مرض من الأمراض . اختلف فى راكب البحر وقت الهَوْل ، هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل ... ٣٣٧

تفسير قوله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله ... » الآيات ٣٤٢

تفسير قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف ... » الآية . بيان ان هذه الاية مركبة من ثلاث كلمات ، وقد تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ٣٤٤

تفسير قوله تعالى : « و إما ينزغنك من الشيطان نزغ ... » الايات . بيان الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان . بيان أن المؤمن اذا مسه طيف من الشيطان تنبه عن قرب ، وأما المشركون فيمدّهم الشيطان ٣٤٧

تفسير قوله تعالى : « و إذا قرئ القرآن فاستمعوا له ... » الآية . الكلام على سبب نزول الآية ٣٥٣

تفسير قوله تعالى : « وآذكر ربك فى نفسك ... » بيان المعنى المراد بالذكر هنا . ٣٥٥

تفسير قوله تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون ... » الآية . اختلاف العلماء فى عدد سجود القرآن، و بيان سبب الخلاف . اختلافهم فى وجوب سجدة التلاوة . إجماعهم على أن هذا السجود يحتاج إلى ما يحتاج إليه الصلاة . الكلام على وقت السجود، وعلى آية سجدة تقرأ فى الصلاة ٣٥٦

صفحة

سورة الأنفال

تفسير قوله تعالى : « يسئلونك عن الأنفال ... » الآية . بيان سبب نزول الآية . معنى النفل . اختلاف العلماء فى محل الأنفال، وفى إغراء الإمام قبل القتال . الكلام على ما ينفله الإمام ٣٦٠
تفسير قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله ... » الآيات . وجوب طاعة الرسول صلوات الله عليه فيما أمر به من قسمة الغنيمة . بيان صفات المؤمنين . ٣٦٥
تفسير قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ... » الآيات . الكلام على غزوة بدر . بيان أن الطاعات تتفاضل بتفضل الشرع لها . خروج النبي صلى الله عليه وسلم ليلقى العير دليل على جواز النفير للغنيمة . الدليل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته . تثبيت الملائكة للمؤمنين فى القتال وضربهم أعناق الكافرين وأطرافهم ٣٧٠
تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا ... » الآيات . تحريم الفرار من الزحف يوم القتال . اختلاف العلماء هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أو عام فى الزحوف كلها إلى يوم القيامة . وهل هو كبيرة أم لا ... ٣٨٠
تفسير قوله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ... » فى الآية ردٌّ على من يقول إن أفعال العباد خَلْق لهم . اختلاف العلماء فى الرمى ٣٨٤
تفسير قوله تعالى : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ... » الآية . فى هذا الخطاب ثلاثة أقوال ٣٨٦
تفسير قوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ... » الآيات . دلالة الآية على أن قول المؤمن « سمعت وأطعت » لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله... ... ... ٣٨٨
تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول ... » الآية . بيان أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أتى به فى الصلاة لا تبطل ٣٨٩
تفسير قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا ... » الآية . بيان سبب نزول الآية ٣٩١

صفحة

تفسير قوله تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون ... » الآية . بيان وصف حال المهاجرين قبل الهجرة وفى ابتداء الإسلام ٣٩٤

تفسير قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول ... » الآية . الاختلاف فى سبب نزول هذه الآية ٣٩٤

تفسير قوله تعالى : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ... » الآيات ٣٩٦

تفسير قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ... » الآية . بيان ما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبىّ صلى الله عليه وسلم فى دار الندْوة ٣٩٧

تفسير قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا ... » الآيات ٣٩٧

تفسير قوله تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت ... » الآيات . كان المشركون يطوفون عراة يصفقون ويصفرون ويظنون أن ذلك عبادة . معنى المكاء والتصدية ٤٠٠

تفسير قوله تعالى : «قل للذين كفروا إن ينتهوا ...» الآيات . بيان أن الإسلام يهدم ما كان قبله . الكلام على من طلق فى الشرك ثم أسلم ، وعلى من حلف أو افترى على مسلم أو زنى ثم أسلم . المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات ٤٠١

اســـتدراك

تقدّم فى الجزء الرابع ص ٥٣ عند الكلام على قوله تعالى : « قل اللّهُمّ » بيت الأعشى :

كدعوة من أبى رَباح * يسمعها لاهُمَ الكُبارُ

وصوابه كما أورده صاحب الخزانة :

كَحَلْفَــة من أبى رِياح * يسمعها اللّهُمَ الكُبارُ

قال : « وإنشاد العامة : * يسمعها لاهه الكبّار *

وأورده جماعة من النحويين منهم المرادى : * يسمعها لاهم الكبّار *

وأبو رياح (بيـاء تحتها نقطتان) : رجل من ضبيعة ، وهو حصن بن عمرو بن بدر ، وكان قتل رجلا من بنى سعد بن ثعلبة ؛ فسألوه أن يحلف أو يعطى الدّية فحلف ، ثم قُتل بعد حَلْفته ، فضربته العرب مثلا لما لا يُغنى من الحَلِف » . (راجع خزانة الأدب للبغدادى فى الشاهد الخامس والعشرين بعد المـائة) .

وورد فى الصفحة المذكورة : * فإننا من خيره أنَ نعدما *

وصوابه : * فإننا من خيره لن نُعدما * (راجع الشاهد الحادى والثلاثين بعد المـائة).

وتقدّم فيه عند الكلام على قوله تعالى : «قال رب اجعل لى آية ...» ص ٨٠ فى المسألة الرابعة : « لا صُمُتُ يوما الى الليل » بضم الصاد والتاء . وصوابه كما فى اللسان مادة صمت : « لارَضاع بعد فِصال ، ولا يُتّمَ بعد الحُلُم ، ولا صَمْتَ يوما الى الليل . والصمت السكوت » .

أحمد عبد العليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — جاء فى الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك . وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تَغيض الأرحام إلا اللهُ ولا يعلم ما فى غدٍ إلا اللهُ ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا اللهُ ولا تدرى نفس بأىّ أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله" . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون فى غدٍ فقد أعظم على الله الفِرْية ؛ والله تعالى يقول : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ »[1] . ومفاتح جمع مَفْتَح، هذه اللغة الفصيحة . ويقال : مفتاح ويجمع مفاتيح . وهذه قراءة ابنِ السَّمَيْقَع « مفاتيح » . والمِفتح عبارة عن كل ما يُحَلّ غَلَقا، محسوسا كان كالقُفْل على البيت أو معقولا كالنظر . وروى ابن ماجه فى سننه وأبو حاتم البُسْتِىّ فى صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ من الناس مفاتيحَ للخير مَغالِيقَ للشرّ وإن من الناس مفاتيحَ للشرّ مغالِيقَ للخير فطُوبَى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ووَيْلٌ لمن جعل الله مفاتيح الشرّ على يديه" . وهو فى الآية استعارة عن التوصّل إلى الغيوب كما يتوصّل فى الشاهد بالمفتاح إلى الغيب عن الإنسان ؛

(١) آية ٦٥ سورة النمل .

ولذلك قال بعضهـم : هو مأخوذ من قول الناس افتـح عليّ كذا ؛ أى أعطنى أو علمّنى ما أتوصل إليه به . فالله تعالى عنـده علم الغيب، و بيـده الطرق الموصّلة إليه ، لا يملكها إلا هو، فمن شاء أطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه.ولا يكون ذلك من إفاضة إلا على رسـله ؛ بدليل قوله تعالى : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ»[(١)] وقال : «عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ»[(٢)] . وقيل : المراد بالمفاتح خزائن الرزق ؛ عن السُّدّى والحسن . مُقاتِل والضحّاك : خزائن الأرض. وهذا مجاز، عبّر عنها بما يتوصّل إليها به . وقيل غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث، أى عنده الآجال و وقت انقضائها . وقيل : عواقب الأعمار وخواتم الأعمال ؛ إلى غير هذا من الأقوال . والأول المختار . والله أعلم .

الثانيـــة — قال علماؤنا : أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه فى غير ما آية من كتابه إلا من آصطفى من عباده . فمن قال : إنه ينزّل الْغَيْث غدًا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة آدّعاها أم لا . وكذلك من قال : إنه يعلم ما فى الرّحم فهو كافر؛ فإن لم يجزم وقال : إن النَّوء[(٣)] ينزل الله به المـاء عادة، وأنه سبب المـاءَ عادةً، وأنه سبب المـاء على ما قدّره وسبق فى علمه لم يكفر؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرّة بنَوْء كذا ، ومرّة دون النَّوْء ؛ قال الله تعالى[(٤)] : ”أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر [بالكواكب]“ على ما يأتى بيانه فى « الواقعـة[(٥)] » إن شاء الله . قال ابن العربيّ : وكذلك قول الطبيب : إذا كان الثّدى الأيمن مسودّ الحَلَمة فهو ذكر، وان كان فى الثـدى الأيسر فهو أنثى ، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى؛ وآدّعى ذلك عادة لا واجبا فى الخلقة لم يكفر ولم يفسق . وأما من آدعى الكسب فى مستقبل العمر فهو كافر . أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة فى أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة

(١) آية ١٧٩ سورة آل عمران . (٢) آية ٢٦ سورة الجن . (٣) النوء : سقوط نجم من المنازل فى المغرب مع الفجـر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته ؛ وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى السـاقط منها . (٤) أى فى الحديث القدسى . (٥) فى قوله تعالى : « وتجعلون رزقكم ...» آية ٨٢ .

فى كفره أيضا. فأمّا من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا: يؤدّب ولا يسجن. أمّا عدم كفره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يُدرَك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: «وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ»[1]. وأما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامّة، إذ لا يدرون الفرق بين هذا وغيره؛ فيشوّشون عقائدهم ويتركون قواعدهم فى اليقين فأدّبوا حتى يستروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلِنوا به.

قلت: ومن هذا الباب ما جاء فى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "من أتى عرّافا [فسأله عن شىء][2] لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". والعرّاف هو الحازِى والمنجم الذى يدّعى علم الغيب. وهى العِرافة وصاحبها عرّاف، وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدّمات يدّعى معرفتها. وقد يعتضِد بعض أهل هذا الفن فى ذلك بالزّجْر والطَّرْق والنجوم، وأسباب معتادة فى ذلك. وهذا الفنّ هو العِيافة (بالياء). وكلّها ينطلق عليها آسم الكهانة؛ قاله القاضى عِياض. والكهانة: آدعاء علم الغيب. قال أبو عمر بن عبد البر فى (الكافى): من المكاسب المجتمَع على تحريمها الربا ومهور البغايا والسُّحْت والرّشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وآدعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزَّمر واللّعب والباطل كله. قال علماؤنا: وقد آنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجّمين والكُهّان، لا سِيّما بالديار المصرية؛ فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجّمين، بل ولقد آنخدع كثير من المنتسبين للفقه والدِّين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل[3]، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله عليه السلام: "لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". فكيف بمن آتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم. روى مسلم عن عائشة قالت: سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس عن الكُهّان فقال:

---

(١) آية ٣٩ سورة يس. (٢) زيادة عن صحيح مسلم. (٣) السراب: الذى يكون نصف النهار لاطئا بالأرض لاصقا بها كأنه ماء جار. والآل: الذى يكون بالضحى يرفع الشخوص ويزهاها كالملا بين السماء والأرض.

" ليس بشيء " فقالوا : يا رسول الله، إنهم يحدّثون أحيانا الشيء فيكون حقًّا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيّ فيَقُرُّها(١) فى أذن وليّه [قَرّ الدجاجة](٢) فيخلطون معها مائة كذبة" . قال الحُمَيدى(٣) : ليس ليحيى بن عروة عن أبيه عن عائشة فى الصحيح غير هذا . وأخرجه البخارىّ من حديث أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الملائكة تنزل فى العَنَان وهو السحاب فتذكر الأمر قُضِى فى السماء فتَسْتَرِق الشياطينُ السمع فتسمعه فتوحيه الى الكُهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم " . وسيأتى هذا المعنى فى « سبأ » إن شاء الله تعالى(٤) .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ خصّهما بالذّكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أى يعلم ما يهلك فى البر والبحر . ويقال : يعلم ما فى البر من النبات والحبّ والنّوَى، وما فى البحر من الدواب ورزق ما فيها، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . روى يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ٱبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة فى ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رِزق فلان بن فلان وذلك قوله فى مُحْكَم كتابه « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » . وحكى النقّاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها السّقط من أولاد بنى آدم، والحبة يراد بها الذى ليس بسقط، والرطب يراد به الحىّ، واليابس يراد به الميت . قال ابن عطية : وهذا قول جارٍ على طريقة الرّموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغى أن يلتفت إليه . وقيل : المعنى «وما تسقط من ورقة» أى من ورق الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور فى الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها . ﴿ فِى ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ بطونها . وهذا أصح؛ فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية . والله أعلم . وقيل : «فى ظلمات الأرض»

---

(١) القر : ترديدك الكلام فى أذن المخاطب حتى يفهمه .   (٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٣) هو أحد رواة سند هذا الحديث .   (٤) فى قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده ... » آية ٢٣

يعنى الصخرة التى هى أسفل الأرضين السابعة . « ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ » بالخفض عطفا على اللفظ . وقرأ ابن السَّمَيْقَع والحسن وغيرهما بالرفع فيهما عطفا على موضع « من ورقة » ؛ فـ« ـمن » على هذا للتوكيد . ﴿ إلا فِى كِتابٍ مبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك ، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيانٍ يلحقه ، تعالى عن ذلك . وقيل : كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر ، أى اعلموا أن هذا الذى ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب ، فكيف بما فيه ثواب وعقاب .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ أى يُنيمكم فيقبض نفوسكم التى بها تميزون ، وليس ذلك موتا حقيقة بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت . والتَّوَفِّى استيفاء الشيء . وتُوُفِّيَ الميت استوفى عدد أيام عمره ، والذى ينام كأنه استوفى حركاته فى اليقظة . والوفاة الموت . وأوفيتك المال ، وتوفّيته ، واستوفيته إذا أخذته أجمع . وقال الشاعر :

إنّ بَنِى الأَدْرَدِ ليسوا مِن أحدْ * ولا توفّاهم قريشٌ فى العَدَدْ

ويقال : إن الروح إذا خرج من البدن فى المنام تبقى فيه الحياة ؛ ولهذا تكون فيه الحركة والنفس ، فإذا انقضى عمره خرج روحه وتنقطع حياته ، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس . وقال بعضهم . لا تخرج منه الروح ، ولكن يخرج منه الذهن . ويقال : هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى . وهذا أصح الأقاويل ، والله أعلم . ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أى فى النهار ؛ ويعنى اليقظة . ﴿ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أى ليستوفى كل إنسان أجلا ضرب له . وقرأ أبو رجاء وطلحة بن مُصَرِّف « ثم يبعثكم فيه ليقضى أجلا مسمى » أى عنده . و « جرحتم » كسبتم . وقد تقدّم فى « المائدة » . وفى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير وهو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه ؛ فقدّم الأهم الذى من أجله وقع البعث فى النهار .

وقال ابن جُريج : « ثم يبعثكم فيه » أى فى المنام . ومعنى الآية : ان إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شىء عددا وعلمه وأثبته ، ولكن ليقضى أجلا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم . وقد دلّ على الحشر والنشر بالبعث لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم فى أنّ من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ يعنى فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة، على ما تقدّم بيانه أوّل السورة . ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أى من الملائكة . والإرسال حقيقته إطلاق الشىء بما حمل من الرسالة؛ فإرسال الملائكة بما حملوا من الحفظ الذى أمروا به، كما قال : « وإنّ عليكم لحافظين »(١) أى ملائكة تحفظ أعمال العباد وتحفظهم من الآفات . والحَفَظة جمع حافظ، مثل الكَتَبة والكاتب . ويقال : إنهما مَلَكان بالليل ومَلَكان بالنهار، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر، وإذا مشى الإنسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه ، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله؛ لقوله تعالى: « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ »(٢) . ويقال : لكل إنسان خمسة من الملائكة : اثنان بالليل، واثنان بالنهار، والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارا . والله أعلم . وقال عمر بن الخطاب :

ومن النـاس مَن يعيش شقيًّا * جاهلَ القلب غافلَ اليقظَـهْ
فإذا كان ذا وفاء ورأيٍ * حذِر الموتَ واتّقى الحفظـه
إنمـا الناس راحل ومقـيم * فالذى بَانَ للمقـيم عِظـه

---

(١) آية ١٠ سورة الانفطار . (٢) آية ١٧ سورة ق .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ يريد أسبابه ، كما تقدم فى « البقرة [1] » . ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ على تأنيث الجماعة ، كما قال : « وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ » و « كُذِّبَتْ رُسُلٌ » . وقرأ حمزة « توفّاه رسلنا » على تذكير الجمع . وقرأ الأعمش « تتوفاه رسلنا » بزيادة تاء والتذكير . والمراد أعوان مَلَك الموت ، قاله ابن عباس وغيره . ويروى أنهم يَسُلُّون الروح من الجسد حتى إذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت . وقال الكلبي : يقبِض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها الى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا أو إلى ملائكة العذاب إن كان كافرا . ويقال : معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب ، فإذا قبض نفسا مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء ، وإذا قبض نفسا كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها ، ثم يصعدون بها الى السماء ثم تردّ إلى سِجِّين ، وروح المؤمن إلى عِلِّيِّين . والتَّوفّى تارة يضاف الى ملك الموت ، كما قال : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ [2] » . وتارة إلى الملائكة لأنهم يتولّون ذلك ، كما فى هذه الآية وغيرها . وتارة إلى الله وهو المُتَوَفّى على الحقيقة ، كما قال : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا [3] » « قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ [4] » « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ [5] » . فكل مأمورٍ من الملائكة فإنما يفعل ما أُمِر به . ﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أى لا يضيّعون ولا يقصّرون ، أى يطيعون أمر الله . وأصله من التقدّم ؛ كما تقدّم . فمعنى فرّط قدّم العجز . وقال أبو عبيدة : لا يتوانون . وقرأ عبيد بن عمير « لا يُفْرِطون » بالتخفيف ، أى لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام والإهانة .

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ ﴾ أى ردّهم الله بالبعث للحساب . ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أى خالقهم ورازقهم وباعثهم ومالكهم . « الحقِّ » بالخفض قراءة الجمهور ، على النعت والصفة لاسم الله تعالى . وقرأ الحسن « الحقَّ » بالنصب على إضمار أعنى ، أو على المصدر ، أى حقاً . ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى آعلموا وقولوا له الحكم وحده يوم القيامة ، أى القضاء والفصل . ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ أى لا يحتاج إلى فِكرة ورويّة ولا عَقْد يَد . وقد تقدّم [6] .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٧ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة السجدة . (٣) آية ٤٢ سورة الزمر . (٤) آية ٢٦ سورة الجاثية . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى شدائدهما ؛ يقال : يوم مظلم أى شديد . قال النحاس : والعرب تقول : يومٌ مظلِم إذا كان شديدا ، فإن عظّمت ذلك قالت : يوم ذو كواكب؛ وأنشد سيبويه :

بَنِي أسَدٍ هل تعلمون بلاءنا * إذا كان يومٌ ذو كواكبَ أشنَعَا

وجمع « الظلمات » على أنه يعنى ظلمة البرّ وظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الغيْم ، أى إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك دعوتموه ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أى من هذه الشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى من الطائعين . فوبّخهم الله فى دعائهم إياه عند الشدائد ، وهم يدعون معه فى حالة الرخاء غيره بقوله ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ . وقرأ الأعمش « وخِيفَة » من الخوف ، وأبو بكر عن عاصم « خِفْيَة » بكسر الخاء ، والباقون بضمها ، لغتان . وزاد الفرّاء خُفْوة وخِفْوة . قال : ونظيره حُبْيَة وحِبْيَة وحُبْوة وحِبْوة . وقراءة الأعمش بعيدة؛ لأن معنى « تضرُّعاً » أن تظهروا التذلل و « خفية » أن تُبطِنوا مثل ذلك . وقرأ الكوفيون لئن « أنجانا » وٱتساق المعنى بالتاء ؛ كما قرأ أهل المدينة وأهل الشأم .

قوله تعالى : ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ وقرأ الكوفيون « يُنجّيكم » بالتشديد، الباقون بالتخفيف . قيل : معناهما واحد مثل نجا وأنجيته ونجّيته . وقيل : التشديد للتكثير . والكرب : الغمّ يأخذ بالنفس؛ يقال منه : رجل مكروب . قال عنترة :

ومكروب كشفت الكرب عنه * بطعنةِ فَيْصَلٍ لما دعانِى

والكُرْبة مشتقة من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تقريع وتوبيخ ؛ مثل قولِه فى أوّل السورة « ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » . لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص، وهم قد جعلوا

بدلا منه وهو الإشراك ؛ فحسُن أن يُقرَّعوا و يوَبَّخُوا على هذه الجهة و إن كانوا مشركين قبل النجاة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أى القادر على إنجائكم من الكرب، قادر على تعذيبكم . ومعنى ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح ؛ كما فعل بعادٍ وثمودَ وقومِ شعيبٍ وقومِ لوطٍ وقومِ نوحٍ ؛ عن مجاهد وابن جُبير وغيرِهما . ﴿ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ الخسْف والرجفة، كما فعل بقارون وأصحابِ مَدْين . وقيل : « من فوقكم » يعنى الأمراء الظلمة ، « ومن تحت أرجلكم » يعنى السِّفلة وعَبيد السّوء ؛ عن ابن عباس ومجاهد أيضا . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ وروى عن أبى عبيد الله المدنِىّ « أو يُلبسكم » بضم الياء ، أى يجلّلكم العذاب و يعمّكم به ، وهذا من اللُّبس بضم الأوّل ، وقراءة الفتح من اللَّبْس . وهو مُوضع مشكِل والأعراب يبيّنه . أى يَلبس عليكم أمركم ، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر ، كما قال : « و إذا كالُوهم أَوْ وَزَنُوهم »(١) وهذا اللَّبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلِفى الأهواء ؛ عن ابن عباس . وقيل : معنى « يلبسكم شيعا » يقوّى عدوّكم حتى يخالطكم و إذا خالطكم فقد لبِسكم . ﴿ شِيَعاً ﴾ معناه فِرَقاً . وقيل : يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا ؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا . وهو معنى « ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بعضٍ » أى بالحرب والقتل فى الفتنة؛ عن مجاهد . والآية عامّة فى المسلمين والكفار . وقيل : هى فى الكفار خاصّة . وقال الحسن : هى فى أهل الصلاة .

قلت : وهو الصحيح ؛ فإنه المشاهد فى الوجود ، فقد لبِسنا العدوّ فى ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا ، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا اموال بعض .

(١) آية ٣ سورة المطففين .

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . وعن الحسن أيضا أنه تأوّل ذلك فيما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم . روى مسلم عن ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله زَوَى[1] لِىَ الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها و إن أمتى سيبلغ مُلْكها ما زُوِىَ لِى منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض و إنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة وألا يسلّط عليهم عدوًّا مِن سِوَى أنفسهم فيستبيح بَيْضَتهم[2] و إن ربى قال يا محمد : إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ و إنى أعطيتك لأمتك ألّا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوّا من سِوَى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها — أو قال من بين أقطارها — حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً و يَسْبِى بعضهم بعضا " . وروى النسائىّ عن خَبّاب بن الأَرَتّ، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،أنه راقب رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلةَ كلّها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته جاءه خَبّاب فقال : يارسول الله ، بأبى أنت وأمّى ! لقد صليتَ الليلة صلاة ما رأيتك صلّيتَ نحوها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أجَلْ إنها صلاة رَغَب ورَهَب سألتُ الله عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة سألت ربى عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها وسألت ربى عز وجل ألا يُظهر علينا عدوًّا مِن غيرنا فأعطانيها وسألت ربى عز وجل ألا يُلبسنا شِيَعاً فمنعنيها " . وقد أتينا على هذه الأخبار فى كتاب (التذكرة) والحمد لله . وروى أنه لما نزلت هذه الآية قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ياجبريل ما بقاء أمتى على ذلك " ؟ فقال له جبريل : " إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسَلْه لأمتك " فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى وأحسن الصلاة ، ثم دعا فنزل جبريل وقال : " يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم" . فقال : "يا جبريل ما بقاء أمتى إذا كان فيهم أهواء مختلفة و يذيق بعضهم بأس بعض " ؟ فنزل جبريل بهذه الآية :

(١) زوى : جمع . (٢) أى مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقرّ دعوتهم .

« الۤمۤ. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا (١) » الآية. وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بوجه الله " فلما نزلت « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » قال : " هاتان أهون " . وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح : اللّهُمّ إني أسئلك العافية فى الدنيا والآخرة . اللّهُمّ إني أسئلك العفو والعافية فى ديني ودنياي وأهلي ومالي . اللّهم استر عوراتي وآمن رَوْعاتي واحفظني من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أُغتال من تحتي" . قال وكيع : يعني الخسْف.

قوله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي نبين لهم الحجج والدلالات . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يريد بطلان ما هم عليه من الشّرْك والمعاصي .

قوله تعالى : وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أي بالقرآن . وقرأ ابن أبي عَبْلة « وكذبت » بالتاء. ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أي القصص الحق . ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ قال الحسن : لست بحافظ أعمالكم حتى أجازيكم عليها ، إنما أنا مُنذر وقد بلّغت ؛ نظيره « وما أنا عليكم بحفيظ » أي أحفظ عليكم أعمالكم . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس بمنسوخ ، إذ لم يكن في وُسعه إيمانهم . ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ لكل خبرٍ حقيقة ، أي لكلّ شيء وقتٌ يقع فيه من غير تقدّم وتأخر. وقيل : أي لكل عمل جزاء . قال الحسن : هذا وعيد من الله تعالى للكفار؛ لأنهم كانوا لايُقِرّون بالبعث. الزجّاج : يجوز أن يكون وعيدا بما ينزل بهم في الدنيا. السُّدّي : استقر يوم بدر ما كان يَعِدُهم به من العذاب . وذكر الثَّعْلَبيّ أنه رأى في بعض التفاسير أن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع على السِّنّ .

(١) أوّل سورة العنكبوت .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والردّ والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ والخطاب مجرّد للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن المؤمنين داخلون فى الخطاب معه . وهو صحيح ؛ فإن العلّة سماع الخوض فى آيات الله ، وذلك يشملهم وإياه . وقيل : المراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ؛ لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم ، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك ؛ فأمر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءوا وخاضوا ليتأدّبوا بذلك ويدعُوا الخوض والاستهزاء . والخَوْض أصله فى الماء ، ثم استعمل بعدُ فى غَمَرات الأشياء التى هى مجاهل ، تشبيها بغَمَرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول . وقيل : هو مأخوذ من الخلط . وكل شيء خُضْتَه فقد خلطته ؛ ومنه خاض الماءَ بالعسل خلطه . فأدّب الله عز وجل نبيّه بهذه الآية . كان يقعد إلى قوم من المشركين يَعِظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن ؛ فأمره الله أن يُعرض عنهم إعراضَ مُنْكِر . ودلّ بهذا على ان الرجل إذا علم من الآخر منكراً وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يُعرض عنه إعراض منكر ولا يُقبل عليه . وروى شِبْل عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد فى قوله « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا » قال : هم الذين يستهزءون بكتاب الله ، نهاه الله عن أن يجلس معهم إلا أن ينسى فإذا ذَكَر قام . وروى وَرْقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد قال : هم الذين يقولون فى القرآن غير الحق .

الثانية — فى هذه الاية ردٌّ من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حُجَجٌ وأتباعهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تَقِيَّة (١) . وذكر الطبرىّ عن أبى جعفر

(١) التقية والتقاة بمعنى واحد . يريد أنهم يتقون بعضهم بعضا ويظهرون الصلح والاتفاق ، وباطنهم بخلاف ذلك .

محمد بن عليّ أنه قال : لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون فى آيات الله . قال ابن العربيّ : وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحلّ . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : مَن خاض فى آيات الله تُركت مجالسته وهُجِر، مؤمنا كان أو كافرا . قال : وكذلك منع أصحابُنا الدخولَ إلى أرض العدوّ ودخولَ كنائسهم والبِيَع، ومجالسةَ الكفار وأهلِ البِدَع، وألاّ تُعتقد مودّتهم ولا يُسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البِدع لأبى عِمران النَّخَعِيّ : اسمع منى كلمة ؛ فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة . ومثله عن أيّوب السَّخْتِيانيّ . وقال الفُضيل بن عِيَاض : من أحبّ صاحبَ بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوّج كريمته من مُبْتَدِع فقد قطع رَحِمَها، ومن جلس مع صاحب بِدْعة لم يُعط الحكمة، وإذا علم الله من رجل أنه مُبغِض لصاحب بِدْعة رَجَوْتُ أن يغفِر الله له . وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من وقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام". فبطل بهذا كلِّه قولُ مَن زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ ﴾ «إما» شرط، فيلزمها النون الثقيلة فى الأغلب وقد لا تلزم؛ كما قال :

إمّا يِصبْك عدوّ فى مناوأة * يوما فقد كنت تَستْعِلى وتنتصر

وقرأ ابن عباس وابن عامر «يُنَسِّينك» بتشديد السين على التكثير ؛ يقال : نَسَّى وأَنْسَى بمعنى واحد؛ قال الشاعر :

قالت سُليمى أَتَسْرِى اليوم أم تقل (١) * وقد يُنَسِّيك بعضَ الحاجة الكسلُ

وقال امرؤ القيس :

* ... تُنَسِّيني إذا قمت سِرْبَالِى (٢) *

(١) كذا فى الأصول، ولم نهتد لوجه الصواب فيه .

(٢) والبيت بتمامه كما فى اللسان :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة * لعوب تنسيني إذا قمت سربالى

ورواية اللسان «تناسانى» بدل «تنسينى» .

المعنى : يا محمد إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم بمجالستهم بعد النهى . ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى ﴾ أى إذا ذكرت فلا تقعد مع القوم الظالمين ، يعنى المشركين . والذكرى اسم للتذكير .

الثانيـة — قيل : هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان . وقيل : هو خاص به ، والنسيان جائز عليه . قال ابن العربيّ : وإن عذرنا أصحابنا فى [قولهم إن](١) قوله تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »(٢) خطاب للأمة باسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لاستحالة الشرك عليه ، فلا عذر لهم فى هذا لجواز النسيان عليه . قال عليه السلام : " نَسِيَ آدمُ فنَسِيت ذريّتُه " خرّجه الترمذيّ وصحّحه . وقال مخبرا عن نفسه : " إنما أنا بشر مثلكم أَنْسَى كما تَنْسَوْن فاذا نسيت فذكّرونى " . خرّجه فى الصحيح ، وأضاف النسيان إليه . وقال وقد سمع قراءة رجل : " لقد أذكرنى آيةَ كذا وكذا كنتُ أُنسيتها " .
واختلفوا بعد جواز النسيان عليه ؛ هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أم لا . فذهب إلى الأوّل — فيما ذكره القاضى عياض — عامّةُ العلماء والأئمةُ النُّظّار ، كما هو ظاهر القرآن والأحاديث ، لكن شرط الأئمة أن الله تعالى ينبّهه على ذلك ولا يُقرّه عليه . ثم اختلفوا هل من شرط التنبيه اتصالُه بالحادثة على الفَوْر ، وهو مذهب القاضى أبى بكر والأكثرِ من العلماء ، أو يجوز فى ذلك التراخى ما لم يَنْخَرِم عمره وينقطع تبليغه ، وإليه نحا أبو المَعَالِى . ومنعت طائفة من العلماء السَّهوَ عليه فى الأفعال البلاغية والعبادات الشرعيّة ؛ كما منعوه اتفاقا فى الأقوال البلاغية ، واعتذروا عن الظواهر الواردة فى ذلك ؛ وإليه مال الأستاذ أبو إسحاق . وشذّت الباطِنيّة وطائفةٌ من أرباب علم القلوب فقالوا : لا يجوز النسيان عليه ، وإنما يَنْسَى قصدًا ويتعمّد صورةَ النسيان ليَسُنّ . ونحا إلى هذا عظيم من أئمة التحقيق وهو أبو المظفر الإسفَرَايِنِى فى كتابه (الأوسط) وهو منحًى غير سَديد ، وجمعُ الضدّ مع الضدّ مستحيل بعيد .

قوله تعالى : وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

(١) الزيادة عن ابن العربى . (٢) آية ٦٥ سورة الزمر .

قال ابن عباس : لما نزل لا تقعدوا مع المشركين وهو المراد بقوله : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » قال المسلمون : لا يمكننا دخول المسجد والطواف ؛ فنزلت هذه الآية . ﴿ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ ﴾ أى فإن قعدوا يعنى المؤمنين فليذكّروهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الله فى ترك ما هم فيه . ثم قيل : نُسخ هذا بقوله : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »(١) . وإنما كانت الرُّخْصة قبل الفتح وكان الوقت وقت تَقِيّة . وأشار بقوله : « وقد نزّل عليكم فى الكتاب » الى قوله : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا » . قال القُشَيْرِىّ : والأظهر أن الآية ليست منسوخة . والمعنى : ما عليكم شىء من حساب المشركين، فعليكم بتذكيرهم و زجرهم فإن أبوْا فحسابهم على الله . و« ذِكْرَىٰ » فى موضع نصب على المصدر ، ويجوز أن تكون فى موضع رفع ؛ أى ولكن الذى يفعلونه ذكرى، أى ولكن عليهم ذكرى . قال الكِسائِىّ : المعنى ولكن هذه ذكرى .

قوله تعالى : وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

أى لا تعلّق قلبك بهم فإنهم أهل تعنُّت و إن كنت مأمورا بوَعْظهم . قال قَتادة : هذا منسوخ، نسخه « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(٢) . ومعنى ﴿ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ أى استهزاءً بالدّين الذى دعوتهم إليه . وقيل : استهزءوا بالدين الذى هم عليه فلم يعملوا به . والاستهزاء ليس مُسَوَّغًا فى دين . وقيل : « لعبا ولهوا » باطلا وفرحا، وقد تقدّم هذا(٣) . وجاء اللّعب مقدّما فى أربعة مواضع، وقد نُظمت :

(١) آية ١٤٠ سورة النساء . (٢) آية ٥ سورة التوبة .

(٣) فى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا ... » آية ٣٢ من هذه السورة .

إذا أتى لعب ولهـــو * وكم من موضع هو فى القرآن
نحرف فى الحديد وفى القتال * وفى الأنعام منها موضـعان

وقيـل : المراد بالدِّين هنا العيد . قال الكلبيّ : إن الله تعـالى جعل لكل قوم عيدا يعظمونه و يصلّون فيه لله تعالى ، وكلّ قوم آتخذوا عيدهم لعبا ولهوا إلا امة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم اتخذوه صلاة وذكرا وحضورا بالصدقة، مثل الجمعة والفطر والنحر .

قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى لم يعلموا إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالحساب . ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى تُرْتَهن وتُسـلم للهَلَكة ؛ عن مجاهد وقتادة والحسن وعِكْرمة والسُّـدّى . والإبسال : تسليم المرء للهلاك ؛ هـــذا المعروف فى اللغة . أَبْسـلتُ ولدى أرهنته ؛ قال عَوْف بن الأحوص آبن جعفر :

وإبسالِى بَنِيَّ بغـيرِ جُرْمٍ * بَعَوْناه ولا بِـدَمٍ مُرَاقِ

« بَعَوْناه » بالعين المهملة معناه جنيناه . والبَعْوُ الجناية . وكان حَمل عن غَنِيٍّ لبنى قُشـيرٍ دَمَ آبنى السَّجِفيّة[(١)] فقالوا : لا نرضى بك ؛ فرهنهم بنيه طلبا للصلح . وأنشد النابغة :

ونحن رَهنّا بالأُفاقـــة[(٢)] عامِرًا * بما كان فى الدَّرْدَاء رَهْنًا فأُبْسِلا

الدرداء : كتيبة كانت لهم . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ[(٣)] وَلَا شَفِيعٌ[(٤)] ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ الآية . العدل الفِدْية ، وقدتقدم فى « البقرة[(٥)] » . والحَميم المـاء الحارّ ؛ وفى التنزيل « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ[(٦)] » . « يَطُوفُونَ

(١) كذا فى اللسان وشرح القاموس . والذى فى صحاح الجوهرى ونسخ الأصل : « السحفية » بالحاء المهملة بدل الجيم . (٢) الأفاقة (كثمامة) : موضع بالبحرين قرب الكوفة . أو هو ماء لبنى يربوع .

(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٨٢ ، جـ ٤ ص ١٠٩ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٣ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية . (٥) راجع جـ ١ ص ٣٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٦) آية ١٩ سورة الحج .

«بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ»(١) . والآية منسوخة بآية القتال . وقيل : ليست بمنسوخة؛ لأن قوله : «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ» تهديد ، كقوله : «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا»(٢) . ومعناه لا تحزن عليهم ؛ فإنما عليك التبليغ والتذكير بإبسال النفوس . فمن أبسل فقد أسلم وارتُهن . وقيل : أصله التحريم، من قولهم : هذا بَسْلٌ عليك أي حرام؛ فكأنهم حُرِموا الجنة وحُرِّمت عليهم الجنة . قال الشاعر(٣) :

أجارتكم بَسْلٌ علينا مُحَرَّمٌ * وجارتنا حِلٌّ لكم وحَلِيلُها

والإبسال : التحريم .

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ أي ما لا ينفعنا إن دعوناه . ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه ؛ يريد الأصنام . ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى . وواحد الأعقاب عَقِب وهي مؤنثة ، تصغر عُقَيْبة . يقال : رجع فلان على عَقِبيه إذا أدبر . قال أبو عبيدة : يقال لمن رُدّ عن حاجته ولم يظفَر بها قد ردّ على عَقِبيه . وقال المبرد : معناه تُعقَّب بالشر بعد الخير . وأصله من العاقبة والعُقْبَى وهما ما كان تاليا

(١) آية ٤٤ سورة الرحمن . (٢) آية ٣ سورة الحجر . (٣) هو الأعشى كما في اللسان .

للشيء واجبا أن يتبعه ؛ ومنه « والعاقبة للتقين » . ومنه عَقِب الرِّجل . ومنه العقوبة لأنها تالية للذنب، وعنه تكون .

قوله تعالى : ﴿ كَٱلَّذِى ﴾ الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف . ﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ أى استغوته و زيّنت له هواه ودعته إليه . يقال : هَوَى يهْوِى إلى الشيء أسرع إليه . وقال الزجاج : هو من هَوِىَ يَهْوَى، مِن هَوَى النفس ؛ أى زيّن له الشيطان هواه . وقراءة الجماعة « استهوته » أى هوت به، على تأنيث الجماعة . وقرأ حمزة « استهواه الشياطين » على تذكير الجمع . وروى عن ابن مسعود « استهواه الشيطان » ، و روى عن الحسن، وهو كذلك فى حرف أُبَىّ . ومعنى « آئتنا » تابعنا . وفى قراءة عبد الله أيضا « يَدعُونه إلى الهُدَى بَيِّنًا » . وعن الحسن أيضا « استهوته الشياطون » . ﴿ حَيْرَانَ ﴾ نصب على الحال ، ولم ينصرف لأن أنثاه حَيْرَى كسكران وسكرى وغضبان وغضبى . والحَيْرانُ هو الذى لا يهتدى لجهة أمره . وقد حار يَحار حَيْرًا وحَيْرَة وحَيْرورة[(١)]، أى تردّد . وبه سُمِّى الماء المستنقَع الذى لا منفذ له حائرا ، والجمع حُورَان . والحائر الموضع يتحيّر فيه الماء . قال الشاعر :

تَخْطُو على بَرْدِيَّتَيْنِ غذاهما * غَدِقٌ بساحة حائرٍ يَعْبُوبُ[(٢)]

قال ابن عباس : أى مَثَل عابد الصنم مَثَل من دعاه الغُول فيتبعه فيُصبح وقد ألقته فى مَضَلّة ومَهْلَكة؛ فهو حائر فى تلك المَهَامه . وقال فى رواية أبى صالح : نزلتْ فى عبدالرحمن آبن أبى بكر الصدّيق ، كان يدعو أباه الى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام والمسلمون ؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾ فيأبَى . قال أبو عمر : أمّه أمّ رُومانَ بنت الحارث بن غَنْم الكنانيّة؛ فهو شقيق عائشة . وشَهِد عبدُ الرحمن بن أبى بكر بَدْرًا وأُحُدًا مع قومه كافرا ، ودَعَا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) لم نجد هذا المصدر فى كتب اللغة . وفى تفسير الفخر الرازى : « ... وزاد الفراء حيرانا وحيرورة » .
(٢) اليعبوب : الطويل .

قال : "متّعْني بنفسك" . ثم أسلم وحسُن إسلامه ، وصحب النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هُدْنَة الحُدَيْبِيَة . هذا قول أهل السِّيَر . قالوا : كان ٱسْمُه عبدَ الكعبة فغيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱسمَه عبد الرحمن ، وكان أسنَّ ولد أبى بكر . ويقال : إنه لم يدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم أربعةٌ ولاءً : أبٌ وبنوه إلا أبا قُحافة وابنَه أبا بكر وٱبنَه عبد الرحمن بن أبى بكر وابنَه أبا عتيق محمد بن عبد الرحمن . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ اللام لام كى ، أى أمرنا كى نسلم وبأن أقيموا الصلاة ؛ لأن حروف الإضافة يعطف بعضها على بعض . قال الفرّاء : المعنى أمرنا بأن نسلم ؛ لأن العرب تقول : أمرتك لتذهب، وبأن تذهب بمعنًى . قال النحاس : سمعت أبا الحسن بن كَيْسان يقول هى لام الخفض ، واللامات كلها ثلاث : لامُ خفضٍ ولامُ أمرٍ ولامُ توكيد، لا يخرج شىء عنها . والإسلام الإخلاص . وإقامة الصلاة الإتيان بها والدّوام عليها . ويجوز أن يكون « وأن أقيموا الصلاة » عطفًا على المعنى ، أى يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة ؛ لأن معنى ٱئتنا أنِ ٱئتنا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ابتداء وخبر وكذا ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى فهو الذى يجب أن يُعبد لا الأصنام . ومعنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بكلمة الحق . يعنى قوله « كُنْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى وٱذكر يوم يقول كن . أو ٱتقوا يوم يقول كن . أو قدِّر يوم يقول كن . وقيل : هو عطف على الهاء فى قوله « وٱتقوه » . قال الفراء : « كن فيكون » يقال : إنه للصُّور خاصّة ؛ أى ويوم يقول للصُّور كن فيكون . وقيل : المعنى فيكون جميع ما أراد من موت الناس وحياتهم . وعلى هذين التأويلين يكون ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر . وقيل : إن قوله تعالى : « قَوْلُه » رفعا بيكون ؛ أى فيكون ما يأمر به . و « الحَقُّ » من نعته . ويكون التمام على هذا « فيكون قوله الحق » . وقرأ ٱبن عامر

« فنكون » بالنون ، وهو إشارة إلى سرعة الحساب والبعث . وقد تقدّم فى « البقرة » القول فيه مستوفى[١] .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أى وله الملك يومَ ينفخ فى الصُّور . أو وله الحق يوم ينفخ فى الصور . وقيل : هو بدل من « يوم يقول » . والصُّور قَرْن من نُور يُنفخ فيه، النفخة الأولى للفَناء والثانية للإنشاء . وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم ؛ أى ينفخ فى صُوَر الموتى على ما نبيّنه . روى مُسْلم من حديث عبد الله بن عمرو "يوم يُنفخ فى الصُّور فلا يسمعه أحد إلا أصغى[٢] لِيتًا ورَفع لِيتًا[٣] — قال — وأوّل من يسمعه رجل يَلُوط[٤] حَوْض إبله — قال — فيَصْعَق ويَصْعَق الناسُ ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلُّ فتَنْبُت منه أجسادُ الناس ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون" وذكر الحديث. وكذا فى التنزيل « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى[٥] » ولم يقل فيها ؛ فعُلم أنه ليس جمع الصُّورة . والأمم مُجْمِعة على أن الذى يَنفخ فى الصُّور إسرافيلُ عليه السلام . قال أبو الهَيْثَم : من أنكر أن يكون الصُّور قَرْنا فهو كمن يُنكر العرش والميزان والصراط ، وطلب لها تأويلات . قال ابن فارس : الصُّور الذى فى الحديث كالقَرْن يُنْفَخ فيه . والصُّور جمع صُورة . وقال الجوهرى : الصُّور القَرْن . قال الراجز :

لقد نَطحناهم غَداةَ الجَمْعَيْنِ * نَطْحًا شديدًا لا كنطح الصُّوَرَيْنِ

ومنه قوله : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ[٦] » . قال الكَلْبِيّ : لا أدرى ما هو الصُّور . ويقال : هو جمع صُورة مثل بُسْرَة وبُسْر ؛ أى يُنفخ فى صُوَر الموتى الأرواح . وقرأ الحسن « يومَ يُنفخُ

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٩ طبعة ثانية . (٢) أصغى : أمال .
(٣) الليت (بكسر اللام) : صفحة العنق . (٤) أى يطينه و يصلحه .
(٥) آية ٦٨ سورة الزمر . (٦) آية ٨٧ سورة النمل .

فى الصُّوَر » . والصِّور (بكسر الصاد) لغة فى الصُّوَر جمع صُورة[(١)] والجمع صِوار، وصِيّار (بالياء) لغةٌ فيه . وقال عمرو بن عبيد : قرأ عِياض « يَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّوَر » فهذا يعنى به الخلق . والله أعلم .

قلت : وممن قال إن المراد بالصُّور فى هذه الآية جمع صُورة أبو عبيدة . وهذا و إن كان محتملا فهو مردود بما ذكرناه من الكتاب والسُّنّة . وأيضا لا ينفخ فى الصور للبعث مرتين؛ بل ينفخ فيه مرة واحدة؛ فإسرافيل عليه السلام يَنفخ فى الصُّور الذى هو القَرْن والله عز وجل يُحيي الصُّوَر .

قوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ برفع « عالم » صفة للذى؛ أى وهو الذى خلق السموات والأرض عالم الغيب . ويجوز أن يرتفع على إضمار المبتدأ . وقد رُوى عن بعضهم أنه قرأ « يَنْفُخ » فيجوز أن يكون الفاعل « عالِمُ الغَيْبِ »؛ لأنه إذا كان النفخ فيه بأمر الله عز وجل كان منسوبا إلى الله تعالى . ويجوز أن يكون ارتفع ﴿عَالِمُ﴾ حملا على المعنى؛ كما أنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يَزِيدُ[(٢)] ضارِعٌ لخصُومةٍ *

وقرأ الحسن والأعمش « عالِمِ » بالخفض على البدل من الهاء فى « له » .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) نقل المؤلف هنا ما فى الصحاح، وقد حذف منه ما جعل المراد غير واضح . وعبارة الصحاح : «... وقرأ الحسن (يوم ينفخ فى الصور) والصور بكسر الصاد لغة فى الصور جمع صورة . و ينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى :

أشبهن من بقر الخلصاء أعينها * وهن أحسن من صِيرانها صِورا

والصيران جمع صوار وهو القطيع من البقر . والصوار أيضا وعاء المسك؛ وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاح الصوار ذكرت ليلى * وأذكرها إذا نفخ الصوار

والصيار لغة فيه» .

(٢) هذا صدر بيت للحارث بن نهيك، وتمامه كما فى كتاب سيبويه :

* ومختبط مما تطيح الطوائح *

وصف أنه كان مقيا لحجة المظلوم ناصرا له . والمختبط : الطالب المعروف . وتطيح : تذهب وتهلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ تكلّم العلماء فى هذا ؛ فقال أبو بكر محمد ابن محمد بن الحسن الجُوَيْنِي الشافعيّ الأشعريّ فى النكت من التفسير له : وليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم تارَح . والذى فى القرآن يدلّ على أن ٱسمه آزر . وقيل : آزر عندهم ذَمٌّ فى لغتهم ؛ كأنه قال : وإذ قال لأبيه يامخطئ ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ وإذا كان كذلك فالاختيار الرفع . وقيل : آزر ٱسم صنم . وإذا كان كذلك فموضعه نصب على إضمار الفعل ؛ كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها ، أتتخذ أصناما آلهة .

قلت : ما ٱدعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق ؛ فقد قال محمد بن إسحاق والكلبيّ والضحاك : إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو تارَح ، مثل إسرائيل ويعقوب ؛ فيكون له اسمان كما تقدّم . وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارَح اسم ، وحكاه الثعلبيّ عن ابن إسحاق القُشَيْرِيّ . ويجوز أن يكون على العكس . قال الحسن : كان اسم أبيه آزر . وقال سليمان التَّيْميّ : هو سَبٌّ وعَيْب ، ومعناه فى كلامهم : المعوَجّ . وروى المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه قال : بلغنى أنها أعوج ، وهى أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه . وقال الضحّاك : معنى آزر الشيخ الهِمّ (١) بالفارسية . وقال الفرّاء : هى صفة ذَمٍّ بلغتهم ؛ كأنه قال يامخطئ ؛ فيمن رفعه . أو كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطئ ؛ فيمن خفض . ولا ينصرف لأنه على أفعل ؛ قاله النحاس . وقال الجوهرى : آزر ٱسم أعجمى ، وهو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاونه ؛ فهو مُؤازِرٌ قومَه على عبادة الأصنام . وقيل : هو مشتق من القوّة ، والأزر القوّة ؛ عن ابن فارس . وقال مجاهد ويمان : آزر ٱسم صنم . وهو فى هذا التأويل فى موضع نصب ، التقدير : أتتخذ آزر إلها ، أتتخذ أصناما . وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، التقدير : أتتخذ آزر أصناما .

قلت : فعلى هذا آزر ٱسم جنس . والله أعلم . وقال الثعلبيّ فى كتاب العرائس : إن اسم أبى إبراهيم الذى سمّاه به أبوه تارَح ، فلما صار مع النُّمْرود قَيِّمًا على خِزانة آلهتِه سمّاه آزر . وقال مجاهد : إن آزر ليس بٱسم أبيه وإنما هو اسم صنم . وهو إبراهيم بن تارَح بن ناخور بن ساروع

(١) الهم (بكسر الهاء) : الشيخ الفانى .

ابن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . و « آزر » فيه قراءات : « أإِزْرًا » بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ؛ عن ابن عباس . وعنه « أأزْرا » بهمزتين مفتوحتين . وقرئ بالرفع، وروى ذلك عن ابن عباس . وعلى القراءتين الأولتين عنه «تتخذ» بغير همزة . قال المهدوىّ : أإزرا . فقيل : إنه اسم صنم؛ فهو منصوب على تقدير أتتخذ إزرا ، وكذلك أأزرا . ويجوز أن يجعل أإزرًا على أنه مشتق من الأزر وهو الظهر فيكون مفعولا من أجله؛ كأنه قال : أللقوّة تتخذ أصناما . ويجوز أن يكون إزر بمعنى وِزر، أبدلت الواو همزة . قال القُشيرىّ : ذكر فى الاحتجاج على المشركين قصة إبراهيم وردّه على أبيه فى عبادة الأصنام . وأَوْلَى الناس بأتباع إبراهيم العرب؛ فإنهم ذريّته . أى واذكر إذ قال إبراهيم . أو ذَكّر به أن تُبسل نفس بما كسبت ، وذَكّر إذ قال إبراهيم . وقرئ « آزرُ » أى يا آزرُ، على النداء المفرد، وهى قراءة أُبَىّ ويعقوب وغيرهما . وهو يقوّى قول من يقول : إن آزر اسم أب إبراهيم . ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ مفعولان ، وفيه معنى الإنكار .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى مُلك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى الصفة . ومثله الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت والجبَروت . وقرأ أبو السّمّال العَدَوىّ « مَلْكوت » بإسكان اللام . ولا يجوز عند سيبويه حذف الفتحة لخفّتها ، ولعلها لغة . و ﴿ نُرِى ﴾ بمعنى أرينا ؛ بمعنى المُضِىّ . فقيل : أراد به ما فى السموات من عبادة الملائكة والعجائب وما فى الأرض من عصيان بنى آدم ؛ فكان يدعو على مَن يراه يَعصى فيُهلكه الله ، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أمسك عن عبادى، أما علمت أن من أسمائى الصَّبور . روى معناه علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأَرَضين . وروى ابن جُريج عن القاسم عن إبراهيم النَّخَعِىّ قال : فُرجت له

السموات السبع فنظر إليهنّ حتى انتهى إلى العرش ، وفُرجت له الأرضون فنظر إليهنّ ، ورأى مكانه فى الجنة ؛ فذلك قوله : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا »(١) ؛ عن السُّدّى . وقال الضحّاك : أراه من ملكوت السماء ما قصّه من الكواكب ، ومن ملكوت الأرض البحارَ والجبالَ والأشجارَ ، ونحو ذلك مما استدلّ به . وقال بنحوه ابن عباس . وقال : جُعل حين وُلد فى سَرَب(٢) وجُعل رزقه فى أطراف أصابعه فكان يَمَصُّها ، وكان نُمْرود اللعين رأى رؤيا فعُبِّرت له أنه يذهب ملكه على يدَىْ مولود يُولد ؛ فأمر بعزل الرجال عن النساء . وقيل : أمر بقتل كل مولود ذكر . وكان آزر من المقرَّبين عند نُمْرود فأرسله يوما فى بعض حوائجه فواقع امرأته فحملت بإبراهيم . وقيل : بل واقعها فى بيت الأصنام فحملت وخرّت الأصنام على وجوهها حينئذ ؛ فحملها إلى بعض الشِّعاب حتى ولدت إبراهيم ، وحفر لإبراهيم سَرَباً فى الأرض ووَضع على بابه صخرة لئلا تفترسه السباع ؛ وكانت أمّه تختلف إليه فتُرضعه ، وكانت تجده يَمَصّ أصابعه ، من أحدها عسل ومن الآخر ماء ومن الآخر لبن ، وشَبّ وكان على سَنة مثل ابن ثلاث سنين . فلما أخرجه من السَّرَب توهّمه الناس أنه وُلد منذ سنين ؛ فقال لأمّه : مَن ربّى ؟ فقالت أنا . فقال : ومَن ربّك ؟ قالت أبوك . قال : ومَن ربّه ؟ قالت نُمرود . قال : ومَن ربه ؟ فلطَمَته ، وعلمت أنه الذى يَذهب مُلْكُهم على يديه . والقَصص فى هذا تامٌّ فى قِصص الأنبياء للكسائى ، وهو كتاب مما يُقتدى به . قال بعضهم : كان مولده بحرّان ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل . وقال عامّة السَّلَف من أهل العلم : وُلد إبراهيم فى زمن النمرود بن كنعان بن سنجاريب بن كوش بن سام بن نوح . وقد مضى ذكره فى « البقرة »(٣) . وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم ألف ومائتا سنة وثلاث وستون سنة؛ وذلك بعد خلق آدم بثلاث آلاف سنة وثلاثمائة سنة وثلاثين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أى وليكون من الموقنين أريناه ذلك ؛ أى الملكوت .

(١) آية ٢٧ سورة العنكبوت . (٢) السرب (بالتحريك) : حفير أو بيت تحت الأرض .
(٣) راجع ج ٣ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أى ستره بظلمته ، ومنه الجَنّة والجِنّة والجُنّة والجَنين والمِجَنّ والجنّ كلّه بمعنى السّتر . وجَنان الليل آدلهامُه وستره . قال الشاعر[1] :

ولولا جَنانُ الليل أدركَ رَكْضُنَا * بِذِى الرِّمْثِ والأَرْطَى[2] عِيَاضَ بنَ ناشِبِ

ويقال : جُنون الليل أيضا . ويقال : جَنّ الليل وأجَنّه الليلُ، لغتان . ﴿ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ هذه قصّة أخرى غير قصّة عرض المَلَكوت عليه . فقيل : رأى ذلك من شَقّ الصخرة الموضوعة على رأس السَّرَب . وقيل : لما أخرجه أبوه من السَّرَب وكان وقت غيبوبة الشمسِ فرأى الإبلَ والخيلَ والغنم فقال : لابدّ لها من رَبّ. ورأى المُشْتَرِى أو الزُّهَرة ثم القمرَ ثم الشمس، وكان هذا فى آخر الشهر . قال محمد بن إسحاق : وكان آبنَ خمسَ عشرة سنة . وقيل : آبن سبع سنين . وقيل : لما حاجّ نمرودا كان آبن سبع عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّى ﴾ اختُلف فى معناه على أقوال؛ فقيل : كان هذا منه فى مُهْلة النظر وحال الطُفُولِيّة وقبل قيام الحجة؛ وفى تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان . استدلّ قائلو هذه المقالة بما روى علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : « فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى» فعبده حتى غاب عنه، وكذلك الشمس والقمر؛ فلما تمّ نظره قال : « إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » . واستدلّ بالأفول؛ لأنه أظهرُ الآيات على الحدوث . وقال قوم : هذا لا يصحّ؛ وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسولٌ يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله مُوَحّد وبه عارف، ومِن كل معبود سواه برىء . قالوا : وكيف يصحّ أن يتوهّم هذا على مَن عصمه الله وأتاه رُشده من قبل، وأراه مَلكوته ليكون من المُوقنين ، ولا يجوز

---

(١) هو دريد بن الصمة ، وقيل : هو خفاف بن ندبة (عن اللسان) . (٢) الرمث (بالكسر) : مرعى من مراعى الإبل ، واسم واد لبنى أسد . والأرطى (جمع أرطاة) : شجر ينبت بالرمل .

أن يُوصف بالخُلُوّ عن المعرفة ، بل عرف الربَّ أوّلَ النظر . قال الزجاج : هذا الجواب عندى خطأ وغلط ممن قاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : «وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ»(١) وقال جل وعز : «بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»(٢) أى لم يُشرك قطّ . قال : والجواب عندى أنه قال «هَٰذَا رَبِّى» على قولكم ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ؛ ونظير هذا قوله تعالى : «أَيْنَ شُرَكَائِىَ»(٣) وهو جل وعلا واحدٌ لا شريك له . والمعنى : أين شركائى على قولكم . وقيل : لما خرج إبراهيم من السَّرَب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربّه ؛ فظن أنه ضوءه قال «هذا ربّى» أى بأنه يتراءى لى نوره . (فَلَمَّا أَفَلَ) علم أنه ليس بربّه . «فلما رأى القمر بازغا» ونظر إلى ضوئه «قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى» وليس هذا شركا . إنما نسب ذلك الضوءَ إلى ربّه فلما رآه زائلا دلّه العلم على أنه غير مستحقّ لذلك ؛ فنفاه بقلبه وعلم أنه مَرْبُوب وليس بربّ . وقيل : إنما قال «هذا ربّى» لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم ؛ فلما أَفَلَ النَّجم قرّر الحجة وقال : ما تغيّر لا يجوز أن يكون ربًّا . وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا ما صحّ عن ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل : «نُورٌ عَلَى نُورٍ»(٤) قال : كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدلّ عليه بقلبه ، فإذا عرفه آزداد نورا على نور ؛ وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدلّ عليه بدلائله ، فعلم أن له ربًّا وخالقا . فلما عرّفه الله عز وجل بنفسه آزداد معرفة فقال : «أَتُحَاجُّونِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ» . وقيل : هو على معنى الاستفهام والتوبيخ ، مُنْكِرا لفعلهم . والمعنى : أهذا ربّى ، ومثل هذا يكون ربًّا ! فحذف الهمزة . وفى التنزيل «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»(٥) أى أفهم . وقال الهُذَلِىّ(٦) :

رَفَوْنِى وقالوا يا خُوَيْلِدُ لَا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

---

(١) آية ٣٥ سورة ابراهيم . (٢) آية ٨٤ سورة الصافات . (٣) آية ٢٧ سورة النحل .
(٤) آية ٣٥ سورة النور . (٥) آية ٣٤ سورة الأنبياء . (٦) هو أبو خراش .

آخر :[١]

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإن كنتُ داريًا * بسبع رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثمانِ

وقيل: المعنى هذا ربي على زعمكم؛ كما قال تعالى: «أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ»[٢]. وقال: «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ»[٣] أى عند نفسك. وقيل: المعنى أى وأنتم تقولون هذا ربّى؛ فأضمر القول، وإضماره فى القرآن كثير. وقيل: المعنى هذا ربى؛ أى أهذا دليل على ربّى.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أى طالعا. يقال: بَزَغ القمر إذا ابتدأ فى الطلوع، والبَزْغ الشق؛ كأنه يشق بنوره الظلمة؛ ومنه بَزَغ البَيْطار الدابة إذا أسال دمها. ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ أى لئن لم يُثَبِّتنى على الهداية. وقد كان مهتديا؛ فيكون جرى هذا فى مُهلة النظر، أو سأل التثبيت لمكان الجواز العقلىّ؛ كما قال شعيب: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ»[٤]. وفى التنزيل «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» أى ثبّتنا على الهداية. وقد تقدّم.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ نصب على الحال؛ لأن هذا من رؤية العين. بَزَغ يَبْزُغ بزوغا إذا طلع. وأفَل يأفِل أفولا إذا غاب. وقال: «هذا» والشمس مؤنثة؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾. فقيل: إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعِظمها؛ فهو كقولهم: رَجل نَسّابة وعلّامة. وإنما قال: «هَذَا رَبِّى» على معنى: هذا الطالِعُ رَبِّى؛ قاله الكسائىّ

(١) هو عمر بن أبى ربيعة.	(٢) آية ٦٢ سورة القصص.	(٣) آية ٤٩ سورة الدخان.
(٤) آية ٨٩ سورة الأعراف.

والأخفش . وقال غيرهما : أى هـذا الضوء . قال أبو الحسن علىّ بن سليمان : أى هـذا الشخص؛ كما قال الأعشى :

قامت تبكيـه على قـبره * من لِىَ مِن بعدِك يا عامرُ
تركتَنِى فى الدار ذا غُرْبَةٍ (١) * قد ذَلّ من ليس له ناصرُ

قوله تعالى : إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ أى قصدت بعبادتى وتوحيـدى لله عز وجل وحدَه . وذكر الوجه لأنه أظهـر ما يُعـرف به صاحبه . ﴿ حَنِيفًـا ﴾ مائلا إلى الحـق . ﴿ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ اسم «ما» وخبرها . وإذا وقفت قلت : «أنا» زدت الألف لبيان الحركة، وهى اللغـة الفصيحة . وقال الأخفش : ومن العرب من يقول : « أَنْ » . وقال الكسائى : ومن العرب من يقول : «أنه» . ثلاث لغات . وفى الوصل أيضا ثلاث لغات: أن تحذف الألف فى الإدراج ؛ لأنها زائدة لبيان الحركة فى الوقف . ومن العرب من يثبت الألف فى الوصل؛ كما قال الشاعر :

* أنا سَيْف العشيرة فاعرفونى (٢) *

وهى لغة بعض بنى قيس وربيعة؛ عن الفرّاء . ومن العرب من يقول فى الوصل : آن فعلت، مثل عان فعلت؛ حكاه الكسائى عن بعض قُضَاعة .

قوله تعـالى : وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾

(١) الشاهد فيه قوله : « ذا غربة » أى ذات غربة .

(٢) هذا صدر بيت ، وعجزه كما فى اللسان مادة أنن : * حميدا قد تذريت السناما *

قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ دليلٌ على الحِجَاج والجدال ؛ حاجُّوه فى توحيد الله . ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ ﴾ قرأ نافع بتخفيف النون، وشدّد النونَ الباقون . وفيه عن ابن عامر من رواية هشام عنه خلاف؛ فمن شدّد قال : الأصل فيه نونان، الأولى علامة الرفع والثانية فاصلة بين الفعل والياء ؛ فلما اجتمع مِثلان فى فعل وذلك ثقيل أدغم النون فى الأخرى فوقع التشديد، ولابدّ من مدّ الواو لئلا يلتقِىَ الساكنان، الواو وأوّلُ المشدّد؛ فصارت المدّةُ فاصلةً بين الساكنين . ومن خفّف حذف النونَ الثانية استخفافا لاجتماع المِثلين، ولم تُحذف الأولى لأنها علامةُ الرفع ؛ فلو حُذفت لاشتبه المرفوع بالمجزوم والمنصوب . وحُكى عن أبى عمرو ابن العَلَاء أن هذه القراءة لَحْنٌ . وأجاز سيبويه ذلك فقال : استثقلوا التضعيف؛ وأنشد :

تراه كالثَّغام يُعَلُّ مِسْكًا * يَسوء الفالياتِ إذا فَلَيْنِى (١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أى لأنه لا ينفع ولا يضر — وكانوا خوّفوه بكثرة آلهتهم — إلا أن يُحيِيَه ويقدّره فيخاف ضرره حينئذ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا ﴾ أى إلا أن يشاء أن يلحقنى شىء من المكروه بذنب عمِلتُه فتتمّ مشيئته . وهذا استثناء ليس من الأوّل . والهاء فى « بِهِ » يجوز أن تكون لله عز وجل ، ويجوز أن تكون للعبود . وقال : « إلّا أن يشاء ربّى » يعنى أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم . ثم قال : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أى وسع علمه كل شىء . وقد تقدّم (٢) .

قوله تعالى : وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب ، وصف شعره وأن الشيب قد شمله . والثغام : نبت له نور أبيض يشبه به الشيب . ويعل : يطيب شيئا بعد شىء ؛ والعلل : الشرب بعد الشرب .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٨٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ ففى «كيف» معنى الإنكار، أنكر عليهم تخويفهم إياه بالأصنام وهم لايخافون الله عزوجل؛ أى كيف أخاف مواتا وأنتم لاتخافون الله القادر على كل شىء. ﴿مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أى حجة، وقد تقدم.(١) ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أى من عذاب الله : الموحِّد أم المشرك ؛ فقال الله قاضيًا بينهم : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أى بشرك ؛ قاله أبو بكر الصدّيق وعلىّ وسلْمان وحُذيفة، رضى الله عنهم. وقال ابن عباس : هو من قول إبراهيم ؛ كما يسأل العالِمُ ويجيب نفسه. وقيل : هو من قول إبراهيم ؛ أى أجابوا بما هو حجة عليهم ؛ قاله ابن جُريج . وفى الصحيح عن ابن مسعود لما نزلت « الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ» شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى فى الدنيا .

قوله تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة . وقال مجاهد : هى قوله «الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْم» . وقيل: حجته عليهم أنهم لما قالوا له : أما تخاف أن تَخْبِلك آلهتُنا لسبِّك إياها ؛ قال لهم : أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير فى العبادة والتعظيم ؛ فيغضب الكبير فيَخْبِلكم . ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ أى بالعلم والفهم والإمامة والملك . وقرأ الكوفيون « درجاتٍ » بالتنوين . ومثله فى «يوسف» أوقعوا الفعل على «مَن» لأنه المرفوع فى الحقيقة، التقدير: ونرفع من نشاء إلى درجات . ثم حذفت إلى . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو بغير تنوين على الإضافة، والفعل واقع على الدرجات ، وإذا رُفعت فقد رُفع صاحبها . يقوّى هذه القراءة قوله تعالى :

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

«رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» وقوله عليه السلام "اللّهمّ ارفع درجته" . فأضاف الرفع إلى الدرجات . وهو لا إله إلا هو الرفيع المتعال فى شرفه وفضله . فالقراءتان متقاربتان؛ لأن من رُفعت درجاته فقد رُفع، ومن رُفع فقد رُفعت درجاته ، فاعلم . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ يضع كل شئ موضعه .

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى جزاء له على الاحتجاج فى الدّين وبذل النفس فيه . ﴿ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ أى كل واحد منهم مهتد . ﴿ وَكُلًّا ﴾ نصب بهدينا ﴿ وَنُوحًا ﴾ نصب بهدينا الثانى . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أى من ذرّية إبراهيم . وقيل : من ذرية نوح؛ قاله الفرّاء واختاره الطَّبَرِى وغيرُ واحد من المفسرين كالقُشَيرِى وابن عطية وغيرهما . والأول قاله الزجاج ، واعترض بأنه عدّ من الذرّية يونس ولوطا وما كان من ذرّية إبراهيم . وكان لوط ابن أخيه . وقيل : ابن أخته . وقال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء جميعا مضافون إلى ذرّية إبراهيم ، وإن كان فيهم مَن لم يلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أم؛ لأن لوطا ابن أخى إبراهيم . والعرب تجعل العمّ أبا كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا : « نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ » . وإسماعيل عمّ يعقوب . وعدّ عيسى من ذرّية إبراهيم وإنما هو ابن البنت . فأولاد فاطمة رضى الله عنها ذرّية النبىّ صلى الله عليه وسلم . وبهذا تمسّك من رأى أن ولد البنات يدخلون فى اسم الولد وهى : —

الثانيـــة ــ قال أبو حنيفة والشافعيّ : من وَقف وقفًا على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده وولد بنـاته ما تناسلوا . وكذلك إذا أوصى لقرابتـه يدخل فيـه ولد البنت . والقرابة عنـد أبي حنيفة كلُّ ذى رَحِم مَحْرَم . ويسقط عنـده آبن العمّ والعَمّـة وابنُ الخال والخالة ؛ لأنهم ليسوا بمَحْرَمين . وقال الشافعيّ : القرابة كلّ ذى رَحم مَحْرَم وغيره . فلم يسقط عنـده ابن العمّ ولا غيره . وقال مالك : لا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقوله : لقرابتى وعقبى كقوله لولدى وولد ولدى . يدخل فى ذلك ولد البنين ومن يرجع إلى عَصَبـة الأب وصُلْبه، ولا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقد تقدّم نحو هذا عن الشافعيّ فى «آل عمران»(١) . والحجة لهما قوله سبحانه : « يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ »(٢) فلم يَعقِل المسلمون من ظاهر الآية إلا ولدَ الصُّلْب و ولد الآبن خاصّـةً . وقال تعالى : « وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى »(٣) فأعطى عليه السلام القرابة منهم من أعمامه دون بنى أخواله . فكذلك ولد البنات لا ينتمون إليه بالنسب، ولا يلتقون معـه فى أب . قال ابن القصّار : وحجة من أدخل البنات فى الأقارب قولُه عليـه السلام للحسن بن علىّ " إن آبنى هذا سيّد " . ولا نعلم أحدا يمتنع أن يقول فى ولد البنات إنهم ولد لأبى أمّهم . والمعنى يقتضى ذلك ؛ لأن الولد مشتق من التولد وهم متولدون عن أبى أمّهم لا محالة ؛ والتولّد من جهة الأمّ كالتولّد من جهة الأب . وقد دلّ القرآن على ذلك ، قال الله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فجعل عيسى من ذرّيته وهو آبن آبنته .

الثالثـــة ــ قد تقدّم فى « النساء »(٤) بيان ما لا ينصرف من هذه الأسماء . ولم ينصرف داود لأنه آسم أعجمىّ، ولمّـا كان على فاعول لا يحسُن فيه الألف واللام لم ينصرف. و إلياس أعجمىّ. قال الضحاك : كان إلياس من ولد إسماعيل . وذكر القُتَبِيّ قال : كان من سِـبط يُوشع بن نون . وقرأ الأعرج والحسن وقَتـادة « وآلياس » بوصـل الألف . وقرأ أهل

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٠٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١١ سورة النساء .
(٣) آية ٤١ سورة الأنفال . (٤) فى قوله تعالى : « إنا أوحينا اليك ... » آية ١٦٣ .

الحَرَمين وأبو عمرو وعاصم «والْيَسع» بلام مخففة . وقرأ الكوفيون إلا عاصما « واللَّيْسع » . وكذا قرأ الكسائيّ، وردّ قراءة من قرأ «والْيَسع» . قال : لأنه لا يقال اليَفْعَل مثل الْيَحْيَي . قال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم، والعرب تقول : الْيَعْمَل والْيَحْمَد، ولو نكّرت يحيي لقلت اليحيي . وردّ أبو حاتم على من قرأ « اللَّيْسع » وقال : لا يوجد لَيْسَــع . وقال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم، فقد جاء في كلام العرب حَيْدَر وزَيْنب، والحقّ في هذا أنه آسم أعجميّ، والعُجْمة لا تؤخذ بالقياس إنما تؤخذ سماعا والعرب تغيّرها كثيرا ، فلا ينكر أن يأتى الاسم بلغتين . قال مَكّيّ : من قرأ بلامين فأصــل الاسم لَيْسَع، ثم دخلت الألف واللام للتعريف . ولو كان أصله يسع ما دخلته الألف واللام؛ إذ لا يدخلان على يزيد ويشكر ، اسمين لرجلين؛ لأنهما معرفتان علمــان . فأما « ليسع » نكرة فتدخله الألف واللام للتعريف، والقراءة بلام واحدة أحبّ إليّ ؛ لأن أكثر القراء عليه . وقال المَهْدَوِيّ : من قرأ « ليسع » بلام واحدة فالأسم يسع، ودخلت الألف واللام زائدتين، كزيادتهما في نحو الخمسة عشر، وفي نحو قوله :

وجدنا اليَزِيدَ بنَ الوليد مباركًا ❊ شديدا بأعباء الخلافة كاهِلُهْ[1]

وقد زادوها في الفعل المضارع نحو قوله :

فيستخرِجَ اليَرْبُوعَ من نافقائه ❊ ومن بيته ذو الشِّيخة الْيَتقصعُ[2]

يريد الذى يتقصّع . قال القُشيرِيّ : قرئ بتخفيف اللام والتشديد . والمعنى واحد في أنه آسم لنبيّ معروف؛ مثل إسماعيل وإبراهيم، ولكن خرج عما عليه الأسماء الأعجمية بإدخال الألف واللام . وتوهّم قوم أن اليسع إلياس، وليس كذلك؛ لأن الله أفرد كل واحد بالذّكر . وقال وهب : اليسع صاحب إلياس، وكانا قبل زكريا ويحيي وعيسى . وقيل : إلياس هو إدريس جدّ نوح وإلياس من ذرّيته . وقيل : إلياس هو الخضر . وقيل : لا، بل الْيَسع هو الخضر . « ولوطا » أعجميّ انصرف لخفّته . وسيأتى اشتقاقه في « الأعراف »[3] .

---

(١) البيت لابن ميادة .
(٢) البيت لذى الخرق الطهوى؛ كما في شرح القاموس . النفقة والنافقاء : جحر الضب واليربوع . وقيل موضع يرققه اليربوع من جحره ، فاذا أتى من قبل القاصعاء (وهو جحره) ضرب النافقاء برأسه فخرج .
(٣) آية ٨٠ .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ «من» للتبعيض، أى هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم. ﴿وَٱجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ قال مجاهد: خلّصناهم، وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم، مشتق من جبيت الماء فى الحوض جمعته. فالاجتباء ضم الذى تجتبيه إلى خاصتك. قال الكسائى: جبيت المـاء فى الحوض جبا، مقصور. والجابية الحوض. قال :

* بجَابِيَةِ الشَّيخِ العِرَاقِيِّ تَفْهَق [1]

وقد تقدّم معنى الاصطفاء والهداية [2].

قوله تعالى : ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أى لو عبدوا غيرى لحبطت أعمالهم، ولكنى عصمتهم. والحبوط البطلان. وقد تقدّم فى « البقرة » [3].

قوله تعالى : أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ ابتداء وخبر. ﴿والحكم﴾ العلم والفقه. ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أى بآياتنا. ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أى كفار عصرك يا محمد. ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ جواب الشرط؛ أى وكّلنا بالإيمان بها ﴿قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يريد

(١) هذا عجز بيت للأعشى، وصدره كما فى اللسان : * تروح على آل المحلق جفنة * الجفنة : القصعة. والفهق : الامتلاء.

(٢) راجع جـ ١ ص ١٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة. وجـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية. ولم يتقدّم للاصطفاء ذكر فى هذه الآية، غير أنه ورد فى آية ١٣٠ سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٢

(٣) راجع جـ ٣ ص ٤٦ طبعة أولى أو ثانية.

الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة . وقال قتادة : يعنى النبيّين الذين قصّ الله عز وجل . قال النحاس : وهذا القول أشبه بالمعنى؛ لأنه قال بعدُ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » . وقال أبو رجاء : هم الملائكة . وقيل : هو عام فى كل مؤمن من الجن والإنس والملائكة . والباء فى « بكافرين » زائدة للتأكيد .

قوله تعالى : أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ الاقتداء طلب موافقة الغير فى فعله . فقيل : المعنى اصبر كما صبروا . وقيل : معنى ﴿ فبهداهم ٱقْتَدِهْ ﴾ التوحيد والشرائع مختلفة . وقد احتجّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص ؛ كما فى صحيح مُسْلم وغيره : أن أخت الرُّبَيِّع (١) أمّ حارثة جرحت إنسانا فاختصموا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القصاصَ القصاصَ " فقالت أمّ الرَّبِيع : يارسول الله ، أيقتصّ من فلانة ! والله لا يقتص منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله يا أمّ الرَّبيع القصاصُ كتاب الله " . قالت : والله لا يقتص منها أبدا . قال : فما زالت حتى قَبلوا الدِّية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبَرّه " . فأحال رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوله : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » (٢) الآية . وليس فى كتاب الله تعالى نصّ على القصاص فى السنّ إلا فى هذه الآية ؛ وهى خبر عن شرع التوراة ومع ذلك فحكم بها وأحال عليها . و إلى هذا ذهب مُعْظَم أصحاب مالك وأصحاب الشافعىّ ، وأنه يجب العمل بما وجد منها . قال ابن بكير : وهو الذى تقتضيه أصول مالك .

(١) الربيع : بضم الراء وفتح الموحدة وتشديد التحتية المكسورة بعدها عين مهملة . أما أم الربيع فهى بفتح الراء وكسر الموحدة وتخفيف الياء . راجع شرح النووى على صحيح مسلم باب « اثبات القصاص فى الأسنان وما فى معناها » ففيه كلام طويل عن هذه القصة .		(٢) آية ٤٥ سورة المائدة .

وخالف فى ذلك كثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعى والمعتزلة ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا(١) » . وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل التقييد إلا فيما قصّ عليكم من الأخبار عنهم مما لم يأت فى كتابكم . وفى صحيح البخارى عن العوّام قال : سألت مجاهدا عن سجدة « ص » فقال : سألت ابن عباس عن سجدة « ص » فقال : أوَ تقرأ « وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ » إلى قوله « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » وكان داود عليه السلام ممن أمر نبيكم عليه السلام بالاقتداء به .

الثانيـــة — قرأ حمزة والكسائى «اقتد قل» بغير هاء فى الوصل . وقرأ ابن عامر « اقْتَدِهِي قُلْ » . قال النحاس : وهذا لحنٌ؛ لأن الهاء لبيان الحركة فى الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء، وكذلك أيضا لا يجوز «فبهداهم اقتد قل» . ومن اجتنب اللحن واتبع السواد قرأ « فبهداهم اقتدهْ » فوقف ولم يصل ؛ لأنه إن وصل بالهاء لحن وإن حذفها خالف السّواد . وقرأ الجمهور بالهاء فى الوصل على نية الوقف وعلى نية الإدراج اتباعا لثباتها فى الخطّ . وقرأ ابن عيّاش وهشام « اقتـدِهِ قُلْ » بكسر الهـاء، وهو غلط لا يجوز فى العربيـــة .

قوله تعالى : ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى جُعْلًا على القرآن . ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى القرآن. ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ أى هو موعظة للخلق . وأضاف الهداية اليهم فقال : «فبهداهم اقتده» لوقع الهداية بهم . وقال : ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ لأنه الخالق للهداية .

قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

(١) آية ٤٨ سورة المائدة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى فيما وجب له واستحال عليه وجاز . قال ابن عباس : ما آمنوا أنه على كل شىء قدير . وقال الحسن : ما عظّموه حقّ عظمته . وهذا يكون من قولهم : لفلان قَدر . وشرحُ هذا أنهم لما قالوا : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » نسَبوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح؛ فلم يعظّموه حقّ عظمته ولا عرفوه حقّ معرفته . وقال أبو عبيدة : أى ما عرفوا الله حقّ معرفته . قال النحاس: وهذا معنى حسن؛لأن معنى قدَرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره. ويدلّ عليه قوله تعالى: « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » أى لم يعرفوه حق معرفته؛ إذا أنكروا أن يرسل رسولا . والمعنيان متقاربان . وقد قيل : وما قدروا نِعمَ الله حق تقديرها . وقرأ أبو حَيْوَة « وما قدروا الله حق قدَره » بفتح الدال، وهى لغة .

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى مشركى قريش . وقال الحسن وسعيد بن جبير : الذى قاله أحد اليهود ، قال : لم يُنزل الله كتابا من السماء . قال السُّدّى : اسمه فنحاص . وعن سعيد بن جُبير أيضا قال : هو مالك بن الصَّيف، جاء يخاصم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أَنْشُدُك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحَبْر السَّمِين" ؟ وكان حبرا سمينا . فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شىء . فقال له أصحابه الذين معه : ويحك ! ولا على موسى؟ فقال : والله ما أنزل الله على بَشر من شىء ؛ فنزلت الاية . ثم قال نقضا لقولهم وردًّا عليهم : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ — أى فى قراطيس — يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ هذا لليهود الذين أخفَوْا صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرها من الأحكام . وقال مجاهد : قوله « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » خطاب للشركين، وقوله « يجعلونه قراطيس » لليهود « وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ » للسلمين . وهذا يصحّ على قراءة من قرأ « يجعلونه قراطيس يبدونها و يخفون » بالياء . والوجه على قراءة التاء أن يكون كله لليهود، ويكون معنى « وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا »

أى وعلّمتم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة . وجعلت التوراة صُحُفًا فلذلك قال « قراطيس يبدونها » أى القراطيس . وهـذا ذمّ لهم ، ولذلك كره العلماء كَتْب القرآن أجزاء . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أى قـل يا محمد الله أنزل ذلك الكتاب على موسى وهذا الكتاب علىّ . أو قل الله علمكم الكتاب . ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى لاعبين ، ولو كان جوابا للأمر لقال يلعبوا . ومعنى الكلام التهديد . وقيل : هو من المنسوخ بالقتال ، ثم قيل : « يجعلونه » فى موضع الصفة لقوله « نُورًا وَهُـدًى » فيكون فى الصلة . ويحتمل أن يكون مستأنفا ، والتقدير : يجعلونه ذا قراطيس . وقوله « تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كثيرا » يحتمل أن يكون صـفة لقراطيس ؛ لأن النكرة توصف بالجمل . ويحتمل أن يكون مستأنفا حسب ما تقـدّم .

قوله تعـالى : وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَـدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَـا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ صفة . ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أى بُورك فيه ، والبركة الزيادة . ويجوز نصبه فى غير القرآن على الحال . وكذا ﴿ مُصَـدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب المنزلة قبله ، فإنه يوافقها فى نفى الشرك وإثبات التوحيد . ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يريد مكة — وقد تقدّم معنى تسميتها بذلك[1] — والمراد أهلها ، فحذف المضاف ؛ أى أنزلناه للبركة والإنذار . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى جميع الآفاق . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يريد أتباع محمد عليه السلام ؛ بدليل قوله : ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وإيمـان من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالنبىّ عليه السلام ولا بكتابه غير معتدّ به .

(١) راجع جـ ٤ ص ١٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر، أى لا أحد أظلم . ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أى آختلق . ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ فزعم أنه نبيّ ﴿ولم يُوحَ إليه شيء﴾ . نزلت فى رحمان اليمامة والأسود العَنْسيّ وسَجَاح زوج مسيْلِمَة ، كلّهم تنبأ وزعم أن الله قد أُوحى إليه . قال قتادة : بلغنا أن الله أنزل هذا فى مسيْلِمة، وقاله ابن عباس .

قلت : ومن هـذا النَّمَط من أعرض عن الفقه والسُّنَن وما كان عليه السلف من السنن فيقول : وقع فى خاطرى كذا، أو أخبرنى قلبى بكذا ، فيحكمون بما يقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوّها عن الأغيار ، فتتجلّى لهم العلوم الإلٰهية والحقائق الربّانية، فيقفون على أسرار الكليّات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتُون، ويستدلّون على هذا بالخَضِر، وأنه استغنى بما تجلّى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ؛ فإنه يلزم منه هـدّ الأحكام وإثبات أنبياء بعـد نبيّنا عليه السلام . وسيأتى لهذا المعنى فى «الكهف» مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ « مَن » فى موضع خفض ؛ أى ومن أظلم ممن قال سأنزل ، والمراد عبد الله بن أبى سَرْح الذى كان يكتب الوَحْىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ٱرتدّ ولحق بالمشركين . وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون أنه لما نزلت الآية التى فى « المؤمنين » : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »(١) دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم فأملاها عليه ؛ فلما انتهى إلى قوله « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ » عَجِب عبد الله فى تفصيل خلق الإنسان فقال : « تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هكذا أنزلت علىّ" فشكّ عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحِىَ إلىّ كما أوحِىَ إليه ، ولئن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال . فٱرتدّ عن الإسلام ولحِق بالمشركين ؛ فذلك قوله « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » رواه الكلبى عن ابن عباس . وذكره محمد بن إسحاق قال حدثنى شَرَحْبِيل قال : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » ٱرتدّ عن الاسلام ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتلِ عبد الله بن خَطَل ومِقْيَس بن صُبابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة ؛ ففرّ عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان رضى الله عنه ، وكان أخاه من الرّضاعة ، أرضعت أمُّه عثمانَ ، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما ٱطمأن أهل مكة وٱستأمنه له ؛ فصمَت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" . فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماصَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه" . فقال رجل من الأنصار : فهلّا أومَأْتَ إلىّ يارسول الله ؟ فقال : "إن النبيّ لاينبغى أن تكون له خائنةُ الأعين"(٢) . قال أبو عمر : وأسلم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح أيامَ الفتح فحسُن إسلامه ، ولم يظهر منه ما يُنكر عليه بعد ذلك . وهو أحد النُّجَباء العقلاء الكرماء من قريش ، وفارسُ بنى عامر بن لُؤَىّ المعدودُ فيهم ، ثم ولّاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين . وفُتح على يديه إفريقيّة سنة سبع وعشرين ، وغزا منها الأساود من أرض النُّوبَة سنة إحدى وثلاثين ، وهو هادنهم الهُدْنة الباقية إلى اليوم .

---

(١) آية ١٢ (٢) أى يضمر فى نفسه غير ما يظهره ؛ فاذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان .

وغزا الصَّوارِى[1] من أرض الرُّوم سنة أربع وثلاثين ؛ فلما رجع من وِفاداته منعه ابن أبى حُذيفة من دخول الفُسْطاط ، فمضى إلى عَسْقلان ، فأقام فيها حتى قُتل عثمان رضى الله عنه . وقيل : بل أقام بالرَّمْلة حتى مات فارًّا من الفتنة . ودعا ربّه فقال : اللّهُمّ آجعل خاتمة عملى صلاة الصبح ؛ فتوضأ ثم صلّى فقرأ فى الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات ، وفى الثانية بأم القرآن وسورة ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب يسلّم عن يساره فقبض الله رُوحه . ذكر ذلك كلّه يزيدُ بن أبى حبيب وغيره . ولم يبايع لعلىّ ولا لمعاوية . وكانت وفاته قبل آجتماع الناس على معاوية . وقيل : إنه تُوُفّى بإفرِيقِيَة . والصحيح أنه تُوُفّى بعَسْقلان سنة ست أو سبع وثلاثين . وقيل : سنة ست وثلاثين . وروى حفص بن عمر عن الحكَم بن أبَان عن عكرمة أن هذه الآية نزلت فى النّضر بن الحارث ؛ لأنه عارض القرآن فقال : والطاحنات طحنا . والعاجنات عجنا . فالخابزات خبزا . فاللاقمات لقما .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أى شدائده وسكراته . والغَمْرة الشدّة ؛ وأصلها الشيء الذى يغمُر الأشياء فيغُطّيها . ومنه غَمَره الماء . ثم وُضعت فى معنى الشدائد والمكاره . ومنه غَمَرات الحرب . قال الجوهرى : والغَمْرة الشدة ، والجمع غُمَر مثل نَوْبة ونُوَب . قال القُطَامِىّ يصف سفينة نوح عليه السلام :

* وَحانَ لِتالِكَ الغُمَرِ انْحِسارُ *

وغَمَرات الموت شدائده . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ ابتداء وخبر . والأصل باسطون . قيل : بالعذاب ومَطارق الحديد ؛ عن الحسن والضحاك . وقيل : لقبض أرواحهم ؛ وفى التنزيل : «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ»[2] فجمعت

---

(١) قال ابن الأثير فى كتابه (الكامل) : « ... وأما سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام ، فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون ... » الخ . وانما سميت غزوة الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها . راجع تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ٩٠ طبع أوربا . والطبرى قسم أول ص ٢٨٦٥ طبع أوربا .

(٢) آية ٥٠ سورة الأنفال .

هذه الآية القولين . يقال : بسط إليه يده بالمكروه . ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى خلّصوها من العذاب إن أمكنكم، وهو توبيخ . وقيل : أخرجوها كرها؛ لأن روح المؤمن تَنْشَط للخروج للقاء ربّه، وروح الكافر تُنتزَع انتزاعا شديدا، ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وهَوَانه؛ كذا جاء فى حديث أبى هريرة وغيره . وقد أتينا عليه فى كتاب «التذكرة» والحمد لله . وقيل : هو بمنزلة قول القائل لمن يعذّبه : لأذيقنّك العذاب ولأُخرجنّ نفسك؛ وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها مَلَك الموت وأعوانه . وقيل : يقال هـذا للكفار وهم فى النـار . والجواب محذوف لعظم الأمر؛ أى ولو رأيت الظالمين فى هذا الحال لرأيت عذابا عظيما . والهُون والهوان سواء . و ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى تتعظّمون وتأنفون عن قبول آياته .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى ﴾ هذا عبارة عن الحشر . و « فُرَادَى » فى موضع نصب على الحال، ولم ينصرف لأن فيـه ألف تأنيث . وقرأ أبو حَيْوة « فرادًى » بالتنوين وهى لغة تميم، ولا يقولون فى موضع الرفع فُرادٌ . وحكى أحمد بن يحيى « فرادِ » بلا تنوين، قال: مثل ثلاث ورباع . و «فُرادى» جمع فَرْدان كسُكارى جمع سكران، وكُسالى جمع كسلان . وقيل : واحده «فَرْد» بجزم الراء، و«فرِد» بكسرها، و«فرد» بفتحها، و«فرِيد» . والمعنى : جئتمونا واحدا واحدا، كل واحد منكم منفردا بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر ممن كان يصاحبكم فى الغَىّ، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله . وقرأ الأعرج « فَرْدَى » مثل سكرى وكسلى بغير ألف . ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى منفردين كما خُلقتم . وقيل: عُراة كما خرجتم

من بطون أمهاتكم حُفاة غُرْلًا بُهْمًا[١] ليس معهم شيء . وقال العلماء : يُحشر العبدُ غدًا وله من الأعضاء ما كان له فى يوم وُلد؛ فمن قُطع منه عضو يردّ فى القيامة عليه . وهذا معنى قوله « غُرْلا » أى غير مختونين، أى يردّ عليهم ما قُطع عنه عند الختان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أى أعطيناكم وملّكناكم . والخَوَل : ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنَّعم . ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أى خلفكم . ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ ﴾ أى الذين عبدتموهم وجعلتموهم شركاء — يريد الأصنام — أى شركائى . وكان المشركون يقولون : الأصنام شركاء الله وشفعاؤنا عنده . ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ نافع والكسائى وحفص بالنصب على الظرف، على معنى لقد تقطع وصلُكم بينكم . ودلّ على حذف الوصل قوله « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » . فدلّ هذا على التقاطع والتهاجر بينهم و بين شركائهم ؛ إذ تبرءوا منهم ولم يكونوا معهم . وتقاطعهم لهم هو تركهم وصلهم لهم؛ فحسُن إضمار الوصل بعد « تقطّع » لدلالة الكلام عليه . وفى حرف ٱبن مسعود ما يدلّ على النصب فيه « لقد تقطّع ما بينكم » وهذا لا يجوز فيه إلا النصب ، لأنك ذكرت المتقطّع وهو « ما » . كأنه قال : لقد تقطّع الوصل بينكم . وقيل : المعنى لقد تقطّع الأمر بينكم . والمعنى متقارب . وقرأ الباقون « بَيْنُكُمْ » بالرفع على أنه اسم غير ظرف ، فأسند الفعل إليه فرُفع . ويقوّى جعل « بين » ٱسمًا من جهة دخول حرف الجر عليه فى قوله تعالى : « وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ »[٢] و « هَـذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ »[٣] . ويجوز أن تكون قراءة النصب على معنى الرفع، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفا منصوبا وهو فى موضع رفع، وهو مذهب الأخفش ؛ فالقراءتان على هذا بمعنى واحد، فاقرأ بأيهما شئت . ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ ﴾ أى ذهب . ﴿ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أى تكذّبون به فى الدنيا .

رُوى أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث . ورُوى أن عائشة رضى الله عنها قرأت قول الله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » فقالت : يارسول الله ، وَاسَوْءتاه ! إن

(١) الغرل (جمع الأغرل) وهو الأقلف الذى لم يختن . والبهم (جمع بهيم) وهو فى الأصل الذى لا يخالط لونه لون سواه . يعنى ليس فيهم شىء من العاهات والأعراض التى تكون فى الدنيا كالعمى والعور والعرج ، وغير ذلك .

(٢) آية ٥ سورة فصلت . (٣) آية ٧٨ سورة الكهف

الرجال والنساء يحشرون جميعا، ينظر بعضهم إلى سوءة بعض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل آمرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض". وهذا حديث ثابت فى الصحيح أخرجه مسلم بمعناه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى﴾ عدّ من عجائب صنعه ما يعجز عن أدنى شىء منه آلهتهم. والفَلْق: الشق؛ أى يَشق النواة الميتة فيُخرج منها ورقا أخضر، وكذلك الحبة. ويُخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحبّة؛ وهذا معنى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى؛ عن الحسن وقتادة. وقال ابن عباس والضحاك: معنى فالق خالق. وقال مجاهد: عُنى بالفلق الشقّ الذى فى الحبّ وفى النّوَى. والنَّوى جمع نواة، ويجرى فى كل ماله عجم كالمشمش والخوخ[1]. ﴿يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ﴾ يخرج البشر الحىّ من النُّطفة الميتة، والنطفةَ الميتة من البشر الحىّ؛ عن ابن عباس. وقد تقدّم قول قتادة والحسن. وقد مضى ذلك فى «آل عمران[2]». وفى صحيح مسلم عن علىّ: والذى فلق الحبة وبرأ النَّسمة إنه لَعهد النبىّ الأمىّ صلى الله عليه وسلم إلىّ أنه لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ ابتداء وخبر. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين تصرفون عن الحق مع ما ترون من قدرة الله جل وعز.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ نعتٌ لآسم الله تعالى، أى ذلكم الله ربكم فالق الإصباح. وقيل: المعنى أن الله فالق الإصباح. والصُّبح والصباح أوّلُ النهار، وكذلك الإصباح؛ أى فالق

(١) كزِبْرِج وجعفر. (٢) راجع ج ٤ ص ٥٦ طبعة أولى وثانية.

الصبح كل يوم، يريد الفجر . والإصباح مصدر أصبح . والمعنى : شاق الضياء عن الظلام وكاشفُه . وقال الضحاك : فالق الإصباح خالقُ النهار . وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند احد من النحويين . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر « فالق الأَصباح » بفتح الهمزة، وهو جمع صبح . وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِيّ أنه قرأ « فلق الإصباحَ » على فَعَل، والهمزة مكسورة والحاء منصوبة . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائيّ « وجعل الليل سكنا » بغير ألف . ونصب «الليل» حملا على معنى فالق فى الموضعين؛ لأنه بمعنى فلق، لأنه أمرٌ قد كان فحُمِل على المعنى . وأيضا فإن بعده أفعالا ماضية وهو قوله «جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ» . « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » . فحمِل أول الكلام على آخره . يقوّى ذلك إجماعُهم على نصب الشمس والقمر على إضمار فِعل، ولم يحملوه على فاعل فيخفِضوه؛ قاله مكيّ رحمه الله . وقال النحاس : وقد قرأ يزيد بن قطيب السَّكونى « وجاعِلُ الليلِ سكنا والشمسِ والقمرِ حُسبانا » بالخفض عطفا على اللفظ .

قلت : فيريد مكيّ والمَهْدَوِيّ وغيرهما إجماع القراء السبع . والله أعلم . وقرأ يعقوب فى رواية رُويس عنه « وجاعِلُ الليلِ ساكِنًا » . وأهل المدينة «وجاعِلُ الليلِ سَكَنًا» أى محلا للسكون . وفى الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : " اللَّهُمَّ فالقَ الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حُسبانا اقضِ عنى الدَّين واغْنِنِي من الفقر وأَمْتِعنى بسمعى وبصرى وقوّتى فى سبيلك " . فإن قيل : كيف قال " وأمتعنى بسمعى وبصرى " وفى كتاب النَّسائيّ والترمذيّ وغيرهما " واجعله الوارث منّى " وذلك يفنى مع البدن ؟ قيل له : فى الكلام تجوّز، والمعنى : اللّهم لا تعدمه قبلى . وقد قيل : إن المراد بالسمع والبصر هنا أبو بكر وعمر؛ لقوله عليه السلام فيهما : " هما السمع والبصر " . وهذا تأويل بعيد، إنما المراد بهما الجارحتان . ومعنى ﴿حُسْبَانًا﴾ أى بحساب يتعلّق به مصالح العباد . وقال ابن عباس فى قوله جل وعز : « وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا » أى بحساب . الأخفش : حُسْبان جمع حساب ؛ مثل شِهاب وشُهبان . وقال يعقوب : حُسبان مصدر

حَسَبْت الشيء أَحْسُبه حُسبانا وحِسابا وحِسْبة، والحساب الاسم . وقال غيره : جعل الله تعالى سير الشمس والقمر بحساب لا يزيد ولا ينقص ؛ فدلّهم الله عز وجل بذلك على قدرته ووحدانيته . وقيل : حُسْبانا أى ضياء . والحسبان : النار فى لغة ؛ وقد قال الله تعالى : « وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ »(١) . قال ابن عباس : نارا . والحُسْبانة : الوسادة الصغيرة .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ ﴾ بيّن كمال قدرته ، وفى النجوم منافع جمّة . ذكر فى هذه الآية بعض منافعها ، وهى التى ندب الشرعُ إلى معرفتها ؛ وفى التنزيل : « وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ »(٢) . « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ »(٣) . و « جعل » هنا بمعنى خلق . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ ﴾ أى بيّناها مفصّلة لتكون أبلغ فى الاعتبار . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بها .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يريد آدم عليه السلام . وقد تقدّم أوّل السورة . ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج وشَيْبة والنَّخَعِيّ بكسر القاف ، والباقون بفتحها . وهى فى موضع رفع بالابتداء ، إلا أن التقدير فيمن كسر القاف « فمنها مستقِر » والفتح بمعنى لها «مستقَر» . قال عبد الله بن مسعود : فلها مستقر فى الرّحم ومستودَع فى الأرض التى تموت فيها ؛ وهذا التفسير يدلّ على الفتح . وقال الحسن : فمستقِر فى القبر . وأكثر أهل التفسير يقولون : المستقَرّ ما كان فى الرحم ، والمستودَع

(١) آية ٤٠ « سورة الكهف » .
(٢) آية ٧ « سورة الصافات » . (٣) آية ٥ « سورة الملك » .

ما كان فى الصُّلْب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس، وقاله النخعىّ . وعن ابن عباس أيضا : مستقرّ فى الأرض، ومستودع فى الأصلاب . قال سعيد بن جُبير : قال لى ابن عباس هل تزوّجت ؟ قلت لا؛ فقال: إن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه . وروى عن ابن عباس أيضا أن المستقر مَن خُلق، والمستودَع من لم يُخلق؛ ذكره المَاوَرْدِى . وعن ابن عباس أيضا : ومستودع عند الله .

قلت : وفى التنزيل « وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ » والاستيداع إشارة إلى كونهم فى القبر إلى أن يُبعثوا للحساب؛ وقد تقدم فى البقرة (١) . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ قال قتادة : فصّلنا بيّنا .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى المطر. ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أى كل صِنف من النبات . وقيل : رزق كل حيوان. ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ قال الأخفش : أى أخضر؛ كما تقول العرب : أرِينها نَمِرة أُرِكْها مَطِرة (٢) . والخضر رطب

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) الهاء فى «أرنيها» للسحابة . والنمر من السحاب الذى فيه آثار كآثار النمر . وقيل : هى قطع صغار متدان بعضها من بعض . وواحدتها نمرة . ومطرة : بمعنى ماطرة . أى إذا رأيت دليل الشيء علمت ما يتبعه . يضرب لأمر يتيقن وقوعه إذا لاحت مخايله وتباشيره . (عن فرائد اللآل جـ ١ ص ٢٥٢ طبع بيروت) .

البقول . وقال ابن عباس : يريد القمح والشعير والسُّلت(١) والذرة والأرز وسائر الحبوب . ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أى يركب بعضه على بعض كالسنبلة .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . أجاز الفرّاء فى غير القرآن «قنوانًا دانيةً» على العطف على ما قبله . قال سيبويه : ومن العرب من يقول : قُنوان . قال الفرّاء : هذه لغة قيس، وأهل الحجاز يقولون : قِنوان، وتميم يقولون : قُنيان؛ ثم يجتمعون فى الواحد فيقولون : قِنْوٌ وقُنْوٌ . والطّلع الكُفُرَّى قبل أن ينشق عن الإغريض، والإغريض يسمى طلعا أيضا . والطلع : مايُرى من عِذْق النخلة . والقِنوان : جمع قِنو، وتثنيته قِنْوان كصنو وصِنوانِ (بكسر النون) . وجاء الجمع على لفظ الاثنين . قال الجوهرى وغيره : الاثنان صِنوانِ والجمع صنوانُ (برفع النون) . والقِنْو : العِذْق والجمع القِنوان والأقناء؛ قال :

* طويلة الأقناء والأثاكِلِ(٢) *

غيره « أقناء » جمع القلة . قال المهدوىّ : قرأ ابن هُرمز « قَنوان » بفتح القاف، وروى عنه ضمها . فعلى الفتح هو اسم للجمع غيرُ مُكَسَّر، بمنزلة ركب عند سيبويه، وبمنزلة الباقر والجامل ؛ لأن فعلان ليس من أمثلة الجمع ، وضمّ القاف على أنه جمع قِنْو وهو العِذق (بكسر العين) وهى الكِباسة، وهى عنقود النخلة . والعَذْق (بفتح العين) النخلة نفسُها . وقيل: القِنوان الجُمّار . ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة، ينالها القائم والقاعد. عن ابن عباس والبَرَاء بن عازب وغيرهما . قال الزجاج : منها دانية ومنها بعيدة؛ فحذف . ومثله «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ(٣)» . وخصّ الدانية بالذكر، لأن من الغرض فى الآية ذكر القدرة والامتنان بالنعمة، والامتنانُ فيما يقربُ متناولُه أكثر .

---

(١) السلت (بوزن القفل) : ضرب من الشعير أبيض لا قشر له .

(٢) الأثاكل : جمع الإثكال والأثكول (لغة فى العثكال والعثكول) وهو العذق الذى تكون فيه الشماريخ . وهذا عجز بيت . وصدره كما فى اللسان : * قد أبصرت سعدى بها كائلى * والكائل جمع كئيلة وهى النخلة الطويلة . (٣) آية ٨١ سورة النحل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى وأخرجنا جنات . وقرأ محمد ابن عبد الرحمن بن أبى لَيْلى والأعمش، وهو الصحيح من قراءة عاصم «وجناتٌ» بالرفع . وأنكر هذه القراءةَ أبو عبيد وأبو حاتم ، حتى قال أبو حاتم : هى محال؛ لأن الجنات لاتكون من النخل . قال النحاس : والقراءة جائزة، وليس التأويل على هذا، ولكنه رفع بالابتداء والخبرُ محذوف؛ أى ولهم جنات . كما قرأ جماعة من القرّاء «وَحُورٌ عِينٌ»(١) . وأجاز مثل هذا سيبويه والكِسائيّ والفرّاء؛ ومثله كثير . وعلى هذا أيضا «وحُورًا عِينًا» حكاه سيبويه، وأنشد :

جِئْنِى بمثلِ بنى بَدْرٍ لقومهم * أوْ مثلَ أسْرةِ مَنْظُورِ بن سَيَّارِ(٢)

وقيل : التقدير «وجنات من أعناب» أخرجناها؛ كقولك : أكرمت عبد الله وأخاه، أى وأخاه أكرمتُ أيضا . فأمّا الزيتون والرمّان فليس فيه إلا النصب للإجماع على ذلك . وقيل : «وجناتٌ» بالرفع عطف على «قِنوان» لفظا، وإن لم تكن فى المعنى من جنسها . ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ أى متشابها فى الأوراق؛ أى ورق الزيتون يُشبه ورق الرمان فى اشتماله على جميع الغُصْن وفى حجم الورق ، وغير متشابه فى الذَّواق ؛ عن قَتادة وغيره . قال ابن جُريج : «متشابها» فى النظر «وغير متشابه» فى الطعم ؛ مثل الرمّانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف . وخصّ الرمان والزيتون بالذِّكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم . وهو كقوله : «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(٣)» . ردّهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ أُنْظُروا إِلَى ثَمَرِه إذا أَثْمَرَ ﴾ أى نَظَرَ اعتبار لا نظر الإبصار المجرّد عن التفكّر . والثمر فى اللغة جَنَى الشجر . وقرأ حمزة والكسائىّ «ثُمُره» بضم الثاء والميم . والباقون بالفتح فيهما جمع ثَمرة ، مثل بقرة وبقر وشجرة وشجر . قال مجاهد : الثمر أصناف المال، والتمر ثمر النخل . وكأن المعنى على قول مجاهد : أُنظروا إلى الأموال التى يتحصل منه

(١) آية ٢٢ سورة الواقعة . (٢) البيت لجرير، يخاطب الفرزدق فيفخر عليه بسادات قيس؛ لأنهم أخواله، وبنو بدر من فزارة وفيهم شرف قيس عيلان، وبنو سيار من فزارة أيضا، وفزارة من ذبيان من قيس . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٣) آية ١٧ سورة الغاشية .

الثمر ؛ فالثُّمُر بضمتين جمع ثمار وهو المال المُثَمَّر . وروى عن الأعمش «ثُمْره» بضم الثاء وسكون الميم ؛ حذف الضمة لثقلها طلبا للخفة . ويجوز أن يكون ثُمْر جمع ثَمَرة مثلُ بدنة وبُدْن . ويجوز أن يكون ثُمُر جمع جمع ، فتقول : ثمرة وثمار وثمر مثل حمار وحمر . ويجوز أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب لا جمع جمع .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿وَيَنْعِهِ﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع « ويانعه » . وابن مُحَيْصن وابن أبي إسحاق «ويُنْعِه» بضم الياء . قال الفرّاء : هي لغة بعض أهل نجد ؛ يقال : يَنَع الثمر يَيْنِـع ، والثمر يانع . وأينع يونع . والمعنى : ونُضْجِه . يَنَع وأينع إذا نَضِج وأدرك . وقال الحجاج في خطبته : أرى رءوسا قد أينعتْ وحان قِطافها . قال ابن الأنباري : اليَنْع جمع يانع ، كراكب وركْب ، وتاجر وتَجْر ، وهو المدرك البالغ . وقال الفرّاء : أينع أكثرُ من يَنَع ، ومعناه أحمر ؛ ومنه ما روى في حديث المُلاَعنة "إن ولدته أحمر مثل اليَنَعة" وهي خرزة حمراء ، يقال : إنه العقيق أو نوع منه . فدلّت الآية لمن تدبّر ونظر ببصره وقلبه ، نَظَرَ مَن تفكّر ، أن المتغيّرات لابدّ لها من مغيّر ؛ وذلك أنه تعالى قال : «انْظُرُوا إلَى ثَمَرِه إذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ» . فتراه أوّلا طَلْعًا ثم إغْرِيضا إذا انشق عنـه الطَّلْع . والإغريض يُسَمَّى ضَحْكًا أيضا ، ثم بلحا ، ثم سَيَابًا ، ثم جَدَالًا إذ اخضرّ واستدار قبـل أن يشتدّ ، ثم بُسْرًا إذا عظم ، ثم زَهْوًا إذا احمرّ ؛ يقال : أَزْهَى يُزْهِي ، ثم مُوَكِّتًا إذا بدت فيه نقط من الإرطاب . فإن كان ذلك من قِبَل الذَّنَب فهي مُذَنِّبة ، وهو التَّذْنُوب ، فإذا لانت فهي ثَعْدة ، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهي مُجَزَّعَة ، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلْقانة ، فإذا عمّها الإرطاب فهي مُنْسِبتة ؛ يقال : رطب مُنْسِبت ، ثم ييبس فيصير تمرا . فنبّه تعالى بانتقالها من حال إلى حال وتغيّرها ووجودها بعد أن لم تكن على وحدانيته وكمال قدرته ، وأن لها صانعا قادرا عالما . ودلّ على جواز البعث ؛ لإيجاد النبات بعد الجفاف . قال الجوهري : يَنَع الثمر يَيْنَع ويَيْنِـع يَنْعًا ويُنْعًا ويُنوعًا ، أي نَضِج .

السادســة — قال ابن العربي : قال مالك : الإيناع الطِّيب بغير فساد ولا نقش . قال مالك : والنّقش أن يَنْقُش أهلُ البصرة الثمرَ حتى يُرْطب ؛ يريد يُثقب فيه بحيث يُسرع دخولُ

الهواء إليه فيرطب معجّلا . فليس ذلك اليَنْع المراد فى القرآن ، ولا هو الذى ربط به رسول الله صلى الله عليه وسلم اليَنْع ، وإنمـا ما يكون من ذاته بغير محاولة . وفى بعض بلاد التّين، وهى البلاد الباردة، لا يَنْضُج حتى يُدخَل فى فمـه عُود قد دُهن زيتا ، فإذا طاب حلّ بيعه؛ لأن ذلك ضرورة الهواء وعادةُ البلاد، ولولا ذلك ما طاب فى وقت الطِّيب .

قلت : وهذا اليَنْعُ الذى يقف عليه جواز بيع التمرة وبه يطيب أكلها وتأمن من العاهة هو عند طلوع الثُّرَيّا بمـا أجرى الله سبحانه من العادة وأحكمه من العلم والقدرة . ذكر المُعَلَّى ابن أسد عن وهيب عن عِسْل بن سـفيان عن عطاء عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا طلعت الثُّرَيّا صباحا رُفعت العاهة عن أهل البلد " . والثريا النجم، لا خلاف فى ذلك . وطلوعها صباحا لاثنتى عشرة ليلة تمضى من شهر أيار، وهو شهر مايه . وفى البخارىّ : وأخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت أن زيد بن ثابت لم يكن يبيع ثمار أرضه حتى تطلع الثُّرَيّا فيتبيّن الأصفرُ من الأحمر .

السابعــة — وقد استدلّ من أسقط الجوائح فى الثمـار بهذه الآثار، وما كان مثلها من نهيه عليه السلام عن بيع الثمرة حتى يبدو صلاحها، وعن بيع الثمار حتى تذهب العاهة . قال عثمان بن سُراقة : فسألت ابن عمر متى هـذا ؟ فقال طلوع الثريا . قال الشافعىّ : لم يثبت عندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح، ولو ثبت عندى لم أعْدُه . والأصـل المجتمَع عليه أن كل من ابتاع ما يجـوز بيعه وقبضه كانت المصيبة منـه . قال : ولو كنت قائلا بوضع الجوائح لوضعتها فى القليل والكثير ؛ وهو قول الثَّوْرِىّ والكوفيين . وذهب مالك وأكثر أهل المدينة إلى وضعها ؛ لحديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح . أخرجه مسلم. وبه كان يقضى عمـر بن عبد العزيز، وهو قول أحمد بن حنبل وسائر أصحاب الحـديث . وأهل الظاهر وضعوها عن المبتاع فى القليـل والكثير على عموم الحديث ؛ إلا أن مالكا وأصحابه اعتبروا أن تبلغ الجائحة ثلث الثمرة فصاعدًا، وما كان دون الثلث ألغوه وجعلوه تَبَعًا، إذ لا تخلو ثمرة من أن يتعذّر القليل من طِيبها وأن يلحقها فى اليسير منها

فساد . وكان أصْبَغ وأشهب لا ينظران إلى الثمرة ولكن إلى القيمة، فإذا كانت القيمة الثلث فصاعدًا وضع عنه . والجائحة مالا يمكن دفعه عند ابن القاسم . وعليه فلا تكون السرقة جائحة، وكذا فى كتاب محمد . وفى الكتاب أنه جائحة، وروى عن ابن القاسم، وخالفه أصحابه والناس . وقال مُطَرِّف وابن الماجشون : ما أصاب الثمرة من السماء من عَفَن أو برد، أو عطش أو حَرّ أو كسر الشجر بما ليس بصنع آدمى فهو جائحة . واختُلف فى العسكر؛ ففى رواية ابن القاسم هو جائحة . والصحيح فى البقول أنها الثمرة . ومن باع ثمرا قبل بَدْو صلاحه بشرط التبقية فُسخ بيعه ورُدّ للنهى عنه، ولأنه من أكل المال بالباطل؛ لقوله عليه السلام: " أرأيت إن منع الله الثمرة فبم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ". هذا قول الجمهور، وصححه أبو حنيفة وأصحابه وحملوا النهى على الكراهة . وذهب الجمهور إلى جواز بيعها قبل بَدْو الصلاح بشرط القطع . ومنعه الثَّورِىّ وابن أبى لَيْلَى تمسُّكًا بالنهى الوارد فى ذلك . وخصّصه الجمهور بالقياس الجلىّ؛ لأنه مبيع معلوم يصحّ قبضه حالة العقد فصحّ بيعه كسائر المبيعات .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ هذا ذِكر نوع آخر من جهالاتهم ، أى فيهم مَن اعتقد لله شركاء من الجن . قال النحاس : « الجن » مفعول أوّل، و « شركاء » مفعول ثان؛ مثل « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا »(١) . « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا »(٢) . وهو فى القرآن كثير . والتقدير: وجعلوا لله الجن شركاء . ويجوز أن يكون « الجن » بدل من شركاء، والمفعول الثانى «لله» . وأجاز الكسائىّ رفع « الجن » بمعنى هم الجن . ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ كذا قراءة الجماعة ، أى خلق الجاعلين له شركاء . وقيل : خلق الجن الشركاء . وقرأ ابن مسعود « وهو خلقهم » بزيادة هو . وقرأ يحيى بن يَعْمَر « وخلْقهم » بسكون اللام، وقال : أى وجعلوا خلقهم لله شركاء؛ لأنهم كانوا يخلقون الشىء ثم يعبدونه . والآية نزلت فى مشركى العرب . ومعنى إشراكهم

(١) آية ٢٠ سورة المائدة . (٢) آية ١٢ سورة المدثر .

بالجن أنهم أطاعوهم كطاعة الله عز وجل؛ رُوى ذلك عن الحسن وغيره. قال قَتادة والسُّدّى: هم الذين قالوا الملائكةُ بناتُ الله . وقال الكلبيّ : نزلت فى الزنادقة، قالوا : إن الله و إبليس أخوان؛ فالله خالق النـاس والدواب ، و إبليس خالق الجان والسباع والعقارب . ويقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا : للعـالَم صانعان : إله قديم، والثانى شيطان حادث من فكرة الإله القديم؛ وزعموا أن صانع الشر حادث . وكذا الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد ابن حائط ، زعموا أن للعالَم صانعين : الإله القديم، والآخر محدث، خلقه الله عز وجل أوّلا ثم فوّض إليه تدبير العالم؛ وهو الذى يحاسب الخلق فى الاخرة . تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا . ﴿ وَخَرَّقُوا ﴾ قراءة نافع بالتشديد على التكثير؛ لأن المشركين ادعوا أن لله بناتٍ وهم الملائكة ، وسَمَّوهم جِنًّا لأجتنانهم . والنصارى ٱدعت المسيح ٱبنَ الله . واليهود قالت : عزير ٱبن الله ، فكثُر ذلك من كفرهم ؛ فشُدِّد الفعل لمطابقة المعنى . تعالى الله عما يقولون . وقرأ الباقون بالتخفيف على التقليل . وسئل الحسن البصرى عن معنى «وخرّقوا له» بالتشـديد فقال : إنمـا هو « وخَرَقوا » بالتخفيف ، كلمة عربيـة ، كان الرجل إذا كذب فى النادى قيل : خَرَقها وربِّ الكعبة . وقال أهل اللغة : معنى « خرقوا » اختلقوا وافتعلوا . « وخرّقوا » على التكثير . قال مجاهد وقَتادة وابن زيد وابن جُريج : « خرقوا » كذبوا . ويقال : إن معنى خرق واخترق واختلق سواء؛ أى أحدث .

قوله تعـالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى مبدعهما؛ فكيف يجوز أن يكون له ولد. « وبديع » خبر ابتداء مضمر أى هو بديع . وأجاز الكِسائىّ خفضه على النعت لله عز وجل، ونصـبه بمعنى بديعا للسموات والأرض . وذا خطأ عنـد البصريين (١) لأنه لمـا مضى .

(١) اسم الفاعل يعمل عمل فعله إن كان صلة لأل مطلقا ؛ فان لم يكن صـلة لأل عمل بشرطين عند البصريين : أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال . وأجاز الكسائى عمله إذا كان للماضى .

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أى من أين يكون له ولد . وولد كل شيء شبيهه ، ولا شبيه له .
﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أى زوجة . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم معناه الخصوص ، أى خلق العالم .
ولا يدخل فى ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته . ومثله « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »[(١)]
ولم تسع إبليس ولا من مات كافرا . ومثله « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ »[(٢)] ولم تدمر السموات والأرض .

قوله تعالى : ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ « ذلكم » فى موضع رفع بالابتداء .
﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ على البدل . ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « ربكم »
الخبر ، و « خالق » خبرا ثانيا ، أو على إضمار مبتدأ ، أى هو خالق . وأجاز الكسائى والفراء
فيه النصب .

قوله تعالى : لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ بيّن سبحانه أنه منزّه عن سمات الحدوث ، ومنها
الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد ، كما تدرك سائر المخلوقات ، والرؤية ثابتة . وقال الزجاج :
أى لا يبلغ كُنْه حقيقته ، كما تقول : أدركت كذا وكذا ، لأنه قد صحّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم
الأحاديث فى الرؤية يوم القيامة . وقال ابن عباس : « لا تدركه الأبصار » فى الدنيا ،
ويراه المؤمنون فى الآخرة ، لإخبار الله بها فى قوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[(٣)] .
وقاله السُّدّى . وهو أحسن ما قيل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله فى الجنة .
وسيأتى بيانه فى « يونس »[(٤)] . وقيل : « لا تدركه الأبصار » لا تحيط به وهو يحيط بها ؛

---

(١) آية ١٥٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٥ سورة الأحقاف . (٣) آية ٢٢ سورة القيامة .
(٤) فى قوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » آية ٢٦ .

عن ابن عباس ايضا . وقيل : المعنى لا تدركه أبصار القلوب، أى لا تدركه العقول فتتوهمه؛ إذ ليس كمثله شيء . وقيل : المعنى لا تدركه الأبصار المخلوقة فى الدنيا، لكنه يخلق لمن يريد كرامته بصرا وإدراكا يراه به كمحمد عليه السلام؛ إذ رؤيته تعالى فى الدنيا جائزةٌ عقلا، إذ لولم تكن جائزةً لكان سؤال موسى عليه السلام مستحيلا، ومحالٌ أن يجهل نبيّ ما يجوز على الله وما لا يجوز، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل . واختلف السلف فى رؤية نبينا عليه السلام ربَّه، ففى صحيح مسلم عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة، فقالت : يا أبا عائشة[(١)]، ثلاثٌ مَن تكلّم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفِرْية . قلت : ما هن ؟ قالت : مَن زعم أن محمدا رأى ربَّه فقد اعظم على الله الفِرْية . قال : وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أمّ المؤمنين، أَنْظِرِينى ولا تُعْجِلِينى، ألم يَقُلِ الله عز وجل « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ »[(٢)]. «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى»[(٣)]؟ فقالت : أنا أوّل هذه الأمة سأل عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيتُه منهبطا من السماء سَادًّا عِظَمُ خلقه ما بين السماء والأرض" . فقالت : أوَ لم تسمع أن الله عز وجل يقول : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» ! أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا — إلى قوله — عَلِيٌّ حَكِيمٌ »[(٤)] ! قالت : ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفِرْية، والله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » قالت : ومَن زعم أنه يُخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفِرية ، والله تعالى يقول : «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ»[(٥)] .

وإلى ما ذهبت إليه عائشة رضى الله عنها من عدم الرؤْية ، وأنه إنما راى جبريل : ابن مسعود ، ومثله عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأنه إنما رأى جبريلَ، واختلف

(١) أبو عائشة : كنية الإمام مسروق . (٢) آية ٢٣ سورة التكوير . (٣) آية ١٣ سورة النجم .
(٤) آية ٥١ سورة الشورى . (٥) آية ٦٥ سورة النمل .

عنهما . وقال بإنكار هذا وٱمتناع رؤيتــه جماعةٌ من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين . وعن ابن عباس أنه رآه بعينيه؛ هذا هو المشهور عنه . وحجته قوله تعالى: «مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَى»(١) . وقال عبـد الله بن الحارث : اجتمع ابن عباس وأُبَيّ بن كعب، فقال ابن عباس : أمّا نحن بنو هاشم فنقول إن محمدا رأى ربّه مرتين. ثم قال ابن عباس: أتعجبون أن الخُلّة تكون لإبراهيم والكلامَ لموسى، والرؤيةَ لمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . قال : فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال، ثم قال : إن الله قسّم رؤيتــه وكلامَه بين محمد وموسى عليهما السلام ، فكلّم موسى ورآه محمد صلى الله عليه وسلم. وحكى عبد الرزّاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربّه . وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكِيّ عن عِكرمة، وحكاه بعض المتكلمين عن ابن مسعود، والأوّل عنـه أشهر . وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة : هل رأى محمد ربّه ؟ فقال نعم . وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس : بعينـه رآه رآه ! حتى ٱنقطع نفسه ، يعنى نفس أحمد . وإلى هذا ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعريّ وجماعة من أصحابه أنه رأى الله ببصره وعيني رأسه . وقاله أنس وابن عباس وعكرمة والربيع والحسن . وكان الحسن يحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأى محمد ربّه . وقال جماعة منهم أبو العالِية والقُرَظِيّ والربيع بن أنس : إنه إنمـا رأى ربّه بقلبـه وفؤاده ؛ وحكى عن ابن عباس أيضا وعكرمة . وقال أبو عمر : قال أحمـد بن حنبل رآه بقلبه ، وجَبُن عن القول برؤيته فى الدنيا بالأبصار . وعن مالك بن أنس قال : لم يُرَ فى الدنيا ؛ لأنه باقٍ ولا يُرَى الباقى بالفانى ، فإذا كان فى الآخرة ورُزقوا أبصارا باقيــة رأوا البـاقى بالباقى . قال القاضى عِيـاض : وهذا كلام حسن مليح، وليس فيـه دليل على الٱستحالة إلا من حيث ضعف القدرة؛ فإذا قوّى الله تعـالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع فى حقّـه . وسيأتى شيء من هذا فى حق موسى عليه السلام فى «الأعراف»(٢) إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ﴾ أى لا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه. وإنما خصّ « الأبصار » لتجنيس الكلام . قال الزجاج : وفى هذا الكلام دليل على أن الخلق لا يُدركون

(١) آية ١١ سورة النجم . (٢) فى قوله تعالى : « ولمـا جاء موسى لميقاتنا » آية ١٤٣ .

الأبصار؛ أي لا يعرفون كيفية حقيقةِ البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يُبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه . ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ أي الرفيق بعباده ؛ يقال : لَطَف فلان بفلان يَلْطُف، أي رَفَق به . واللطف في الفعل الرِّفقُ فيه . واللُّطْف من الله التوفيق والعِصمة . وألطفه بكذا ، أي بَرّه به . والاسم اللَّطَف بالتحريك . يقال : جاءتنا من فلان لَطَفة ؛ أي هَدِيّة . والملاطفة المبارّة ؛ عن الجوهري وابنِ فارس . قال أبو العالية : المعنى لطيف باستخراج الأشياء خبيرٌ بمكانها . وقال الجُنَيد : اللّطيف من نوّر قلبك بالهدى ، وربّى جسمك بالغِذَى ، وجعل لك الولاية في البَلْوَى ، ويحرُسك وأنت في لظى، ويدخلك جنة المأْوَى . وقيل غير هذا ، مما معناه راجع إلى معنى الرفق وغيرِه . وسيأتي ما للعلماء من الأقوال في ذلك في « الشُّورَى »(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي آيات وبراهين يُبْصَر بها ويُستدَل ؛ جمع بصيرة وهي الدّلالة . قال الشاعر :

جاءوا بصائرُهم على أكتافهم * وبصيرتي يَعْدُو بها عَتَدٌ وَأَى(٢)

يعني بالبصيرة الحجة البيّنة الظاهرة . ووصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقّع حضوره للنفس؛ كما يقال : جاءت العافية وقد انصرف المرض، وأقبل السعود وأدبر النحوس . ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ الإبصار : هو الإدراك بحاسّة البصر؛ أي فمن استدلّ وتعرّف فنفسَه نفع . ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ لم يستدل ، وصار بمنزلة الأعمى ؛ فعلى نفسه يعود ضرر

(١) في قوله تعالى : «الله لطيف بعباده ...» آية ١٩ .
(٢) الذي في كتب اللغة : «راحوا ...الخ» وأن هذا البيت للأسعر الجعفي . يقول : إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم ؛ أي لم يثأروا به وأنا طلبت ثأري . والعتد (بفتح التاء وكسرها) : الفرس التام الخلق السريع الوثبة معدّ للجري ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . والوأى (بفتح الواو والمد) : الفرس السريع المقتدر الخلق .

عماه . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم . وقيل : أى لا أحفظكم من عذاب الله . وقيل : « بِحَفِيظٍ » برقيب؛ أحصى عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلّغكم رسالات ربّى ، وهو الحفيظ عليكم لايخفى عليه شىء من أفعالكم . قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال، ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى نصرف الآيات مثل ما تلونا عليك . أى كما صرفنا الآيات فى الوعد والوعيد والوعظ والتّنبيه فى هذه السورة نصرف فى غيرها . ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ الواو للعطف على مضمر؛ أى نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست . وقيل : أى « وليقولوا درست » صرفناها؛ فهى لام الصيرورة . وقال الزجاج : هذا كما تقول كتب فلان هذا الكتاب لحتفه ؛ أى آل أمره إلى ذا . وكذا لما صرفت الآيات آل أمرهم إلى أن قالوا : درست وتعلمت من جبر ويسار ، وكانا غلامين نصرانيين بمكة ، فقال أهل مكة : إنما يتعلم منهما . قال النحاس : وفى المعنى قول آخر حسن ، وهو أن يكون معنى « نصرف الآيات » نأتى بها آية بعد آية ليقولوا درست علينا ؛ فيذكرون الأوّل بالآخر . فهذا حقيقة ، والذى قاله أبو إسحاق مجاز .

وفى «درست» سبع قراءاتٍ . قرأ أبو عمرو وابن كثير «دارست» بالألف بين الدال والراء، كفاعلت . وهى قراءة علىّ وابن عباس وسعيدِ بن جبير ومجاهدٍ وعكرمة وأهلِ مكة . قال ابن عباس : معنى «دارست» تاليت . وقرأ بن عامر «دَرَسْتْ» بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف، كخَرَجتْ . وهى قراءة الحسن . وقرأ الباقون « دَرَسْتَ » كخَرَجْتَ . فعلى الأولى : دارست أهلَ الكتاب ودارسوك؛ أى ذاكرتهم وذاكروك؛ قاله سعيد بن جبير. ودلّ على هذا المعنى قولُه تعالى إخبارا عنهم : «وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ»[1] أى أعان اليهودُ النبيّ

(١) آية ٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليه وسلم على القرآن وذاكروه فيه . وهذا كله قولُ المشركين . ومثله قولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »(١) . « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »(٢) . وقيل : المعنى دارستنا؛ فيكون معناه كمعنى درست ؛ ذكره النحاس واختاره ، والأول ذكره مكي . وزعم النحاس أنه مجاز؛ كما قال :

* فلِلْموتِ ما تَلِد الوالده(٣) *

ومن قرأ «دَرستْ» فأحسن ما قيل فى قراءته أن المعنى : ولئلا يقولوا انقطعت وامّحتْ ، وليس يأتى محمد صلى الله عليه وسلم بغيرها . وقرأ قتادة «دُرِست» أى قرئت . وروى سفيان ابن عُيينة عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه قرأ «دارستْ» . وكان أبو حاتم يذهب إلى أن هذه القراءة لا تجوز؛ قال : لأن الآيات لا تدارِس . وقال غيره : القراءة بهذا تجوز، وليس المعنى على ما ذهب إليه أبو حاتم ،ولكن معناه دارستْ أمّتُك؛ أى دارستك أمتك ،وإن كان لم يتقدّم لها ذكر؛ مثل قوله : «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ»(٤) . وحكى الأخفش «ولِيقولوا دَرُسَتْ» وهو بمعنى «دَرستْ» إلا أنه أبلغ . وحكى أبو العباس أنه قرئ «ولْيقولوا درست» بإسكان اللام على الأمر . وفيه معنى التهدّد؛ أى فليقولوا بما شاءوا فإن الحق بيّن؛ كما قال عز وجل : «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا» . فأمّا من كسر اللام فإنها عنده لام كَيْ . وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شيء واحد ، إلى التليين والتذليل . و «دَرَسْتَ» مِن دَرَس يدرُس دِراسة، وهى القراءة على الغير. وقيل : درسته أى ذللته بكثرة القراءة؛ وأصله درَس الطعامَ أى داسه . والدِّياس الدّراس بلغة أهل الشام . وقيل : أصله من درسْتُ الثوبَ أدْرُسه درسا أى أخلقته . وقد درَس الثوبُ دَرْسا أى أخلق . ويرجع هذا إلى التذلل أيضا . ويقال : سُمّيَ إدريس لكثرة دراسته لكتاب الله . ودارست الكتب وتدارستها وآدّارستها أى درستها . ودَرستُ الكتاب دَرْسا ودِراسة . ودَرستِ المرأة درسا أى حاضت . ويقال :

(١) آية ٥ سورة الفرقان . (٢) آية ٢٤ سورة النحل .

(٣) هذا عجز بيت ، وصدره كما فى المغنى (حرف اللام) : * فإن يكن الموت أفناهم *

(٤) آية ٣٢ سورة ص .

إن فرج المرأة يُكْنَى أبا أَدْراس؛ وهو من الحيض . والدَّرْسُ أيضا : الطريق الخَفِيّ .
وحكى الأصمعيّ : بَعير لم يُدَرَّس أى لم يركب، ودَرَست من درس المنزلُ إذا عفَا . وقرأ ابن
مسعود وأصحابه وأبيّ وطلحة والأعمش «ولِيقولوا درس» أى درس محمد الآيات . ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾
يعنى القول والتصريف، أو القرآن ﴿ لِقوم يعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ ٱتَّبِعْ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى القرآن؛ أى لا تَشغل قلبك وخاطرك
بهم، بل اشتغل بعبادة الله . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ منسوخ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ نصّ على أن الشرك بمشيئته، وهو إبطال
لمذهب القدرية كما تقـدّم . ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى لا يمكنك حفظهم من عذاب
الله . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى قيّم بأمورهم فى مصالحهم لدينهم أو دنياهم، حتى تلطف
لهم فى تناول ما يجب لهم؛ فلست بحفيظ فى ذلك ولا وكيل فى هذا ، إنما أنت مُبلِّغ . وهذا
قبل أن يؤمر بالقتال .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ نَهْىٌ . ﴿ فَيَسُبُّوا ﴾ جواب النهى . نهى سبحانه المؤمنين أن يَسُبُّوا أوثانهم ؛ لأنه علم إذا سبّوها نفر الكفار وازدادوا كُفرا . قال ابن عباس : قالت كفار قريش لأبى طالب إمّا أن تنهى محمدا وأصحابَه عن سَبّ آلهتنا والغض منها وإما أن نَسُبّ إلٰهه ونهجوه ؛ فنزلت الآية .

الثانيــة — قال العلماء : حكمها باقٍ فى هذه الأمة على كل حال ؛ فمتى كان الكافر فى مَنَعة وخِيف أن يَسُبّ الإسلامَ أو النبيّ عليه السلام أو الله عز وجل ، فلا يحلّ لمسلم أن يَسُبّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم ، ولا يتعرّض إلى ما يؤدّى إلى ذلك ؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية . وعبّر عن الأصنام وهى لا تعقل بـ«الذين» على معتقد الكفرة فيها .

الثالثــة — فى هذه الآية أيضا ضَرْبٌ من الموادعة ، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدّ الذرائع ؛ حسب ما تقدّم . فى «البقرة» وفيها دليل على أن المحقّ قد يكفّ عن حق له إذا أدّى إلى ضرر يكون فى الدِّين . ومن هذا المعنى ما رُوى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا تبتّوا الحكم بين ذوى القرابات مخافة القطيعة . قال ابن العربيّ : إن كان الحق واجبا فيأخذه بكل حال ، وإن كان جائزا ففيه يكون هذا القول .

الرابعــة — قوله تعالى : «عَدْوًا» أى جهلا واعتداء . ورُوى عن أهل مكة أنهم قرءوا «عُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو ، وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وقَتادة ، وهى راجعة إلى القراءة الأولى ، وهما جميعا بمعنى الظلم . وقرأ أهل مكة أيضا «عَدُوًّا» بفتح العين وضم الدال بمعنى عدوّ . وهو واحد يؤدّى عن جمع ؛ كما قال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ »(١) . وقال : «هُمُ الْعَدُوُّ»(٢) . وهو منصوب على المصدر أو المفعول من أجله .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أى كما زيّنّا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم . قال ابن عباس . زيّنّا لأهل الطاعةِ الطاعةَ ، ولأهل الكفرِ

(١) آية ٧٧ سورة الشعراء . (٢) آية ٤ سورة المنافقون .

الكفرَ ، وهو كقوله : « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ »[1] . وفى هـذا ردٌّ على القـدرية .

قوله تعـالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى حلفوا . وجَهْدُ اليمين أشدّها ، وهو بالله . فقوله « جهد أيمانهم » أى غاية أيمانهم التى بلغها علمهم ، وانتهت إليها قدرتهم . وذلك انهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم ، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظنًّا منهـم أنها تقربهم إلى الله زلفى ؛ كما أخبرعنهم بقوله تعالى : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى »[2] . وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك . وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يُسمّونه جَهْد اليمين إذا كانت اليمين بالله . « جَهْدَ » منصوب على المصدر والعامل فيه « اقسموا » على مذهب سيبويه ؛ لأنه فى معناه . والجَهْد (بفتح الجيم) : المشقّة ؛ يقال : فعلت ذلك بجَهْد . والجُهْد (بضمها) : الطاقة يقال : هذا جُهْدى ، أى طاقتى . ومنهم من يجعلهما واحدا ، ويحتج بقوله « وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ »[3] . وقرئ « جَهْدهم » بالفتح ؛ عن ابن قتيبة . وسبب الآية فيما ذكر المفسرون : القُرَظيّ والكلبي وغيرهما ، أن قريشا قالت : يا محمد ، تُخـبِرنا بأن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، وأن عيسى كان يُحيى الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ؛ فأْتنا ببعض هذه الآيات حتى نصدّقك . فقال : " أىّ شيء تحبّون " ؟ قالوا : اجعل لنا الصَّفَا ذهبا ؛ فوالله إن فعلتَه لنتبعنّك أجمعون . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ؛ فجاءه جبريل فقال : " إن شئت أصبح ذهبا ، ولئن أرسل الله آية ولم يصدّقوا عندها ليعذّبنّهم فاتركهـم حتى يتوب تائبهم " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل يتوب تائبهم " فنزلت هذه

---

(١) آية ٩٣ سورة النحل . (٢) آية ٣ سورة الزمر . (٣) آية ٧٩ سورة التوبة .

الآية . وبيّن الربّ بأن من سبق العلم الأزليّ بأنه لا يؤمن فإنه لا يؤمن وإن أقسم ليؤمنن .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ قيل : معناه بأغلظ الأيمان عندهم . وتعرِض هنا مسألةٌ من الأحكام عُظْمَى ، وهى قول الرجل : الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا . قال ابن العربيّ : وقد كانت هذه اليمين فى صدر الإسلام معروفةً بغير هذه الصورة ، كانوا يقولون : علىّ أشدّ ما أخذه أحد على أحد ؛ فقال مالك : تَطْلُق نساؤه . ثم تكاثرت الصُّوَر حتى آلت بين الناس إلى صورةٍ هذه أُمُّها . وكان شيخنا الفِهْرِىّ الطَّرَسُوسِىّ يقول : يلزمه إطعام ثلاثين مسكينا إذا حنِث فيها ؛ لأن قوله « الأيمان » جمع يمين ، وهو لو قال علىّ يمين وحنِث ألزمناه كفارةً . ولو قال : علىّ يمينان للزمته كفارتان إذا حنِث . والأيمان جمع يمين فيلزمه فيها ثلاث كفارات .

قلت : وذكر أحمد بن محمد بن مغيث فى وثائقه : اختلف شيوخ القَيْرَوان فيها ؛ فقال أبو محمد بن أبى يزيد : يلزمه فى زوجته ثلاث تطليقات ، والمَشْىُ إلى مكة ، وتفريقُ ثلث ماله ، وكفارةُ يمين ، وعِتق رقبة . قال ابن مغيث : وبه قال ابن أرفع رأسه وابن بدر من فقهاء طُلَيْطُلة . وقال الشيخ أبو عمران الفاسى وأبو الحسن القابِسىّ وأبو بكر بن عبد الرحمن القَرَوِىّ : تلزمه طلقة واحدة إذا لم تكن له نيّة . ومن حجتهم فى ذلك رواية ابن الحسن فى سماعه من ابن وهب فى قوله «وأشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه فى ذلك كفارةَ يمين» . قال ابن مغيث : فجعل مَن سمّيناه على القائل : « الأيمان تلزمه » طلقةً واحدة ؛ لأنه لا يكون أسوأ حالا من قوله : أشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه كفارةَ يمين ، وبه نقول . قال : واحتجّ الأوّلون بقول ابن القاسم فيمن قال : علىّ عهد الله وغليظُ ميثاقه وكفالته وأشدّ ما أخذ أحد على أحد على أمرٍ ألّا يفعله ثم فعله ؛ فقال : إن لم يُرِد الطلاق ولا العتاق وعزلهما عن ذلك فلتكن ثلاث كفارات . فإن لم تكن له نيّة حين حلف فليكفرّ كفارتين فى قوله : علىّ عهد الله وغليظ ميثاقه . ويعتق رقبة وتَطْلُق نساؤه ، ويمشى إلى مكة ويتصدّق بثلث ماله

فى قوله : واشـدّ ما أخذه أحد على أحد . قال ابن العربىّ : أمّا طريق الأدلّة فإن الألف واللام فى الأيمان لا تخلو أن يراد بها الجنس أو العهد؛ فإن دخلت للعهد فالمعهود قولك «بالله» فيكون ما قاله الفِهْرِىّ . فإن دخلت للجنس فالطلاق جنس فيدخل فيها ولا يُستوفَى عدده ، فإن الذى يكفى أن يدخل فى كل جنس معنى واحد؛ فإنه لو دخل فى الجنس المعنى كلّه للزمه أن يتصدّق بجميع ماله ؛ إذ قد تكون الصدقة بالمال يميناً . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى قل يامحمد: الله القادر على الإتيان بها، وإنما يأتى بها إذا شاء. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أى وما يُدريكم أيمانهم؛ فحذف المفعول. ثم آستأنف فقال: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بكسر إن، وهى قراءة مجاهد وأبى عمرو وابن كثير . ويشهد لهذا قراءة آبنِ مسعود « وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون » . وقال مجاهد وابن زيد : المخاطَب بهذا المشركون، وتمّ الكلام . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقد أعلمنا فى الآية بعد هذه أنهم لا يؤمنون . وهـذا التأويل يشبه قراءة من قرأ « تؤمنون » بالتاء . وقال الفرّاء وغيره : الخطاب للمؤمنين؛ لأن المؤمنين قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله، لونزلت الاية لعلهم يؤمنون؛ فقال الله تعالى : « وما يشعركم » أى يعلمكم ويدريكم أيها المؤمنون . «أنها» بالفتح، وهى قراءة أهل المدينة والأعمش وحمزة، أى لعلّها إذا جاءت لا يؤمنون . قال الخليل : « أنها » بمعنى لعلّها؛ حكاه عنه سيبويه . وفى التنزيل : « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى »(1) أى أنه يزّكّى. وحُكى عن العرب: اِيت السوق أنك تشترى لنا شيئا، أى لعلّك. وقال أبو النَّجْم:

قلت لشَيْبَانَ آدْنُ من لقائِهْ * أنّ تُغدّى القومَ من شِوائِهْ

وقال عَدِىّ بن زيد :

أعاذِلَ ما يُدريك أنّ منيّتى * إلى ساعةٍ فى اليوم أو فى ضُحَى الغَدِ

أى لعلّ . وقال دُرَيد بن الصِّمّة(2) :

أرِينى جوادًا مات هَزْلا لأنّنى * أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلا مُخَلّدا

(1) آية ٣ سورة عبس . (2) الصحيح أنه حاتم طى . كما فى الصحاح للجوهرى، وديوانه .

أى لعلّى . وهو فى كلام العرب كثير « أنّ » بمعنى لعل . وحكى الكسائى أنه كذلك فى مصحف أُبَىّ بن كعب « وما أدراكم لعلها » . وقال الكسائى والفرّاء : أن « لا » زائدة ، والمعنى : وما يشعركم أنها — أى الآيات — إذا جاءت المشركين يؤمنون ، فزيدت « لا » ؛ كما زيدت « لا » فى قوله تعالى : « وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ »(١) . لأن المعنى : وحرام على قرية مُهْلَكة رجوعُهم . وفى قوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » . والمعنى : ما منعك أن تسجد . وضعّف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة « لا » وقالوا : هو غلط وخطأ ؛ لأنها إنما تزاد فيما لا يُشْكِل . وقيل : فى الكلام حذف ، والمعنى : وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا لعلم السامع ؛ ذكره النحاس وغيره .

قوله تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

هذه آية مُشْكِلة ، ولا سيما وفيها « وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » . قيل : المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحرّ الجمر ؛ كما لم يؤمنوا فى الدنيا . ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ فى الدنيا ، أى نمهلهم ولا نعاقبهم ؛ فبعض الآية فى الآخرة ، وبعضها فى الدنيا . ونظيرها « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ »(٢) فهذا فى الآخرة . « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » فى الدنيا . وقيل : ونقلب فى الدنيا ؛ أى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حُلْنا بينهم وبين الإيمان أوّل مرة ؛ لمّا دعوتَهم وأظهرتَ المعجزة . وفى التنزيل : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ »(٣) . والمعنى : كان ينبغى أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم ؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبهم وأبصارهم . ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ودخلت الكاف على محذوف ، أى فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ؛ أى أوّل مرة أتتهم الآيات التى عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره . وقيل : ونقلّب أفئدة هؤلاء كيلا يؤمنوا ؛ كما لم تؤمن كفار

---

(١) آية ٩٥ سورة الأنبياء .   (٢) آية ٢ سورة الغاشية .   (٣) آية ٢٤ سورة الأنفال .

الأمم السالفة لما رأوا ما ٱقترحوا من الآيات . وقيل : فى الكلام تقـديم وتأخير ؛ أى أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أول مرة ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم . ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون . وقد مضى فى «البقرة»(١) .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ فرأوهم عِيانًا . ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ ﴾ بإحيائنا إياهم . ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ سألوه من الآيات . ﴿ قِبَلًا ﴾ مُقابلة ؛ عن ٱبن عباس وقتادة وابن زيد . وهى قراءة نافع وٱبن عامر . وقيل : معاينة ، لما آمنوا . وقال محمد بن يزيد : يكون « قِبلا » بمعنى ناحية ؛ كما تقول : لى قِبَل فلان مالٌ ؛ فقِبَلا نصب على الظرف . وقرأ الباقون «قُبُلًا» بضم القاف والباء ، ومعناه ضُمَناء ؛ فيكون جمع قَبِيل بمعنى كفيل ، نحو رغيف ورُغُف ؛ كما قال : «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»(٢) ؛ أى يضمنون ؛ ذلك عن الفَرّاء . وقال الأخفش : هو بمعنى قَبِيل قَبِيل ؛ أى جماعة جماعة ، وقاله مجاهد ، وهو نصب على الحال على القولين . وقال محمد بن يزيد « قُبُلا » أى مقابلة ؛ ومنه « وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ » . ومنه قُبُل الرّجل ودُبُره لما كان من بين يديه ومن ورائه . ومنه قُبُل الحيض . حكى أبو زيد : لقيت فلانا قُبُلًا ومقابلة وقَبَلا وقِبَلا ، كله بمعنى المواجهة ؛ فيكون الضم كالكسر فى المعنى وتستوى القراءتان ؛ قاله مكّيّ . وقرأ الحسن « قُبْلًا » حذف الضمة من الباء لثقلها . وعلى قول الفَرّاء يكون فيـه نطق ما لا ينطق ، وفى كفالة ما لا يعقل آية عظيمـة لهم . وعلى قول الأخفش يكون فيه اجتماع الأجناس الذى ليس بمعهود . والحشر الجمـع . ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ « أن » فى موضع استثناء ليس من الأوّل ؛ أى لكن إن شاء ذلك لهم . وقيل :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٩٢ سورة الإسراء .

الاستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم فى علم الله الإيمان . وفى هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أى يجهلون الحق . وقيل : يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الايات بعد أن رأوا آية واحدة .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ يُعزّى نبيّه ويُسلّيه ، أى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبى قبلك « عَدُوًّا » أى أعداء. ثم نعتهم فقال ﴿ شَيَٰطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ حكى سيبويه جعل بمعنى وصف . « عَدُوًّا » مفعول أول . « لِكُلِّ نَبِيٍّ » فى موضع المفعول الثانى . « شَيَٰطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » بدل من عدو . ويجوز أن يكون «شياطين» مفعولا أوّل ، « عدوّا » مفعولا ثانيا ؛ كأنه قال : جعلنا شياطين الإنس والجن عدوّا . وقرأ الأعمش « شياطين الجن والإنس » بتقديم الجن . والمعنى واحد . ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ عبارة عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس . وسُمّى وَحْيًا لأنه إنما يكون خُفية ، وجعل تمويههم زُخْرفا لتزيينهم إياه ؛ ومنه سُمّى الذهب زخرفا . وكل شىء حسَن مُمَوّه فهو زُخْرُف . والمزخرَف المزيّن . وزخارف الماء طرائقه . «غرورا» نصب على الحال ، لأن معنى « يُوحِى بعضهُم إلى بعض » يغرونهم بذلك غرورا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال . والغرور الباطل . قال النحاس : وروى عن ابن عباس بإسناد ضعيف أنه قال فى قول الله عز وجل «يُوحِى بعضهُم إلى بعضٍ» قال : مع كل جنىّ شيطان ، ومع كل إنسىّ شيطان ، فيلقَى أحدهما الآخر فيقول : إنى قد أضللتُ صاحبى بكذا فأضلّ صاحبَك بمثله . ويقول الآخر مثلَ ذلك ؛ فهذا وَحْىُ بعضهم إلى بعض . وقاله عكرمة والضحاك

والسُّدّى والكَلْبى . قال النحاس : والقول الأوّل يدل عليـه « وإنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ »(١)؛ فهذا يبيّن معنى ذلك .

قلت : ويدلّ عليه من صحيح السُّنَّة قولُه عليه السلام : "ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قَرِينُـه من الجن" قيل : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : "ولا أنا إلا أن الله أعاننى عليه فأسْلَمُ فلا يأمرنى إلا بخير". روى "فأسلم" برفع الميم ونصبها . فالرفع على معنى فأسلم من شره . والنصب على معنى فأسـلم هو . فقال : "ما منكم من أحد" ولم يقل ولا من الشياطين؛ إلا أنه يحتمل أن يكون نبّه على أحد الجنسين بالآخر؛ فيكون من باب «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»(٢) وفيه بُعْـدٌ، والله أعلم . وروى عَوف بن مالك عن أبى ذَرّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "يا أبا ذَرّ هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجن"؟ قال قلت : يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال : "نعم هم شرٌّ من شياطين الجن". وقال مالك بن دِينار : إن شيطان الإنس أشدّ علىّ من شيطان الجن، وذلك أنى إذا تعوّذت بالله ذهب عنى شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرّنى إلى المعاصى عِيانا . وسَمع عمر بن الخطاب آمرأة تُنشد :

إن النساء رَياحينٌ خلقن لكم * وكلُّكم يشتهى شمّ الرياحين

فأجابها عمر رضى الله عنه :

إن النساء شياطينٌ خُلقن لنا * نعـوذ بالله من شرّ الشياطين

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى ما فعلوا إيحاء القول بالغرور . ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أمرٌ فيه معنى التهديد . قال سيبويه : ولا يقال وذر ولا ودع، استغنَوْا عنه بترك .

قلت : هذا إنما خرّج على الأكثر . وفى التنزيل «وذَرِ الذين»(٣) و «ذَرْهم» و «ما ودَعك» . وفى السنة "ليتنهينّ أقوام عن وَدْعِهم الجُمُعات" . وقوله : "إذا فعلوا — يريد المعاصى —

---

(١) آية ١٢١ من هذه السورة . (٢) آية ٨١ سورة النحل . (٣) يلاحظ أن الفعل فى « وذر الذين » و « ذرهم » أمر ، ولا يتجه بهما ما ذكره قول المؤلف . فلعل فى الكلام سهوا ؛ والعصمة لله .

فقد تُوُدِّع منهم". قال الزجاج: الواو ثقيلة؛ فلما كان «ترك» ليس فيه واو بمعنى ما فيه الواو تُرِك ما فيه الواو. وهذا معنى قوله وليس بنصّه.

قوله تعالى: وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ﴾ تصغى تميل؛ يقال: صغوت أَصْغُو صَغْوًا وصُغُوًّا، وصَغَيت أصغى، وصَغِيت بالكسر أيضا. يقال منه: صغِي يَصْغَى صغًى وصُغِيًّا، وأصغيت إليه أصغِي بمعنًى. قال الشاعر:

تَرَى السَّفيه به عن كلّ مَكْرُمة * زَيْغٌ وفيه إلى التشبيه إصغاء

ويقال: أصغيت الإناء إذا أملته ليجتمع ما فيه. وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض. ومنه صَغَت النجوم: مالت للغروب. وفى التنزيل «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا»(١). قال أبو زيد: صَغْوُه معك وصِغْوُه، وصَغاه معك، أى مَيْله. وفى الحديث "فأصْغَى لها الإناء" يعنى للهرة. وأكرموا فلانا فى صاغِيته، أى فى قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده. وأصغت الناقة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئا حين يَشُدّ عليها الرَّحْل. قال ذو الرُّمّة:

تُصْغِى إذا شدّها بالكُورِ جانِحةً * حتى إذا ما ٱستوَى فى غَرْزِها تَثِبُ(٢)

واللام فى «ولِتَصْغَى» لام كَىْ، والعامل فيها «يوحِى» تقديره: يُوحِى بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصغى. وزعم بعضهم أنها لام الأمر، وهو غلط؛ لأنه كان يجب «ولْتصغ إليه» بحذف الألف، وإنما هى لام كَىْ. وكذلك «ولِيَرْضَوه وليقترفوا» إلا أن الحسن قرأ «ولْيرضوه

(١) آية ٤ سورة التحريم. (٢) الكور (بالضم): رحل الناقة بأداته؛ وهو كالسرج وآلته للفرس. قال ابن سيده: وكثير من الناس يفتح الكاف وهو خطأ. وجانحة: مائلة لاصقة. والغرز: سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب. وصف ناقته بالفطانة وسرعة الحركة.

وليقترفوا» بإسكان اللام، جعلها لام أمر فيه معنى التهديد؛ كما يقال : ما شئت فافعل . ومعنى «وليقترفوا ماهم مقترفون» أى وليكتسبوا؛ عن ابن عباس والسُّدّى وابن زيد . يقال : خرج يقترف أهله أى يكتسب لهم . وقارف فلان هذا الأمر إذا واقعه وعمله . وقرفتنى بما ادّعيت علىّ، أى رميتنى بالرِّيبة . وقرف القُرحة إذا قشَر منها . واقترف كذبا . قال رُؤْبَة :

أعيا اقتراف الكذب المقروف * تقـوى التقىّ وعفّـة الضعيف

وأصله اقتطاع قطعة من الشيء .

قوله تعـالى : أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ «غير» نصب بـ«أبتغى» . «حَكَمًا» نصب على البيان، وإن شئت على الحال . والمعنى : أفغير الله أطلب لكم حاكما وهو الذى كفاكم مئونة المسألة فى الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصّل، أى المبين . ثم قيل : الحَكَم أبلغ من الحاكم؛ إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق، لأنها صفة تعظيم فى مدح . والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يُسمَّى بها من يحكم بغير الحق . ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يريد اليهود والنصارى . وقيل : من أسلم منهم كسَلْمان وصُهيب وعبد الله بن سَلام . ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أى القرآن . ﴿ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى أن كلّ ما فيه من الوعد والوعيد لحَقّ ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أى من الشاكّين فى أنهم يعلمون أنه منزّل من عند الله . وقال عطاء: الذين آتيناهم الكتاب هم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام : أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضى الله عنهم .

قوله تعـالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ ﴾ قرأه أهل الكوفة بالتوحيد، والباقون بالجمع . قال ابن عباس : مواعيد ربك، فلا مغيّر لها . والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما . قال قتادة: الكلمات هى القرآن لامبدل له، لايزيد فيه المفترون ولاينقصون . ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أى فيما وعد وحكم، لا رادّ لقضائه ولا خُلْف فى وعده . وحكى الرّمّانى عن قتادة : لامبدّل لها فيما حكم به، أى أنه وإن أمكنه التغيير والتبديل فى الألفاظ كما غيّر أهل الكتاب التوراةَ والإنجيل فإنه لايعتدّ بذلك . ودلّت الآية على وجوب آتباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لايمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لايخفى عليه شيء من الأمور .

قوله تعالى : وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى الكفار . ﴿ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أى عن الطريق التى تؤدّى إلى ثواب الله . ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ « إنْ » بمعنى ما، وكذلك ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى يَحْدِسون ويقدرون؛ ومنه الخَرْص، وأصله القطع . قال الشاعر :

تَرَى قِصَدَ المُرّان فينا كأنه ❊ تَذَرُّعُ خِرصانٍ بأيدى الشَّواطِبِ (١)

يعنى جريدا يُقطع طولا ويُتّخذ منه الحصر . وهو جمع الخرص ؛ ومنه خَرَص يَخْرُص النخل خَرْصا إذا حزره ليأخذ الخَرَاج منه . فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به؛ إذ لايقين معه .

(١) البيت لقيس بن الخطيم . والقصد (بكسر القاف وفتح الصاد جمع قصدة) : القطعة مما يكسر . والمرّان : نبات الرماح . او الرماح الصلبة اللدنة . والتذرع : تقدير الشيء بذراع اليد . والخرصان : القضبان من الجريد . والشواطب (جمع الشاطبة) وهى المرأة التى تقشر العسيب ثم تلقيه إلى المنقية فتأخذ كل ما عليه بسكينها حتى تتركه رقيقا ثم تلقيه المنقية إلى الشاطبة ثانية فتشطبه على ذراعها وتتذرعه . وقوله « فينا كأنه » عبارة الأصول . والذى فى اللسان « تاق كأنه » وفى ديوانه « تهوى كأنها » .

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الذاريات»(١) إن شاء الله تعالى. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ قال بعض الناس : إن « أعلم » هنا بمعنى يعلم؛ وأنشد قول حاتم الطائىّ :

تحالفَتْ طيِّئٌ من دوننـا حِلَفًـا * والله أعلم ما كنا لهم خُذُلًا(٢)

وقول الخنساء :

الله أعلم أنّ جَفْنتـه * تَغْـدُو غداةَ الريح أو تَسْرِى

وهذا لا حجة فيه؛ لأنه لا يطابق «وهو أعلم بالمهتدين» . ولأنه يحتمل أن يكون على أصله . ﴿ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ «من» بمعنى أىّ؛ فهو فى محل رفع والرافع له «يضل» . وقيل : فى محل نصب بأعلم، أى إن ربّك أعلم أىّ الناس يضل عن سبيله . وقيـل : فى محل نصب بنزع الخافض؛ أى بمن يضل . قال بعض البصريين : وهو حَسَن؛ لقوله : «وهو أعلم بالمهتدين» وقوله فى آخر النّحل « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » . وقرئ « يُضِلّ » وهذا على حذف المفعول ، والأوّل أحسن ؛ لأنه قال « وهو أعلم بالمهتدين » . فلو كان من الإضلال لقال وهو أعلم بالهادين .

قوله تعـالى : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْـهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ نزلت بسبب أناس أَتَوُا النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله؟ فنزلت «فكلوا — إلى قوله — وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» خرجه الترمذىّ وغيره . قال عطاء : هذه الآية أمرٌ بذكر ٱسم الله على الشَّراب والذبح وكلّ مطعوم . وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بأحكامه وأوامره آخذين؛ فإن الإيمان بها يتضمّن ويقتضى الأخذ بها والآنقياد لها .

(١) فى قوله تعالى : « قتل الخراصون » آية ١٠ .

(٢) فى الأصول : « خولا » بالواو بدل الذال . والتصويب عن تفسير الطبرى . والخذل : جمع خذول .

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ المعنى : ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه ربكم وإن قتلتموه بأيديكم. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ أى بين لكم الحلال من الحرام، وأزيل عنكم اللبس والشك. فـ«ما» استفهام يتضمن التقرير. وتقدير الكلام : وأى شئ لكم فى ألا تأكلوا. فـ«أنْ» فى موضع خفض بتقدير حرف الجر. ويصح أن تكون فى موضع نصب على ألا يقدر حرف جر، ويكون الناصب معنى الفعل الذى فى قوله «مَالَكُمْ» تقديره أى ما يمنعكم. ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يريد من جميع ما حرم كالميتة وغيرها كما تقدم فى «البقرة»[(١)]. وهو استثناء منقطع. وقرأ نافع ويعقوب «وقد فَصَّل لكم ما حَرَّم» بفتح الفعلين. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما، والكوفيون «فَصَّل» بالفتح «حُرِّم» بالضم. وقرأ عطية العوفى «فَصَل» بالتخفيف. ومعناه أبان وظهر، كما قرئ «الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِلَتْ»[(٢)] أى آستبانت. واختار أبو عبيدة قراءة أهل المدينة. وقيل : «فصل» أى بين، وهو ما ذكره فى سورة «المائدة» من قوله : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ»[(٣)] الآية.

قلت : هذا فيه نظر، فإن «الأنعام» مكية والمائدة مدنية فكيف يحيل بالبيان على مالم ينزل بعد، إلا أن يكون فصل بمعنى يفصل. والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ وقرأ الكوفيون «يُضِلون» من أضل. ﴿بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعنى المشركين حيث قالوا : ما ذبح الله بسكينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى بغير علم يعلمونه فى أمر الذبح ؛ إذ الحكمة فيه إخراج ما حرم الله علينا من الدم بخلاف ما مات حتف أنفه ؛ ولذلك شرع الذكاة فى محل مخصوص ليكون الذبح فيه سببا لجذب كل دم فى الحيوان بخلاف غيره من الأعضاء. والله أعلم.

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٢٤ طبعة ثانية. (٢) أول سورة هود. (٣) آية ٣

قوله تعالى : وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ للعلماء فيه أقوال كثيرة . وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملا بالبدن مما نهى الله عنه ، وباطنه ما عُقد بالقلب من مخالَفة أمر الله فيما أمر ونهى؛ وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من آتق وأحسن؛ كما قال : «ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا» . وهى المرتبة الثالثة حسب ما تقدّم بيانه فى « المائدة »(١) . وقيل : هو ما كان عليه الجاهلية من الزنا الظاهر وآتخاذ الحلائل فى الباطن . وما قدّمنا جامع لكل إثم .

قوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — روى أبو داود قال: جاءت اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله عز وجل « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ» إلى آخر الآية . وروى النَّسائى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» قال. خاصمهم المشركون(٢) فقالوا : ماذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم أكلتموه؛ فقال الله سبحانه لهم: لا تأكلوا؛ فإنكم لم تذكروا آسم الله عليها . وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهى:

الثانيـــة — وذلك أن اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليـه أم لا ؛ فقال علماؤنا : لا إشكال فى صحة دعوى العموم فيما يذكره الشارع ابتداء من صِيَغ ألفاظ العموم . أما ماذكره

(١) فى قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٩٣ .
(٢) أى خاصم المؤمنين المشركون .

جوابا لسؤال ففيه تفصيل، على ما هو معروف فى أصول الفقه؛ إلا أنه إن أتى بلفظ مستقل دون السؤال لَحق بالأوّل فى صحة القصد إلى التعميم . فقوله : « لاتأكلوا » ظاهر فى تناول الميتة، ويدخل فيه ما ذُكر عليه غير ٱسم الله بعمومِ أنه لم يذكر عليه ٱسم الله، وبزيادة ذكر غير اسم الله سبحانه عليه الذى يقتضى تحريمه نصًّا بقوله : «وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ»(١).وهل يدخل فيه ما ترك المسلم التسمية عمدا عليه من الذبح، وعند إرسال الصيد . اختلف العلماء فى ذلك على أقوال خمسة ، وهى : —

الثالثة — الأول — إن تركها سهوًا أُكِلا جميعا؛ وهو قول إسحاق ورواية عن أحمد ابن حنبل . فإن تركها عمدا لم يؤكلا ؛ وقاله فى الكتاب مالكٌ وابن القاسم ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه والثورِى ّ والحسن بن حىّ وعيسى وأَصْبَغ ، وقاله سعيد بن جُبير وعطاء، وٱختاره النحاس وقال : هذا حَسَن؛ لأنه لا يُسَمَّى فاسقا إذا كان ناسيا .

الثانى — إن تركها عامدا أو ناسيا يأكلهما . وهو قول الشافعى والحسن، وروى ذلك عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء وسعيد بن المسيِّب والحسن وجابر بن زيد وعِكرمة وأبى عِياض وأبى رافع وطاوس وإبراهيم النَّخَعِىّ وعبد الرحمن بن أبى لَيْلَى وقَتادة . وحكى الزَّهْرَاوِىّ عن مالك بن أنس أنه قال : تؤكل الذبيحة التى تركت التسمية عليها عمدا ونسيانا . وعن ربيعة أيضا . قال عبد الوهاب : التسمية سنة؛ فإذا تركها الذابح ناسيا أكلت الذبيحة فى قول مالك وأصحابه .

الثالث — إن تركها عامدا أو ساهيا حَرُم أكلها ؛ قاله محمد بن سِيرين وعبد الله بن عياش ابن أبى ربيعة وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن يزيد الخَطْمِىّ والشعبىّ؛ وبه قال أبو ثور وداود بن علىّ وأحمد فى رواية .

الرابع — إن تركها عامدًا كُره أكلها ؛ قاله القاضى أبو الحسن والشيخ أبو بكر من علمائنا .

---

(١) آية ١٧٣ سورة البقرة .

الخـامس – قال أشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدًا إلا ان يكون مستخفًا ، وقال نحوه الطبرى، قال الله تعالى : «فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ» . وقال « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » فبيّن الحالين وأوضح الحكمين . فقوله « لا تأكلوا » نهىٌ على التحريم لا يجوز حمله على الكراهة ؛ لتناوله فى بعض مقتضياته الحرام المحض ، ولا يجوز أن يتبعّض ، أى يراد به التحريم والكراهة معًا ؛ وهذا من نفيس الأصول . وأما النّاسى فلا خطاب توجّه إليه إذ يستحيل خطابه ؛ فالشرط ليس بواجب عليه . واما التارك للتسمية عمدا فلا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يتركها إذا أضجع الذبيحة ويقول : قلبى مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده فلا أفتقر إلى ذكرٍ بلسان ؛ فذلك يجزئه لأنه ذكر الله جلّ جلاله وعظّمه . أو يقول : إن هذا ليس بموضع تسْمية صريحة، إذ ليست بقُرْبة ؛ فهذا أيضا يجزئه . أو يقول : لا أسمى ، وأىّ قدر للتسمية ؛ فهذا متهاون فاسق لا تؤكل ذبيحته. قال ابن العربىّ . وأعجب لرأس المحققين إمامِ الحرمين حيث قال : ذِكر الله تعالى إنما شُرِع فى القُرَب ، والذّبح ليس بقُرْبة . وهذا يعارض القرآن والسنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : " ما أنهر الدّمَ وذُكر آسم الله عليه فَكُلْ " . فان قيل : المراد بذكر آسم الله بالقلب ؛ لأن الذكر يضادّ النسيان ومحل النسيان القلب فمحل الذكر القلب ، وقد روى البَرَاء ابن عازب : اسم الله على قلب كل مؤمن سَمّى أو لم يسمّ . قلنا : الذكر باللسان و بالقلب ، والذى كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنُّصُب باللسان ، فنسخ الله ذلك بذكره فى الالسنة ، وآشتهر ذلك فى الشريعة حتى قيل لمالك : هل يُسَمّى الله تعالى إذا توضأ فقال : أيريد أن يذبح . وأما الحديث الذى تعلّقوا به من قوله : « آسم الله على قلب كل مؤمن » فحديث ضعيف . وقد استدلّ جماعة من أهل العلم على أن التسمية على الذبيحة ليست بواجبة ؛ لقوله عليه السلام لأناس سألوه ، قالوا : يارسول الله ، إنّ قوماً يأتوننا باللّحم لاندرى أذكروا آسم الله عليه أم لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَمّوا الله عليه وكُلُوا" . أخرجه الدّارَقُطنىّ عن عائشة ومالك مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيه ، لم يُختلف عليه فى إرساله .

وتأوّله بأن قال فى آخره : وذلك فى أوّل الإسلام . يريد قبل أن ينزل عليه « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ » . قال أبو عمر : وهذا ضعيف ، وفى الحديث نفسه ما يردّه ، وذلك أنه أمرهم فيه بتسمية الله على الأكل ؛ فدلّ على أن الآية قد كانت نزلت عليه . ومما يدلّ على صحة ما قلناه أن هذا الحديث كان بالمدينة ، ولا يختلف العلماء أن قوله تعالى : «ولا تأكلوا مما لم يُذْكَرِ ٱسم الله عليه» نزل فى سورة «الأنعام» بمكة . ومعنى ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ أى لمعصية؛ عن ابن عباس . والفِسْق : الخروج؛ وقد تقدّم (١) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ أى يُوَسْوِسون فيُلقون فى قلوبهم الجدال بالباطل . روى أبو داود عن ابن عباس فى قوله « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم فكُلُوه ، فأنزل الله « ولا تأكلوا مِمّا لم يُذْكَرِ ٱسمُ اللهِ عليه » قال عِكرمة : عنى بالشياطين فى هذه الآية مَرَدة الإنس من مَجُوس فارس . وقال ابن عباس وعبد الله بن كثير : بل الشياطين الجنّ، وكفرة الجن أولياء قريش . ورُوى عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له : إن المختار يقول : يُوحَى إلىّ؛ فقال : صدق ، إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . يريد ما قتل الله لم تأكلوه وما قتلتموه أكلتموه . والمجادلة : دفع القول على طريق الحجة بالقوّة ؛ مأخوذ من الأجدل ، طائر قوىّ . وقيل : هو مأخوذ من الجَدالة ، وهى الأرض؛ فكأنه يغلبه بالحجة ويُقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض . وقيل : هو مأخوذ من الجَدْل، وهو شدة الفَتْل؛ فكأن كلّ واحد منهما يفتِل حجة صاحبه حتى يقطعها ، وتكون حقا فى نصرة الحق و باطلا فى نصرة الباطل .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ أى فى تحليل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ . فدلّت الآية على أن من ٱستحلّ شيئا مما حرّم الله تعالى صار به مُشركا . وقد حرّم الله سبحانه الميتة نَصًّا؛ فإذا قَبِل تحليلها من غيره فقد أشرك . قال ابن العربىّ : إنما يكون المؤمن بطاعة

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

المشرك مشركا إذا أطاعه فى الاعتقاد ؛ فإن أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص؛ فافهموه . وقد مضى فى « المـائدة »(١) .

قوله تعـالى : أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو ، دخلت عليها همزة الاستفهام . وروى المُسَيَّبى عن نافع بن أبى نعيم « أَوْ مَنْ كَانَ » بإسكان الواو . قال النحاس : يجـوز أن يكون محمـولا على المعـنى ، أى ٱنظروا وتدبروا أغير الله أبتغى حكما . ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ قيل : معناه كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه ؛ حكاه ابن بحر . وقال ابن عباس : أو من كان كافرا فهديناه . نزلت فى حمزة بن عبد المطلب وأبى جهـل . وقال زيد بن أسلم والسُّدّى : « فأحييناه » عمر . « كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ » أبو جهـل . والصحيح أنها عامّة فى كل مؤمن وكافر . وقيـل : كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم . وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هـذا التأويل لبعض شعراء العرب :

وفى الجهل قبل الموت موتٌ لأهله * فأجسامهم قبـل القبور قبـور
وإنّ ٱمرأ لم يَحْيَ بالعـلم ميّت * فليس له حتى النشـور نشـور

والنُّور عبارة عن الهُدَى والإيمان . وقال الحسن : القرآن . وقيل : الحكمة . وقيل : هو النور المذكور فى قوله : « يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ »(٢) ، وقوله : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »(٣) . ﴿يَمْشِى بِهِ﴾ أى بالنور . ﴿فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَـلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ﴾ أى كمن هو ؛ فمثل زائدة . تقول : أنا أكرم مثلك ؛ أى أكرم منك . ومثله « فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ »(٤) ،

(١) راجع آية ٨١ . (٢) آية ١٢ سـورة الحديد . (٣) آية ١٣ سورة الحديد .
(٤) آية ٩٥ سورة المـائدة .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ »(١) . وقيل : المعنى كمن مثله مثل من هو فى الظلمات . والمَثَل والمِثْل واحد . ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى زيّن لهم الشيطان عبادةَ الأصنام، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ المعنى : وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا فى كل قرية . ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أوّل لجعل ﴿ أَكَٰبِرَ ﴾ الثانى على التقديم والتأخير . وجعل بمعنى صير . والأكابر جمع الأكبر . قال مجاهد : يريد العلماء . وقيل : الرؤساء والعظماء . وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والمكر والحيلة فى مخالفة الاستقامة . وأصله الفتل؛ فالماكر يَفْتِل عن الاستقامة أى يصرف عنها . قال مجاهد : كانوا أجلسوا على كل عقبة أربعةً ينفّرون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم . ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أى وبالُ مكرهم راجعٌ إليهم . وهو من الله عز وجل الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ فى الحال؛ لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم .

قوله تعالى : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ ﴾ بيّن شيئا آخر من جهلهم، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنؤتَى مثل ما أوتى موسى وعيسى من الآيات؛ ونظيره « بَلْ يُرِيدُ

(١) آية ١١ سورة الشورى .

كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً(١) » . والكناية فى « جاءتهم » ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم . قال الوليد بن المغيرة : لوكانت النبوّة حقًّا لكنت أولَى بها منك ؛ لأنى أكبر منك سِنًّا ، وأكثر منك مالا . وقال ابو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا ، إلا أن يأتينا وَحْىٌ كما يأتيه ؛ فنزلت الآية . وقيل : لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك . والأوّل أصح ؛ لأن الله تعالى قال : « ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِه » أى بمن هو مأمون عليها وموضع لها . و « حيث » ليس ظرفا هنا ، بل هو آسم نُصب نَصب المفعول به على الآتساع ؛ أى الله أعلم أهل الرسالة . وكان الأصل الله أعلم بمواضع رسالته ، ثم حذف الحرف ، ولا يجوز أن يعمل « أعلم » فى « حيث » و يكون ظرفا ، لأن المعنى يكون على ذلك الله أعلم فى هـذا الموضع ، وذلك لا يجوز أن يوصف به البارى تعالى ، وإنما موضعها نصب بفعل مضمر دَلّ عليه « أعلم » . وهى اسم كما ذكرنا . والصَّغار : الضَّيْم والذل والهوان ، وكذا الصُّغر (بالضم) . والمصدر الصَّغَر (بالتحريك) . وأصله من الصِّغَر دون الكبر ؛ فكأنّ الذلّ يصغر إلى المرء نفسه ، وقيل : أصله من الصَّغَر وهو الرضا بالذل ؛ يقال منه : صَغَر يَصْغُر بفتح العين فى الماضى وضمها فى المستقبل . وصَغِر بالكسر يَصْغَر بالفتح لغتانِ ، صَغَرًا وصَغارا ، واسم الفاعل صاغِر وصغِير . والصاغِر : الراضى بالضيم . والمَصْغُوراء الصَّغار . وأرض مُصْغِرة : نبتها لم يَطُل ؛ عن آبن السِّكِّيت . ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أى من عند الله ، فحذف . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى سيصيب الذين أجرموا عنـد الله صغار . الفراء : سيصيب الذين أجرموا صغار من الله . وقيل : المعنى سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت عند الله . قال النحاس : وهـذا أحسن الأقوال ؛ لأن « عند » فى موضعها .

قوله تعـالى : فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

(١) آية ٥٢ سورة المدثر .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أى يوسعه له ، و يوفقه ويزين عنده ثوابه . و يقال : شرح شق ، وأصله التوسعة . وشرح الله صدره وسّعه بالبيان لذلك . وشرحتُ الأمر : بيّنته وأوضحته . وكانت قريش تَشْرَح النساء شَرْحا ، وهو مما تقدّم من التّوسعة والبَسْط ، وهو وطء المرأة مستلقِيَةً على قَفاها . فالشّرح : الكشف ؛ تقول : شرحت الغامض ؛ ومنه تشريح اللحم . قال الراجز :

كم قد أكلتُ كَبِدًا و إِنْفَحهْ * ثم ٱدّخرت إِلْيَــةً مُشَرَّحَهْ

والقطعة منه شريحة . وكل سمين من اللحم ممتد فهو شريحة . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ ﴾ يُغوِيه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ وهذا ردّ على القدرية . ونظير هذه الآية من السُّنّة قوله عليه السلام : "من يُرِدِ الله به خيرا يفقهه فى الدِّين" أخرجه الصحيحان . ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنويره . والدِّينُ العبادات ؛ كما قال : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ» . ودليل خطابه أن مَن لم يُرِد الله به خيرا ضيّق صدره ، وأبعد فهمه فلم يفقهه . والله أعلم . وروى أن عبد الله بن مسعود قال : يا رسول الله ، وهل ينشرح الصدر؟ فقال : " نعم يدخل القلبَ نور " فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "التّجافِى عن دار الغرور والإنابةُ إلى دار الخلود والاستعدادُ للموت قبل نزول الموت " . وقرأ ابن كثير « ضَيْقًا » بالتخفيف ؛ مثل هَيْن ولَيْن لغتان . ونافع وأبو بكر « حَرِجًا » بالكسر ، ومعناه الضّيق . كرر المعنى ، وحَسُن ذلك لاختلاف اللفظ . والباقون بالفتح . جمع حرجة ؛ وهو شدّة الضِّيق أيضا . والحَرَجة الغَيْضَة ؛ والجمع حَرَج وحَرَجات . ومنه فلان يتحرَّج أى يضيّق على نفسه فى تركه هواه للمعاصى ؛ قاله الهروِىّ . وقال ٱبن عباس : الحَرَج موضع الشجر الملتفّ ؛ فكأنّ قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذى ٱلتفّ شجره . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا المعنى ؛ ذكره مكّىّ والثّعلبى وغيرهما . وكل ضيّق حَرِجٌ وحَرَج . قال الجوهرى : مكان حَرِج وحَرَج أى ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية .وقرئ «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» و «حَرِجًا» .وهو بمنزلة الوَحَد والوَحِد و الفَرَد والفَرِد

والدَّنَف والدَّنِف، فى معنًى واحد، وحكاه غيره عن الفراء . وقد حَرِج صدره يَحْرَج حَرَجًا . والحَرَج الإثم . والحرج أيضا : الناقة الضامرة . ويقال : الطويلة على وجه الأرض ؛ عن أبى زيد، فهو لفظ مشترك . والحَرَج : خشب يُشدّ بعضه إلى بعض يُحمل فيه الموتى ؛ عن الأصمعىّ . وهو قول آمرئ القيس :

فإمّا تَرَيْـنِى فى رِحالة جابرٍ * على حَرَج كالقَرّ تَخْفق أكفانى (١)

وربمـا وضع فوق نعش النساء؛ قال عنترة يصف ظليما :

يَتْبعْن قُـلّةَ رأسِـه وكأنه * حَرَج على نَعْش لَهُنّ مُخَـيّم (٢)

وقال الزجاج : الحَرَج : أضيق الضِّيق . فإذا قيل . فلان حَرَج الصدر ، فالمعنى ذو حَرَج فى صدره . فإذا قيل : حرِج فهو فاعل . قال النحاس : حرِج آسم الفاعل، وحرَج مصدر وُصف به ؛ كما يقال : رجل عَدْلٌ ورضًا .

قوله تعـالى : ﴿ كأنّمَـا يَصّـعّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ قرأه آبن كثير بإسـكان الصاد مخففًا، من الصعود وهو الطلوع . شـبه الله الكافر فى نفوره من الإيمـان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يُطيقه ، كما أن صعود السماء لا يُطاق . وكذلك يَصّاعد وأصله يتصاعد، أدغمت التاء فى الصاد، وهى قراءة أبى بكر والنَّخَعِى؛ إلا أن فيه معنى فعلٍ شيء بعد شىء، وذلك أثقل على فاعله . وقرأ الباقون بالتشديد من غير ألف ، وهو كالذى قبله . معناه يتكلف ما لا يطيق شيئا بعد شىء، كقولك : يتجرّع ويتفوّق (٣) . ورُوى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « كأنما يَتَصَعّد » . قال النحاس : ومعنى هذه القراءة وقراءةِ من قرأ يَصْعَد ويَصّاعد واحد . والمعنى فيهما أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدِر على ذلك؛ فكأنه

(١) أراد بالرحالة الخشب الذى يحمل عليه فى مرضه . وأراد بالأكفان ثيابه التى عليه ؛ لأنه قدر أنها ثيابه التى يدفن فيها . وخفقها ضرب الريح لهـا . وأراد بجابر جابر بن حنى التغلبى ، وكان معه فى بلاد الروم ، فلما آشتدت علته صنع له من الخشب شيئا كالقر يحمل فيـه ، والقر : مركب من مراكب الرجال بين الرحل والسرج . (عن اللسان مادة حرج) . (٢) وصف نعامة يتبعها رئالها وهو يبسط جناحيه ويجعلها تحته .

(٣) تفوّق شرابه : شربه شيئا بعد شىء .

يستدعي ذلك . وقيل : المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نَبْوًا عن الإسلام . ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ ﴾ عليهم ؛ بجعله ضيق الصدر في أجسادهم . وأصل الرِّجس في اللغة النَّتن . قال ابن زيد : هو العذاب . وقال ابن عباس : الشيطان ؛ أي يسلّطه عليهم . وقال مجاهد : الرّجس ما لا خير فيـه . وكذلك الرجس عند أهل اللغة هو النتن . فمعنى الآية والله أعلم : ويجعل اللّعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ على الذين لا يؤمنون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ أي هـذا الذي أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربّك لا آعوجاج فيه . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ ﴾ أي بيّناها ﴿ لقوم يذكرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للتذكرين . ﴿ دَارُ السَّـلَامِ ﴾ أي الجنة ، فالجنة دار الله ؛ كما يقال : الكعبة بيت الله . ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة ، أي التي يسلم فيهـا من الآفات . ومعنى ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله . ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ أي ناصرهم ومُعينهم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ نصب على الفعل المحذوف، أى و يوم يحشرهم يقول . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . والمراد حشر جميع الخلق فى موقف القيامة . ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ نداء مضاف . ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أى من الاستمتاع بالإنس؛ فحذف المصدر المضاف إلى المفعول، وحرف الجر؛ يدلّ على ذلك قوله : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ وهذا يردّ قول من قال : إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس؛ لأن الإنس قَبِلوا منهم . والصحيح أن كل واحد مستمتع بصاحبه . والتقدير فى العربية : استمتع بعضنا بعضا؛ فاستمتاع الجن من الإنس أنهم تلذّذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذّذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زَنَوْا وشربوا الخمور بإغواء الجن إيّاهم . وقيـل : كان الرجل إذا مرّ بوادٍ فى سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ بربّ هذا الوادى من جميع ما أحذر . وفى التـنزيل « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »(١) . فهـذا استمتاع الإنس بالجنّ . وأما استمتاع الجنّ بالإنس فبما كانوا يُلقون إليهم من الأراجيف والكَهانة والسِّحر . وقيل : استمتاع الجن بالإنس أنهـم يعترفون أن الجنّ يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون . ومعنى الآية تقريع الضّالين والمضلين وتو بيخهم فى الآخرة على أعين العالمين . ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ يعنى الموت والقبر، ووافينا نادمين . ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ أى موضـع مُقامكم . والمَثْوى المُقام . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء ليس من الأوّل . قال الزجاج : يرجع إلى يوم القيامة، أى خالدين فى النار إلا ماشاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدّتهم فى الحساب ؛ فالاستثناء منقطع . وقيل : يرجع الاستثناء إلى النار، أى إلا ما شاء الله من تعذيبكم بغير النار فى بعض الأوقات . وقال ابن عباس : الاستثناء لأهل الإيمـان . فـ«ـما» على هذا بمعنى مَن . وعنه أيضا أنه قال : هذه الآية توجب الوقف فى جميع الكفار . ومعنى ذلك أنها توجب الوقف فيمن لم يمت ، إذ قد يُسلم . وقيل : «إلّا ما شاء الله» من كونهم فى الدنيا بغير عذاب . ومعنى هذه الآية معنى الآية التى فى «هود»(٢) . قوله : «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ» وهناك يأتى مستوفًى إن شاء الله . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ أى فى عقوبتهم وفى جميع أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمقدار مجازاتهم .

---

(١) آية ٦ سورة الجن . (٢) الآية ١٠٦

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ المعنى وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفته لكم من ٱستمتاع بعضهم ببعض أجعل بعض الظالمين أولياء بعض، ثم يتبرأ بعضهم من بعض غدًا . ومعنى «نُوَلِّي» على هذا نجعل وليًّا . قال ابن زيد : نسلّط ظلمة الجنّ على ظلمة الإنس . وعنه أيضا : نسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذلّه . وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالما آخر . ويدخل في الآية جميعُ مَن يظلم أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم . وقال فُضيل بن عِياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقِف، وٱنظر فيه متعجّبًا . وقال ٱبن عباس : إذا رضى الله عن قوم ولّى أمرَهم خيارَهم، وإذا سخِط الله على قوم ولّى أمرَهم شرارهم . وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من أعان ظالما سلّطه الله عليه" . وقيل : المعنى نَكِل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، كما نَكِلهم غدًا إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب . أي كما نفعل بهم ذلك في الآخرة كذلك نفعل بهم في الدنيا . وقد قيل في قوله تعالى « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى » : نَكله إلى ما وَكَل إليه نفسه . قال ابن عباس : تفسيرها هو أن الله إذا أراد بقوم شرًّا ولّى أمرَهم شرارَهم . يدلّ عليه قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ[1] » .

قوله تعالى : يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي يوم نحشرهم نقول ألم يأتكم رسل، فحذف ؛ فيعترفون بما فيه افتضاحهم . ومعنى « منكم » في الخلق والتكليف والمخاطبة . ولما

(١) آية ٣٠ سورة الشورى .

كانت الجن ممن يُخاطب ويعقل قال « منكم » وإن كانت الرسل من الإنس وغلّب الإنس في الخطاب كما يُغلّب المذكر على المؤنث . وقال ابن عباس : رسل الجن هم الذين بلّغوا قومَهم ماسمعوه من الوحى ؛ كما قال : « وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ »(١) . وقال مُقاتِل والضّحاك : أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس . وقال مجاهد : الرسل من الإنس ، والنُّذُر من الجن ؛ ثم قرأ « إلى قومِهم منذِرين » . وهو معنى قولِ ابن عباس ، وهو الصحيح على ماياتى بيانه في « الأحقاف »(٢) . وقال الكلبيّ : كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يُبعثون إلى الإنس والجن جميعا .

قلت : وهذا لا يصحّ ، بل في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُعطيتُ خمسا لم يُعطهُنّ نبيّ قبلى كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثتُ إلى كلّ أحمرَ وأسودَ " الحديث . على ما ياتى بيانه في «الأحقاف» . وقال ابن عباس : كانت الرسل تُبعث إلى الإنس وإن محمدا صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الجن والإنس ؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ . وقيل : كان قوم من الجن آستمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم ؛ كالحال مع نبينا عليه السلام . فيقال لهم رسل الله ، وإن لم يُنَصّ على إرسالهم . وفي التنزيل « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »(٣) أي من أحدهما ، وإنما يخرج من المِلح دون العذْب ، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن ؛ فمعنى «منكم» أي من أحدكم . وكان هذا جائزا ؛ لأن ذكرهما سبق . وقيل : إنما صيّر الرسل في مخرج اللفظ من الجميع لأن الثَّقَلين قد ضمتهما عَرْصة القيامة ، والحساب عليهم دون الخلق ؛ فلما صاروا في تلك العَرْصة في حساب واحد في شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة ؛ لأن بدء خلقهم للعبودية ، والثوابُ والعِقاب على العبودية ، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار ، وأصلنا من تراب ، وخلقهم غير خلقنا ؛ فمنهم مؤمن وكافر .

---

(١) في قوله تعالى : « وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن ... » الخ آية ٢٩ سورة الأحقاف
(٢) في قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنا سمعنا ... » آية ٣٠ . (٣) آية ٢٢ سورة الرحمن .

وعدوّنا إبليس عدوّ لهم، يعادى مؤمنهم ويوالي كافرهم. وفيهم أهواء : شيعة وقدرية ومرجئة يتلون كتابنا . وقد وصف الله عنهم فى سورة « الجن » من قوله : « وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ » . « وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا »(١) على ما يأتى بيانه هناك . «يَقُصُّونَ» فى موضع رفع نعت لرسل . ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أى شهدنا أنهم بلغوا . ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قيل : هذا خطاب من الله للمؤمنين ؛ أى أن هؤلاء قد غرّتهم الحياة الدنيا، أى خدعتهم وظنّوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا . ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى اعترفوا بكفرهم . قال مُقاتل : هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ فى موضع رفع عند سيبويه؛ أى الأمر ذلك . و « أنْ » مخفّفة من الثقيلة ؛ أى إنما فعلنا هذا بهم لأنى لم أكن أُهلك القرى بظلمهم ؛ أى بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير . وقيل : لم أكن أُهلك القرى بشرك من أشرك منهم ؛ فهو مثل «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» . ولو أهلكهم قبل بعثه الرسل فله أن يفعل ما يريد . وقد قال عيسى : «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ»(٢) وقد تقدم. وأجاز الفراء أن يكون « ذلك » فى موضع نصب، المعنى : فعل ذلك بهم ؛ لأنه لم يكن يهلك القرى بظلم .

قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أى من الجن والإنس ؛ كما قال فى آية أخرى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » ثم قال : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(٣) . وفى هذا ما يدل عن أن المطيع من الجن فى الجنة ، والعاصى منهم فى النار ؛ كالإنس سواء . وهو أصح

(١) آية ١١ ، ١٤ (٢) آية ١١٨ سورة المائدة . (٣) آية ١٨ ، ١٩ سورة الأحقاف .

ما قيل فى ذلك فاعلمه . ومعنى « ولِكلٍّ درجاتٌ » أى ولكل عامل بطاعةٍ درجاتٌ فى الثواب . ولكلّ عاملٍ بمعصية دركاتٌ فى العقاب . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ أى ليس بلاهٍ ولا ساهٍ . والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره . ﴿ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قرأه ابن عامر بالتاء ، الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ أى عن خلقه وعن أعمالهم . ﴿ ذُوالرَّحْمَةِ ﴾ أى بأوليائه وأهل طاعته . ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ بالإماتة والاستئصال بالعذاب . ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ أى خلقا آخر أمثل منكم وأطوع . ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ والكاف فى موضع نصب ، أى يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلافا مثل ما أنشأكم ، ونظيره « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ »(١) . « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ »(٢) . فالمعنى يبدّل غيركم مكانكم ، كما تقول : أعطيتك من دينارك ثوبا .

قوله تعالى : إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يحتمل أن يكون من « أوعدت » فى الشرّ ، والمصدر الإيعاد . والمراد عذاب الآخرة . ويحتمل أن يكون من « وعدت » على أن يكون المراد الساعة التى فى مجيئها الخير والشر فغلّب الخير . روى معناه عن الحسن . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين ؛ يقال : أعجزنى فلان ، أى فاتنى وغلبنى .

قوله تعالى : قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

---

(١) آية ١٣٣ سورة النساء . (٢) آية ٣٨ سورة محمد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ وقرأ أبو بكر بالجمع «مكاناتكم» . والمكانة الطريقة . والمعنى : أثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه . فإن قيل : كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار . فالجواب أن هذا تهديد ؛ كما قال عز وجل : « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا »(١) . ودلّ عليه « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أى العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها ، أى من له النصر فى دار الإسلام ، ومن له وراثة الأرض ، ومن له الدار الآخرة ، أى الجنة . قال الزجاج : «مكانتكم» تمكنكم فى الدنيا . ابن عباس والحسن والنخعى : على ناحيتكم . القتبى : على موضعكم . ﴿ إِنِّى عَامِلٌ ﴾ على مكانتى ، فحذف لدلالة الحال عليه . «ومن» من قوله «مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» فى موضع نصب بمعنى الذى ؛ لوقوع العلم عليه . ويجوز أن تكون فى موضع رفع ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله فيكون الفعل معلقا . أى تعلمون أينا تكون له عاقبة الدار ؛ كقوله : « لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى »(٢) وقرأ حمزة والكسائى «من يكون» بالياء .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ فيه مسئلة واحدة :

ويقال : ذرأ يذرأ ذرءا ، أى خلق . وفى الكلام حذف واختصار ، وهو وجعلوا لأصنامهم نصيبا ؛ دلّ عليه ما بعده . وكان هذا مما زينه الشيطان وسوّله لهم ، صرفوا من مالهم طائفة إلى الله بزعمهم وطائفة إلى أصنامهم ؛ قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة . والمعنى متقارب . جعلوا لله جزءا ولشركائهم جزءا ، فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوّضوا منه ما لله ، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضيفان والمساكين لم يعوّضوا منه شيئا ، وقالوا :

(١) آية ٨٢ سورة التوبة . (٢) آية ١٢ سورة الكهف .

الله مستغن عنه وشركاؤنا فقراء . وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم . والزعم الكذب . قال شُريح القاضي : إن لكل شيء كُنْية وكُنْيةُ الكذب زعموا . وكانوا يكذبون فى هذه الأشياء لأنه لم ينزل بذلك شرع . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله : « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » . قال ابن العربيّ : وهذا الذى قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة فى تنويع الحلال والحرام سفاهةً بغير معرفة ولا عدل، والذى تصرّفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظمُ جهلا وأكبرُ جُرْما؛ فإن الاعتداء على الله تعالى أعظمُ من الاعتداء على المخلوقات . والدليـل فى أن الله واحد فى ذاته واحد فى صفاته واحد فى مخلوقاته أبيَن وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام . وقد رُوى أن رجلا قال لعمرو بن العاصى : إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ! فقال عمرو : تلك عقول كادها باريها . فهذا الذى أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام، وأبطله الله ببعثه الرسول عليـه السلام . فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يَظهر، وننساه حتى لا يُذكر؛ إلا أن ربّنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه ، كما ذكر كفر الكافرين به . وكانت الحكمة فى ذلك ـــ والله أعلم ـــ أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لاينقطعان إلى يوم القيامة . وقرأ يحيى بن وثّاب والسُّلَمِيّ والأعمش والكسائيّ « بزُعمهم » بضمه الزاى . والباقون بفتحها، وهما لغتان . ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى إلى المساكين . ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى ساء الحُكْم حكمهم . قال ابن زيد: كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ » . فكان تركهم لذكر الله مذموما منهم وكان داخلا فى ترك أكل ما لم يذكر اسمُ الله عليه .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ المعنى : فكما زَيّن لهؤلاء أن جعلوا لله نصيبا ولأصنامهم نصيبا كذلك زَيّن لكثير من المشركين قَتل أولادِهم شركاؤهم . قال مجاهد وغيره : زيّنت لهم قتل البنات مخافة العَيْلَة . قال الفرّاء والزجاج : شركاؤهم ها هنا هم الذين كانوا يخدُمون الأوثان . وقيل : هم الغُواة من الناس . وقيل : هم الشياطين . وأشار بهذا إلى الوَأْد الخفيّ وهو دفن البنت حية مخافة السبَاء والحاجة، وعدمِ ما حُرِمْن من النصرة . وسمّى الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فى معصية الله فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم . وقيل : كان الرجل فى الجاهلية يحلف بالله لئن وُلد له كذا وكذا غلاما لينحرَنّ أحدَهم؛ كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبد الله . ثم قيل : فى الاية أربع قراءات ، أصحها قراءة الجمهور : «وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أولادِهِم شُرَكَاؤُهُمْ» وهذه قراءة أهل الحرمين وأهلِ الكوفة وأهل البصرة . «شركاؤهم» رفع بزين؛ لأنهم زَيّنوا ولم يقتلوا . «قَتْلَ» نصب بزين . «وأولادِهم» مضاف إلى المفعول، والأصل فى المصدر أن يضاف إلى الفاعل لأنه أحدثه ولأنه لا يستغنى عنه ويستغنى عن المفعول ؛ فهو هنا مضاف إلى المفعول لفظا مضافٌ إلى الفاعل معنًى؛ لأن التقدير زَيّن لكثير من المشركين قتلهم أولادهم شركاؤهم، ثم حذف المضاف وهو الفاعل كما حذُف من قوله تعالى : « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ »(1) أى من دعائه الخير. فالهاء فاعلة الدعاء، أى لا يسأم الإنسان من أن يدعو بالخير . وكذا قوله : زَيّن لكثير من المشركين فى أن يقتلوا أولادهم شركاؤهم . قال مكيّ : وهذه القراءة هى الاختيار لصحة الإعراب فيها ولأن عليها الجماعة . القراءة الثانية «زُيِّن» (بضم الزاى) . «لكثير من المشركين قتلُ» (بالرفع) . «أولادِهم» بالخفض . «شركاؤهم» (بالرفع) قراءة الحسن . ابنُ عامر وأهل الشام « زُيِّنَ » بضم الزاى « لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم » برفع «قتل» ونصب «أولادهم» . «شركائِهم» بالخفض فيما حكى أبو عبيد ؛ وحكى غيره عن أهل الشام أنهم قرءوا « وكذلك زُيِّنَ » بضم الزاى « لكثير من المشركين قتلُ »

(1) آية ٤٩ سورة فصلت .

بالرفع « أولادِهم » بالخفض « شركائهم » بالخفض أيضا . فالقراءة الثانية قراءة الحسن جائزة، يكون «قتل» آسم ما لم يُسم فاعله، «شركاؤهم» ؛ رفع بإضمار فعل يدلّ عليه « زُيِّنَ » ، أى زيّنه شركاؤهم . ويجوز على هذا ضُرِب زيدٌ عمرٌو، بمعنى ضربه عمرو، وأنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ *

أى يبكيه ضارع . وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية أبى بكر «يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ» (١) التقدير يسبحه رجال . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلة « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارُ ذَاتُ الْوَقُودِ » (٢) بمعنى قتلهم النار . قال النحاس : وأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز فى كلام ولا فى شعر ، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يَفصل ، فأما بالأسماء غير الظروف فلحن . قال مَكّىٌّ : وهذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه ؛ لأنه إنما يجوز مثل هذا التفريق فى الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها وهو فى المفعول به فى الشعر بعيد ، فإجازته فى القراءة أبعد . وقال المهدوىّ : قراءة ابن عامر هذه على التفرقة بين المضاف والمضاف اليه ، ومثله قول الشاعر :

فزججتها بمِزَجّة * زَجَّ القَلوصَ أبى مَزاده (٣)

يريد : زجّ أبى مزادة القَلوصَ . وأنشد :

تمُرّ على ما تستمرّ وقد شفت * غلائلَ عبدُ القيس منها صُدُورِها

يريد شفت عبدُ القيس غلائلَ صدورها . وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى : قراءة ابن عامر لا تجوز فى العربية ؛ وهى زلّة عالم، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه، ورُدّ قوله إلى الإجماع ، وكذلك يجب أن يُرَدّ من زلّ منهم أو سها إلى الإجماع ؛ فهو أولى من الإصرار

---

(١) آية ٣٦ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة البروج .

(٣) ذكر الأخفش هذا البيت ولم يعزه إلى أحد . والزج هاهنا الطعن ، والمزجة بكسر الميم : رمح قصير كالمزارق . والقلوص بفتح القاف : الفتية من النوق . يخبر أنه زج امرأته بالمزجة كما زج أبو مزادة القلوص . وأبو مزادة كنية رجل . راجع شرح الشواهد الكبرى للعينى فى باب الإضافة .

على غير الصواب . وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ؛ لأنه لا يفصل . كما قال :

كما خُطّ الكتاب بكفِّ يومًا * يهـودِىٍّ يُقارِبُ أو يُزِيلُ (١)

وقال آخر :

كأنّ أصواتَ مِن إيغالهن بنا * أواخرِ المَيْسِ أصواتُ الفَرارِيجِ (٢)

وقال آخر :

لمّا رأت ساتيـدَما ٱستعبرَتْ * لله درُّ اليـومَ مَن لَامَها (٣)

وقال القشيرى : وقال قوم هـذا قبيح ، وهذا محال، لأنه إذا ثبت بالتواتر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فهو الفصيح لا القبيح . وقـد ورد ذلك فى كلام العرب وفى مصحف عثمان « شركائهـم » بالياء وهـذا يدلّ على قراءة ابن عامر . وأضيف القتل فى هـذه القراءة إلى الشركاء، لأن الشركاء هم الذين زيّنوا ذلك ودَعَوْا إليه ؛ فالفعل مضاف إلى فاعله على ما يجب فى الأصل، لكنه فرق بين المضاف والمضاف إليه، وقدّم المفعول وتركه منصوبا على حاله ؛ إذا كان متأخرا فى المعنى، وأخر المضاف وتركه مخفوضا على حاله ؛ إذا كان متقدّما بعد القتل . والتقدير : وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قَتْلُ شركائهم أولادَهم . أى أَنْ قتـلَ شركاؤهم أولادَهم . قال النحاس : فأما ما حكاه غير أبى عبيد (وهى القراءة الرابعة) فهو جائز . على أن تبدل شركاءهم من أولادهم ؛ لأنهم شركاؤهم فى النسب والميراث . ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ اللام لام كىْ .

(١) البيت لأبى حية النميرى . والشاهد فيه إضافة الكف إلى اليهودى مع الفصـل بالظرف . وصف رسوم الدار فشبهها بالكتّاب فى دقتها والاستدلال بها، وخص اليهود لأنهم أهل كتاب . وجعل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتضاء آثار الديار تلك الصفة والحال . (عن شرح الشواهد) .

(٢) البيت لذى الرمة . والشاهد فيه إضافة الأصوات إلى أواخر الميس مع فصله بالمجرور ضرورة . والميس : شجر تعمل منه الرحال . والإيغال : سرعة السير . يقول : كأن أصوات أواخر الميس من شدّة سير الإبل بنا واضطراب رحالها عليها أصوات الفراريج (عن شرح الشواهد) .

(٣) البيت لعمرو بن قميئة . والشاهد فيه إضافة الدر إلى من مع جواز الفصل بالظرف ضرورة إذ لم يمكنه إضافة الدر إليه . وصف امرأة نظرت إلى «ساتيدما» وهو جبل بعينه بعيد من ديارها ؛ فذكرت به بلادها فاستعبرت شوقا إليها (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

والإرداء : الإهلاك . ﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دينهم ﴾ الذى آرتضى لهم . أى يأمرونهم بالباطل ويشككونهم فى دينهم . وكانوا على دين إسماعيل، وما كان فيه قتل الولد ؛ فيصير الحق مغطًّى عليه ؛ فبهذا يلبسون . ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ بيّن أن كفرهم بمشيئة الله . وهو ردّ على القدرية . ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يريد قولهم إن لله شركاء .

قوله تعالى : وَقَالُوا هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

ذكر نوعا آخر من جهالتهم . وقرأ أبان بن عثمان «حُجُر» بضم الحاء والجيم . وقرأ الحسن وقتادة «حَجْر» بفتح الحاء وإسكان الجيم، لغات بمعنًى . وعن الحسن أيضا «حُجر» بضم الحاء . قال أبو عبيد عن هارون قال : كان الحسن يضم الحاء فى «حِجر» من جميع القرآن إلا فى قوله : «بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا»(١) فإنه كان يكسرها هاهنا . ورُوى عن آبن عباس وآبن الزبير «وَحَرْثٌ حِرْج» الراء قبل الجيم ؛ وكذا فى مصحف أُبَىّ ؛ وفيه قولان : أحدهما أنه مثل جبذ وجذب . والقول الآخر — وهو أصح — أنه من الحِرْج ؛ فإن الحِرْج (بكسر الحاء) لغة فى الحَرَج (بفتح الحاء) وهو الضيق والإثم ؛ فيكون معناه الحرام . ومنه فلان يتحرج أى يضيق على نفسه الدخولَ فيما يشتبه عليه من الحرام . والحِجر : لفظ مشترك . وهو هنا بمعنى الحرام، وأصله المنع . وسُمّى العقل حجرا لمنعه عن القبائح . وفلان فى حَجْر القاضى أى منعه . حجرت على الصبيّ حُجْرًا . والحِجر العقـل ؛ قال الله تعالى : «هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ» والحِجر الفرس الأنثى . والحِجر القرابة . قال :

يريدون أن يُقصـوه عنّى وإنه * لَذُو حَسَبٍ دانٍ إلىّ وذو حِجْـرِ

وحِجـر الإنسان وحَجره لغتان، والفتح أكثر . أى حرّموا أنعاما وحَرْثا وجعلوها لأصـنامهم وقالوا : ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ﴾ وهم خدّام الأصـنام . ثم بيّن أن هـذا تحكّم لم يَرِد به

(١) آية ٥٣ سورة الفرقان .

شرع ؛ ولهـذا قال : « بِزَعْمِهِمْ » . ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يريد ما يسيبّونه لآلهتهم على ما تقدّم من النصيب . وقال مجاهد : المراد البَحِيرة والوصِيلة والحام(1) . ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يعني ما ذبحوه لآلهتهـم . قال أبو وائل : لا يحجّون عليهـا . ﴿ ٱفْتِرَاءً ﴾ أى للافتراء ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ لأنهم كانوا يقولون : الله أمرنا بهـذا . فهو نصبٌ على المفعول به . وقيل : أى يفترون ٱفتراء، وانتصابه لكونه مصدرا .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ هـذا نوع آخر من جهلهم . قال ابن عباس : هو اللبن ، جعلوه حلالا للذكور وحراما على الإناث . وقيل : الأجِنّة، قالوا : إنها لذكورنا . ثم إن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . والهاء فى «خالِصة» للمبالغة فى الخلوص، ومثـله رجل علامة ونسابة، عن الكِسائىّ والأخفش . و «خالِصـةٌ» بالرفع خبر المبتدأ الذى هو «ما» . وقال الفراء : تأنيثها لتأنيث الأنعام . وهـذا القول عند قوم خطأ، لأن ما فى بطونها ليس منها، فلا يشبه «يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ» لأن بعض السيارة سيّارة، وذا لايلزم الفراء، فإن ما فى بطون الأنعام أنعام مثلها، فأنّث لتأنيثها، أى الأنعام التى فى بطون الأنعام خالصـة لذكورنا . وقيـل : أى جماعة ما فى البطون . وقيـل : إن

(1) البحيرة : الناقة التى نُجِبت خمسة أبطن ، وكان آخرها ذكرا بحروا أذنها (أى شقوها) وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تحلأ (تطرد) عن ماء ترده ، ولا تمنع من مرعى ، وإذا لقيها المعيي المنقطع به لم يركبها .

والوصيلة : الناقة التى وصلت بين عشرة أبطن . ومن الشاء التى وصلت سبعة أبطن ، عَناقَين ؛ فإن ولدت فى السابعة عناقا وجديا قيل : وصلت أخاها ؛ فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء .

والحامى : الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود ؛ قيل عشرة أبطن ؛ فإذا بلغ ذلك قالوا : هذا حامٍ . أى حمى ظهره فيترك ؛ فلا ينتفع منه بشيء ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

راجع تفسير قوله تعالى : «ما جعل الله من بحيرة ...» آية ١٠٣ سورة المائدة .

«ما» يرجع إلى الألبان أو الأجنّة؛ فجاء التأنيث على المعنى والتذكير على اللفظ . ولهذا قال : «وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا» على اللفظ . ولو راعى المعنى لقال ومحرّمة . ويَعْضُد هذا قراءةُ الأعمش «خالِص» بغير هاء . قال الكسائيّ : معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة ؛ كما يقال : رجل داهية وعلامة؛ كما تقدّم . وقرأ قَتادة «خالِصةً» بالنصب على الحال من الضمير فى الظرف الذى هو صلة لـ«ما» . وخبر المبتدأ محذوف؛ كقولك : الذى فى الدار قائما زيد. هذا مذهب البصريين . وآنتصب عند الفرّاء على القطع . وكذا القول فى قراءة سعيد بن جبير«خالِصًا» . وقرأ ابن عباس «خالِصهُ» على الإضافة يكون ابتداء ثانيا؛ والخبر «لذكورنا» والجملة خبر « ما » . ويجوز أن يكون « خالِصه » بدلا من « ما » . فهذه خمس قراءات . ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَاجِنَا ﴾ اى بناتنا؛ عن آبن زيد . وغيره : نساؤهم . ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ قرئ بالياء والتاء؛ أى إن يكن ما فى البطون ميتة ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ أى الرجال والنساء . وقال «فيه» لأن المراد بالميتة الحيوان، وهى تقوّى قراءة اليـاء، ولم يقل فيها . « مَيْتَةٌ » بالرفع بمعنى تقع أوتحدث . « ميتةً » بالنصب ؛ أى وإن تكن النَّسمة ميتة . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أى كذبهم وآفتراءهم؛ أى يعـذبهم على ذلك . وانتصب «وَصْفَهُمْ» بنزع الخافض ؛ أى بوصـفهم . وفى الآية دليل على أن العالم ينبغى له أن يتعلّم قول من خالفه وإن لم يأخذ به، حتى يعرف فساد قوله ، ويعلم كيف يردّ عليه ؛ لأن الله تعالى أعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه قول من خالفهم من زمانهم؛ ليعرفوا فساد قولهم .

قوله تعالى : قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

أخبر بخسرانهم لِوَأْدهم البنات وتحريمهم البَحِيرة وغيرها بعقولهم؛ فقتلوا أولادهم سَفَهًا خوف الإملاق، وحجروا على أنفسهم فى أموالهم ولم يخشوا الإملاق؛ فأبان ذلك عن تناقض رأيهم .

قلت : إنه كان من العرب من يقتل ولده خَشْية الإملاق؛ كما ذكر الله فى غيرهذا الموضع . وكان منهم من يقتله سَفَهًا بغـير حجة منهم فى قتلهم؛ وهم ربيعة ومُضَر، كانوا يقتلون بناتهم

لأجل الحَمِيّة . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله؛ فألحقوا البنات بالبنات . رُوِى أن رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يزال مُغْتَمًّا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالك تكون محزونا"؟ فقال : يارسول الله، إنى أذنبت ذنبا فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله و إن أسلمتُ ! فقال له : "أخبرنى عن ذنبك" . فقال: يارسول الله، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فوُلِدت لى بِنت فتشفّعت إلىّ امرأتى أن أتركها فتركتها حتى كبِرت وأدركتْ، وصارت من أجمل النساء فخطبوها؛ فدخلتنى الحَمِيّة ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج، فقلت للمرأة : إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيها معى، فسُرّت بذلك وزينتها بالثياب والحُلِىّ، وأخذتْ علىّ المواثيق بألا أخونها، فذهبتُ بها إلى رأس بئر فنظرتُ فى البئر ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البئر، فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول : ياأبت! أيْشٍ تريد أن تفعل بى! فرحمتها، ثم نظرتُ فى البئر فدخلتْ علىّ الحَمِيّة، ثم التزمتنى وجعلت تقول: ياأبت! لا تُضيّع أمانة أمّى؛ فجعلتُ مرّةً أنظر فى البئر ومرّةً إليها وأرحمها، حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسةً، وهى تنادى فى البئر : ياأبت، قتلتنى . فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعت . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال : "لو أُمِرتُ أن أعاقب أحدا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك" .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

فيه ثلاث وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ أَنشَأَ ﴾ أى خلق. ﴿جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أى بساتين ممسوكات مرفوعات. ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ غير مرفوعات. قال ٱبن عباس: «معروشات» ما ٱنبسط على الأرض مما يُعَرَّش مثل الكروم والزروع والبطيخ. ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار. وقيل: المعروشات ما ٱرتفعت أشجارها. وأصل التعريش الرفع. وعن ٱبن عباس أيضا: المعروشات ما أثبته و رفعه الناس. وغير المعروشات ما خرج فى البرارى والجبال من الثمار. يدلّ عليه قراءة علىّ رضى الله عنه « مَغْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَغْرُوسات » بالغين المعجمة والسين المهملة.

الثانية — قوله تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ ﴾ أفردهما بالذكر وهما داخلان فى الجنات لما فيهما من الفضيلة؛ على ما تقدم بيانه فى «البقرة» عند قوله «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ»(١) الآية. ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ يعنى طعمه من الجيد والدون. وسمّاه أكلا لأنه يؤكل. و«أُكُلُهُ» مرفوع بالابتداء. و «مختلفا» نعته؛ ولكنه لما تقدم عليه ووَلِى منصوبا نُصب. كما تقول: عندى طباخا غلام. قال:

الشَّرُّ مُنْتَشِر يلقاك عن عُرُضٍ * والصالحات عليها مُغْلَقًا بابُ

وقيل: «مختلفا» نصب على الحال. قال أبو إسحاق الزجاج: وهذه مسألة مُشْكِلة من النحو، لأنه يقال: قد أنشأها ولم يختلف أكلها وهو ثمرها؛ فالجواب أن الله سبحانه أنشأها بقوله: «خالق كلّ شىء» فأعلم أنه أنشأها مختلفا أكلها؛ أى أنه أنشأها مقدّرا فيه الاختلاف. وقد بين هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صَقْرٌ صائدا به غدا، على الحال؛ كما تقول: لتدخلن الدار آكلين شاربين؛ أى مقدّرين ذلك. جواب ثالث — أى لما أنشأه كان مختلفا أكله، على معنى أنه لو كان له أُكُل لكان مختلفا أكله. ولم يقل أكلهما؛ لأنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما؛ كقوله: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا»(٢) أى إليهما. وقد تقدم هذا المعنى.

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦ طبعة ثانية. (٢) آخر سورة الجمعة.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ عطف ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ نصب على الحال، وقد تقدم القول فيه. وفى هذه أدلة ثلاثة؛ أحدها ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لابدّ لها من مغيّر. الثانى على المِنّة منه سبحانه علينا؛ فلو شاء إذ خلقنا لا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المَنْظر طيب الطعم، وإذ خلقه كذلك ألّا يكون سهل الجَنَى؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لا يجب عليه شيء. الثالث على القدرة فى أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعَد بقدرة الواحدِ علّامِ الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمرٌ خارج من صفته الجِرْم الوافر، واللون الزاهر، والجَنَى الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأناسها، هل فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتّب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك فى العقول إلا لحيّ عالم قديرٍ مُرِيد. فسبحان من له فى كل شيء آية ونهاية!

ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افترَوْا على الله الكذب وأشركوا معه وحلّلوا وحرّموا دلّهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فهذان بناءان جاءا بصيغة افعل؛ أحدهما مباح كقوله: «فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ» والثانى واجب. وليس يمتنع فى الشريعة اقتران المباح والواجب، وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق ليبيّن أن الإبتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ اختلف الناس فى تفسير هذا الحق ما هو؛ فقال أنس بن مالك وابن عباس وطاوس والحسن وابن زيد وابن الحنفية والضحاك وسعيد بن المسيَّب: هى الزكاة المفروضة، العُشْر ونصف العُشْر. ورواه ابن وهب وابن القاسم عن مالك فى تفسير الآية، وبه قال بعض أصحاب الشافعيّ. وحكى الزجاج أن هذه الآية قيل فيها أنها نزلت بالمدينة. وقال عليّ بن الحسين وعطاء والحكم وحماد وسعيد بن جُبير ومجاهد: هو حقٌّ فى المال سوى الزكاة، أمر الله به نَدْبًا. وروى عن

ابن عمر ومحمد بن الحنفية أيضا، ورواه أبو سعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم. قال مجاهد : إذا حَصَدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السُّنْبُل، وإذا جَدَذت فألق لهم من الشماريخ، وإذا درسته وذَرّيته فاطرح لهم منه، وإذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته. وقول ثالث وهو منسوخ بالزكاة؛ لأن هـذه السورة مكية وآية الزكاة لم تنزل إلا بالمدينة «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً»(١)، «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»(٢). روى عن ابن عباس وابن الحنفية والحسن وعطية العَوْفِى والنَّخَعِىّ وسعيد بن جُبير. وقال سفيان : سألت السُّدِّى عن هذه الآية فقال. نسخها العُشْر ونصف العُشر. فقلت : عن من ؟ فقال عن العلماء.

السادســة — وقد تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية وبعموم ما فى قوله عليه السلام : "فيما سقت السماء العُشْر وفيما سُقِى بنَضْحٍ(٣) أو دَالِية نصفُ العُشْر" فى إيجاب الزكاة فى كل ما تنبت الأرض طعاما كان أو غيره. وقال أبو يوسف عنه : إلا الحطب والحشيش والقصب والتّين والسعف وقصب الذريرة(٤) وقصب السكر. وأباه الجمهور، معوّلين على أن المقصود من الحديث بيان ما يؤخذ منه العشر وما يؤخذ منه نصف العشر. قال أبو عمر : لا ٱختلاف بين العلماء فيما علمتُ أن الزكاة واجبة فى الحنطة والشعير والتمر والزبيب. وقالت طائفة : لا زكاة فى غيرها. روى ذلك عن الحسن وٱبن سيرين والشَّعْبِىّ. وقال به من الكوفيين ٱبن أبى لَيْلَى والثورِىّ والحسن ٱبن صالح وٱبن المبارك ويحيى بن آدم، وإليه ذهب أبو عبيد. ورُوى ذلك عن أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهـو مذهب أبى موسى، فإنه كان لا يأخذ الزكاة إلا من الحنطة والشعير والتمر والزبيب؛ ذكره وَكيع عن طلحة بن يحيى عن أبى بُرْدة عن أبيـه. وقال مالك وأصحابه : الزكاة واجبة فى كل مُقتات مُدَّخَر، وبه قال الشافعىّ. وقال الشافعىّ. إنما تجب الزكاة فيما ييبس ويُدَّخر ويقتات مأكولا. ولا شىء فى الزيتـون لأنه إدام. وقال أبو ثور مثله. وقال أحمـد أقوالا أظهرها أن الزكاة إنمـا تجب فى كل ما قاله أبو حنيفة إذا كان

(١) آية ١٠٣ سورة التوبة. (٢) آية ٤٣ سورة البقرة. (٣) النضح : سق الزرع وغيره بالسانية، وهى الناقة يستق عليها. (٤) الذريرة : قصب يجاء به من الهند، كقصب النشاب أحمر يتداوى به.

يوسق؛ فأوجبها فى اللوز لأنه مكيل دون الجوز لأنه معدود . وآحتج بقوله عليه السلام : "ليس فيما دون خمسة أوسق من تمر أوحب صدقة" قال : فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن محل الواجب هو الوسق، وبين المقدار الذى يجب إخراج الحق منه . وذهب النخعي إلى أن الزكاة واجبة فى كل ما أخرجته الأرض، حتى فى عشر دساتج[1] من بقل دستجة بقل . وقد آختلف عنه فى ذلك، وهو قول عمر بن عبد العزيز فإنه كتب أن يؤخذ مما تنبت الأرض من قليل أو كثير العشر ؛ ذكره عبد الرزاق عن معمر عن سماك بن الفضل ، قال : كتب ... ؛ فذكره . وهو قول حماد بن أبى سليمان وتلميذه أبى حنيفة . وإلى هذا مال آبن العربي فى أحكامه فقال : وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق ، وأخذ يعضد مذهب الحنفي ويقويه . وقال فى كتاب (القبس بما عليه الإمام مالك بن أنس) فقال : قال الله تعالى : « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » . وآختلف الناس فى وجوب الزكاة فى جميع ما تضمنته أو بعضه، وقد بينا ذلك، فى (الأحكام) لبابه، أن الزكاة إنما تتعلق بالمقتات كما بينا دون الخضراوات ، وقد كان بالطائف الرمان والفرسك[2] والأترج فما آعترضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ذكره ولا أحد من خلفائه .

قلت : هذا وإن لم يذكره فى الأحكام هو الصحيح فى المسألة، وأن الخضراوات ليس فيها شيء . وأما الآية فقد آختلف فيها، هل هى محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب . ولا قاطع يبين أحد محاملها ، بل القاطع المعلوم ما ذكره ابن بكير فى أحكامه : أن الكوفة آفتتحت بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وبعد آستقرار الأحكام فى المدينة ، أفيجوز أن يتوهم متوهم أو من له أدنى بصيرة أن يكون شريعة مثل هذه عطلت فلم يعمل بها فى دار الهجرة ومستقر الوحى ولا خلافة أبى بكر، حتى عمل بذلك الكوفيون . إن هذه لمصيبة فيمن ظن هذا وقال به ! .

قلت : ومما يدل على هذا من معنى التنزيل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ »[3] أتراه يكتم شيئا أمر بتبليغه أو بيانه ، حاشاه عن ذلك !

(١) الدستجة : الحزمة. (٢) الفرسك (كزبرج): الخوخ أو ضرب منه أجرد أحمر، أو ما ينفلق عن نواه.
(٣) آية ٦٧ سورة المائدة .

وقال تعالى : « ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[(١)] ومن كمال الدين كونه لم يأخذ من الخضراوات شيئا . وقال جابر بن عبدالله فيما رواه الدَّارَقُطْنِيّ : إن المقاثئ[(٢)] كانت تكون عندنا تُخرج عشرة آلاف فلا يكون فيها شئ . وقال الزُّهْرِيّ والحسن : تُزَكى أثمان الخضر إذا أينعت وبلغ الثمن مائتى درهم ؛ وقاله الأوزاعِيّ فى ثمن الفواكه . ولا حجة فى قولهما لما ذكرنا . وقد روى الترمذيّ عن معاذ أنه كتب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يسأله عن الخضراوات وهى البقول فقال : "ليس فيها شىء" . وقد رُوى هذا المعنى عن جابر وأنس وعليّ ومحمد بن عبد الله بن جَحْش وأبى موسى وعائشة . ذكر أحاديثهم الدَّارَقُطْنِيّ رحمه الله . قال الترمذيّ : ليس يصح فى هذا الباب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم شىء . واحتج بعض أصحاب أبى حنيفة بحديث صالح بن موسى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة" . قال أبو عمر : وهذا حديث لم يروه فى ثقات أصحاب منصور أحد هكذا ، وإنما هو من قول إبراهيم .

قلت : وإذا سقط الاستدلال من جهة السُّنَّة لضعف أسانيدها فلم يبق إلا ما ذكرناه من تخصيص عموم الآية، وعمومِ قوله عليه السلام : "فيما سقت السماء العُشْر" بما ذكرنا . وقال أبو يوسف ومحمد : ليس فى شىء من الخضر زكاة إلا ما كانت له ثمرة باقية سوى الزعفران ونحوه مما يوزن ففيه الزكاة . وكان محمد يعتبر فى العُصْفر والكَتّان البزر، فإذا بلغ بزرهما من القرطم والكتان خمسة أوسق كان العُصْفر والكَتّان تبعاً للبزر، وأخذ منه العشر أو نصف العشر . وأما القطن فليس عنده دون خمسة أحمال شىء ؛ والحمل ثلثمائة مَنّ بالعراقيّ . والوَرْس والزعفران ليس فيما دون خمسة أمنان منها شىء . فإذا بلغ أحدهما خمسة أمنان كانت فيه الصدقة، عُشْرا أو نصف العشر . قال أبو يوسف : وكذلك قصب السكر الذى يكون منه السكر، ويكون فى أرض العشر دون أرض الخَراج، فيه ما فى الزعفران . وأوجب عبد الملك بن الماجِشُون الزكاة فى أصول الثمار دون البقول . وهذا خلاف

(١) آية ٣ سورة المائدة . (٢) المقاثى، (جمع مقثاة بفتح الثاء وضمها) : موضع القثاء .

ما عليه مالك وأصحابه ، لا زكاة عندهم لا فى اللَّوز ولا فى الجَوْز ولا فى الجِلَّوْز[١] وما كان مثلها ، و إن كان ذلك يدَّخر . كما أنه لا زكاة عندهم فى الإجّاص[٢] ولا فى التفاح ولا فى الكُمَّثْرَى ، ولا ما كان مثل ذلك كله مما لا ييبس ولا يُدَّخر . وآختلفوا فى التين ؛ والأشهر عند أهل المغرب ممن يذهب مذهب مالك أنه لا زكاة عندهم فى التّين . إلا عبد الملك بن حبيب فإنه كان يرى فيه الزكاة على مذهب مالك ، قياسًا على التمر والزبيب . و إلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم البغداديين المالكيين ، إسماعيل بن إسحاق ومن آتبعه . قال مالك فى الموطّأ : السنة التى لا آختلاف فيها عندنا ، والذى سمعته من أهل العلم ، أنه ليس فى شىء من الفواكه كلها صدقة : الرمان والفِرْسَك والتّين وما أشبه ذلك . وما لم يشبهه إذا كان من الفواكه . قال أبو عمر : فأدخل التين فى هذا الباب ، وأظنه (والله أعلم) لم يعلم بأنه يَيْبس ويُدَّخر ويُقتات ، ولو علم ذلك ما أدخله فى هذا الباب ؛ لأنه أشبه بالتمر والزبيب منه بالرّمان . وقد بلغنى عن الأَبْهَرِىّ وجماعة من أصحابه أنهم كانوا يُفتون بالزكاة فيه ، ويرونه مذهب مالك على أصوله عندهم . والتين مكيل يراعى فيه الخمسة الأَوْسُق وما كان مثلها وَزْنًا ، ويُحكم فى التين عندهم بحكم التمر والزبيب المجتمع عليهما . وقال الشافعىّ : لا زكاة فى شىء من الثمار غير التمر والعنب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الصدقة منهما وكانا قوتا بالحجاز يُدَّخر . قال : وقد يدخر الجوز واللوز ولا زكاة فيهما ؛ لأنهما لم يكونا بالحجاز قوتا فيما علمت ، و إنما كانا فاكهة . ولا زكاة فى الزيتون لقوله تعالى : «والزيتون والرمان» . فقرنه مع الرمّان ، ولا زكاة فيه . وأيضا فإن التين أنفع منه فى القوت ولا زكاة فيه . وللشافعىّ قول بزكاة الزيتون قاله بالعراق ، والأوّل قاله بمصر ؛ فآضطرب قوله فى الزيتون ، ولم يختلف فيه قول مالك . فدلّ على أن الاية مُحْكَمة عندهما غيرُ منسوخة . وآتفقا جميعا على أن لا زكاة فى الرمان ، وكان يلزمهما إيجاب الزكاة فيه . قال أبو عمر : فإن كان الرمان خرج بآتفاق فقد بان بذلك المراد بأن الاية ليست على عمومها ، وكان الضمير عائدا على بعض المذكور دون بعض . والله أعلم .

---

(١) الجلوز : البندق . (٢) الإجاص : شجر معروف ، واحدته إجاصة . ثمره حلو لذيذ .

قلت : بهذا استدل من أوجب العشر فى الخضراوات فإنه تعالى قال : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » والمذكور قبله الزيتون والرمان ، والمذكور عقيب جملة ينصرف إلى الأخير بلا خلاف ؛ قاله الكِيَا الطبرى . ورُوى عن ابن عباس أنه قال ما لَقِحت رمّانة قط إلا بقطرة من ماء الجنة . وروى عن علىّ كرّم الله وجهه أنه قال : إذا أكلتم الرمّانة فكلوها بشحمها فإنه دباغ المعدة . وذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن ابن عباس قال: لا تكسروا الرمّانة من رأسها فإن فيها دُودةً يعترى منها الجُذام . وسيأتى منافع زيت الزيتون فى سورة «المؤمنين»[(١)] إن شاء الله تعالى. وممن قال بوجوب زكاة زيت الزيتون الزُّهرِىُّ والأوزاعىّ والليث والثورىّ وأبو حنيفة وأصحابُه وأبو ثور . قال الزهرىّ والأوزاعىّ والليث : يُخْرَص[(٢)] زيتونا و يؤخذ زيتا صافيا . وقال مالك لا يخرص ، ولكن يؤخذ العُشر بعد ان يُعصر و يبلُغ كيله خمسة أوْسق . وقال أبو حنيفة والثورِىّ : يؤخذ من حبه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم «حصاده» بفتح الحاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان مشهورتان ؛ ومثله الصَّرام والصِّرام والجَـذاذ والجِذاذ والقَطَاف والقِطاف . واختلف العلماء فى وقت الوجوب على ثلاثة أقوال :

الأوّل — أنه وقت الجذاذ ؛ قاله محمد بن مَسْلمة ؛ لقوله تعالى : « يوم حصاده » .

الثـانى — يوم الطِّيب ؛ لأن ما قبل الطيب يكون عَلَفا لا قُوتا ولا طعاما ؛ فإذا طاب وحان الأكل الذى أنعم الله به وجب الحقّ الذى أمر الله به ، إذ بتمـام النعمة يجب شكر النعمة ، ويكون الإيتاء وقت الحصاد لمـا قد وجب يوم الطِّيب .

الثـالث — أنه يكون بعد تمـام الخَرْص ؛ لأنه حينئذ يتحقق الواجب فيـه من الزكاة فيكون شرطا لوجوبها . أصله مجىء الساعى فى الغنم ؛ وبه قال المُغيرة. والصحيح الأوّل لنص التنزيل. والمشهور من المذهب الثانى، و به قال الشافعى. وفائدة الخلاف إذا مات بعد الطِّيب

---

(١) فى قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء ... » آية ٢٠

(٢) سيأتى معانى الخرص فى المسئلة التاسعة .

زكّيت على ملكه ، وقبل الخَرْص على ورثته . وقال محمد بن مسلمة : إنما قدّم الخرص توسعةً على أرباب الثمار ، ولو قدّم رجل زكاته بعد الخَرْص وقبل الجذاذ لم يُجْزه ؛ لأنه أخرجها قبل وجوبها . وقد آختلف العلماء فى القول بالخرص وهى : —

الثامنة — فكرِهه الثورىّ ولم يُجِزْه بحال، وقال : الخرص غير مستعمل . قال : وإنما على ربّ الحائط أن يؤدّىَ عشر ما يصير فى يده للمساكين إذا بلغ خمسة أوْسُق . وروى الشيبانِىّ عن الشعبىّ أنه قال : الخرص اليومَ بدعةٌ . والجمهور على خلاف هذا ، ثم آختلفوا فالمعظم على جوازه فى النخل والعنب ؛ لحديث عَتّاب بن أَسِيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأمره أن يَخْرُص العنب كما يَخْرُص النخل وتؤخذ زكاته زبيبا كما تؤخذ زكاة النخل تمرا . رواه أبو داود . وقال داود بن علىّ : الخرص للزكاة جائز فى النخل، وغير جائز فى العنب ؛ ودفع حديث عتّاب بن أَسيد لأنه منقطع ولا يتّصل من طريق صحيح ، قاله أبو محمد عبد الحق .

التاسعة — وصفة الخرص أن يُقَدّر ما على نخله رطبا ويقدّر ما ينقص لو يُتْمِر، ثم يعتدّ بما بقى بعد النقص ويضيف بعض ذلك إلى بعض حتى تكمل الحائط[1] وكذلك فى العنب.

العاشرة — ويكفى فى الخرص الواحدُ كالحاكم. فإذا كان فى التمر زيادة على ما خرص لم يلزم ربَّ الحائط الإخراجُ عنه ، لأنه حكم قد نفذ؛ قاله عبد الوهاب . وكذلك إذا نقص لم تنقص الزكاة . قال الحسن : كان المسلمون يُخْرَص عليهم ثم يؤخذ منهم على ذلك الخرص .

الحادية عشرة — فإن استكثر ربّ الحائط الخرص خيّره الخارص فى أن يعطيَه ما خَرَص وأخذ خرصه؛ ذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جُريج عن أبى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: خَرَص آبن رواحة أربعين ألف وَسْق، وزعم أن اليهود لما خيّرهم أخذوا التمر وأعطوا عشرين ألف وَسْق . قال ابن جريج فقلت لعطاء : فحُقّ على الخارص إذا استكثر سَيّدُ المال

---

(١) الحائط : البستان .

الخَرْص ان يخيّره كما خيّرابنُ رواحة اليهودَ ؟ قال : أىْ لعمرى ! وأىّ سُـنّة خيرٌ من سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — ولا يكون الخرص إلا بعد الطِّيب، لحديث عائشة قالت : كان رسول صلى الله عليه وسلم يبعث ابن رواحة إلى اليهود فيَخْرُص عليهم النخلَ حين تطيب أول التمرة قبل أن يؤ كل منها، ثم يخيّر يهودًا يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه . و إنما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخرص لكى تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتُفَرّق . أخرجه الدّارَ قُطْنىّ من حديث ابن جريج عن الزهرىّ عن عروة عن عائشة . قال: ورواه صالح بن أبى الأخضرعن الزهرىّ عن ابن المسيَّب عن أبى هريرة ، وأرسـله مالك ومَعْمر وعقيل عن الزهرىّ عن سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة — فإذا خَرص الخارص فحكمه أن يُسقط من خرصه مقدارًا ما ؛ لمـا رواه أبو داود والترمذىّ والبُسْتىّ فى صحيحه عن سهل بن أبى حَثْمة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إذا خرصتم فخذوا ودَعُوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الرّبع ". لفظ الترمذى . قال أبو داود : الخارص يدع الثلث للخُرْفة . وكذا قال يحيى القَطّان . وقال أبو حاتم البُسْتىّ: لهـذا الخبر صفتان : أحدهـما أن يترك الثلث أو الربع من العشر، والثـانى أن يترك ذلك من نفس التمر قبل أن يُعشر، إذا كان ذلك حائطا كبيرا يحتمله . الخُرْفة بضم الخاء: ما يُخْتَرَف من النخل حين يُدرِك ثمره، أى يُجْتَنَى. يقال: التمر خرفةُ الصائم؛ عن الجوهرىّ والهَروىّ . والمشهور من مذهب مالك أنه لا يَترك الخارصُ شيئا فى حين خَرصه من تمر النخل والعنب إلا خَرصه . وقد روى بعض المدنيين أنه يخفف فى الخرص ويترك للعَرايا(١) والصّلة ونحوها.

الرابعة عشرة — فإن لحِقت الثمرة جائحةٌ بعـد الخرص وقبل الجذاذ سقطت الزكاة عنه بإجماع من أهل العلم، إلا أن يكون فيما بقى منه خمسة أوْسق فصاعدًا .

---

(١) العرايا (واحدتها عرية) وهى النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا . والإعراء : أن يجعل له ثمرة عامها .

الخامسة عشرة — ولا زكاة فى اقل من خمسة أوْسُق ، كذا جاء مبيّناً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو فى الكتاب مُجْمَل ، قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ »(١) . وقال تعالى : « وَآتُوا حَقَّهُ » . ثم وقع البيان بالعُشر ونصف العُشر . ثم لما كان المقدار الذى إذا بلغه المال أخذ منه الحق مُجملا بيّنه أيضا فقال : "ليس فيما دون خمسة أوْسق من تمر أو حب صدقة" وهو ينفى الصدقة فى الخضراوات، إذ ليست مما يُوسق؛ فمن حصل له خمسة أوْسق فى نصيبه من تمر أو حب وجبت عليه الزكاة، وكذلك من زبيب؛ وهو المسمَّى بالنصاب عند العلماء. يقال: وِسْق ووَسْق (بكسر الواو وفتحها) وهو ستون صاعا، والصاع أربعة أمداد، والمد رطل وثلث بالبغداديّ. ومبلغ الخمسة أوْسق من الأمداد ألف مدّ ومائتا مدّ، وهى بالوزن ألف رِطل وستمائة رِطل.

السادسة عشرة — ومن حصل له من تمر وزبيب معًا خمسةُ أوْسُق لم تلزمه الزكاة؛ لأنهما صنفان مختلفان . وكذلك أجمعوا على أنه لا يضاف التمر إلى البُر ولا البر الى الزبيب ؛ ولا الإبل إلى البقر، ولا البقر إلى الغنم . ويضاف الضأن إلى المَعْز بإجماع . واختلفوا فى ضم البُرّ إلى الشعير والسُّلْت وهى : —

السابعة عشرة — فأجازه مالك فى هذه الثلاثة خاصّةً فقط؛ لأنها فى معنى الصِّنف الواحد لتقاربها فى المنفعة واجتماعها فى المنبت والمحصد، وافتراقها فى الاسم لا يوجب افتراقها فى الحكم كالجواميس والبقر والمعز والغنم . وقال الشافعيّ وغيره : لا يجمع بينها ؛ لأنها أصناف مختلفة، وصفاتها متباينة، وأسماؤها متغايرة، وطعمها مختلف ؛ وذلك يوجب افتراقها . والله أعلم . قال مالك : والقَطَانيّ كلها صِنف واحد، يُضَمّ بعضها إلى بعض . وقال الشافعيّ : لا تُضم حبة عُرفت باسم منفرد دون صاحبتها ، وهى خلافها مباينة فى الخلقة والطعم إلى غيرها . ويُضَمّ كل صنف بعضه إلى بعض، رَدِيئُه إلى جيّده ؛ كالتمر وأنواعه، والزبيب أسودِه وأحمره، والحنطةِ وأنواعها من السمراء وغيرها . وهو قول الثَّوْريّ

(١) آية ٢٦٧ سورة البقرة .

وأبي حنيفـة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد وأبي ثور . وقال اللّيث : تُضم الحبـوب كلها : القُطنية[1] وغيرها بعضها إلى بعض في الزكاة . وكان أحمد بن حنبل يَجْبُن عن ضم الذهب إلى الوَرِق، وضم الحبوب بعضها إلى بعض . ثم كان في آخر أمره يقول فيها بقول الشافعيّ .

الثامنة عشرة — قال مالك: وما استهلكه منه ربُّه بعد بَدْوِ صلاحه أو بعد ما أَفْرك حُسِب عليه، وما أعطاه ربُّه منه في حصاده وجذاذه، ومن الزيتون في التقاطه، تَحَرَّى ذلك وحُسِب عليه. وأكثر الفقهاء يخالفونه في ذلك، ولا يوجبون الزكاة إلا فيما حصل في يده بعد الدَّرْس. قال الليث في زكاة الحبوب : يُبدأ بها قبل النفقة، وما أكل من فريك هو وأهله فلا يحسب عليـه، بمنزلة الرّطب الذي يترك لأهل الحائط يأكلونه فلا يُخْرَص عليهم . وقال الشافعيّ : يترك الخارِص لربّ الحائط ما يأكله هو وأهله رطبا، لا يَخْرِصه عليهم . وما أكله وهو رطب لم يُحسب عليـه . قال أبو عمر : ٱحتج الشافعيّ ومن وافقه بقـول الله تعالى : « كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إذا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » . وٱستدلّوا على أنه لا يُحتسب بالمأكول قبل الحصاد بهذه الآية . وٱحتجّوا بقوله عليـه السلام : " إذا خرصتم فدعوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع " . وما أكلت الدواب والبقر منه عند الدّرس لم يُحسب منه شيء على صاحبه عند مالك وغيره .

التاسعة عشرة — وما بيع من الفول والحِمّص والجُلبان أخضر، تَحَرّى مقدار ذلك يابسا وأخرجت زكاته حَبًّا. وكذا ما بيع من الثمر أخضر ٱعتبر وتُوُخّي وخُرص يابسا وأخرجت زكاته على ذلك الخرص زبيبا وتمرا . وقيل : يخرج من ثمنه .

الموفية عشرين — وأما ما لا يتتمّر من ثمر النخل ولا يتزبّب من العنب كعنب مصر ونخيلها ، وكذلك زيتونها الذي لا يُعصر، فقـال مالك : تخرج زكاته من ثمنه ، لا يكلّف غير ذلك صاحبـه، ولا يراعَى فيه بلوغ ثمنه عشرين مثقالا أو مائتي درهم ، وإنمـا ينظر إلى ما يرى أنه يبلغه خمسـة أوسق فأكثر . وقال الشافعيّ : عشره أو نصف عشره من وسطه تمرا إذا أكله أهله رطبا أو أطعموه .

---

(١) القطنية (بضم القاف وكسرها) : ما كان سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر .

الحادية والعشرون — روى أبو داود عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بَعْلًا العُشْر (١) . وفيما سُقى بالسّوانى (٢) أو النَّضْح نصف العشر . وكذلك إن كان يشرب سَيْحا فيه العشر" وهو الماء الجارى على وجه الأرض؛ قاله ابن السِّكِّيت . ولفظ السَّيْح مذكور فى الحديث ، خرّجه النّسائى . فإن كان يشرب بالسّيح لكن ربّ الأرض لايملك ماء وإنما يكتريه له فهو كالسماء،على المشهور من المذهب . ورأى أبو الحسن اللخمى أنه كالنضح ؛ فلو سُقى مَرّة بماء السماء ومَرّة بدالِية ؛ فقال مالك : يُنظر إلى ما تمّ به الزرع وحيِي وكان أكثر؛ فيتعلّق الحكم عليه . هذه رواية ٱبنِ القاسم عنه . وروى عنه ٱبن وهب : إذا سُقى نصف سنة بالعيون ثم انقطع فسُقى بقيّة السنة بالناضح فإنّ عليه نصف زكاته عشرا ، والنصف الآخر نصف العشر . وقال مَرّة : زكاته بالذى تمت به حياته . وقال الشافعى : يُزَكّى كُلُّ واحد منهما بحسابه . مثاله أن يشرب شهرين بالنضح وأربعة بالسماء؛ فيكون فيه ثلثا العشر لماء السماء وسدس العشر للنضح؛ وهكذا ما زاد ونقص بحسابه . وبهذا كان يُفْتِى بكّار بن قتيبة . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : يُنظر إلى الأغلب فيزكّى ، ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك . وروى عن الشافعى . قال الطحاوى : قد ٱتفق الجميع على أنه لو سقاه بماء المطر يوما أو يومين أنه لا ٱعتبار به ، ولا يجعل لذلك حصّة ؛ فدلّ على أن الٱعتبار بالأغلب ، والله أعلم .

قلت : فهذه جملة من أحكام هذه الآية، ولعلّ غيرنا يأتى بأكثرَ منها على ما يفتح الله له . وقد مضى فى «البقرة» (٣) جملة من معنى هذه الآية، والحمد لله .

الثانية والعشرون — وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس فى حب ولا تمر صدقة" خرّجه النّسائى . قال حمزة الكِنانِى : لم يذكر فى هذا الحديث "فى حب" غير إسماعيل بن أميّة ، وهو ثقة قرشى من ولد سعيد بن العاصى . قال : وهذه السنة لم يروها أحد عن

(١) البعل : هو ما ينبت من النخيل فى أرض يقرب ماؤها ، فرسخت عروقها فى الماء واستغنت عن ماء السماء والأنهار . (٢) السوانى : جمع سانية ، وهى الناقة التى يستقى عليها . (٣) راجع المسئلة الرابعة جـ ٣ ص ٣٢١ طبعه أولى أو ثانية .

النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه غير أبي سعيد الخُدْري . قال أبو عمر : هو كما قال حمزة، وهـذه سنة جليلة تلقّاها الجميع بالقبول ، ولم يروها أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت محفوظ غيرُ أبي سـعيد . وقد روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، ولكنه غريب ، وقد وجدناه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

الثالثة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الإسراف في اللغة الخطأ . وقال أعرابي أراد قوما : طلبتكم فسَرَفتكم ؛ أي أخطأت موضعكم . وقال الشاعر :

وقال قائلهم والخيل تَخبِطهم ❊ أسرفتم فأجبنا أننـا سرف

والإسراف في النفقة : التبذير . ومُسرِف لقب مسلم بن عقبة المُرّي صاحب وقعة الحرّة ؛ لأنه قد أسرف فيها . قال عليّ بن عبد الله بن العباس :

هُمُ منعوا ذِمارِي يوم جاءت ❊ كتائب مُسْرِف وبني اللَّكِيعهْ

والمعنى المقصود من الآية : لا تأخذوا الشيء بغير حقه وتضعوه في غير حقه ؛ قاله أَصْبَغ ابن الفرج . ونحوه قول إياس بن معـاوية : ما جاوزتَ به أمرَ الله فهو سَرَف وإسراف . وقال ابن زيد : هو خطاب للولاة ، يقول : لا تأخذوا فوق حقكم وما لا يجب على الناس . والمعنيان يحتملان قوله عليه السلام : "المُعْتَدِي في الصدقة كمانِعها" . وقال مجاهد : لو كان أبو قُبيس ذهبا لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مُسْرفا ، ولو أنفق درهما أو مُدًّا في معصية الله كان مسرفا . وفي هذا المعنى قيل لحاتم : لا خير في السَّرف ؛ فقال : لا سَرَف في الخير .

قلت : وهـذا ضعيف ؛ يردّه ما رَوى ابن عباس أن ثابت بن قَيس بن شَمّاس عَمَد إلى خمسمائة نخلة فجذّها ثم قسّمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئا ؛ فنزلت « وَلَا تسرفوا » أي لا تعطوا كلّه . وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : جَذّ معاذ بن جبل نخلة فلم يزل يتصدّق حتى لم يبق منه شيء ؛ فنزل « ولا تسرفوا » . قال السدّي : « ولا تسرفوا » أي لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . ورُوِي عن معاوية بن أبي سفيان أنه سئل عن قوله تعالى « ولا تسرفوا » قال : الإسراف ما قصرتَ عن حقّ الله تعالى .

قلت : فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المال ومنع إخراج حق المساكين داخلين فى حكم السّرف . والعدل خلاف هذا ؛ فيتصدق ويُبقى كما قال عليه السلام : "خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى"(١) إلا أن يكون قوىّ النفس غنيًّا بالله متوكّلا عليه منفردا لا عيال له ، فله أن يتصدّق بجميع ماله ، وكذلك يخرج الحق الواجب عليه من زكاة وما يَعِنّ فى بعض الأحوال من الحقوق المتعيّنة فى المال . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الإسراف ما لم يقدر على ردّه إلى الصلاح . والسَّرَف ما يقدر على ردّه إلى الصلاح . وقال النَّضْر بن شُمَيل : الإسراف التبذير والإفراط ، والسرف الغفلة والجهل . قال جرير :

أَعْطَوْا هُنَيدةَ يحدُوها ثمانيةٌ * ما فى عطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

أى إغفال . ويقال خطأ . ورجلٌ سَرِف الفؤاد ، أى مخطئ الفؤاد غافله . قال طَرَفة :

إنّ ٱمرأ سَرِفَ الفؤاد يرى * عَسَلًا بماء سحابة شَتْمِى

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٤٢)

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الأنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطف . أى وأنشأ حمولة وفرشا من الأنعام . وللعلماء فى الأنعام ثلاثة أقوال : أحدها — أن الأنعام الإبل خاصّة ؛ وسيأتى فى « النّحل » بيانه . الثانى — أن الأنعام الإبل وحدها ، وإذا كان معها بقر وغنم فهى أنعام أيضا . الثالث — وهو أصحها قاله أحمد بن يحيى : الأنعام كل ما أحله الله عز وجل من الحيوان . ويدلّ على صحة هذا قوله تعالى : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ »(٢) وقد تقدّم . والحَمُولَة ما أطاق الحَمْل والعمل ؛ عن ٱبن مسعود وغيره . ثم قيل : يختص اللفظ بالإبل . وقيل : كل ما ٱحتمل عليه الحىّ من حمار أو بغل أو بعير ؛ عن أبى زيد ، سواء كانت عليه الأحمال أو لم تكن .

---

(١) أى ما كان عفوا قد فضل عن غنى . وقيل : أراد ما فضل عن العيال . والظهر قد يزاد فى مثل هذا إشباعا للكلام وتمكينا ؛ كأن صدقته مستندة إلى ظهر قوى من المال (عن ابن الأثير) .

(٢) أول سورة المائدة .

قال عنـــترة :

ما رَاعــنِى إلا حَمــولةُ أهلِهــا * وسْــط الدّيار تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِم(١)

وفعولة بفتح الفاء إذا كانت بمعنى الفاعل آستوى فيها المؤنّث والمذكر ؛ نحو قولك : رجل فَروقة وآمرأة فَروقة للجبان والخائف . ورجل صرورة وآمرأة صرورة إذا لم يَحُجّا ؛ ولا جمع له . فإذا كانت بمعنى المفعول فرق بين المذكر والمؤنث بالهـاء كالحَلوبة والرَّكوبة . والحُمولة (بضم الحاء) : الأحمال . وأما الحُمُول (بالضم بلا هاء) فهى الإبل التى عليها الهوادج، كان فيها نساء أو لم يكن ؛ عن أبى زيد . و « فَرْشًا » قال الضحاك : الحمولة من الإبل والبقر . والفرش : الغنم . النحاس : وآستشهد لصاحب هذا القول بقوله « ثمانيـةَ أزواج » قال : فثمانية بدل من قوله « حمولة وفرشا » . وقال الحسن : الحمولة الإبل . والفـرش : الغنم . وقال آبن عباس : الحمولة كل ما حَمـل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير . والفَرْش : الغنم . وقال آبن زيد : الحمـولة ما يركب ، والفـرش ما يؤكل لحمه ويحلب ؛ مثـل الغنم والفِصلان والعجاجيل ؛ سُمِّيت فَرْشا للطافة أجسامها وقربهـا من الفرش ، وهى الأرض المستوية التى يتوطأها الناس . قال الراجز :

أورثنى حمـولة وفـرشا * أَمُشُّها فى كلّ يـومٍ مَشّا(٢)

وقال آخر :

وحَوَيْنا الفَرْش من أنعامكم * والحُمُـولات ورَبَّاتِ الحَجَل

قال الأصمعى : لم أسمع له بجمع . قال : ويحتمل أن يكون مصـدرا سُمِّىَ به ؛ من قولهم : فرشها الله فرشا ، أى بَثّها بَثًّا . والفَرْش : المفروش من متاع البيت . والفَرْش : الزرع إذا فرش . والفرش : الفضاء الواسع . والفَرْش فى رجل البعير : اِتّساع قليـل ، وهو محمود . وآفترش الشىءُ آنبسط ؛ فهو لفظ مشترك . وقد يرجع قوله تعالى : « وَفَرْشًا » إلى هـذا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذلّلة للحمل . والفَرْش ما خلقه الله عز وجل من الجلود والصّوف مما يُجلس عليه ويُتَمَهّد . وباقى الآية قد تقدّم .

(١) الخمخم (بكسر الخاء المهملة و يقال بالخاء) : نبات تعلف حبه الإبل . (٢) مش الناقة يمشها مشا : حلبها .

قوله تعالى : ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ « ثمانية » منصوب بفعل مضمر، أى وأنشأ ثمانيــة أزواج ؛ عن الكسائىّ . وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من حمولة وفرش . وقال الأخفش علىّ بن سليمان : يكون منصوبا بـ«كلوا» ؛ أى كلوا لحمَ ثمانية أزواج . ويجوز أن يكون منصوبا على البدل من « ما » على الموضع . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى كلوا المباح ثمانية أزواج من الضأن آثنين . ونزلت الآية فى مالك بن عَوْف وأصحابه حيث قالوا : « مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنعامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا » فنبّه الله عز وجل نبيّه والمؤمنين بهذه الآية على ما أحلّه لهم ؛ لئلا يكونوا بمنزلة من حرّم ما أحله الله تعالى . والزوج خلاف الفَرْد ؛ يقال : زَوْج أو فَرْد . كما يقال : خَسًا أو زَكًا ، شَـفْع أو وتر . فقـوله « ثمانية ازواج » يعنى ثمانية أفراد، وكل فَرْد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسَمَّى زوجا، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج . ويقع لفظ الزّوج للواحد وللاثنين ؛ يقال : هما زوجان، وهما زوج؛ كما يقال . هما سِيّان وهما سواء . وتقول : آشتريت زَوْجَى حمام . وأنت تعنى ذكرا وأنثى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ الضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ أى الذكر والأنثى . والضأن : ذوات الصّوف من الغنم ، وهى جمع ضائن . والأنثى ضائنــة ، والجمع ضوائن . وقيل : هو جمعٌ لا واحد له . وقيل فى جمعه : ضَئِين ؛ كعبد وعبيد . ويقال فيه : ضِئِين ؛ كما يقال فى شَعير شِعير،

كسرت الضاد اتباعا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « من الضَأن اثنين » بفتح الهمزة ، وهى لغة مسموعة عنـد البصريين . وهو مطّرد عند الكوفيين فى كل ما ثانيـه حرفُ حلق . وكذلك الفتح والإسكان فى المعـز . وقرأ أبَان بن عثمان « مِنَ الضَّأْن اثْنَانِ ومِن المعز اثنـان » رفعا بالابتـداء . وفى حرف أُبَىّ . « وَمِنَ الْمَعْز اثنـان » وهى قراءة الأكثر . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو بالفتح . قال النحاس : الأكثر فى كلام العرب المعْز والضأن بالإسكان . ويدل على هذا قولهم فى الجمع : مَعِيز ؛ فهذا جمع مَعْز . كما يقال عبد وعبيد . قال امرؤ القيس :

وَيَمْنَحُهَا بنو شَمَجَى بْن جَرْم * مَعِـيزَهُمُ حنانَك ذا الحَنان

ومثـله ضَأن وضَئِين . والمَعْـز من الغنـم خلاف الضأن ، وهى ذوات الأشـعار والأذناب القِصار ، وهو اسم جنس ، وكذلك المَعَز والمِعيزُ والأُمْعُوز والمِعزى . وواحد المَعْز ماعز ؛ مثل صاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر . والأنثى ماعزة وهى العنز ، والجمع مواعز . وأمعز القومُ كثرت معزاهم . والمَعّاز صاحب المِعزى . قال أبو محمـد الفَقْعَسِىّ يصف إبلا بكثرة اللّبن و يفضّلها على الغنم فى شـدة الزمان :

يكُلْنَ كَيْلًا ليس بالمَمْحُـوقِ * إذ رَضِىَ المَعَّاز باللعُــوقِ

والمَعَز الصـلابة من الأرض . والأمْعـز : المكان الصُّلب الكثير الحصى ؛ والمَعْزاء أيضا . واستمعز الرّجل فى أمره : جَدّ . ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ ﴾ منصوب بـ « حَرّم » . ﴿ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ عطف عليه . وكذا ﴿ أَمَّا اشْتَمَلَتْ ﴾ . وردت مع ألف الوصـل مدّة للفرق بين الاسـتفهام والخبر . ويجوز حذف الهمزة لأن « أم » تدل على الاستفهام . كما قال :

* تَرُوحُ مِن الحَىّ أم تبْتَكِرْ *

الثالثـــة — قال العلمـاء : الآية احتجاج على المشركين فى أمر البَحِيرة وما ذُكر معها . وقولهم : « مافِى بطونِ هذِهِ الأنعامِ خالصة لِذكورنا ومُحَرَّم على أزواجنا » . فدلّت على إثبات المناظرة فى العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام بأن يناظرهم ، ويبيّن لهم فساد قولهم . وفيها إثبات القول بالنظر والقياس . وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به .

ويروى « إذا ورد عليه النقض » ؛ لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة ، وأمرهم بطرد علتهم . والمعنى : قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام . وإن كان حرّم الإناث فكل أنثى حرام . وإن كان حرّم ما آشتملت عليه أرحام الأنثيين ، يعنى من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكرا كان أو أنثى . وكلها مولود فكلها إذًا حرام لوجود العلة فيها ، فبيّن آنتقاض علّتهم وفساد قولهم ؛ فأعلم الله سبحانه أن ما فعلوه من ذلك آفتراء عليه . ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ ﴾ أى بعلم إن كان عندكم ، مِن أين هـذا التحريمُ الذى آفتعلتموه ؟ ولا علم عندهم ؛ لأنهم لا يقرءون الكتب . والقول فى : ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ آثْنَيْنِ ﴾ وما بعده كما سبق . ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أى شاهدتم الله قد حرّم هذا . ولمّا لزمتهم الحجة أخذوا فى الآفتراء فقالوا : كذا أمر الله . فقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ آفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بيّن أنهم كذبوا؛ إذ قالوا بما لم يدل عليه دليل .

قوله تعالى : قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ﴾ أعلم الله عز وجل فى هذه الآية بما حرّم . والمعنى : قل يامحمد لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما إلا هذه الأشياء ، لا ماتحرّمونه بشهوتكم . والآية مكية . ولم يكن فى الشريعة فى ذلك الوقت محرّم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة « المائدة » بالمدينة . وزيد فى المحرمات كالمُنْخَنِقة والمَوْقُوذة[1] والمُتَرَدِّيَة والنَّطِيحَة والخمر وغير ذلك . وحرّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكلَ كلِّ ذى ناب من السباع وكلِّ ذى مِخْلب من الطير .

(١) الموقوذة : الشاة المضروبة حتى تموت ولم تُذَكَّ . والمتردية : التى تقع من جبل ، أو تطيح فى بئر ، أو تسقط من موضع مشرف فتموت .

وقـد اختلف العلمـاء فى حكم هذه الاية وتأويلها على أقوال : الأول — ما أشرنا إليه من أن هـذه الآية مكية ، وكلّ محرّم حرّمه رسـول الله صلى الله عليه وسلم أوجاء فى الكتاب مضموم إليها ؛ فهو زيادة حكم من الله عز وجل على لسان نبيّه عليه السلام . على هذا أكثر أهل العلم من النظر ، وأهل الفقه والأثر . ونظيره نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله : «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ»(١) وكحكمه باليمين مع الشاهد مع قوله : «فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ»(٢) وقد تقدّم . وقد قيل : إنها منسوخة بقوله عليه السلام : "أكلُ كلّ ذى ناب من السباع حرام" أخرجه مالك ، وهو حديث صحيح . وقيل : الآية محكمة ولا يحرم إلا ما فيها . وهـو قول يُرْوَى عن ابن عباس وابن عمر وعائشـة ، ورُوى عنهم خلافـه . قال مالك : لا حرام بيّنٌ إلا ما ذُكر فى هذه الآية . وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد : تضمّنت هـذه الآية تحليلَ كلِّ شىء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى فى الآية من الميتة والدّم المسفوح ولحم الخنزير . ولهذا قلنـا : إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سـوى الإنسان والخنزير مباح . وقال الكِيَا الطبرىّ : وعليها بنى الشافعىّ تحليلَ كلّ مسكوت عنه ، أخْذًا من هـذه الآية ، إلا مادلّ عليه الدليل . وقيل : إن الآية جواب لمن سأل عن شىء بعينه فوقع الجواب مخصوصا . وهـذا مذهب الشافعىّ . وقد روى الشافعىّ عن سـعيد بن جُبير أنه قال : فى هـذه الآية أشياء سألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم عن المحرّمات من تلك الأشياء . وقيـل : أى لا أجد فيا أوحى إلىّ أى فى هذه الحـال حال الوحى ووقت نزوله ، ثم لا يمتنع حدوث وَحْىٍ بعدذلك بتحريم أشياء أخر . وزعم ابن العربى أنهذه الآية مدنية ، مكّية فى قول الأكثر، نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم نزل عليه « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(٣) ولم ينزل بعدها ناسخ فهى محْكمة ، فلا مُحرّم إلا ما فيها ، وإليه أميل .

قلت : وهذا ما رأيته قاله غيره . وقد ذكر أبو عمر بن عبـد البر الإجماعَ فى أن سورة « الأنعام » مكية إلا قوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »(٤) الثلاث الآيات ، وقد

(١) آية ٢٤ سورة النساء . (٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة . (٣) آية ٣ سورة المائدة .
(٤) آية ١٥١ وما بعدها .

نزل بعدها قرآن كثير وسُنن جَمّة . فنزل تحريم الخمر بالمدينة فى « المائدة » . وأجمعوا على أن نهيه عليه السلام عن أكل كل ذى ناب من السباع إنما كان منه بالمدينة . قال إسماعيل ابن إسحاق : وهذا كله يدل على أنه أمرٌ كان بالمدينة بعد نزول قوله : «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِىَ إِلَىَّ » لأن ذلك مكّى .

قلت : وهذا هو مَثار الخلاف بين العلماء . فعدل جماعة عن ظاهر الأحاديث الواردة بالنهى عن أكل كل ذى ناب من السباع؛ لأنها متأخرة عنها والحصر فيها ظاهر فالأخذ بها أولى؛ لأنها إما ناسخة لما تقدّمها أو راجحة على تلك الأحاديث . وأما القائلون بالتحريم فظهر لهم وثبت عندهم أن سورة « الأنعام » مكية؛ نزلت قبل الهجرة ، وأن هذه الآية قصد بها الردّ على الجاهلية فى تحريم البحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامى، ثم بعد ذلك حرّم أمورا كثيرة كالحُمُر الإنسية ولحوم البغال وغيرهما ، وكل ذى ناب من السباع وكلّ ذى مِخلب من الطير . قال أبو عمر : ويلزم على قول من قال « لا محرم إلا ما فيها » ألا يحرّم مالم يذكر اسم الله عليه عمدا ، وتُستحلّ الخمر المحرّمة عند جماعة المسلمين . وفى إجماع المسلمين على تحريم خمر العنب دليل واضح على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد فيما أوحىَ إليه محرما غيرما فى سورة « الأنعام » ممـا قد نزل بعدها من القرآن . وقد اختلفت الرواية عن مالك فى لحوم السباع والحمر والبغال فقال : هى محرّمة؛ لما ورد من نهيه عليه السلام عن ذلك ، وهو الصحيح من قوله على مافى الموطأ . وقال مَرّة : هى مكروهة ، وهو ظاهر المدوّنة ؛ لظاهر الآية؛ ولما روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة من إباحة أكلها ، وهو قول الأوزاعىّ . روى البخارىّ من رواية عمرو بن دِينار قال : قلت لجابر بن زيد إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية ؟ فقال : قد كان يقول ذلك الحكَم بن عمرو الغِفارىّ عندنا بالبصرة؛ ولكن أبَى ذلك البحرُ ابن عباس ، وقرأ «قُلْ لاأجدُ فيما أُوحِىَ إلىَّ مُحَرَّمًا» . وروى عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال : لابأس بها . فقيل له : حديث أبى ثعلبة الخُشَنِىّ[1] .

(١) حديث أبى ثعلبة : أنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أكل كل ذى ناب من السباع حرام » .

فقال : لاتَدَع كتابَ الله ربَّنا لحديث أعرابيّ يبول على ساقيه . وسئل الشَّعبيّ عن لحم الفيل والأسد فتلا هــذه الآية . وقال القاسم : كانت عائشة تقول لمـا سمعت الناس يقولون حَرُم كل ذى ناب من السباع : ذلك حلال، وتتلو هذه الآية «قل لا أجد فيما أوحِىَ إلىّ محرما» ثم قالت : أنْ كانت البُرْمة ليكون ماؤها أصفر من الدم ثم يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يحرّمها . والصحيح فى هــذا الباب ما بدأنا بذكره، وأن ما ورد من المحرّمات بعد الآية مضموم إليها معطوف عليها . وقد أشار القاضى أبو بكر بن العربىّ إلى هذا فى قبسه خلاف ما ذكر فى أحكامه قال : روى عن ابن عباس أن هذه الآية من آخر ما نزل ؛ فقال البغداديون من أصحابنا : إنّ كل ما عداها حلال ، لكنه يكره أكل السباع . وعند فقهاء الأمصار منهم مالك والشافعىّ وأبو حنيفة وعبد الملك أن أكل كل ذى ناب من السباع حرام ، وليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله «قل لا أجد فيما أوحىَ إلىّ محرما » بما يَرِد من الدليل فيها ؛ كما قال النبىّ صلى الله عليــه وسلم : "لا يحلّ دم آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث" فذكر الكفر والزنا والقتل . ثم قال علمـاؤنا : إن أسـباب القتل عشرة بمـا ورد من الأدلة ، إذ النبىّ صلى الله عليه وسلم إنمـا يخبر بما وصل إليه من العلم عن البارى تعالى ؛ وهو يَمْحُو ما يشاء ويُثْبِت ويَنْسَخ ويقدّر . وقد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أكل كل ذى ناب من السباع حرام" وقد رُوى أنه نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطير . وروى مسلم عن مَعْن عن مالك «نُهِىَ عن أكل كل ذى مخلب من الطير» . والأوّل أصح . وتحريم كل ذى ناب من السباع هو صريح المذهب . وبه ترجم مالك فى الموطأ حين قال : تحـريم أكل كل ذى ناب من السـباع . ثم ذكر الحديث وعقبه بعـد ذلك بأن قال : وهو الأمر عندنا . فأخبر أن العمل آطرد مع الأثر . قال القشيرىّ : فقول مالك « هــذه الآية من أواخر ما نزل» لا يمنعنا من أن نقول : ثبت تحريم بعض هذه الأشياء بعد هذه الآية، وقد أحل الله الطيبات وحرم الخبائث ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ،وعن أكل كل ذى مِخْلب من الطير ، ونهى عن لحوم الحمر الأهلية

عامَ خَيْبر . والذى يدل على صحة هذا التأويل الإجماعُ على تحريم العَذِرة والبَوْل والحشرات المستقْذرة والخُمر مما ليس مذكورا فى هذه الاية .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿مُحَرَّمًا﴾ قال ٱبن عطية : لفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها صالحة أن تنتهى بالشىء المذكور غاية الحَظْر والمنع ، وصالحةٌ بحسب اللغة أن تقف دون الغاية فى حيّز الكراهة ونحوها ؛ فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع ، ولِحق بالخنزير والميتة والدّم ، وهذه صفة تحريم الخمر . وما اقترنت به قرينة اضطراب ألفاظ الأحاديث واختلفت الأئمة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه السلام : "أكلُ كل ذى ناب من السباع حرام" . وقد ورد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم فى تحريم ذلك . فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذى هو الكراهة ونحوها . وما ٱقترنت به قرينة التأويل كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسيّة فتأوّل بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنها نَجَسٌ . وتأوّل بعضهم ذلك لئلا تفنى حَمولة الناس . وتأوّل بعضهم التحريم المحض . وثبت فى الأمة الاختلاف فى تحريم لحمها ؛ فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهته أو نحوها .

قلت : وهذا عقد حَسَن فى الباب وفى سبب الخلاف على ما تقدم . وقد قيل : إن الحمار لا يؤكل ، لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نَزَا على ذكر وتلوّط ؛ فسمّى رجسا . قال محمد بن سِيرين : ليس شىء من الدواب يعمل عمل قومِ لوط إلا الخنزير والحمار ؛ ذكره الترمذىّ فى نوادر الأصول .

الثالثـــة — روى عمرو بن دِينار عن أبى الشَّعثاء عن ٱبن عباس قال : كان اهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء ، فبعث الله نبيّه عليه السلام وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرّم حرامه ؛ فما أحلّ فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ ، وتلا هذه الاية «قُلْ لَا أَجِدُ»

الآية . يعنى ما لم يبيّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية . وروى الزُّهرِىّ عن عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس أنه قرأ «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرّما» قال : إنما حرّم من الميتة أكلها، ما يؤكل منها وهو اللحم؛ فأما الجلد والعظم والصوف والشعر فحلال . وروى أبو داود عن مِلْقام بن تَلِب عن أبيه قال : صحِبت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم أسمع لحشرة الأرض تحريما . الحشرة : صغار دوابّ الأرض ؛ كاليرابيع والضِّباب والقنافذ ونحوها ؛ قال الشاعر :

أكلنا الرُّبَى يا أمّ عمرو ومن يكن * غريبا لديكم يأكل الحشرات

أى ما دبّ ودَرج . والرُّبَى جمع رُبْيَة وهى الفأرة . قال الخطّابىّ : وليس فى قوله « لم أسمع لها تحريما» دليلٌ على أنها مباحة ؛ لجواز أن يكون غيره قد سمعه . وقد اختلف الناس فى اليَرْبوع والوَبْر(١) والجمع وِبار ونحوهما من الحشرات ؛ فرخّص فى اليربوع عروةُ وعطاء والشافعىّ وأبو ثور . قال الشافعىّ : لا بأس بالوَبْر . وكرهه آبن سيرين والحَكَم وحمّاد وأصحابُ الرأى . وكره أصحاب الرأى القنفذ . وسئل عنه مالك بن أنس فقال : لا أدرى . وحكى أبو عمر : وقال مالك لا بأس بأكل القنفذ . وكان أبو ثَوْر لا يرى به بأسا ؛ وحكاه عن الشافعىّ . وسئل عنه آبن عمر فتلا « قُلْ لا أجِدُ فيما أوحَى إلىّ محرّمًا » الاية ؛ فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " خبيثةٌ من الخبائث " . فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا فهو كما قال . ذكره أبو داود . وقال مالك : لا بأس بأكل الضّب واليربوع والوَرَل(٢) . وجائز عنده أكل الحيات إذا ذُكّيت ؛ وهو قول آبن أبى لَيْلى والأوزاعِىّ . وكذلك الأفاعى والعقارب والفأر والعظاية(٣) والقنفذ والضفدع . وقال آبن القاسم : ولا بأس بأكل خِشاش الأرض وعقاربها ودودها فى قول مالك ؛ لأنه قال : موته فى الماء لا يفسده . وقال مالك : لا بأس بأكل فراخ النحل ودود الجبن والتمر ونحوه .

---

(١) الوبر (بالتسكين) : دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء من دواب الصحراء، حسنة العينين شديدة الحياء تكون بالغور . (٢) الورل : دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه ، يكون فى الرمال والصحارى .

(٣) العظاية : دويبة كسامّ أبرص .

والحجة له حديث مِلْقام بن تَلِب، وقول ابن عباس وأبى الدرداء : ما أحلّ الله فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ . وقالت عائشة فى الفارة : ما هى بحرام، وقرأت « قل لا أجد فيما أوحِىَ إلىّ محرّما » . ومن علماء أهل المدينة جماعةٌ لايجيزون أكل شىء من خِشاش الأرض وهَوَامّها ؛ مثل الحيات والأوزاغ والفار وما أشبهه . وكل ما يجوز قتله فلا يجوز عند هؤلاء أكله ، ولا تعمَل الذكاة عندهم فيه . وهو قول ابن شِهاب وعُروة والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابه وغيرهم . ولا يؤكل عند مالك وأصحابه شىء من سباع الوحش كلّها، ولا الهِرّ الأهلى ولا الوحشى لأنه سَبُع . وقال : ولا يؤكل الضبع ولا الثعلب، ولا بأس بأكل سباع الطير كلها : الرَّخَم والنُّسور والعِقبان وغيرها، ما أكل الجِيَف منها وما لم يأكل . وقال الأوزاعىّ الطير كله حلال، إلا أنهم يكرهون الرَّخَم . وحجة مالك أنه لم يجد أحدا من أهل العلم يكره أكل سباع الطير، وأنكر الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " أنه نهى عن أكل كل ذى مِخْلَب من الطير". وروى عن أشهب أنه قال : لابأس بأكل الفِيل إذا ذُكِّى، وهو قول الشَّعْبىّ، ومنع منه الشافعىّ . وكره النعمان وأصحابُه أكل الضَّبُع والثعلب . ورخّص فى ذلك الشافعىّ، وروى عن سعد بن أبى وقّاص أنه كان يأكل الضِّباع . وحجة مالكٍ عُموم النّهى عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ولم يخص سَبُعا من سَبُع . وليس حديث الضّبع الذى خرّجه النّسائىّ فى إباحة أكلها مما يعارض به حديث النهى ؛ لأنه حديث انفرد به عبد الرحمن بن أبى عمّار، وليس مشهورا بنقل العلم، ولا ممن يحتج به إذا خالفه من هو أثبت منه . قال أبو عمر: وقد رُوى النهى عن أكل كل ذى ناب من السباع من طرق متواترة . روى ذلك جماعةٌ من الأئمة الثقات الأثبات ، ومُحالٌ أن يعارَضوا بمثل حديث ابن أبى عمار . قال أبو عمر : أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القِرد لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله، ولا يجوز بيعه لأنه لامنفعة فيه . قال : وما علمت أحدا رخّص فى أكله إلا ما ذكره عبد الرزاق عن مَعمر عن أيوب . سئل مجاهد عن أكل القرد فقال : ليس من بهيمة الأنعام .

قلت : ذكر ابن المنذر أنه قال : رَوينا عن عطاء أنه سئل عن القرد يُقتل فى الحَرَم فقال : يحكم به ذوا عَدْل . قال : فعلى مذهب عطاء يجوز أكل لحمه؛ لأن الجزاء لا يجب على

من قتل غير الصّيد . وفى (بحر المذهب) للُّرويانِيّ على مذهب الإمام الشافعىّ : وقال الشافعىّ يجوز بيع القرد لأنه يُعلَّم وينتفع به لحفظ المتاع . وحكى الكَشْفَلِيّ عن ابن شريح يجوز بيعه لأنه ينتفع به . فقيل : وما وجه الانتفاع به ؟ قال : تفرح به الصِّبيـان . قال أبو عمر : والكلب والفيل وذو الناب كلُّه عندى مثلُ القِرْد . والحجة فى قول رسول الله صلى الله عليـه وسلم لا فى قول غيره . وقـد زعم ناس أنه لم يكن فى العرب من يأكل لحم الكلب إلا قوم من فَقْعَس . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن أكل الجَلّالة وألبانها . فى رواية عن الجَلّالة فى الإبل أن يُركب عليها أو يُشرب من ألبانها . قال الحَلِيمىّ أبو عبد الله : فأما الجَلّالة فهى التى تأكل العَذِرة من الدواب والدَّجاج المُخَلّاة . ونهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن لحومها . وقال العلماء : كلّ ما ظهر منها ريح العَذِرة فى لحمه أو طعمه فهو حرام، وما لم يظهر فهو حلال . وقال الخَطّابِىّ : هذا نَهْىُ تَنَزُّه وتَنَظُّف، وذلك أنها إذا اغتذت الجِلّة وهى العذرة وُجد نتن رائحتها فى لحومها، وهذا إذا كان غالب علفها منها؛ فأما إذا رعت الكلأ واعتلفت الحَبّ وكانت تنال مع ذلك شيئا من الجلة فليست بجلّالة ، وإنما هى كالدّجاج المُخَلّاة، ونحوها من الحيوان الذى ربما نال الشىء منها وغالب غذائه وعلفه من غيره فلا يكره أكلها . وقال أصحاب الرأى والشافعىّ وأحمد : لا تؤكل حتى تُحبس أياما وتعلف عَلَفًا غيرها ؛ فإذا طاب لحمها أكلت . وقد روى فى حديث أن البقر تُعلف أربعين يوما ثم يؤكل لحمها . وكان ابن عمـر يحبس الدّجاج ثلاثا ثم يذبح . وقال إسحاق : لا بأس بأكلها بعد أن يغسل لحمها غسلا جيـدا . وكان الحسن لا يرى بأسا بأكل لحم الجَلّالة؛ وكذلك مالك بن أنس . ومن هذا الباب نُهى أن تلقى فى الأرض العذرة . روى عن بعضهم قال : كنا نُكْرِى أرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشترط على من يكريها ألا يُلقى فيها العذرة . وعن ابن عمر أنه كان يكرى أرضـه ويشترط ألا تُدْمَن(١) بالعذرة . وروى أن رجلا كان يزرع أرضه بالعذرة فقال له عمر : أنت الذى تطعم الناس ما يخرج منهم . واختلفوا فى أكل

---

(١) دمن الأرض (من باب نصر) : أصلحها بالسرجين .

الخيل ؛ فأباحها الشافعيّ ، وهو الصحيح ، وكرهها مالك . وأما البغل فهو متولّد من بين الحمار والفرس، وأحدهما مأكول أو مكروه وهو الفرس، والآخر محرّم وهو الحمار؛ فغلّب حكم التحريم؛ لأن التحليل والتحريم إذا اجتمعا في عين واحدة غُلّب حكم التحريم . وسيأتي بيان هذه المسألة في «النحل»(١) إن شاء الله بأوعب من هذا. وسيأتي حكم الجراد في «الأعراف»(٢). والجمهور من الخَلَف والسَّلَف على جواز أكل الأرنب . وقد حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص تحريمه . وعن ابن أبي ليلى كراهته . قال عبد الله بن عمرو : جئ بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس فلم يأكلها ولم ينْه عن أكلها، وزعم أنها تحيض. ذكره أبو داود. وروى النسائي مُرْسلا عن موسى بن طلحة قال : أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأرنب قد شواها رجل وقال : يا رسول الله ، إني رأيت بها دما ؛ فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأكلها، وقال لمن عنده : "كُلُوا فإني لو آشتهيتها أكلتها" .

قلت : وليس في هذا ما يدل على تحريمه، وإنما هو نحوٌ من قوله عليه السلام : " إنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه " . وقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : مررنا فاسْتَنْفَجْنَا(٣) أرنبا بمرّ الظهران فسَعَوْا عليه فلَغَبُوا(٤). قال: فسعيت حتى أدركتها، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها، فبعث بوركها وفَخِذَيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبِله .

الرابعة – قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي آكِلٍ يأكله . وروى عن ابن عامر أنه قرأ «أوْحى» بفتح الهمزة . وقرأ عليّ بن أبي طالب «يطّعِمه» مثقل الطاء، أراد يتطعمه فأدغم . وقرأت عائشة ومحمد بن الحنفية «على طاعم طعمه» بفعل ماض . ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ قرئ بالياء والتاء ؛ أي إلا أن تكون العين أو الجثة أو النفس ميتةً . وقرئ « يكون » بالياء « ميتة » بالرفع بمعنى تقع وتحدث ميتةٌ . والمسفوح : الجاري الذي يسيل

(١) في قوله تعالى : «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... » آية ٨	(٢) آية ١٣٣
(٣) قال النووي : معنى استنفجنا : أثرنا ونفرنا . ومر الظهران (بفتح الميم والظاء) : موضع قريب من مكة .
(٤) فلغبوا : أي أعيوا وعجزوا عن أخذها .

وهو المحرّم . وغيره مَعْفُوٌّ عنه . وحكى الماوردى أن الدم غير المسفوح أنه إن كان ذا عروق يجمد عليها كالكبد والطحال فهو حلال ؛ لقوله عليه السلام : "أحِلّت لنا ميتتان ودمان" الحديث . وإن كان غير ذى عروق يجمد عليها، وإنما هو مع اللحم ففى تحريمه قولان: أحدهما أنه حرام؛ لأنه من جملة المسفوح أو بعضه . وإنما ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه . والثانى أنه لا يحرم؛ لتخصيص التحريم بالمسفوح .

قلت : وهو الصحيح . قال عمران بن حُدير : سألت أبا مِجْلز عما يتلطخ من اللحم بالدم، وعن القِدر تعلوها الحمرة من الدّم فقال : لا بأس به ، إنما حرّم الله المسفوح . وقالت نحوه عائشة وغيرُها، وعليه إجماع العلماء . وقال عكرمة : لولا هذه الآية لاتّبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود . وقال إبراهيم النَّخَعِى : لا بأس بالدم فى عرق أو مخ . وقد تقدّم هذا وحكم المضطر فى «البقرة»(١) .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ لما ذكر الله عز وجل ما حرّم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقّب ذلك بذكر ما حرّم على اليهود؛ لما فى ذلك من تكذيبهم فى قولهم : إن الله لم يحرّم علينا شيئا، وإنما نحن حرّمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه . وقد تقدّم فى « البقرة » معنى « هادوا »(٢) . وهذا التحريم على الذين هادوا إنما هو تكليف بَلْوَى وعقوبة . فأوّل ما ذكر من المحرّمات عليهم كلّ ذى ظُفر . وقرأ الحسن «ظُفْر» بإسكان الفاء. وقرأ أبو السّمّال «ظِفْر» بكسر الظاء وإسكان الفاء. وأنكر أبو حاتم كسر

(١) راجع ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها . طبعة ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٤٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

الظاء وإسكان الفاء، ولم يذكر هذه القراءة وهي لغة . « وظِفِر » بكسرهما . والجمع أظفار وأظفور وأظافير؛ قاله الجوهري . وزاد النحاس عن الفرّاء أظافر وأظافرة[1]؛ قال ابن السكّيت : يقال رجل أظفر بين الظَّفَر إذا كان طويل الأظفار؛ كما يقال : رجل أشعر للطويل الشّعر . قال مجاهد وقتادة : « ذى ظفر » ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير، مثل الإبل والنعام والإوزّ والبطّ . وقال ابن زيد: الإبل فقط . وقال ابن عباس : «ذى ظفر» البعير والنعامة ؛ لأن النعامة ذات ظفر كالإبل . وقيل : يعنى كل ذى مِخْلَب من الطير وذى حافر من الدواب . ويُسمَّى الحافر ظفرا استعارة . وقال الترمذيّ الحكيم : الحافر ظفر، والمخلب ظفر؛ إلا أن هذا على قدره وذاك على قدره، وليس ههنا استعارة؛ ألا ترى أن كليهما يُقَص ويؤخذ منهما وكلاهما جنس واحد، عَظْمٌ ليّن رِخْوٌ. أصله من غذاء ينبت فيُقَصّ مثل ظفر الإنسان، وإنما سُمّى حافرا لأنه يحفر الأرض بوقعه عليها. وسُمّى مِخْلبا لأنه يخلب الطير برءوس تلك الإبر منها. وسُمّى ظفرا لأنه يأخذ الأشياء بظفره، أى يظفر به الآدمى والطير .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ قال قتادة : يعنى الثُّروب وشحم الكُلْيتين؛ قاله السُّدّى . والثُّروب جمع الثَّرْب، وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكَرِش . قال ابن جُريج : حرّم عليهم كلّ شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأحلّ لهم شحم الجنب والألية؛ لأنه على العُصْعُص .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ «ما» فى موضع نصب على الاستثناء. «ظُهُورُهُمَا» رفع بـ«حملت» . ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَا﴾ فى موضع رفع عطفٌ على الظهور؛ أى أو حملت حواياهما ، والألف واللام بدل من الإضافة . وعلى هذا تكون الحوايا من جملة ما أحلّ . ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ «ما» فى موضع نصب عطف على «ما حملت» أيضا . هذا أصح ما قيل فيه . وهو قول الكسائىّ والفرّاء وأحمد بن يحيى . والنظر يوجب أن يعطف الشىء على

(١) فى نسخ الأصل : « ... أظافير وأظافرة ؛ مثل ضاربة وضوارب ... » . فقوله : مثل ضاربة وضوارب زيادة من النساخ .

ما يليه، إلا ألّا يصح معناه أو يدل دليل على غير ذلك . وقيل : إن الاستثناء فى التحليل إنما هو ما حملت الظهور خاصّةً، وقوله «أو الحوايا أو ما اختلط بعظم» معطوف على المحرم . والمعنى : حرمت عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم؛ إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرّم . وقد ٱحتج الشافعىّ بهذه الآية فى أن من حلف ألا يأكل الشحم حنِث بأكل شحم الظهور؛ لٱستثناء الله عز وجل ما على ظهورهما من جملة الشحم .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا ﴾ الحوايا : المباعر؛ عن ٱبن عباس وغيره . وهو جمع مَبْعَر؛ سمى بذلك لاجتماع البَعْر فيه . وهو الزبل . وواحد الحوايا حاوياء؛ مثل قاصعاء وقواصع . وقيل : حاوية مثل ضاربة وضوارب . وقيل : حَوِيّة مثلُ سفينة وسفائن . قال أبو عبيدة : الحوايا ما تحَوّى من البطن أى استدار . وهى مُنْحَوِيَة أى مستديرة . وقيل : الحوايا خزائن اللبن ، وتتصل بالمباعر وهى المصارين . وقيل : الحوايا الأمعاء التى عليها الشحوم . والحوايا فى غير هذا الموضع : كساء يُحَوَّى حول سَنام البعير . قال ٱمرؤ القيس :

جعلْنَ حَوَايَا واقْتَعَدْنَ قعائدًا ✱ وخفّفن من حَوْك العِراق المُنَمَّقِ

فأخبر الله سبحانه أنه كتب عليهم تحريم هذا فى التوراة ردًّا لكذبهم . ونصُّه فيها «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكلّ دابة ليست مشقوقة الحافر وكلّ حوت ليس فيه سفاسق» أى بياض . ثم نسخ الله ذلك كلّه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وأباح لهم ما كان محرما عليهم من الحيوان، وأزال الحرج بمحمد عليه السلام، وألزم الخليقة دين الإسلام بحِلّه وحِرْمه وأمره ونَهْيه .

الخامســـة — لو ذَبحوا أنعامهم فأكلوا ما أحلّ الله لهم فى التوراة وتركوا ما حَرّم فهل يحلّ لنا؛ قال مالك فى كتاب محمد : هى محرّمة . وقال فى سماع المبسوط : هى محللة، وبه قال ٱبن نافع . وقال ٱبن القاسم : أكرهه . وجه الأوّل أنهم يدينون بتحريمها ولا يقصدونها عند الذكاة؛ فكانت محرّمة كالدّم . ووجه الثانى وهو الصحيح أن الله عز وجل رفع ذلك التحريم بالإسلام، وٱعتقادُهم فيه لا يؤثّر؛ لأنه ٱعتقاد فاسد؛ قاله ٱبن العربى .

قلت : ويدلّ على صحته ما رواه الصحيحان عن عبد الله بن مُغَفَّل قال : كنا محاصرين قصرَ خَيْبَر، فرمى إنسان بجِراب فيه شحم فنَزَوْتُ(١) لآخذه فالتفتُّ فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم فٱستحيَيْتُ منه . لفظ البخاريّ . ولفظ مسلم: قال عبد الله بن مُغَفَّل : أصبت جِرابا من شحم يومَ خَيْبر، قال : فالتزمته وقلت : لا أعطِي اليوم أحدا من هذا شيئا، قال : فالتفتُّ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متبَسما . قال علماؤنا : تبسّمه عليه السلام إنما كان لما رأى من شدّة حرص ٱبن مُغَفَّل على أخذ الجراب ومن ضنته به، ولم يأمره بطرحه ولا نهاه . وعلى جواز الأكل مذهب أبي حنيفة والشافعيّ وعامّة العلماء، غير أن مالكا كرهه للخلاف فيه . وحكى ٱبن المنذر عن مالك تحريمها، وإليه ذهب كبراء أصحاب مالك . ومُتَمَسَّكهم ما تقدم، والحديثُ حجةٌ عليهم، فلو ذبحوا كلّ ذى ظفر قال أَصْبَغ : ما كان محرّما فى كتاب الله من ذبائحهم فلا يحلّ أكله، لأنهم يدينون بتحريمها . وقاله أشهب وٱبن القاسم، وأجازه ٱبن وهب . وقال ابن حبيب : ما كان محرّما عليهم، وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحلّ لنا من ذبائحهم، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم واجتهادهم فهو غير محرّم علينا من ذبائحهم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى ذلك التحريم . فذلك فى موضع رفع، أى الأمر ذلك . ﴿ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أى بظلمهم، عقوبة لهم لقتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله، وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل . وفى هذا دليل على أن التحريم إنما يكون بذنب لأنه ضيق فلا يُعْدَل عن السّعة إليه إلا عند المؤاخذة . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى أخبارنا عن هؤلاء اليهود عما حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم .

قوله تعالى : فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

---

(١) النزو : الوثب .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ شرط ، والجواب « فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » أى من سعة رحمته حلُم عنكم فلم يعاقبكم فى الدنيا . ثم أخبر بما أعدّه لهم فى الآخرة من العذاب فقال: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقيل : المعنى ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد حلوله فى الدنيا .

قوله تعالى : سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قال مجاهد: يعنى كفار قريش . ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ يريد البَحيرة والسائبة والوصيلة . أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولون، وظنوا أن هذا متمسَّكٌ لهم لما لزمتهم الحجة و تيقّنوا باطل ما كانوا عليه . والمعنى: لو شاء الله لأرسل إلى آبائنا رسولا فنهاهم عن الشِّرْك وعن تحريم ما أحلّ فينتهوا فاتبعناهم على ذلك . فردّ الله عليهم ذلك فقال : ﴿ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أى أعندكم دليل على أن هذا كذا . ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى هـذا القول . ﴿ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ لتُوهِموا ضعفتكم أن لكم حجّة . « ولا آباؤنا » عطف على النون فى «أشركنا» . ولم يقل نحن ولا آباؤنا؛ لأن قوله «ولا » قام مقام توكيد المضمر ؛ ولهذا حسن أن يقال : ماقمت ولا زيد .

قوله تعالى : قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَـةُ ﴾ أى التى تقطع عذر المحجوج ، وتزيل الشك عن من نظر فيها . فحجّته البالغة على هـذا تبيينه أنه الواحد، و إرسالُه الرسل والأنبياء ؛ فبيّن التوحيد بالنظر فى المخلوقات، وأيد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كلّ مكلف . فأما علمه و إرادته

وكلامه فغَيْب لا يطّلع عليه العبد، إلا من ارتضى من رسول . و يكفى فى التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمر به لأمكنه . وقد لَبّست المعتزلة بقوله «لو شاء الله ما أشركنا» فقالوا : قد ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته . وتعلّقهم بذلك باطل؛ لأن الله تعالى إنما ذمّهم على ترك ٱجتهادهم فى طلب الحق . و إنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللّعب . نظيره « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ »(١) . ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم ؛ لأن الله تعالى يقول : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » . و « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »(٢) . « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ »(٣) . ومثله كثير . والمؤمنون يقولونه لعلم منهم بالله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ أى قل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أن الله حرّم ما حرمتم . و « هلم » كلمة دعوة إلى شئ، و يستوى فيه الواحد والجماعة والذكر والأنثى عند أهل الحجاز، إلا فى لغة نجد فإنهم يقولون : هَلُمَّا هَلُمُّوا هَلُمِّى، يأتون بالعلامة كما تكون فى سائر الأفعال . وعلى لغة الحجاز جاء القرآن ، قال الله تعالى : « وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا »(٤) يقول : هلُمّ أى أحضر وٱدن . وهَلُمّ الطعام، أى هاتِ الطعام . والمعنى هاهنا : هاتوا شهداءكم، وفتحت الميم لٱلتقاء الساكنين ؛ كما تقول : رُدّ ياهذا، ولا يجوز ضمها ولا كسرها . والأصل عند الخليل « ها » ضُمّت إليها « لُمّ » ثم حذفت الألف لكثرة الاستعمال . وقال غيره : الأصل « هل » زيدت عليها « لُمّ » . وقيل : هى على لفظها تدل على معنى هات . وفى كتاب العَيْن للخليل : أصلها هلْ أؤمّ ، أى هل أقصدك، ثم كثُر استعمالهم

(١) آية ٢٠ سورة الزخرف . (٢) آية ١٠٧، ١١١ من هذه السورة . (٣) آية ٩ سورة النحل .
(٤) آية ١٨ سورة الأحزاب .

إياها حتى صار المقصود يقولها ؛ كما أن يقال : أصلها أن يقولها المتعالى للتسافل ؛ فكثر استعالهم إياها حتى صار المتسافل يقول للتعالى تعال .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا ﴾ أى شهد بعضهم لبعض ﴿فلا تَشْهَدْ معهم﴾ أى فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبىٍّ ، وليس معهم شئ من ذلك .

قوله تعـالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ أى تقدّموا واقرءوا حقًّا يقينا كما أوحى إلىّ ربّى ، لا ظنًّا ولا كذبا كما زعمتم . ثم بيّن ذلك فقال : « أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » يقال للرجل : تعالَ ، أى تقدّم ، وللمرأة تعالَىْ ، وللاثنين والاثنتين تعاليا ، ولجماعة الرجال تعالَوْا ، ولجماعة النساء تعالَيْن ؛ قال الله تعالى : « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ »(١) . وجعلوا التقدّم ضربا من التعالى

(١) آية ٢٨ سورة الأحزاب .

والآرتفاع ، لأن المأمور بالتقدّم فى أصل وضع هـذا الفعل كأنه كان قاعدا فقيل له تعال، أى ارفع شخصك بالقيام وتقدّم، وآتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى؛ قاله ابن الشَّجَرِىّ .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ مَا حَرَّمَ ﴾ الوجه فى « ما » أن تكون خبرية فى موضع نصب بأتل . والمعنى : تعالوا أتل الذى حرّمه ربكم عليكم؛ فإن علّقت « عليكم » بـ « حرّم » فهو الوجه ؛ لأنه الأقرب وهو اختيار البصريين . وإن علقته بـ « أتل » فجيّد لأنه الأسبق، وهو اختيار الكوفيين؛ فالتقدير فى هـذا القول أتل عليكم الذى حرم ربكم . ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ فى موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأوّل، أى أتل عليكم ألا تشركوا؛أى أتل عليكم تحريم الإشراك . ويحتمل أن يكون منصوبا بمـا فى « عليكم » من الإغراء، وتكون « عليكم » منقطعة ممـا قبلها ؛ أى عليكم ترك الإشراك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألّا تقتلوا أولادكم وألّا تقربوا الفواحش . كما تقول: عليك شأنك؛ أى آلزم شأنك . وكما قال « عليكم أنْفُسَكم » قال جميعَه آبنُ الشَّجَرِىّ . وقال النحاس: يجوز أن تكون «أن» فى موضع نصب بدلا من «ما»؛ أى أتل عليكم تحريم الإشراك . وآختار الفـرّاء أن تكون « لا » للنهى؛ لأن بعده «ولا» .

الثالثـة — هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يَدْعُوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله . وهكذا يجب على مَن بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهم ما حرّم عليهم مما حلّ. قال الله تعالى: «لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ»(١). وذكر آبن المبارك أخبرنا عيسى ابن عمر عن عمرو بن مرّة أنه حدّثهم قال: قال ربيع بن خُثَيْم(٢) لجليس له : أيسرّك أن تؤتى بصحيفة من النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يُفَكّ خاتمها؟قال نعم . قال فآقرأ « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » فقرأ إلى آخر الثلاث الآيات . وقال كعب الأحبار : هذه الآية مفتتح التوراة: "بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم" الآية . وقال ابن عباس : هذه

(١) آية ١٨٧ سورة آل عمران . جـ ٤ ص ٣٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب (الربيع بن خثيم) بضم المعجمة وفتح المثلثة، ولكن فى الخلاصة: بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة» .

الآيات المحكمات التى ذكرها الله فى سورة «آل عمران» أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط فى مِلّة . وقد قيل : إنها العشر كلمات المنزّلة على موسى .

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإحسان إلى الوالدين بِرُّهما وحِفظهما وصيانتهما وآمتثال أمرهما وإزالة الرِّق عنهما وترك السّلطنة عليهما . و « إحسانا » نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه؛ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحسانا .

الخامســة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ الإملاق الفقر؛ أى لا تَئِدوا ــ من الموءودة ــ بناتِكم خشية العَيْلة ، فإنى رازقكم وإياهم . وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر ، كما هو ظاهر الآية . أملق أى افتقر . وأملقه أى أفقره؛ فهو لازم ومتعد . وحكى النقاش عن مُؤَرِّج أنه قال : الإملاق الجوع بلغة لَخْم . وذكر منـذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق ؛ يقال : أملق ماله بمعنى أنفقه . وذُكر أن عليًّا قال لآمرأته : أَمْلِقِى من مالك ماشئت . ورجل مَلِق يُعطِى بلسانه ما ليس فى قلبه . فالمَلَق لفظ مشترك بيانه فى موضعه .

السادســة ــ وقد يستدلّ بهذا من يمنع العَزْل ،لأن الوَأْد يرفع الموجود والنَّسْل،والعزل منع أصل النسل فتشابها؛ إلا أنّ قتل النفس أعظم وِزْرا وأقبح فعلا،ولذلك قال بعض علمائنا : إنه يفهم من قوله عليه السلام فى العزل : " ذلك الوأد الخفى " الكراهة لا التحريم . وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم.وقال بإباحته أيضا جماعةٌ من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله عليه السلام : "لا عليكم ألّا تفعلوا فإنما هو القَدَر" أى ليس عليكم جناح فى ألّا تفعلوا . وقد فَهِم منه الحسن ومحمـد بن مُثَنَّى النَّهى والزَّجْر عن العزل . والتأويل الأوّل أَوْلى ؛ لقوله عليه السـلام : " وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء ".قال مالك والشـافعىّ : لا يجوز العزل عن الحرّة إلا بإذنها . وكأنهم رأوا الإنزال من تمـام لذتها،ومن حقها فى الولد، ولم يروا ذلك فى الموطوءة بِملك اليمين، إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها؛ إذ لا حق لها فى شىء مما ذُكر.

السابعة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نظيره «وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ»[1]. فقوله: «ما ظهر» نهى عن جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى. «وما بطن» ما عقد عليه القلب من المخالفة. وظَهر وبَطن حالتان تستوفيان أقسام ماجعلت له من الأشياء. و«ما ظهر» نصب على البدل من «الفواحش». «وما بطن» عطف عليه.

الثامنة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الألف واللام فى «النفس» لتعريف الجنس؛ كقولهم: أهلك الناس حُبّ الدرهم والدينار. ومثله «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا»[2] ألا ترى قوله سبحانه «إِلَّا الْمُصَلِّينَ» وكذلك قوله: «وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ» لأنه قال: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا». وهذه الآية نهىٌ عن قتل النفس المحرّمة، مؤمنةً كانت أو معاهدة إلا بالحق الذى يوجب قتلها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عَصَمَ ماله ونفسه إلا بحقّه وحسابُهم على الله". وهذا الحق أمور: منها منع الزكاة وترك الصلاة؛ وقد قاتل الصدّيق ما نعى الزكاة. وفى التنزيل «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ»[3] وهذا بيّن. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يحلّ دمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة". وقال عليه السلام: "إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخِرَ منهما"[4]. أخرجه مسلم. وروى أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به". وسيأتى بيان هذا فى «الأعراف»[5]. وفى التنزيل: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا»[6]. وقال: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا»[7] الآية. وكذلك من شقّ عصا المسلمين وخالف إمامَ جماعتهم وفرّق كلمتهم وسعى فى الأرض فسادا بانتهاب الأهل والمال والبَغْى على السلطان والامتناع من حكمه يُقْتَلُ. فهذا معنى قوله «إلا بالحق».

(١) آية ١٢٠ من هذه السورة. (٢) آية ١٩ سورة المعارج. (٣) آية ٥ سورة التوبة.
(٤) أى فادفعوا الآخر بالقتل اذا لم يمكن دفعه بدونه. (٥) راجع المسألة الثانية فى قوله تعالى: «ولوطا اذ قال لقومه ...» آية ٨٠. (٦) آية ٣٣ سورة المائدة. (٧) آية ٩ سورة الحجرات.

وقال عليه السلام : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده ولا يتوارث أهل ملّتين". وروى أبو داود والنّسائى عن أبى بَكْرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من قتل مُعاهَدا فى غير كُنْهِه[1] حرّم الله عليه الجنة" . وفى رواية أخرى لأبى داود قال : "مَن قتل رجلا من أهـل الذمة لم يجد ريح الجنة وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما" . فى البخارى فى هذا الحديث "وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما" . خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرّمات. والكاف والميم للخطاب، ولا حظّ لهما من الإعراب . ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ الوصيّة الأمر المؤكد المقدور . والكاف والميم محله النصب؛ لأنه ضمير موضوع للمخاطبة. وفى وصّى ضمير فاعل يعود على الله. روى مطر الوراق عن نافع عن ٱبن عمر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشرف على أصحابه فقال : عَلَامَ تقتلوننى! فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يحلّ دَمُ رجل مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل زنى بعد حصانة فعليه الرجم أو قتل عمدا فعليه القَوَد أو ٱرتدّ بعد إسلامه فعليه القتل" فوالله ما زنيتُ فى جاهلية ولا إســلام ، ولا قتلتُ أحدا فأقيد نفسى به ، ولا ٱرتددت منذ أسلمت ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمـدا عبده ورسـوله ، ذلكم الذى ذكرت لكم وصّاكم به لعلكم تعقلون !

العاشــرة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال فى هذا؛ فإنه جامع. قال مجاهد : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إلّا بالتى هى أحْسَنُ » بالتجارة فيه، ولا تشترى منه ولا تستقرض .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعنى قوّته ، وقد تكون فى البدن ، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة، ولا بُدّ من حصول الوجهين؛ فإن الأَشُدّ وقعت هنا مطلقة.

(١) كنه الأمر : حقيقته . وقيل : وقته وقدره . وقيل : غايته، يعنى من قتله فى غير وقته أو غاية أمره الذى يجوز فيه قتله . (عن ابن الأثير) .

وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة « النساء » مقيدة، فقال : « وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا »[١] فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد ؛ فلو مُكِّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعدَ حصول القوّة لأذهبه في شهواته وبَقِيَ صُعْلوكا لا مال له . وخصّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وٱفتقادِ الآباء لأبنائهم فكان الآهتبال[٢] بفقيد الأب أوْلى. وليس بلوغ الأَشُدّ مما يبيح قُرْب ماله بغير الأحسن؛ لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة . وخصّ اليتيم بالذكر لأن خصمه الله . والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده . وفي الكلام حذف؛ فإذا بلغ أشدّه وأونس منه الرشد فآدفعوا إليه ماله . وٱختلف العلماء في أَشُدّ اليتيم؛ فقال ابن زيد : بلوغه . وقال أهل المدينة . بلوغه وإيناس رشده . وعند أبي حنيفة : خمس وعشرون سنة . قال ابن العربيّ : وعجبا من أبي حنيفة، فإنه يرى المقدّرات لا تثبت قياسا ولا نظرا وإنما تثبت نقلا، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضَّرْب فكثر عنده المُدَلَّس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدِّين[٣] . وقد قيل : إن آنتهاء الكهولة فيها مُجْتَمع الأَشُدّ، كما قال سُحيم بن وَثيل :

أَخُو خمسين مُجْتَمِع أَشُدِّي * ونَجَّذَنِي مداورة الشئون[٤]

يروى « نجذني » بالدال والذال . والأَشُدّ واحد لا جمع له ؛ بمنزلة الآنُك وهو الرَّصاص . وقد قيل : واحده شدّ، كفَلْس وأفْلس . وأصله من شدّ النهار أي آرتفع؛ يقال : أتيته شدّ النهار ومدّ النهار . وكان محمد بن محمد الضَّبيّ يُنشد بيت عنترة :

عَهْدِي به شَدّ النهار كأنما * خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ[٥]

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) كذا في الأصول . ولعلها : « الاهتمام » .

(٣) يريد بدار الضرب : بغداد . والمعدن : معدن الشريعة ومنجمها وهي المدينة المنورة . (٤) رجل منجد (بالدال والذال) : جرب الأمور وعرفها وأحكمها . ومداورة الشئون : مداولة الأمور ومعالجتها .

(٥) اللبان (بفتح اللام) : الصدر . ويروى : « البنان » والعظلم (بكسر العين واللام وسكون الظاء) : صبغ أحمر، وقيل هو الوسمة ، شجر له ورق يختضب به .

آخـــر :

تُطيف شَـدّ النهار ظَعينةً * طويلةُ أنقاءِ اليدَيْن سُحُوق[1]

وكان سيبويه يقول : واحده شِـدّة . قال الجوهرى : وهو حَسَن فى المعنى ؛ لأنه يقال : بلغ الغلام شِدّته ، ولكن لا تجمع فِعْلة على أفعُل ، وأما أنعُم فإنما هو جمع نُعْم ؛ من قولهم : يوم بُؤْس ويوم نُعْم . وأما قول من قال : واحده شَدّ ؛ مثل كَلْب وأكلب ، وشِدّ مثل ذِئب وأذؤب فإنمـا هو قياس . كما يقولون فى واحد الأبابيل : إبّول ، قياسا على عِجَّوْل ، وليس هو شيئا سُمع من العرب . قال أبو زيد : أصابتنى شُـدَّى على فُعْلى ؛ أى شِدّة . وأشـدّ الرجل إذا كانت معه دابة شديدة .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء . والقِسط : العدل . ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى طاقتها فى إيفاء الكيل والوزن . وهذا يقتضى أن هذه الأوامر إنمـا هى فيما يقع تحت قُدرة البشر من التحفظ والتحرّز . وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكَيْلين ، ولا يدخل تحت قُدرة البشر فمعفوٌّ عنه . وقيـل : الكيل بمعنى المِكْيَال . يقال : هـذا كذا وكذا كَيْلا ؛ ولهـذا عطف عليه بالميزان . وقال بعض العلماء : لمّـا علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تَضيق نفسُه عن أن تَطيب للغير بمـا لا يجب عليهـا له أمر المعطى بإيفاء ربّ الحق حقّه الذى هو له ، ولم يكلفه الزيادةَ ؛ لمـا فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها . وأمر صاحبَ الحقّ بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقلّ منه ؛ لمَـا فى النقصان من ضيق نفسه . وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال : ما ظهر الغلول فى قوم قطُّ إلا ألقىَ الله فى قلوبهم الرّعب ، ولا فشا الزنى فى قوم إلا كَثُر فيهم الموت ، ولا نقص قوم المِكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق ، ولا حَكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدّم ، ولا خَتَر قوم بالعهد إلا سلّط عليهـم الله العـدو . وقال ابن عباس أيضا : إنكم معشرَ الأعاجم قـد وُليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم .

(١) السحوق : المرأة الطويلة .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا ﴾ يتضمن الأحكام والشهادات . ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى ولو كان الحق على مثل قرابتكم ؛ كما تقدم فى «النساء»(١) . ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ﴾ عامّ فى جميع ما عهد الله إلى عباده . ويحتمل أن يراد به جميع ما عقد بين إنسانين . وأضيف ذلك العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدّم ؛ فإنه لما نهى وأمر حذّر هنا عن آتباع غير سبيله ، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف . « وأنّ » فى موضع نصب ، أى وأتل أن هذا صراطى ؛ عن الفرّاء والكسائىّ . قال الفرّاء : ويجوز أن يكون خفضا ، أى وصّاكم به وبأن هذا صراطى . وتقديرها عند الخليل وسيبويه : ولأن هذا صراطى ؛ كما قال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ »(٢) وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « وإنّ هذا » بكسر الهمزة على الاستئناف ؛ أى الذى ذكر فى هذه الآية صراطى مستقيما . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب «وأنْ هذا» بالتخفيف . والمخفّفة مثلُ المشدّدة ، إلا أن فيه ضمير القصة والشأن ؛ أى وأنه هذا . فهى فى موضع رفع . ويجوز النصب . ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد ؛ كما قال عز وجل : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ »(٣) . والصراط : الطريق الذى هو دين الإسلام . ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ نصب على الحال ، ومعناه مستوياً قويما لا اعوجاج فيه . فأمر باتباع طريقه الذى طرقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهايتُه الجنة . وتشعّبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى تميل . روى الدّارمىّ أبو محمد فى مسنده بإسناد صحيح : أخبرنا عفان حدّثنا حماد بن زيد حدّثنا عاصم بن بَهْدَلة عن أبى وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ، ثم قال : " هذا سبيل

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٨ سورة الجن .
(٣) آية ٩٦ سورة يوسف .

الله " ثم خطّ خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره ثم قال " هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها " ثم قرأ هذه الآية . وأخرجه ابن ماجه فى سننه عن جابر عن عبد الله قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فخطّ خطًّا ، وخطّ خطّين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال : "وهذا سبيل الله — ثم تلا هذه الآية — وأن هـذا صِراطِى مستقيما فاتبعوه ولا تَتَّبعوا السُّبُلَ فتفرّق بكم عن سبيله " . وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ فى الفروع ، وغير ذلك من أهـل التعمُّق فى الجدل والخوض فى الكلام . هذه كلّها عرضة للزلل ، ومظِنة لسوء المعتقد؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهو صحيح . ذكر الطبرى فى كتاب أدب النفوس : حدّثنا محمد بن عبد الأعلى الصّنعانى قال حدّثنا محمد بن ثور عن معمر عن أبَان أن رجلا قال لابن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركَنا محمد صـلى الله عليه وسـلم فى أدناه وطرفُه فى الجنة ، وعن يمينه جَوَادّ(١) وعن يساره جوادّ ، وثمّ رجال يدعون من مرّ بهم فمن أخذ فى تلك الجوادّ انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط آنتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : «وأن هذا صراطى مستقيما» الآية . وقال عبد الله بن مسعود : تعلّموا العـلم قبل أن يُقبض ، وقبضه أن يذهب أهله . ألا و إياكم والتّنطّع والتعمّق والبدع ، وعليكم بالعتيق(٢) . أخرجه الدّارِمىّ . وقال مجاهد فى قوله «ولا تتّبعوا السُّبُلَ» قال : البدع . قال ابن شهاب : وهذا كقوله تعالى : «إنّ الّذِين فَرّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعًا(٣)» الآية . فالهَرَبَ الهربَ ، والنّجاءَ النجاءَ ! والتمسّك بالطريق المستقيم والسّنن القويم ، الذى سلكه السلف الصالح ، وفيه المتجر الرابح . روى الأئمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا " . وروى ابن ماجه وغيره عن العِرْباض بن سَارِيةَ قال : وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظةً ذَرَفت

(١) الجواد (بتشديد الدال) : الطرق ، واحدها جادّة ، وهى سواء الطريق . وقيل معظمه . وقيل وسطه .
(٢) العتيق : القديم . (٣) آية ١٥٩ من هذه السورة .

منها العيون، ووَجِلَت منها القلوب؛ فقلنا : يا رسول الله، إن هذه لموعظةُ مودّع، فما تَعْهَد إلينا ؟ فقال : " قد تركتم على البيضاء(١) ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمورَ المحدَثات فإن كلّ بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإنْ عبدًا حبشيًّا فإنما المؤمن كالجَمَل الأَنِف(٢) حيثما قِيد آنقاد " أخرجه الترمذى بمعناه وصححه .

وروى أبو داود قال حدّثنا آبن كَثير قال أخبرنا سفيان قال : كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر؛ فكتب : أما بعد ، فإنى أوصيك بتقوى الله والاقتصاد فى أمره وآتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك ما أحدث المحدِثون بعد ما جرت به سنّتُه ، وكُفُوا مؤونتــه . فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة . ثم آعلم أنه لم يبتدع الناسُ بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها ؛ فإن السنة إنما سنّها من قد عَلم ما فى خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق؛ فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى. فإن كان الهُدَى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه. ولئن قلتم إنما حدث بعدَهم فما أحدثه إلا من آتبع غير سبيلهم ورَغِب بنفسه عنهم ؛ فإنهم هم السابقون، قد تكلّموا فيه بما يَكْفِى ووصفوا ما يَشْفِى؛ فما دونَهم من مقصر، وما فوقهم من مجسر. وقد قصر قوم دونهم فجَفَوْا، وطمَح عنهم أقوام فغَلَوْا وإنهم مع ذلك لَعَلَى هُدًى مستقيم . وذكر الحديث . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة ، فإنى أخاف أنه سيأتى عن قليل زمانٌ إذا ذكر إنسانٌ النبيّ صلى الله عليه وسلم والاقتداءَ به فى جميع أحواله ذَمّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلّوه وأهانوه . قال سهل : إنما ظهرت البدعة على يدى أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم ؛ فظهرت أقاويلهم وفَشَت فى العامّة فَسمِعه من لم يكن يسمعه ؛ فلو تركوهم ولم يكلموهم

(١) البيضاء . يريد صلى الله عليه وسلم الملة والحجة الواضحة التى لا تقبل الشبه أصلا .

(٢) الأنف (ككتف) : المأنوف ، وهو الذى عقر الخشاش أنفه ؛ فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذى به . وقيل : الأنف الذلول .

لمـات كل واحد منهم على ما فى صدره ولم يظهر منه شيء وحمله معه إلى قبره . وقال سهل : لا يُحدث أحدكم بدعةً حتى يحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يُحدث له بدعة ، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخـدمة . قال سهل : لا أعلم حديثا جاء فى المبتدعة أشدّ من هذا الحديث: "حجب الله الجنة عن صاحب البدعة". قال : فاليهودىّ والنّصرانىّ أرجى منهم . قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخلُوَنّ بالنسوان، ولا يخاصِمنّ أهـل الأهواء . وقال أيضا : آتبعوا ولا تبتدعوا ، فقـد كُفيتم . وفى مسـند الدّارِمىّ: إن ابا موسى الأشعرى جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى رأيت فى المسجد آنفا شيئا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا ! قال : فما هو ؟ قال: إن عشتَ فستراه، قال : رأيتُ فى المسجد قوما حِلَقًا حِلَقًا جلوسا ينتظرون الصلاة ؛ فى كل حَلْقة رجل وفى أيديهم حَصًى فيقول لهم: كَبِّروا مائة، فيكبرون مائة . فيقول: هَلِّلُوا مائة فيهلّلون مائة، ويقول : سبّحوا مائة فيسبحون مائة . قال : فماذا قلتَ لهم ؟ قال : ما قلتُ لهم شيئا ؛ انتظارَ رأيك وانتظار أمرك . قال : أفلا أمرتَهم أن يَعُـدّوا سيئاتهم وضَمِنت لهم ألّا يضيع من حسناتهم . ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حَلْقة من تلك الحِلَق ؛ فوقف عليهم فقال : ما هذا الذى تصنعون ؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن، حَصًى نَعُدّ به التكبير والتهليل . قال : فعُدّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألّا يضيع من حسناتكم شيء . ويحكم يا أمّة محمد ! ما أسرعَ هَلَكَتَكم . أوَ مُفْتَتِحِى باب ضلالة (١) ! قالوا : والله يا أبا عبـد الرحمن ، ما أردنا إلا الخير . فقال : وكم من مريد للخير لن يصيبه . وعن عمر بن عبـد العزيز وسأله رجل عن شيء من أهـل الأهواء والبدع ؛ فقال : عليك بدين الأعراب والغلام فى الكُتّاب ، وآلْهُ عمّا سِوَى ذلك . وقال الأوزاعى قال إبليس لأوليائه : مِن أىّ شيء تأتون بنى آدم؟ فقالوا : من كل شيء . قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار ؟ قالوا : هيهات! ذلك شيء قُرِن بالتوحيد .

(١) كذا فى الأصول . والذى فى سنن الدرامى المطبوعة والمخطوطة : « ... ما أسرع هلكتكم . هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر . والذى نفسى بيده إنكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد . أو مفتتحى باب ... » الخ . وقد كتب على هامش المطبوع : « أو مفتتح » بغير ياء .

قال : لأبثّن فيهم شيئا لا يستغفرون الله منه . قال : فبَثّ فيهم الأهواء . وقال مجاهد : ولا أدرى أىّ النعمتين علىّ أعظم إن هدانى للإسلام ، أو عافانى من هذه الأهواء . وقال الشعبي : إنما سُمُّوا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون فى النار . كله عن الدارمىّ . وسئل سهل بن عبد الله عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح منهم وتزويجهم . فقال : لا ، ولا كرامة ! هم كفار ، كيف يؤمن من يقول : القرآن مخلوق ، ولا جنة مخلوقة ولا نار مخلوقة ، ولا لله صراط ولا شفاعة ، ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من النار من مذنبي أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا عذاب القبر ولا منكر ولا نكير ، ولا رؤية لربنا فى الآخرة ولا زيادة ، وأنّ علم الله مخلوق ، ولا يَرون السلطان ولا جمعة ، ويكفّرون من يؤمن بهذا . وقال الفُضيل بن عِياض : من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه . وقد تقدّم هذا من كلامه وزيادة . وقال سفيان الثَّوْرِىّ : البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية ؛ المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وقال ابن عباس : النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السُّنّة وينهى عن البدعة ، عبادةٌ . وقال أبو العالية : عليكم بالأمر الأوّل الذى كانوا عليه قبل أن يفترقوا . قال عاصم الأحْوَل : فحدّثت به الحسن فقال : قد نصحك والله وصدَقك . وقد مضى فى « آل عمران » معنى قوله عليه السلام : "تفرّقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملّة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين" . الحديثَ[1] . وقد قال بعض العلماء العارفين : هذه الفرقة التى زادت فى فرق أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم قوم يعادون العلماء ويبغضون الفقهاء ، ولم يكن ذلك قَطُّ فى الأمم السالفة . وقد روى رافع بن خَديج أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يكون فى أمتى قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى" . قال فقلت : جُعلت فداك يا رسول الله ! كيف ذاك ؟ قال : "يُقرّون ببعض ويكفرون ببعض" . قال قلت : جُعلت فداك يارسول الله ! وكيف يقولون ؟ قال : "يجعلون إبليس عدلًا لله فى خلقه

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر لإبليس ". قال : فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة ؟ قال : " فما تلقى أمتى منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة ". وذكر الحديث . ومضى فى «النساء» وهذه السورة النّهىُ عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » (١) الآية . ثم بيّن فى سورة «النساء» وهى مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به فقال : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ » (٢) الآية . فألحق من جالسهم بهم . وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات فى مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعى وابن المبارك فإنهم قالوا فى رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا : يُنْهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم. يعنون فى الحكم . وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مجالسة شَرَبة الخمر، وتلا « إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ » . قيل لهم : فإنه يقول إنى أجالسهم لأباينهم وأردّ عليهم . قالوا : يُنْهَى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم .

قوله تعالى : ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى الَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ مفعولان . ﴿تَمَامًا﴾ مفعول من أجله أو مصدر . ﴿عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾ قرئ بالنصب والرفع . فمن رفع — وهى قراءة يحيى بن يَعْمَر وابن أبى إسحاق — فعلى تقدير : تماما على الذى هو أحسنُ . قال المَهْدوِىّ : وفيه بعدٌ من أجل حذف المبتدأ العائد على الذى . وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع « ما أنا بالذى قائل لك شيئا » . ومن نصب فعلى أنه فعل ماض داخل فى الصِّلة؛ هذا قول البصريين . وأجازا الكسائى والفرّاء

---

(١) آية ٦٨ من هذه السورة . (٢) آية ١٤٠ راجع جـ ٥ ص ٤١٧ طبعة أولى أو ثانية .

أن يكون اسما نعتا للذى . وأجازا « مررت بالذى أخيك » ينعتان الذى بالمعرفة وما قاربها . قال النحاس : وهذا محال عند البصريين ؛ لأنه نعت للاسم قبل أن يتمّ ، والمعنى عندهم : على المحسنين. قال مجاهد : تماما على المحسن المؤمن . وقال الحسن فى معنى قوله « تماما على الذى أحسن » كان فيهم محسن وغير محسن ؛ فأنزل الله الكتاب تماما على المحسنين . والدليل على صحة هذا القول أن ابن مسعود قرأ « تماما على الذين أحسنوا » . وقيل : المعنى أعطينا موسى التوراة زيادة على ما كان يُحسنه موسى مما كان علّمه الله قبل نزول التوراة عليه . قال محمد بن يزيد : فالمعنى « تماما على الذى أحسن » أى تماما على الذى أحسنه الله عز وجل إلى موسى عليه السلام من الرسالة وغيرها . وقال عبد الله بن زيد : معناه على إحسان الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام . وقال الربيع بن أنس : تماما على إحسان موسى من طاعته لله عز وجل ؛ وقاله الفراء . ثم قيل : « ثُمّ » يدلّ على أن الثانى بعد الأوّل ، وقصة موسى صلى الله عليه وسلم وإتيانه الكتاب قبل هذا ؛ فقيل : « ثم » بمعنى الواو ؛ أى وآتينا موسى الكتاب ، لأنهما حرفا عطف . وقيل : تقدير الكلام ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ، ثم أتل ما آتينا موسى تماما . ﴿ وَتَفْصِيلًا ﴾ عطف عليه . وكذا «وهُدًى ورَحْمَةً» . ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ﴾ ابتداء وخبر . ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ نعت ؛ أى كثير الخيرات . ويجوز فى غير القرآن «مباركًا» على الحال . ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أى اعملوا بما فيه . ﴿ واتَّقُوا ﴾ أى اتقوا تحريفه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى لتكونوا راجين للرحمة فلا تعذّبون .

قوله تعالى : أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب . قال الكوفيون . لئلا تقولوا . وقال البصريون : أنزلناه كراهية أن تقولوا . وقال الفراء والكسائى : المعنى فاتقوا أن تقولوا يا أهل مكة . ﴿ إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ ﴾ أى التوراة والإنجيل . ﴿ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ أى على اليهود والنصارى ، ولم ينزل علينا كتاب . ﴿ وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ أى عن تلاوة كتبهم وعن لغاتهم . ولم يقل عن دراستهما ؛ لأن كل طائفة جماعة . ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على « أَنْ تَقُولُوا » . ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ ﴾ أى قد زال العذر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . والبينة والبيان واحد ، والمراد محمد صلى الله عليه وسلم ، سماه سبحانه بينة . ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أى لمن اتبعه . ثم قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أى فإن كذبتم فلا أحد أظلم منكم . ﴿ صَدَفَ ﴾ أعرض ، و﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ يعرضون . وقد تقدم[1] .

قوله تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ معناه أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا، فماذا ينتظرون . ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى عند الموت لقبض أرواحهم . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ قال ابن عباس والضحاك : أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره ، وقد يذكر المضاف إليه والمراد به المضاف ؛ كقوله تعالى : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »[2] يعنى أهل القرية . وقوله « وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ »[3] أى حب العجل . كذلك هنا : يأتى أمر ربك، أى عقوبة ربك وعذاب ربك . ويقال : هذا من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله . وقد تقدم القول

(١) راجع آية ٤٦ من هذه السورة فى الجزء السابق . (٢) آية ٨٢ سورة يوسف .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣١ طبعة ثانية .

فى مثله فى « البقرة » وغيرها . ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ قيل : هو طلوع الشمس من مغربها . بيّن بهذا أنهم يُمْهَلون فى الدنيا فإذا ظهرت الساعة فلا إمهال . وقيل : إتيانُ الله تعالى مجيئُه لفصل القضاء بين خلقه فى موقف القيامة؛ كما قال تعالى : «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا»(١) . وليس مجيئه تعالى حركة ولا انتقالا ولا زوالا ؛ لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائى جسما أوجوهرا . والذى عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون : يجىء وينزل ويأتى . ولا يُكَيِّفون ؛ لأنه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »(٢) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث إذا خرجْنَ لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا : طلوعُ الشمس من مغربها والدّجالُ ودابّةُ الأرض " . وعن صَفْوان بن عَسّال المُرَادِيّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن بالمغرب بابا مفتوحًا للتوبة مسيرة سبعين سنة لا يُغْلَق حتى تطلع الشمس من نحوه " . أخرجه الدّارَقُطْنِيّ والترمذيّ وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقال سفيانُ(٣) : قِبل الشام، خلقه الله يوم خلق السموات والأرض . " مفتوحا " يعنى للتوبة لا يُغلق حتى تطلع الشمس منه . قال : حديث حسن صحيح .

قلت : وكذّب بهذا كله الخوارجُ والمعتزلة كما تقدّم . وروى ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب فقال(٤) : أيها الناس، إن الرَّجْم حق فلا تُخْدَعُنّ عنه، وإن آية ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رَجَم، وأن أبا بكر قد رَجَم، وأنّا قد رجمنا بعدهما ، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذّبون بالرَّجْم ، ويكذّبون بالدّجال، ويكذّبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذبون بعذاب القبر، ويكذبون بالشفاعة ، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعد ما امْتَحَشُوا(٥) . ذكره أبو عمر . وذكر الثعلبيّ فى حديث فيه طول عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله

(١) آية ٢٢ سورة الفجر . (٢) آية ١١ سورة الشورى .
(٣) سفيان : أحد رجال سند هذا الحديث . (٤) كذا فى الأصول . والذى فى الدر المنثور : « ... خطبنا عمر فقال ... » . (٥) امتحشوا : احترقوا . والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم . ويروى : « امتُحِشوا » على ما لم يسم فاعله .

عليه وسلم ما معناه: أن الشمس تُحبس عن الناس — حين تكثر المعاصى فى الأرض، و يذهب المعروف فلا يأمر به أحد، و يفشو المنكر فلا يُنْهَى عنه — مقدار ليـلة تحت العرش، كلما سجدتْ وآستأذنت ربّها تعالى من أين تطلع لم يجئ لها جواب حتى يوافيها القمرُ فيسجد معها، و يستأذن من أين يطلع فلا يُجاء إليهما جواب حتى يُحبسا مقدارَ ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر، فلا يعرف طول تلك الليـلة إلا المتهجِّدون فى الأرض، وهم يومئـذ عصابة قليلة فى كل بلدة من بلاد المسلمين. فإذا تمّ لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله تعالى إليهما جبريلَ عليه السلام فيقول: "إن الربّ سبحانه وتعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منه، وأنه لاضوء لكما عندنا ولا نور" فيطلعان من مغاربهما أسودين، لا ضوء للشمس ولا نور للقمر، مثلهما فى كسوفهما قبل ذلك. فذلك قوله «وَجُمِـعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ»(١) وقوله «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»(٢) فيرتفعان كذلك مثل البعيرين المقرونين؛ فإذا ما بلغ الشمس والقمر سُرّة السماء وهى منصفها جاءهما جبريل فأخذ بقرونهما وردّهما إلى المغرب، فلا يغربهما من مغاربهما ولكن يغربهما من باب التوبة ثم يردّ المصراعين، ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن بينهما صَـدْع. فإذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبْدٍ بعد ذلك توبة، ولم تنفعه بعد ذلك حسنة يعملها؛ إلا من كان قبل ذلك محسنا فإنه يجرى عليـه ما كان عليه قبل ذلك اليوم؛ فذلك قوله تعـالى: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا». ثم إن الشمس والقمر يُكسيان بعد ذلك الضوء والنور، ثم يطلعان على الناس و يغربان كما كانا قبل ذلك يطلعان و يغربان. قال العلماء: و إنما لاينفع نفسا إيمانُها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس، وتَفْتُرُ كلّ قوّة من قوى البدن؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُوّ القيامة فى حال من حضره الموت فى آنقطاع الدّواعى إلى أنواع المعاصى عنهم، و بطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب فى مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت. قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله

---

(١) آية ٩ سورة القيامة. (٢) أول سورة التكوير.

يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر " أى تبلغ روحه رأس حلقه، وذلك وقت المعاينة الذى يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله . وعلى هذا ينبغى أن تكون توبة كل من شاهد ذلك أو كان كالمشاهد له مردودة ما عاش؛ لأن علمه بالله تعالى وبنبيه صلى الله عليه وسلم وبوعده قد صار ضرورة . فإن آمتدت أيام الدنيا إلى أن ينسى الناس من هذا الأمر العظيم ما كان ، ولا يتحدّثوا عنه إلا قليلا، فيصير الخبر عنه خاصًّا وينقطع التواتر عنه ؛ فمن أسلم فى ذلك الوقت أو تاب قُبل منه . والله أعلم . وفى صحيح مسلم عن عبد الله قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعدُ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أول الآيات خروجًا طلوعُ الشمس من مغربها وخروجُ الدابة على الناس ضُحًا وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبا " . وفيه عن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غرفة ونحن أسفلَ منه ، فاطلع إلينا فقال : "ما تذكرون"؟ قلنا : الساعة . قال : " إن الساعةَ لا تكون حتى تكون عشر آيات . خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغرب وخَسْفٌ فى جزيرة العرب والدّخَان والدّجّال ودابّةُ الأرض ويأجوجُ ومأجوج وطلوعُ الشمس من مغربها ونارٌ تخرج من قعر عَدَنٍ تُرَحِّل الناسَ " . قال شعبة : وحدّثنى عبد العزيز بن رُفَيع عن أبى الطّفيل عن أبى سريحة مثلَ ذلك، لا يذكر النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال أحدهما فى العاشرة : ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم . وقال الآخر : وريحٌ تُلْقِى الناسَ فى البحر .

قلت : وهذا حديث متقن[(١)] فى ترتيب العلامات . وقد وقع بعضها وهى الخسوفات على ما ذكر أبو الفرج الجَوْزِى من وقوعها بعراق العجم والمغرب، وهلك بسببها خلق كثير؛ ذكره فى كتاب فهوم الآثار وغيره . ويأتى ذكر الدابة فى « النمل »[(٢)] . ويأجوج ومأجوج فى « الكهف »[(٣)] . ويقال : إن الآيات تتابع كالنّظْم فى الخيط عامًا فعامًا . وقيل : إن الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم عليه السلام قال لنمرود : « فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « متفق » . (٢) آية ٨٢ . (٣) آية ٩٤ .

من المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ[١] » وأن المُلْحدة والمُنَجِّمة عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون : هو غير كائن؛ فَيُطْلِعها الله تعالى يوما من المغرب لِيُرِىَ المنكرين قدرته أن الشمس فى مُلْكه، إن شاء أطلعها من المشرق وإن شاء أطلعها من المغرب. وعلى هذا يحتمل أن يكون ردّ التوبة والإيمانِ على من آمن وتاب من المنكرين لذلك، المكذبين لخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بطلوعها؛ فأما المصدِّقون لذلك فإنه تُقبل توبتهم وينفعهم إيمانهم قبل ذلك . رُوى عن عبد الله ابن عباس أنه قال : لا يُقبل من كافر عملٌ ولا توبةٌ إذا أسلم حين يراها، إلا من كان صغيرا يومئذ؛ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبل ذلك منه. ومن كان مؤمنا مذنبا فتاب من الذنب قُبل منه. ورُوى عن عِمران بن حُصين أنه قال: إنما لم يقبل وقت الطلوع حين[٢] يكون صيحة فيهلك فيها كثير من الناس؛ فمن أسلم أو تاب فى ذلك الوقت وهلك لم تقبل توبته، ومن تاب بعد ذلك قبلت توبته ؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِىّ فى تفسيره . وقال عبد الله بن عمر : يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة حتى يَغْرِسوا النخل . والله بغيبه أعلم . وقرأ ابن عمر وابن الزبير « يوم تأتى » بالتاء؛ مثل « تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ». وذهبت بعض أصابعه . وقال جرير :

لمّا أتى خبر الزُّبير تواضَعتْ * سُورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ[٣]

قال المبرد : التأنيث على المجاورة لمؤنث لا على الأصل . وقرأ ابن سِيرين « لا تنفع » بالتاء. قال أبو حاتم : يذكرون أن هذا غلط من ابن سِيرين . قال النحاس : فى هذا شيء دقيق من النحو ذكره سيبويه، وذلك أن الإيمان والنفس كلّ واحد منهما مشتمل على الآخر فأنّث الإيمان إذ هو من النفس وبها؛ وأنشد سيبويه :

مَشَيْنَ كما اهتزّتْ رماحٌ تَسفّهتْ * أعاليَها مَرُّ الرياح النَّواسِمِ[٤]

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى الأصول : «حتى» والتصويب عن تفسير السمرقندى . (٣) وصف مقتل الزبير بن العوام صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . (٤) البيت لذى الرمة . وصف نساء؛ فيقول : إذا مشين اهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت .

قال المَهْدَوِىّ : وكثيرا ما يؤنّثون فعل المضاف المذكر إذا كانت إضافته إلى مؤنّث ، وكان المضاف بعض المضاف إليه أو منه أو به ، وعليه قول ذِى الرُّمّة :

* مشين ... * البيت

فأنّث المَرّ لإضافته إلى الرياح وهى مؤنثة ، إذ كان المَرّ من الرياح . قال النحاس : وفيه قول آخر وهو أن يؤنّث الإيمان لأنه مصدر كما يذكّر المصدر المؤنث ؛ مثل « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ »(١) وكما قال :

* فقد عذرتنا فى صحابته العذر *

ففى أحد الأقوال أنّث العذر لأنه بمعنى المعذرة . ﴿ قُلِ ٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ بكم العذاب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٥٩)

قوله تعالى . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ قرأه حمزة والكسائى بالألف ، وهى قراءة علىّ ابن أبى طالب كرّم الله وجهه ؛ من المفارقة والفراق . على معنى أنهم تركوا دينهم وخرجوا عنه . وكان علىّ يقول : والله ما فرّقوه ولكن فارقوه . وقرأ الباقون بالتشديد ؛ إلا النَّخَعِىّ فإنه قرأ « فَرَقوا » مُخفَّفًا ؛ أى آمنوا ببعض وكفروا ببعض . والمراد اليهود والنصارى فى قول مجاهد وقتادة والسُّدِّى والضحاك . وقد وُصفوا بالتفرق ؛ قال الله تعالى : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »(٢) . وقال : « وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ »(٣) . وقيل : عنى المشركين ، عَبَد بعضهم الصنم وبعضهم الملائكة . وقيل : الآية عامّة فى جميع الكفار . وكل من ٱبتدع وجاء بما لم يأمر الله عز وجل به فقد فرّق دينه . وروى أبو هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية « إن الذين فرقوا دينهم » هم أهل البدع والشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة . وروى بَقِيّة بن الوليد

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) آية ٤ سورة البينة .   (٣) راجع جـ ٦ ص ٥ طبعة أولى أو ثانية .

حدّثنا شعبة بن الحجاج حدّثنا مُجالد عن الشّعْبِيّ عن شُرَيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : " إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيعا إنما هم أصحابُ البِدَع وأصحابُ الأهواء وأصحاب الضلالة من هـذه الأمة . يا عائشة : إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البـدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا برىء منهم وهم منا برآء " . وروى ليث بن أبى سليم عن طاوس عن أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ » . ومعنى ﴿ شِيَعاً ﴾ فِرقاً وأحزابا . وكل قوم أمرُهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شِيَع . ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ فأوجب براءته منهم ؛ وهـو كقوله عليه السلام : " مَن غَشّنا فليس منا " أى نحن برآء منه . وقال الشاعر :

إذا حاولتَ فى أَسَـد فُجورًا * فإنى لستُ منك ولستَ مِنّى [(١)]

أى أنا أبرأ منك . وموضع « فى شىء » نصب على الحال من المضمر الذى فى الخبر ؛ قاله أبو علىّ . وقال الفراء : هو على حذف مضاف، المعنى لست من عقابهم فى شىء، وإنما عليك الإنذار . ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ﴾ تعزية للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ ابتداء، وهو شرط، والجواب ﴿ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ أى فله عشر حسنات أمثالها ؛ فحذفت الحسنات وأقيمت الأمثال التى هى صفته مقامها ؛ جمع مِثْل . وحكى سيبويه : عنـدى عشرة نسابات، أى عنـدى عشرة رجال نسّابات . وقال أبو علىّ : حَسُن التأنيث فى « عشر أمثالها » لما كان الأمثال مضافا إلى مؤنّث ، والإضافة إلى المؤنث إذا كان إياه فى المعنى يحسن فيه ذلك ؛ نحو « تَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » .

---

(١) البيت للنابغة الذبيانى . يقول هـذا لعينة بن حصن الفزارى . وكان قد دعاه وقومه الى مقاطعة بنى أسد ونقض حلفهم فأبى عليه وتوعده بهم . وأراد بالفجور نقض الحلف (عن شرح الشواهد) .

وذهبت بعض أصابعه . وقرأ الحسن وسعيد بن جُبير والأعمش « فله عَشْرٌ أمثالها » . والتقدير : فله عشر حسنات أمثالها ؛ أى له من الجزاء عشرة أضعاف مما يجب له . ويجوز أن يكون له مثل ، ويضاعف المثل فيصير عشرة . والحسنة هنا : الإيمان . أى من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عمل عمله فى الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب . ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ يعنى الشرك . ﴿ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ وهو الخلود فى النار ؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ، والنار أعظم العقوبة ؛ فذلك قوله تعالى : « جَزَاءً وِفَاقًا »(١) يعنى جزاء وافق العمل . وأما الحسنة فبخلاف ذلك ؛ لنص الله تعالى على ذلك . وفى الخبر " الحسنة بعشر أمثالها وأَزيد والسيئة واحدة وأغفر " . فالويل لمن غلبت آحادُه أعشارَه . وروى الأعمش عن أبى صالح قال : الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا ينقص ثواب أعمالهم . وقد مضى فى « البقرة »(٢) بيان هذه الآية ، وأنها مخالفة للإنفاق فى سبيل الله ؛ ولهذا قال بعض العلماء : العشر لسائر الحسنات ، والسبعمائة للنفقة فى سبيل الله ، والخاصّ والعام فيه سواء . وقال بعضهم : يكون للعوام عشرة وللخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى ؛ وهذا يحتاج إلى توقيف . والأوّل أصح ؛ لحديث خُريم بن فاتك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " وأما حسنة بعشر فمن عَمِل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة فى سبيل الله " .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

---

(١) آية ٢٦ سورة النبأ .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٤٠ ، ٣٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لما بيّن أن الكفار تفرقوا بيّن أن الله هـداه إلى الدِّين المستقيم وهو دين إبراهيم . ﴿ دِينًا ﴾ نصب على الحال ؛ عن قُطْرُب . وقيل : نصب بهدانى؛ عن الأخفش . غيره : انتصب حملا على المعنى؛ لأن معنى هـدانى عرّفنى دينا . ويجوز أن يكون بدلا عن الصراط ، أى هـدانى صراطا مستقيما دينا . وقيل : منصوب بإضمـار فعل؛ فكأنه قال : آتبعوا دينا، وآعرفوا دينا . ﴿ قِيَمًا ﴾ قرأه الكوفيون وابن عامر بكسر القاف والتخفيف وفتح الياء، مصدر كالشبع فوصف به . والباقون بفتح القاف وكسر الياء وشدّها، وهما لغتان . وأصل الياء الواو « قَيْوِم » ثم أدغمت الواو فى الياء كميت . ومعناه : دينـا مستقيما لا عِوج فيه . ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بدل ﴿ حَنِيفًا ﴾ قال الزجاج : هو حال من إبراهيم . وقال علىّ بن سليمان : هو نصب بإضمـار أعنى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ قد تقدّم اشتقاق لفظ الصلاة.(1) وقيل : المراد بها هنا صلاة الليل . وقيل: صلاة العِيد . والنّسك جمع نَسيكة، وهى الذّبيحة، وكذلك قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم . المعنى : ذَبْحِى فى الحج والعمرة . وقال الحسن : نسكى دِينى . وقال الزجاج : عبادتى؛ ومنه الناسك الذى يتقرب إلى الله بالعبادة . وقال قوم : النسك فى هذه الآية جميع أعمال الطاعات؛ من قولك : نسك فلان فهو ناسك، إذا تعبّد . ﴿ وَمَحْيَايَ ﴾ أى ما أعمله فى حياتى ﴿ وَمَمَاتِي ﴾ أى ما أوصى به بعـد وفاتى . ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى أفرده بالتقرُّب بها إليه . وقيل : « مَحْيَاى ومماتى لله » أى حياتى وموتى له . وقرأ الحسن « نُسْكِى » بإسكان السين. وأهل المدينة « ومحياى » بسكون الياء فى الإدراج . والعامة بفتحها؛ لأنه يجتمع ساكنان . قال النحاس : لم يُجِزه أحد من النحويين إلا يونس، وإنما أجازه لأن قبله ألفا، والألف المَدّة التى فيها تقوم مقام الحركة . وأجاز يونس اضربانْ زيدا ، وإنما منع النحويون هـذا لأنه جمع بين ساكنين وليس فى الثانى

---

(1) راجع جـ ١ ص ١٦٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

إدغام، ومن قرأ بقراءة أهل المدينة وأراد أن يَسْلَم من اللحن وقف على « محياى » فيكون غير لاحِنٍ عند جميع النحويين . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وعاصم الجَحْدَرِيّ « ومَحْيَّ » بتشديد الياء الثانية من غير ألف، وهي لغة عُلْيَا . مُضَر يقولون : قَفَيّ وعَصَيّ . وأنشد أهل اللغة :

* سَبَقُوا هَوَيّ وأَعْنَقُوا لهواهُم (١) *

وقد تقدّم .

الثالثة — قال الكيا الطبريّ: قوله تعالى « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إلى قوله « قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ٱستدل به الشافعيّ على افتتاح الصلاة بهذا الذكر ؛ فإن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزله في كتابه ، ثم ذكر حديث عليّ رضي الله عنه : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا افتتح الصلاة قال : "وَجّهتُ وَجْهِيَ للذي فَطَرَ السمواتِ والأرض حَنيفًا وما أنا من المشركين . إنّ صلاتي ونُسُكِي ومَحْيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين — إلى قوله — وأنا من المسلمين" .

قلت : روى مسلم في صحيحه عن عليّ بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : "وجّهت وجهِيَ للذي فطر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين . إنّ صلاتِي ونسكِي ومحياى ومماتِي لِلهِ رب العالمين. لاشريك له وبِذلك أمِرت وأنا أوّل المسلِمين . اللّهُمّ أنت الملِك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك ظلمتُ نفسي وٱعترفتُ بذنبي فاغفرلي ذنوبي جميعا إنه لايغفر الذّنوب إلا أنت وٱهدني لأحسنِ الأخلاق لا يَهْدِي لأحسنها إلا أنت وٱصرف عنّي سيئها لايصرف عني سيئها إلا أنت لَبّيْكَ وسَعْدَيْكَ والخيرُ كلُّه في يديك والشر ليس إليك . تباركت وتعاليت . أستغفرك وأتوب إليك" . الحديث . وأخرجه الدَّارَقُطْنِيّ وقال في آخره : بَلَغَنا عن النَّضْر بن شُمَيل وكان من العلماء باللغة وغيرها قال : معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "والشر ليس إليك" الشر ليس مما

(١) هذا صدر بيت لأبي ذؤيب . وعجزه كما في جـ ١ ص ٣٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

* فتخرموا ولكل جنب مصرع *

يُتقرّب به إليك . قال مالك : ليس التوجيه فى الصلاة بواجب على الناس ، والواجب عليهم التكبير ثم القراءة . قال ابن القاسم : لم ير مالك هذا الذى يقوله الناس قبل القراءة : سبحانك اللّهم و بحمدك . وفى مختصر ماليس فى المختصر : أن مالكا كان يقوله فى خاصّة نفسه؛ لصحة الحديث به ، وكان لايراه للناس مخافة أن يعتقدوا وجو به . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وكنت أصلى وراء شيخنا أبى بكر الدِّينَوَرِىّ الفقيه فى زمان الصّبا ، فرآنى مرّة أفعل هـذا فقال : يا بنىّ ، إن الفقهاء قد اختلفوا فى وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام ، ولم يختلفوا أن الافتتاح سُنّة ، فاشتغل بالواجب ودَع السُّنَن . والحجة لمـالكٍ قولُه صلى الله عليه وسلم للأعرابىّ الذى علّمه الصلاة : " إذا قمت إلى الصلاة فكَبِّر ثم ٱقرأ " ولم يقل له سبح كما يقول أبو حنيفة ، ولا قل وجهت وجهى ؛ كما يقول الشافعىّ . وقال لأبَىّ : " كيف تقرأ إذا ٱفتتحت الصلاة " ؟ قال : قلت الله أكبر ، الحمد لله ربّ العالمين . فلم يذكر تَوْجِيهًا ولا تسبيحا . فإن قيل : فإن عليا قد أخبر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقوله . قلنا : يحتمل أن يكون قاله قبـل التكبير ثم كَبّر ، وذلك حَسَن عنـدنا . فإن قيل : فقد روى النَّسائىّ والدّارَقُطنىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا ٱفتتح الصلاة كبر ثم يقول : "إن صلاتى ونُسُكى" الحديث . قلنا : هـذا نحمله على النافلة فى صلاة الليل ؛ كما جاء فى كتاب النَّسائىّ عن أبى سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتح الصلاة بالليل قال : " سبحانك اللّهمّ و بحمدك . تبارك ٱسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك" . أو فى النافلة مطلقا ؛ فإن النافلة أخفّ من الفرض ، لأنه يجوز أن يُصلّيها قائما وقاعدا و را كبا ، و إلى القبلة وغيرها فى السفر ؛ فأمْرُها أيسر . وقد روى النَّسائىّ عن محمد بن مَسْلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يصلّى تطوّعا قال : " الله أكبر . وجّهتُ وَجْهِىَ للذى فطر السـموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونُسُكى ومَحْيَاىَ ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له و بذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين . اللّهُمّ أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك " . ثم يقرأ . وهذا نَصٌّ فى التطوّع لا فى الواجب . وإن صح أن ذلك كان فى الفريضة بعـد التكبير ، فيحمل

على الجواز والاستحباب ، وأما المسنون فالقراءة بعد التكبير ، والله بحقائق الأمور عليم . ثم إذا قاله فلا يقل « وأنا أول المسلمين » . وهى :

الرابعة — إذ ليس أحدهم بأولهم إلا محمد صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : أو ليس إبراهيم والنبيون قبله ؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة : الأول — أنه أول الخلق أجمع معنًى ؛ كما فى حديث أبى هريرة من قوله عليه السلام : "نحن الآخِرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة" . وفى حديث حُذيفة "نحن الآخرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة المَقْضِىّ لهم قبل الخلائق" . الثانى — أنه أوّلهم لكونه مقدّما فى الخلق عليهم ؛ قال الله تعالى : «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ »(١) . قال قتادة : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "كنت أوّلَ الأنبياء فى الخلق وآخرَهم فى البعث" . فلذلك وقع ذكره هنا مقدّما قبل نوح وغيره . الثالث — أوّل المسلمين من أهل مِلّته ؛ قاله ابن العربىّ ، وهو قول قَتادة وغيره . وقد اختلفت الروايات فى « أوّل » ففى بعضها ثبوتُها وفى بعضها لا ، على ما ذكرنا . وروى عِمران بن حُصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا فاطمة قومى فاشهدى أُضحيتَكِ فإنه يغفرلك فى أول قَطْرة من دمها كلَّ ذنب عملتيه ثم قولى « إنّ صلاتى ونُسُكى ومَحْيَاىَ ومماتى لله ربِّ العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين »" . قال عمران : يا رسول الله ، هذا لك ولأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامّةً ؟ قال : "بل للمسلمين عامّة" .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٦٤)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى مالكه . روى أن الكفار قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا ، واعبد آلهتنا ، واترك ما أنت

(١) آية ٧ سورة الأحزاب .

عليه، ونحن نتكفّل لك بكل تِباعة نتوقعها فى دنياك وآخرتك ؛ فنزلت الآية . وهى استفهام يقتضى التقرير والتوبيخ . و « غير » نصب بـ « أَبْغِى » و « رَبًّا » تمييز .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ أى لا ينفعنى فى ابتغاء ربٍّ غير الله كونكم على ذلك ؛ إذ لا تكسب كل نفسٍ إلا عليها ؛ أى لا تؤخذ بما أتت من المعصية، وركبت من الخطيئة سواها .

الثانيــة — وقد استدّل بعض العلماء من المخالفين بهذه الاية على أن بيع الفُضُولىّ لا يصح ؛ وهو قول الشافعىّ . وقال علماؤنا : المراد من الآية تحمل الثواب والعقاب دون أحكام الدنيا ؛ بدليل قوله تعالى : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » على ماياتى . وبيع الفُضُولِىّ عندنا موقوف على إجازة المالك ، فإن أجازه جاز . هذا عُرْوة البارِقىّ قد باع للنبىّ صلى الله عليه وسلم واشترى وتصرّف بغير أمره ، وأجازه النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ وبه قال أبو حنيفة. روى البُخارِىّ والدّارَقُطْنِىّ عن عُروة بن أبى الجَعْد قال : عرض للنبىّ صلى الله عليه وسلم جَلَب(١) فأعطانى دينارا وقال : "أىْ عُرْوة اِيتِ الجَلَب فآشتر لنا شاة بهـذا الدينار" فأتيتُ الجَلَب فساومتُ فآشتريت شاتين بدينار ، فجئت أسوقهما — أو قال أقودهما — فلقينى رجل فى الطريق فساومنى فبعته إحدى الشاتين بدينار ، وجئت بالشاة الأخرى وبدينار ، فقلت : يا رسول الله ، هذه الشاة وهذا دينارکم. قال : "كيف صنعت" ؟ فحدثته الحديث. قال: "اللّهُمّ بارك له فى صفقة يمينه". قال : فلقد رأيتُنى أقف فى كُناسة الكوفة فأربح أربعين ألفا قبل أن أصِل إلى أهلى . لفظ الدّارَقُطْنِىّ . قال أبو عمر : وهو حديث جيّد ، وفيـه صحة ثبوت النبىّ صلى الله عليه وسلم للشاتين ، ولولا ذلك ما أخذ منه الدينار ولا أمضى له البيع .

وفيه دليل على جواز الوكالة ، ولا خلاف فيها بين العلماء . فإذا قال الموكل لوكيله : اِشتر كذا ، فاشترى زيادةً على ما وُكّل به فهل يلزم ذلك الأمر أم لا . كرجل قال لرجل : اِشتر بهذا

(١) الجلب (بالتحريك) : ما جلب القوم من غنم وغيره .

الدّرهم رِطل لحم، صفته كذا؛ فاشترى له أربعة أرطال من تلك الصفة بذلك الدرهم. فالذى عليه مالك وأصحابه أن الجميع يلزمه إذا وافق الصفة ومن جنسها؛ لأنه مُحْسِن. وهو قول أبى يوسف ومحمد بن الحسن. وقال أبو حنيفة: الزيادة للمشترى. وهذا الحديث حُجّة عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى لا تحمل حاملةٌ ثِقل أخرى، أى لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجُرْمها ومعاقبة بإثمها. وأصل الوِزْر الثِّقل؛ ومنه قوله تعالى: « وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ »(١). وهو هنا الذنب؛ كما قال تعالى: « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ». وقد تقدّم(٢). قال الأخفش: يقال وَزِر يوْزَر، ووَزَر يزِر، ووُزِر يوزَر وزرا. ويجوز إزْرًا، كما يقال: إسادة(٣). والآية نزلت فى الوليد بن المغيرة، كان يقول: ٱتبعوا سبيلى أحمل أوزاركم؛ ذكره ابن عباس. وقيل: إنها نزلت ردًّا على العرب فى الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وبٱبنه وبجَرِيرة حَلِيفه.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد بهذه الآية فى الآخرة، وكذلك التى قبلها؛ فأما فى الدنيا فقد يؤاخذ فيها بعضهم بجُرْم بعض، لا سِيّما إذا لم يَنْه الطائعون العاصين، كما تقدّم فى حديث أبى بكر فى قوله: « عليكم أنفسكم »(٤). وقال تعالى « وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »(٥). « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ »(٦). وقالت زينب بنت جَحْش: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم إذا كثُر الخَبَث". قال العلماء: معناه أولاد الزنى. والخَبَث (بفتح الباء) اسم للزنى. فأوجب الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ على العاقلة حتى لا يُطَلّ(٧) دم الحُرّ المسلم تعظيما للدّماء. وأجمع أهل العلم على ذلك من غير خلاف بينهم فى ذلك؛ فدلّ على ما قلناه. وقد يحتمل أن يكون هذا فى الدنيا، فى ألا يؤاخذ زيد بفعل عمرو، وأن كل مباشر لجريمة فعليه مَغَبَّتُها. وروى أبو داود عن أبى رِمْثة قال: انطلقت مع أبى نحو النبىّ صلى الله عليه وسلم، ثم إن النبىّ

(١) آية ٢ سورة الانشراح. (٢) آية ٣١ من هذه السورة. (٣) فى قولهم: وسادة.
(٤) آية ١٠٥ سورة المائدة. (٥) آية ٢٥ سورة الأنفال. (٦) آية ١١ سورة الرعد.
(٧) طل دمه: ذهب هدرا.

صلى الله عليه وسلم قال لأبى: "ابنك هذا"؟ قال: إىْ وربِّ الكعبة. قال: "حقا". قال: أَشْهَدُ به. قال: فتبسّم النبىّ صلى الله عليه وسلم ضاحكا من بَيَّنِ شَبَهِى فى أبى[1]، ومن حَلِف أبى علىّ. ثم قال: "أما إنه لا يَجْنِى عليك ولا تَجْنِى عليه". وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى». ولا يُعارض ما قلناه أوّلا بقوله: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ»[2]؛ فإن هذا مبيَّن فى الاية الأخرى قوله: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ»[3]. فمن كان إماما فى الضلالة ودعا إليها واتُّبع عليها فإنه يحمل وِزْر من أضلّه من غير أن ينقص من وزر المُضَل شىء، على ما يأتى بيانه إن شاء الله.

قوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَـٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ «خلائف» جمع خليفة، ككرائم جمع كريمة. وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة. أى جعلكم خَلَفا للأمم الماضية والقرون السالفة. قال الشمّاخ:

تصيبهُمُ وتخطِئنى المنايا * وأخلُف فى رُبوع عن رُبوع

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فى الخلق والرزق والقوة والبَسْطة والفضل والعلم. ﴿دَرَجَاتٍ﴾ نصب بإسقاط الخافض، أى إلى درجات. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ نصب بلام كَىْ. والابتلاء: الاختبار؛ أى ليظهر منكم ما يكون غايته الثواب والعقاب. ولم يزل بعلمه غنيًّا؛ فآبتلى الموسر بالغنى وطلب منه الشكر، وآبتلى المعسر بالفقر وطلب منه الصبر. ويقال: «ليبلوكم» أى بعضكم ببعض. كما قال: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً»[4] على ما يأتى بيانه. ثم خوّفهم

(١) فى نسخ الأصل: «ثبت» والتصويب عن سنن أبى داود. (٢) آية ١٣ سورة العنكبوت.
(٣) آية ٢٥ سورة النحل. (٤) آية ٢٠ سورة الفرقان.

فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه . ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لمن أطاعه . وقال : « سَرِيعُ الْعِقَابِ » مع وصفه سبحانه بالإمهال ، ومع أنّ عقاب النار فى الآخرة ؛ لأن كل آت قريب؛ فهو سريع على هـذا . كما قال تعالى : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »[1] . وقال : « يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا »[2] . ويكون أيضا سريع العقاب لمن استحقه فى دار الدنيا؛ فيكون تحذيرا لمواقع الخطيئة على هذه الجهة . والله أعلم .

---

(١) آية ٧٧ سورة النحل . (٢) آية ٦ ، ٧ سورة المعارج .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفســـير ســـورة الأعراف

وهى مكية ، إلا ثمانَ آيات ، وهى قوله تعالى : « وَسْأَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ » إلى قوله : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ »(١) . وروى النَّسائيّ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فى صلاة المغرب بسورة الأعراف ، فرّقها فى ركعتين . صححه أبو محمد عبد الحق .

قوله تعالى : الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ تقدّم فى أوّل « البقرة »(٢) وموضعه رفع بالابتداء . و﴿ كِتَٰبٌ ﴾ خبره . كأنه قال : « المص » حروف كتاب ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ . وقال الكسائى : أى هذا كتاب .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق ؛ أى لا يضيق صدرك بالإبلاغ ؛ لأنه رُوى عنه عليه السلام أنه قال: " إنى أخاف أن يَثْلغُوا(٣) رأسى فيدعوه خبزة " الحديث . خرّجه مسلم . قال الكِيَا : « فظاهره النهى، ومعناه نفى الحرج عنه ؛ أى لا يضيق صدرك ألا يؤمنوا به ، فإنما عليك البلاغ، وليس عليك سوى الإنذار به من شىء من إيمانهم

---

(١) من آية ١٦٣ — ١٧٠ . (٢) راجع جـ١ ص ١٥٤ طبعه ثانية أو ثالثة .

(٣) كذا فى الأصول . والذى فى صحيح مسلم : « إذاً يثلغوا رأسى » . راجع صحيح مسلم . كتاب الجنة ، باب الصفات التى يعرف بها أهل الجنة وأهل النار . والثلغ : الشدخ . وقيل : هو ضربك الشىء الرطب بالشىء اليابس حتى ينشدخ .

أو كفرهم ، ومثله قوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ »[1] الآية . وقال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »[2] . ومذهب مجاهد وقتادة أن الحرج هنا الشك، وليس هذا شك الكفر، إنما هو شك الضيق . وكذلك قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ »[3] . وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . وفيه بُعْدٌ . والهاء في « منه » للقرآن . وقيل للإنذار ؛ أي أنزل إليك الكتاب لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه . فالكلام فيه تقديم وتأخير . وقيل للتكذيب الذي يعطيه قوة الكلام . أي فلا يكن في صدرك ضيق من تكذيب المكذبين له .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَذِكْرَى ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع ونصب وخفض . فالرفع من وجهين ؛ قال البصريون : هي رفع على إضمار مبتدأ . وقال الكسائيّ : عطف على « كتاب » . والنصب من وجهين ؛ على المصدر، أي وذكّر به ذكرى ؛ قاله البصريون . وقال الكسائي : عطف على الهاء في « أنزلناه » . والخفض حملا على موضع « لتنذر به » . والإنذار للكافرين، والذكرى للمؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به .

قوله تعالى : ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

فيــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني الكتاب والسُّنّة . قال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[4] . وقالت فرقة : هذا أمر يعمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته . والظاهر أنه أمرٌ لجميع الناس دونه . أي ٱتبعوا ملة الإسلام والقرآن ، وأحِلّوا حلاله وحرّموا حرامه ، وٱمتثلوا أمره، وٱجتنبوا نهيه . ودلّت الآية على ترك ٱتباع الآراء مع وجود النص .

(١) آية ٦ سورة الكهف . (٢) آية ٣ سورة الشعراء . (٣) آية ٩٧ سورة الحجر .
(٤) آية ٧ سورة الحشر .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ «من دونه» من غيره . والهاء تعود على الربّ سبحانه، والمعنى : لاتعبدوا معه غيره، ولا تتخذوا مَن عدل عن دين الله وليًّا. وكلّ من رضى مذهباً فأهـل ذلك المذهب أولياؤه . ورُوى عن مالك بن دينار أنه قرأ « ولا تبتغوا من دونه أولياء » أى ولا تطلبوا . ولم ينصرف « أولياء » لأن فيه ألف التأنيث. وقيل : تعود على « ما » من قوله « آتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » . ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ « ما » زائدة . وقيل : تكون مع الفعل مصدرا .

قوله تعالى : وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ « كم » للتكثير، كما أن « رُبَّ » للتقليل. وهى فى موضع رفع بالابتداء ، و « أهلكنا » الخبر . أى وكثير من القرى — وهى مواضع اجتماع الناس — أهلكناها . ويجوز النصب بإضمار فعل بعدها ، ولا يقدّر قبلها ؛ لأن الاستفهام لايعمل فيه ماقبله . ويقوّى الأوّل قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ »(١) . ولولا اشتغال « أهلكنا » بالضمير لانتصب به موضع « كم » . ويجوز أن يكون « أهلكنا » صفةً للقرية ، و « كم » فى المعنى هى القرية ؛ فإذا وصفت القرية فكأنك قد وصفت كم . يدلّ على ذلك قوله تعـالى : « وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا »(٢) فعاد الضمير على « كم » على المعنى ؛ إذ كانت الملائكةَ فى المعنى . فلا يصح على هـذا التقدير أن يكون « كم » فى موضع نصب بإضمار فعل بعدها . ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ فيه إشكال للعطف بالفاء . فقال الفرّاء : الفاء بمعنى الواو، فلا يلزم الترتيب . وقيل : أى وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا؛ كقوله : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »(٣) . وقيل : إن

---

(١) آية ١٧ سورة الإسراء . (٢) آية ٢٦ سورة النجم . (٣) آية ٩٨ سورة النحل .

الهلاك واقع ببعض القوم؛ فيكون التقدير : وكم من قرية أهلكنا بعضها فجاءها بأسنا فأهلكنا الجميع. وقيل : المعنى وكم من قرية أهلكناها فى حكمنا فجاءها بأسنا. وقيل : أهلكناها بإرسالنا ملائكة العذاب إليها، فجاءها بأسنا وهو الاستئصال . والبأس : العذاب الآتى على النفس. وقيل: المعنى أهلكناها فكان إهلاكنا إياهم فى وقت كذا، فمجىء البأس على هذا هو الإهلاك . وقيل : البأس غير الإهلاك، كما ذكرنا . وحكى الفرّاء أيضا أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت ؛ فيكون المعنى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها ؛ مثل دنا فقرُب، وقرُب فدنا ، وشتمنى فأساء، وأساء فشتمنى؛ لأن الإساءة والشتم شىء واحد . وكذلك قوله : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ »(١) . المعنى — والله أعلم — انشق القمر فاقتربت الساعة . والمعنى واحد . ﴿ بَيَاتًا ﴾ أى ليلا؛ ومنه البيت، لأنه يُبات فيه. يقال: بات يبيت بَيْتًا وبياتا . ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ أى أو وهم قائلون، فاستثقلوا فحذفوا الواو؛ قاله الفرّاء . قال الزجاج : وهذا خطأ، إذا عاد الذكر استغنى عن الواو؛ تقول : جاءنى زيد راكبا أو هو ماش، ولا يحتاج إلى الواو . قال المَهْدوى: ولم يقل بياتا أو وهم قائلون لأن فى الجملة ضميرا يرجع إلى الأول فاستغنى عن الواو . وهو معنى قول الزجاج سواء ، وليس أو للشك بل للتفصيل؛ كقولك : لأكرمنّك منصفا لى أو ظالما . وهذه الواو تسمى عند النحويين واو الوقت. و﴿ قائلون ﴾ من القائلة وهى القيلولة؛ وهى نوم نصف النهار. وقيل: الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحرّ وإن لم يكن معها نوم. والمعنى : جاءهم عذابنا وهم غافلون إمّا ليلا وإمّا نهارا . والدعوى الدعاء؛ ومنه قوله : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ »(٢) . وحكى النحويون اللَّهُمَّ أشركنا فى صالح دعوى من دعاك . وقد تكون الدّعوى بمعنى الادّعاء . والمعنى : أنهم لم يخلصوا عند الإهلاك إلا على الإقرار بأنهم كانوا ظالمين . و﴿ دعواهم ﴾ فى موضع نصب خبر كان ، واسمها « إِلَّا أَنْ قَالُوا » . نظيره « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا »(٣) ويجوز

---

(١) أول سورة القمر .   (٢) آية ١٠ سورة يونس .   (٣) آية ٥٦ سورة النمل .

أن تكون الدعوى رفعا، و « أن قالوا » نصبا؛ كقوله تعالى : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا »(١) برفع « البر » . وقوله : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا »(٢) برفع « عاقبة » .

قوله تعالى : فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ دليل على أن الكفار يحاسبون . وفى التنزيل « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »(٣) . وفى سورة القصص « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(٤) يعنى إذا استقروا فى العذاب . والآخرة مواطن : موطن يسألون فيه للحساب . وموطن لا يسألون فيه . وسؤالهم سؤال تقرير وتوبيخ و إفضاح . وسؤال الرسل سؤال آستشهاد بهم و إفصاح؛ أى عن جواب القوم لهم . وهو معنى قوله : « لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عن صِدْقِهِمْ »(٥) على ما يأتى . وقيل : المعنى « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أى الأنبياء « وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين » أى الملائكة الذين أرسلوا إليهم . واللام فى « فلنسألَنَّ » لام قسم وحقيقتها التوكيد . وكذا ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ﴾ . قال ابن عباس : ينطق عليهم(٦) . ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أى كنا شاهدين لأعمالهم . ودلّت الآية على أن الله عالم بعلم .

قوله تعالى : وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « الحق » نعته، والخبر « يومئذ » . ويجوز نصب « الحق » على المصدر . والمراد بالوزن وزنُ أعمال العباد

(١) آية ١٧٧ سورة البقرة . راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ طبعة ثانية . (٢) آية ١٠ سورة الروم .
(٣) آية ٢٦ سورة الغاشية . (٤) آية ٧٨ (٥) آية ٨ سورة الأحزاب .
(٦) عبارة الطبرى : « ينطق لهم كتاب عملهم عليهم بأعمالهم » .

بالميزان. قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد . وهذا هو الصحيح، وهو الذى ورد به الخبر على ما يأتى . وقيل : الميزان الكتاب الذى فيـه أعمال الخلق . وقال مجاهـد : الميزان الحسنات والسيئات بأعيانها . وعنه أيضا والضحّاكِ والأعمش : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضـاء . وذِكر الوزن ضَرْبُ مثلٍ ؛ كما تقول : هـذا الكلام فى وزن هـذا وفى وزانه، أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن . قال الزجاج : هـذا سائغ من جهة اللسان، والأوْلى أن يُتّبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان . قال القُشيْرِىّ : وقد أحسن فيما قال، إذ لو حمل الميزان على هذا فلْيُحْمل الصراطُ على الدِّين الحق، والجنةُ والنارُ على ما يرد على الأرواح دون الأجساد، والشياطينُ والجنُّ على الأخلاق المذمومة، والملائكةُ على القُوَى المحمودة . وقـد أجمعت الأمة فى الصدر الأوّل على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل . وإذا أجمعوا على منع التأويل وجب الأخذ بالظـاهر، وصارت هـذه الظواهر نصوصا . قال ابن فُورَك : وقـد أنكرت المعتزلة الميزان بناءً منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقـوم بأنفسها . ومن المتكلمين من يقول : إن الله تعـالى يقلب الأعراض أجساما فيزنها يوم القيامة. وهذا ليس بصحيح عندنا، والصحيح أن الموازين تثقل بالكتب التى فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف . وقد رُوى فى الخبر ما يحقّق ذلك، وهو أنه رُوى أن ميزان بعضِ بنى آدم كاد يخف بالحسنات فيوضع فيـه رِقّ مكتوبٌ فيه « لا إله إلا الله » فيثقل. فقـد عُلم أن ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيـه الأعمال لا نفس الأعمال، وأن الله سبحانه يخفف الميزان إذا أراد، ويثقله إذا أراد بما يوضع فى كفتيه من الصحف التى فيها الأعمال.

وفى صحيح مسلم عن صـفْوان بن مُحْرِز قال قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النَّجْوَى[(١)] ؟ قال سمعته يقول : "يُدْنَى المؤمنُ من ربّه يوم القيامة حتى يضع عليـه كنَفَه فيُقرِّره بذنوبه فيقول هـل تعرف فيقـول أىْ ربّ أعرف قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم فيُعْطَى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادَى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله" . فقوله "فيُعْطَى صحيفة حسناته"

(١) يريد مناجاة الله تعالى للعبد يوم القيامة .

دليل على أن الأعمال تُكتب فى الصحف وتُوزن . وروى ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُصاح برجل من أمتى يوم القيامة على رءوس الخلائق فيُنْشر عليه تسعة وتسعون سِجِلًّا كلّ سِجِلٍّ مَدّ البصر ثم يقول الله تبارك وتعالى هل تنكر من هـذا شيئا فيقول لا يارب فيقول أظلمتْك كَتَبتِى الحافظون فيقول لا ثم يقـول ألك عذر ألك حسنة فيهاب الرجل فيقول لا فيقول بلى إن لك عندنا حسنات و إنه لا ظُلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبـده ورسوله فيقول يا رب ما هـذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تُظلم فتوضع السجلات فى كِفّة والبطاقة فى كِفّـة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة" . زاد الترمذى "فلا يثقل مع اسم الله شىء" وقال : حديث حسن غريب . وسيأتى لهـذا الباب مزيد بيـان فى « الكهف[(١)] والأنبياء[(٢)] » إن شاء الله تعـالى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَـا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ « موازينه » جمع ميزان ، وأصله مِوْزان، قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد يُوزن بكل ميزان منها صِنف من أعماله . و يمكن أن يكون ذلك ميزانا واحدا عُبِّر عنه بلفظ الجمع ؛ كما تقـول : خرج فلان الى مكة على البغال ، وخرج إلى البصرة فى السفن . وفى التنزيل : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ » . « كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ[(٣)] » . و إنمـا هو رسول واحد فى أحد التأويلين . وقيل : الموازين جمع موزون، لا جمع ميزان. أراد بالموازين الأعمال الموزونة. ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ مثـله . وقال ابن عباس : توزن الحسنات والسيئات فى ميزان له لسان وكِفّتان؛ فأما المؤمن فيؤتى بعمله فى أحسن صورة فيوضع فى كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته ؛ فذلك قوله « فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ويؤتى بعمـل الكافر فى أقبح صورة فيُوضـع فى كِفّة الميزان فيخفّ وزنه حتى يقـع فى النار . وما أشار إليه ابن

---

(١) آية ١٠٥ . (٢) آية ٤٧ . (٣) آية ١٠٥، ١٢٣ سورة الشعراء .

عباس قريبٌ مما قيل : يخلق الله تعالى كلّ جزء من أعمال العباد جوهرا فيقع الوزن على تلك الجواهر . وردّه ابن فُورَك وغيره . وفى الخبر "إذا خفّت حسنات المؤمن أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاقة كالأنملة فيُلقيها فى كفّة الميزان اليمنى التى فيها حسناته فترجح الحسنات فيقول ذلك العبد المؤمن للنبيّ عليه السلام بأبى أنت وأمّى! ما أحسنَ وجهك وما أحسن خُلُقك فمن أنت فيقول أنا محمد نبيّك وهذه صلواتك التى كنت تصلّى علىّ قد وفّيتك أحوج ما تكون إليها" . ذكره القشيرىّ فى تفسيره . وذكر أن البطاقة (بكسر الباء) رقعة فيها رقم المتاع بلغة أهل مصر . وقال ابن ماجه : قال محمد بن يحيى : البطاقة الرقعة ، وأهل مصر يقولون للرقعة بطاقة . وقال حذيفة : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، يقول الله تعالى : "يا جبريل زِنْ بينهم فَرُدّ من بعض على بعض" . قال : وليس ثَمّ ذهب ولا فضة؛ فإن كان للظالم حسناتٌ أخذ من حسناته فَرُدّ على المظلوم، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فتحمل على الظالم ؛ فيرجع الرجل وعليه مثل الجبال . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يوم القيامة : "يا آدم آبرز إلى جانب الكرسى عند الميزان وآنظر ما يُرفع إليك من أعمال بَنيك فمن رجح خيرُه على شره مثقالَ حبّة فله الجنة ومن رَجح شرّه على خيره مثقالَ حبّة فله النار حتى تعلم أنى لا أعذّب إلا ظالما" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

أى جعلناها لكم قرارا ومِهادا، وهيّأنا لكم فيها أسباب المعيشة . والمعايش جمع معيشة، أى ما يتعيّش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة . يقال : عاش يَعيش عَيْشا ومَعاشا ومَعيشا ومَعيشة وعِيشة . وقال الزجاج : المَعيشة ما يُتوصّل به إلى العيش . ومعِيشة فى قول الأخفش وكثيرٍ من النحويين مَفْعِلة . وقرأ الأعرج « معائش » بالهمز . وكذا روى خارجة ابن مُصْعَب عن نافع . قال النحاس : والهمز لحن لا يجوز ؛ لأن الواحدة مَعِيشة ، أصلها مَعْيِشة، فزيدت ألف الوصل وهى ساكنة والياء ساكنة، فلا بُدّ من تحريك إذ لا سبيل

إلى الحذف، والألف لا تتحرك فحركت الياء بما كان يجب لها فى الواحد . ونظيره من الواو منارة ومناوِر، ومَقام ومقاوِم، كما قال الشاعر :

وإنى لقَـوّامٌ مَقاوِمَ لم يكن * جرير ولا مَوْلَى جريرٍ يقومها

وكذا مصيبه ومَصاوِب . هذا الجيد، ولغة شاذة مصائب . قال الأخفش : إنما جاز مصائب لأن الواحدة معتلة . قال الزجاج : هذا خطأ يلزمه عليه أن يقول مقائم . ولكن القول أنه مثل وِسادة و إسادة . وقيل : لم يجز الهمز فى معايش لأن المعيشة مَفْعِـلة؛ فالياء أصليـة، و إنما يهمز إذا كانت الياء زائدة مثل مدينة ومدائن ، وصحيفة وصحائف ، وكريمة وكرائم ، ووظيفة ووظائف، وشبهه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ (١١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ لما ذكر نعمه ذكر ابتداء خلقه . وقد تقدّم معنى الخلق فى غير موضع[(١)] . ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أى خلقناكم نطفا ثم صوّرناكم ، ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة آسجدوا لآدم . وعن ابن عباس والضحّاك وغيرهما : المعنى خلقنا آدم ثم صوّرناكم فى ظهره . وقال الأخفش : « ثم » بمعنى الواو . وقيل : المعنى « ولقد خلقناكم » يعنى آدم عليه السلام، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، ثم صورناكم ؛ على التقديم والتأخير . وقيل : « ولقد خلقناكم » يعنى آدم ؛ ذُكر بلفظ الجمع لأنه أبو البشر . « ثم صوّرناكم » راجع إليه أيضا . كما يقال : نحن قتلناكم ؛ أى قتلنا سيّدكم . ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ آسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ وعلى هذا لا تقديم ولا تأخير ؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : المعنى ولقد خلقناكم ، يريد آدم وحوّاء ؛ فآدم من التراب وحوّاء من ضلع من أضلاعه ، ثم وقع التصوير بعد ذلك . فالمعنى : ولقد خلقنا أبويكم ثم صوّرناهما ؛ قاله الحسن . وقيل : المعنى خلقناكم فى ظهر آدم

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٦ ، ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة .

ثم صوّرناكم حين أخذنا عليكم الميثاق. هذا قول مجاهد، رواه عنه ابن جُريج وابن أبي نَجيح. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال. يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صوّرهم حين أخذ عليهم الميثاق، ثم كان السجود بعدُ. ويقوّي هذا «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»(١). والحديثُ "أنه أخرجهم أمثال الذّرّ فأخذ عليهم الميثاق". وقيل: «ثم» للإخبار، أي ولقد خلقناكم يعني في ظهر آدم صلى الله عليه وسلم، ثم صورناكم أي في الأرحام. قال النحاس: هذا صحيح عن ابن عباس.

قلت: كل هذه الأقوال محتمل، والصحيح منها ما يَعْضُده التنزيل؛ قال الله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ»(٢) يعني آدم. وقال: «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا»(٣). ثم قال: «جَعَلْنَاهُ» أي جعلنا نسله وذريته «نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ»(٢) الآية. فآدم خُلق من طين ثم صُوّر وأكرم بالسجود، وذريته صُوِّروا في أرحام الأمهات بعد أن خُلقوا فيها وفي أصلاب الآباء. وقد تقدّم في أوّل سورة «الأنعام» أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتُرْبة؛ فتأمله. وقال هنا: «خلقناكم ثم صوّرناكم» وقال في آخر الحشر: «هو الله الخالق البارئ المُصَوِّر» فذكر التصوير بعد البرء. وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: معنى «ولقد خلقناكم» أي خلقنا الأرواح أوّلا ثم صوّرنا الأشباح آخرا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ استثناء من غير الجنس. وقيل من الجنس. وقد اختلف العلماء: هل كان من الملائكة أم لا؛ كما سبق بيانه في «البقرة»(٤).

قوله تعالى: قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

---

(١) آية ١٧٢ من هذه السورة. (٢) آية ١٢ وما بعدها سورة المؤمنون.

(٣) راجع جـ ٥ ص ١ طبعة أولى أو ثانية. (٤) راجع جـ ١ ص ٢٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة.

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ « ما » فى موضع رفع بالابتداء ؛ أى أىّ شىء منعك . وهـذا سؤال توبيخ . ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ فى موضع نصب، أى من أن تسجد . و « لا » زائدة . وفى ص « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ »(١) وقال الشاعر :

أبَى جُودُه لا البخلَ فاستعجلت به * نَعَمْ من فتًى لا يمنع الجودَ نائـلُه

أراد أبى جودُه البخلَ ، فزاد « لا » . وقيـل : ليست بزائدة ؛ فإن المنع فيـه طرف من القول والدعاء، فكأنه قال : من قال لك ألّا تسجد، أومن دعاك إلى ألّا تسجد . كما تقول : قـد قلت لك ألّا تفعل كذا . وقيل : فى الكلام حذف، والتقـدير : ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألّا تسجد . قال العلماء : الذى أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد؛ وكان أضمر ذلك فى نفسه إذا أُمر بذلك . وكان أمره من قبل خلق آدم؛ يقول الله تعالى : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »(٢) . فكأنه دخله أمر عظيم من قوله « فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » . فإن فى الوقوع توضيـع الواقع وتشريفًا لمن وُقع له ؛ فأضمر فى نفسه ألا يسجد إذا أمره فى ذلك الوقت . فلمـا نفخ فيـه الروح وقعت الملائكة سُجّـدًا ، وبَقِىَ هو قائمـا بين أظهرهم ؛ فأظهر بقيامه وترك السجود ما فى الضمير . فقال الله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ » أى ما منعك من الانقياد لأمرى؛ فأخرج سِرّ ضميره فقال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ يدلّ على ما يقوله الفقهـاء من أن الأمر يقتضى الوجوب بمطلقه من غير قرينة ؛ لأن الذم عُلّق على ترك الأمر المطلق الذى هو قوله عز وجل للملائكة : « اسْجُدُوا لِآدَمَ » وهذا بيّن .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْـهُ ﴾ أى منعنى من السجود فَضْلِى عليـه ؛ فهذا من إبليس جواب على المعنى . كما تقول : لمن هـذه الدار ؛ فيقول المخاطب : مالكها

(١) آية ٧٥ (٢) آية ٧١ سورة ص .

زيد . فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب . ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوّها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضيء . قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أوّل من قاس إبليسُ فأخطأ القياس . فمن قاس الدِّين برأيه قرنه الله مع إبليس . قال ابن سِيرين : وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . وقالت الحكماء : أخطأ عدوّ الله من حيث فضّل النار على الطين، و إن كانا في درجة واحدة مِن حيث هي جماد مخلوق . فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة :

أحدها — أن من جوهر الطين الرّزانة والسكون ، والوقار والأناة ، والحلم ، والحياء، والصبر . وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية . ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدّة، والارتفاع، والاضطراب . وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار ؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللّعنة والشقاء ؛ قاله القفّال .

الثاني — أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مِسك أذْفَر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة نارا وأن في النار ترابا .

الثالث — أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه ؛ وليس التراب سببا للعذاب .

الرابع — أن الطين مستغنٍ عن النار ، والنار محتاجة إلى المكان ومكانُها التراب .

قلت — ويحتمل قولا خامسا وهو أن التراب مسجد وطهور ؛ كما جاء في صحيح الحديث . والنار تخويف وعذاب ؛ كما قال تعالى : « ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ »(1) . وقال ابن عباس : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربّه ، وهو أوّل من قاس برأيه . والقياس في مخالفة النصّ مردود .

الرابعة — واختلف الناس في القياس إلى قائل به، ورادّ له ؛ فأمّا القائلون به فهم الصحابة والتابعون ، وجمهور من بعدهم . وأن التّعبّد به جائز عقلا واقع شرعا، وهو الصحيح .

(1) آية ١٦ سورة الزمر .

وذهب القفّال من الشافعيّة وأبو الحسين البصريّ إلى وجوب التعبّد به عقلا. وذهب النظّام إلى أنه يستحيل التعبّد به عقلا وشرعا؛ وردّه بعض أهل الظاهر. والأول الصحيح. قال البخارى فى (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة): المعنى لا عصمة لأحد إلا فى كتاب الله أو سنة نبيّه أو فى إجماع العلماء إذا وُجد فيها الحكمُ فإن لم يوجد فالقياس. وقد ترجم على هذا (باب مَن شبّه أصلا معلوما بأصل مبيَّن قد بيّن الله حكمها ليفهَم السائلُ). وترجم بعد هذا (باب الأحكام التى تُعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها). وقال الطبرىّ: الاجتهاد والاستنباط من كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم وإجماعُ الأمة هو الحق الواجب، والفرضُ اللازم لأهل العلم. وبذلك جاءت الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة الصحابة والتابعين. وقال أبو تمام المالكيّ: أجمعت الأمة على القياس؛ فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب والوَرِق فى الزكاة. وقال أبو بكر: أقِيلونى بيعتى. فقال علىّ: والله لا نُقيلك ولا نستقيلك، رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لِدِيننا فلا نرضاك لدنيانا. فقاس الإمامة على الصلاة. وقاس الصدّيق الزكاة على الصلاة وقال: والله لا أفرق بين ما جمع الله. وصرح علىّ بالقياس فى شارب الخمر بمحضر الصحابة وقال: إنه إذا سكر هذَى، وإذا هذَى افترى؛ فحدّه حدّ القاذف. وكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى كتابا فيه: الفَهْمَ الفَهْمَ فيما يختلج فى صدرك مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة، اِعرف الأمثال والأشباه، ثم قِسِ الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبّها إلى الله تعالى وأشبهها بالحق فيما ترى. الحديث بطوله ذكره الدارقطنيّ. وقد قال أبو عبيدة لعمر فى حديث الوباء، حين رجع عمر من سَرْغ: نَفِرّ من قَدَر الله! فقال عمر: نَعَمْ! نفِرّ من قَدَر الله إلى قدر الله. ثم قال له عمر: أرأيت ... (١) فقايسه وناظره بما يشبه من مسألته بمحضر المهاجرين والأنصار، وحَسْبُك. وأما الآثار وآى القرآن فى هذا المعنى فكثير. وهو يدلّ على أن القياس أصل من أصول الدِّين، وعِصمة من عِصَم المسلمين، يرجع إليه المجتهدون، ويفزع إليه العلماء العاملون؛ فيستنبطون

(١) راجع الحديث فى الموطأ «باب ما جاء فى الطاعون».

به الأحكام . وهو قول الجماعة الذين هم الحجة ، ولا يلتفت إلى من شذ عنها . وأما الرأى المذموم والقياس المتكلَّف المنهىُّ عنه فهو ما لم يكن على هذه الأصول المذكورة ؛ لأن ذلك ظن ونزغ من الشيطان ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ »(١) . وكلُّ ما يورده المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية فى ذمّ القياس فهى محمولة على هذا النوع من القياس المذموم، والذى ليس له فى الشرع أصل معلوم. وتتميم هذا الباب فى كتب الأصول.

قوله تعالى : قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى من السماء. ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأن أهلها الملائكة المتواضعون. ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى من الأذلّين. ودلّ هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل . وقال أبو رَوْق والبَجَلِيّ : « فاهبط منها » أى من صورتك التى أنت فيها ؛ لأنه افتخر بأنه من النار فشُوّهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه . وقيل : « فاهبط منها » أى انتقل من الأرض إلى جزائر البحار ؛ كما يقال : هبطنا أرض كذا أى انتقلنا إليها من مكان آخر ، فكأنه أخرج من الأرض الى جزائر البحار فسلطانه فيها ، فلا يدخل الأرض إلا كهيئة السارق(٢) يخاف فيها حتى يخرج منها . والقول الأول أظهر . وقد تقدم فى « البقرة »(٣) .

قوله تعالى : قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب . طلب ألّا يموت لأن يوم البعث لا موت بعده؛ فقال الله تعالى: « إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ » . قال ابن عباس والسُّدّى وغيرهما :

(١) آية ٣٦ سورة الإسراء .   (٢) فى بعض الأصول : « السارى » بالياء .

(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم . وكان طلبَ الإنظار إلى النفخة الثانيـة حيث يقوم الناس لرب العالمين؛ فأبى الله ذلك عليه . وقال : « إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » ولم يتقدم ذِكْرُ مَن يبعث ؛ لأن القصة فى آدم وذريّته ، فدلّت القرينة على أنهم هم المبعوثون .

قوله تعـالى : ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ الإغواء إيقاع الغيّ فى القلب؛ أى فبما أوقعت فى قلبى من الغيّ والعناد والاستكبار . وهــذا لأن كفر إبليس ليس كفرَ جهل، بل هو كفر عناد واستكبار . وقد تقدّم فى « البقرة »[(١)] . قيل : معنى الكلام القَسَم، أى فبإغوائك إياى لأقعدنّ لهم على صراطك ، أو فى صراطك ؛ فحذف . دليل هــذا القول قولُه فى (ص) : « فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ »[(٢)] فكأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لمـا فيــه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده . وقيل : الباء بمعنى اللام، كأنه قال : فلإغوائك إياى . وقيل : هى بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياى . وقيل : هو استفهام، كأنه سأل بأىّ شيء أغواه . وكان ينبغى على هذا أن يكون : فبم أغويتنى . وقيل : المعنى فبما أهلكتنى بلعنك إيّاى . والإغواء الإهلاك، قال الله تعالى : « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا »[(٣)] أى هلاكا . وقيل: فبما أضللتنى . والإغواء : الإضلال والإبعاد؛ قاله ابن عباس . وقيل : خيّبتنى من رحمتك؛ ومنه قول الشاعر :

* وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَم على الغَيّ لائما[(٤)] *

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٢ (٣) آية ٥٩ سورة مريم .

(٤) هذا عجز بيت للمرقش ، وصدره كما فى اللسان مادة غوى :

* فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره *

أى من يخب . وقال ابن الأعرابىّ : يقال غَوَى الرجل غيًّا إذا فسد عليه أمره ، أو فسد هو فى نفسه . وهو أحد معانى قوله تعالى : « وَعَصَى آدمُ رَبَّهُ فَغَوَى » أى فسد عيشُه فى الجنة . ويقال : غَوِىَ الفصيلُ إذا لم يُدِرّ لبنَ أمّه .

الثانيــة — مذهب أهل السنة أن الله تعالى أضلّه وخلق فيه الكفر؛ ولذلك نسب الإغواء فى هذا إلى الله تعالى . وهو الحقيقة، فلا شىء فى الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى . وخالف الإماميّة والقدريّة وغيرهما شيخهم إبليس الذى طاوعوه فى كل ما زَيَّنه لهم، ولم يطاوعوه فى هــذه المسألة ويقولون : أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغَواية إلى ربّه ، تعـالى الله عن ذلك . فيقال لهم : وإبليس وإن كان أهلا للخطأ فما تصنعون فى نبىّ مُكَرَّم معصوم، وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه : « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[(١)] » وقد روى أن طاوسا جاءه رجل فى المسجد الحرام، وكان متَّهَما بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار؛ فجلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تقام؟ فقيل لطاوس : تقول هذا لرجل فقيه ! فقال : إبليس أفقه منه، يقول إبليس : رب بما أغويتنى . ويقول هذا : أنا أغوى نفسى .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى بالصَّدّ عنه، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلّوا كما ضلّ ، أو يخيّبوا كما خُيِّب؛ حسب ما تقدّم من المعانى الثلاثة فى «أغويتنى» . والصراط المستقيم هو الطريق الموصّل إلى الجنة . و «صِراطَكَ» منصــوب على حذف « على » أو « فى » من قوله « صراطك المستقيم » ؛ كما حكى سيبويه « ضرب زيد الظهر والبطن » . وأنشد :

لَدْنٌ بهزّ الكَفّ يَعْسِل مَتْنُه * فيه كما عَسَل الطريقَ الثَّعْلَبُ[(٢)]

---

(١) آية ٣٤ سورة هود . (٢) البيت لساعدة بن جؤية . يريد فى الطريق . وصف فى البيت رُمْحًا لَيِّن الهز؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سيره . والعسل العسلان (بالتحريك) : سير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . (عن شرح الشواهد) .

ومن أحسن ما قيـل فى تأويل ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى لأصدّنّهم عن الحق، وأرغبهم فى الدنيا، وأشككهم فى الآخرة . وهذا غاية فى الضلالة . كما قال : « وَلَأُضِلَّنَّهُم »(١) حسب ما تقدّم . وروى سفيان عن منصور عن الحكم بن عُيينة قال : « مِن بين أيديهم » من دنياهم . « ومِن خلفِهم » من آخرتهم . « وعن أيمانِهم » يعنى حسناتهم . « وعن شمـائِلِهم » يعنى سيئاتهم . قال النحاس : وهذا قول حَسَن . وشرحه : أن معنى « ثم لآتينهـم مِن بينِ أيديهم » من دنياهم، حتى يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة « ومِن خلفِهم » من آخرتهم حتى يكذّبوا بها . « وعن أيمانِهم » من حسناتهم وأمور دينهم . ويدلّ على هذا قوله : « إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ »(٢) . « وعَن شمَائِلِهم » يعنى سيئاتهم؛ أى يتبعون الشهوات؛ لأنه يزيّنها لهم . ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أى موحّدين طائعين مظهرين الشكر .

قوله تعالى : قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أى من الجنّة . ﴿ مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ « مَذْءُومًا » أى مذموما . والذَّأْم : العيب ، بتخفيف الميم(٣) . قال ابن زيد : مذءوما ومذموما سواء ؛ يقال : ذَأَمْته وذَمَمْته وذِمْته بمعنًى واحد . وقرأ الأعمش « مَذُوما » . والمعنى واحد؛ إلا أنه خفّف الهمزة . وقال مجاهد : المذءوم المنفيّ . والمعنيان متقاربان . والمدحور : المبعد المطرود؛ عن مجاهد وغيره . وأصله الدفع . ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ اللام لام القَسَم ، والجواب « لأملان جهنم » . وقيـل : « لَمَنْ تَبِعك » لام توكيد . « لأملان » لام قَسَم . والدليل على هذا أنه يجوز فى غير القراءة حذفُ اللام الأولى، ولا يجوز

(١) راجع ج ٥ ص ٣٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٣٨ سورة الصافات .
(٣) لا حاجة لهذا القيد ؛ فان الهمز كاف للفرق بينه وبين الذم .

حذف الثانية . وفى الكلام معنى الشرط والمجازاة ؛ أى من تبعك عذّبته . ولو قلت : من تبعك أعذبه لم يجز؛ إلا أن تريد لأعذبه . وقرأ عاصم من رواية أبى بكر بن عيّاش « لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ » بكسر اللام . وأنكره بعض النحويين . قال النحاس : وتقديره — والله أعلم — من أجل من تبعك . كما يقال : أكرمت فلانا لك . وقد يكون المعنى : الدّحر لمن تبعك . ومعنى ﴿ مِنكم أجمعين ﴾ أى منكم ومن بنى آدم ؛ لأن ذكرهم قد جرى إذ قال : « ولقد خلقناكم » خاطب ولد آدم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قال لآدم بعد إخراج إبليس من موضعه من السماء : اسكن أنت وحوّاء الجنة . وقد تقدّم فى البقرة[1] معنى الإسكان، فأغنى عن إعادته. وقد تقدّم معنى « ولا تقربا هذه الشجرة »[2] هناك . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ أى إليهما . قيل : داخل الجنة بإدخال الحية إياه . وقيل : من خارج، بالسّلطنة التى جعلت له . وقد مضى هذا فى « البقرة » . والوسوسة : الصوت الخفىّ . والوسوسة : حديث النفس ؛ يقال : وَسْوَست إليه نفسُه وَسوسة ووِسواسا (بكسر الواو) . والوَسواس (بالفتح) : اسم، مثل الزّلزال . ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحلى وَسْواس . قال الأعشى :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) جـ ١ ص ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة

تَسْمعُ لِلحَلْى وَسْواسًا إذا ٱنصرفت * كما ٱستعان بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِل (١)

والوَسواس: اسم الشيطان؛ قال الله تعالى: «مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ». ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا﴾ أى ليظهر لهما. واللام لام العاقبة؛ كما قال: «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا» (٢). وقيل: لام كَىْ. و﴿وُورِىَ﴾ أى سُتر وغطّى عنهما. ويجوز فى غير القرآن أُورِى، مثل أُقِّتَتْ. ﴿مِنْ سَوْءاتِهِمَا﴾ وسُمِّى الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه. ودلّ هذا على قبح كشفها فقيل: إنما بدت سوءاتهما لهما لا لغيرهما؛ كان عليهما نُور (٣) لا ترى عوراتهما فزال النُّور. وقيل: ثوب؛ فتهافت (٤)، والله أعلم. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ «أن» فى موضع نصب، بمعنى إلا كراهية أن، فحذف المضاف. هذا قول البصريين. والكوفيون يقولون: لئلا تكونا. وقيل: أى إلّا ألّا تكونا ملكين تعلمان الخير والشر. وقيل: طمِع آدم فى الخلود؛ لأنه علم أن الملائكة لا يموتون إلى يوم القيامة. قال النحاس: وبيّن الله عز وجل فضل الملائكة على جميع الخلق فى غير موضع من القرآن؛ فمنها هذا، وهو «إلّا أن تكونا ملكين». ومنه «وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ» (٥). ومنه «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» (٦). وقال الحسن: فضل الله الملائكة بالصور والأجنحة والكرامة. وقال غيره: فضلهم جل وعز بالطاعة وترك المعصية؛ فلهذا يقع التفضيل فى كل شىء. وقال ٱبن فُورَك: لا حجة فى هـذه الآية؛ لأنه يحتمل أن يريد ملكين فى ألا يكون لهما شهـوة فى طعام. وٱختيار ابن عباس والزجاج وكثير من العلماء تفضيل المؤمنين على الملائكة؛ وقد مضى فى «البقـرة» (٧). وقال الكَلْبِىّ: فُضِّلوا على الخلائق كلهم، غير طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت؛ لأنهم من جملة رسل الله. وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله. وقرأ ابن عباس «مَلِكين» بكسر اللام، وهى قراءة يحيى بن كثير والضحاك. وأنكر أبو عمرو

(١) العشرق (كزبرج): شجر قدر ذراع له حب صغار إذا جف صوّت بمرّ الريح.

(٢) آية ٨ سورة القصص. (٣) النور (بفتح النون): الزهر. (٤) تهافت: تساقط.

(٥) آية ٣١ سورة هود. (٦) آية ١٧٢ سورة النساء. (٧) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة.

ابن العلاء كسر اللام وقال : لم يكن قبل آدم صلى الله عليه وسلم مَلِك فيصيرا مَلِكين . قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة إسكان اللام، ولا يجوز على القراءة الأولى لخفة الفتحة. قال ابن عباس : أتاهما الملعون من جهة المُلْك ؛ ولهذا قال « هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى »(١) . وزعم ابو عبيد أن احتجاج يحيى بن كَثير بقوله « وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى » حجة بيّنة، ولكن الناس على تركها فلهذا تركناها . قال النحاس : «إلّا أن تكونا مَلِكين» قراءة شاذة . وقد أنكر على أبي عبيد هذا الكلام، وجعل من الخطأ الفاحش . وهل يجوز أن يتوهم آدم عليه السلام أنه يصل إلى أكثر من ملك الجنة ؛ وهى غاية الطالبين . و إنما معنى « وملك لا يبلى » المقام فى ملك الجنة، والخلود فيه .

قوله تعالى : وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أى حلف لهما . يقال : أقسم إقساما ؛ أى حلف . قال الشاعر :

وقاسمها بالله جَهْداً لأنتم * ألذُّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورها(٢)

وجاء « فاعلت » من واحد . وهو يردّ على من قال : إن المفاعلة لا تكون إلا من آثنين . وقد تقدّم فى « المائدة » . ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ليس « لكما » داخلا فى الصلة . والتقدير: إني ناصح لكما لمن الناصحين؛ قاله هشام النّحوِى . وقد تقدّم مثله فى « البقرة » . ومعنى الكلام : آتبعانى أرشدكما ؛ ذكره قتادة .

قوله تعالى : فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا

(١) آية ١٢٠ سورة طه . (٢) السلوى : العسل . وشار العسل : اجتناه وأخذه من موضعه .

ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ أوقعهما فى الهلاك . قال ابن عباس : غرهما باليمين . وكان يظن آدمُ أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا ، فغرّهما بوسوسته وقَسَمه لهما . وقال قَتادة : حلف بالله لهما حتى خدعهما . وقد يُخْدَع المؤمن بالله . كان بعض العلماء يقول : من خادعنا بالله خَدَعنا . وفى الحديث عنه عليه السلام : " المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خَبٌّ لئيم "(١) . وأنشد نَفْطَويه :

إن الكريم إذا تشاء خدعتَه * وترى اللئيم مُجرَّبا لا يُخْدَعُ

﴿ فَدَلَّاهُمَا ﴾ يقال : أدْلَى دَلْوَه أرسلها . ودَلّاها : أخرجها . وقيل « دَلّاهما » أى دَلَّلهما ؛ من الدّالة وهى الجُرأة . أى جرأهما على المعصية فخرجا من الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ أى أكلا منها . وقد مضى فى « البقرة » الخلاف فى هذه الشجرة(٢)، وكيف أكل آدم منها . ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أكلت حوّاء أوّلا فلم يصبها شىء، فلما أكل آدم حلّت العقوبة؛ لأن النَّهىَ ورد عليهما كما تقدم فى «البقرة»(٢) . قال ابن عباس : تقلّص النّور الذى كان لباسهما فصار أظفارا فى الأيدى والأرجل .

الثانيــة — ﴿ وَطَفِقَا ﴾ ويجوز إسكان الفاء . وحكى الأخفش طَفَق يطْفِق ؛ مثل ضرب يضرب . يقال : طفِق، أى أخذ فى الفعل . ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ قرأ الحسن بكسر الخاء

(١) الغر : الذى لا يفطن للشر . والخب (بكسر الخاء وفتحها) : ضد الغر، وهو الخداع المفسد .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

وشدّ الصاد . والأصل « يختصفان » فأدغم ، وكسر الخاء لألتقاء الساكنين . وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء ، ألقيا حركة التاء عليها . ويجوز « يُخَصِّفان » بضم الياء ، من خصّف يخصف . وقرأ الزُّهرِى « يُخْصِفان » من أخصف . وكلاهما منقول بالهمزة أو التضعيف . والمعنى : يقطعان الورق ويُلزقانه ليستترا به ، ومنه خَصَف النعل . والخَصَّاف الذى يرقعها . والمِخصف المِثقب . قال ابن عباس : هو ورق التين . ويروى أن آدم عليه السلام لما بدت سوأته وظهرت عورته طاف على أشجار الجنة يَسُلّ منها ورقة يغطّى بها عورته ؛ فزجرته أشجار الجنة حتى رَحِمته شجرة التّين فأعطته ورقة . فـ« طفقا » يعنى آدم وحواء « يخصفان عليهما من ورق الجنة » فكافأ الله التين بأن سوّى ظاهره وباطنه فى الحلاوة والمنفعة ، وأعطاه ثمرتين فى عام واحد مرتين .

الثالثة — وفى الآية دليل على قبح كشف العورة ، وأن الله أوجب عليهما الستر ؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها ، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك فى الجنة ؛ كما قيل لهما : « وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ » . وقد حكى صاحب البيان عن الشافعى أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك ؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه الستر بها ؛ كما فعل آدم فى الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى قال لهما ألم أنهكما . ﴿ قَالَا رَبَّنَا ﴾ نداء مضاف . والأصل يا ربنا . وقيل إن فى حذف « يا » معنى التعظيم . فاعترفا بالخطيئة وتابا . وقد مضى فى « البقرة »(١) . ومعنى قوله : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ تقدّم أيضا(٢) إلى آخر الآية .

قوله تعالى : قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

الضمائر كلها للأرض . ولم يذكر الواو فى « قال » ، ولو ذكرها لجاز أيضا . وهو كقولك : قال زيد لعمرو ، وكذا قال له كذا .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ١ ص ٣١٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ قال كثير من العلمـاء : هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة ؛ لأنه قال : « يُوارِى سوءاتِكم » . وقال قوم : إنه ليس فيها دليل على ما ذكروه ، بل فيها دلالة على الإنعام فقط .

قلت : القول الأوّل أصح . ومن جملة الإنعام سَتْرُ العورة ؛ فبيّن أنه جعـل لذرّيته ما يستررون به عوراتهـم ، ودلّ على الأمر بالتستر . ولا خلاف بين العلمـاء في وجوب ستر العـورة عن أعين الناس . واختلفوا في العورة ما هي ؟ فقال ابن أبي ذِئب : هي من الرجل الفرج نفسه، القُبُـلُ والدُّبُر دون غيرهمـا . وهو قول داود وأهل الظـاهر وابن أبي عَبْـلة (١) والطبرى؛ لقوله تعالى : « لِبَاسًا يُوارِى سوءاتِكم » ، « بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا » ، « لِيُرِيَهُمَا سَوْءاتِهِما » . وفي البخاريّ عن أنس : « فأجرى (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم في زِقاق خَيْبَر — وفيه — ثم حَسَر الإزار عن (٣) فَخِذه حتى إني أنظر إلى بياض فَخِذ نبيّ الله صلى الله عليـه وسلم » . وقال مالك : السُّرة ليست بعورة، وأكره للرجل أن يكشف فَخِذه بحضرة زوجته. وقال أبو حنيفة : الركبة عورة. وهو قول عطاء . وقال الشافعيّ: ليست السُّرة ولا الركبتان من العورة على الصحيح . وحكى أبو حامد الترمذى أن للشافعيّ في السّرة قولين . وحجة مالك قولُه عليه السلام لجَرْهَد : "غَطّ فَخِذك فإن الفَخِذ عورة" . خرّجه البخاريّ تعليقا وقال: حديث أنس أَسْنَدُ (٤)، وحديث جَرْهَد أحوطُ حتى يُخْرَج من اختلافهـم . وحديث جَرْهَد هذا

(١) في بعض نسخ الأصل : « وابن علية » . (٢) أى أجرى دابته .

(٣) أى عند سوق مركوبه ليتمكن من ذلك . راجع شرح القسطلاني (كتاب الصلاة — باب ما يذكر في الفخذ) .

(٤) أى أقوى وأحسن سندا من الحديث السابق .

يدل على خلاف ما قال أبو حنيفة . وروى أن أبا هريرة قَبَّلَ سُرَّةَ الحسن بن علي وقال : أُقَبِّلُ منك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُ منك . فلو كانت السُّرَّةُ عورة ما قبّلها أبو هريرة، ولا مكّنه الحسن منها. وأما المرأة الحرة فعورة كلّها إلا الوجه والكفين. على هذا أكثر أهل العلم . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن يتزوج امرأة فلْينظر إلى وجهها وكَفّيها " . ولأن ذلك واجب كَشْفُهُ في الإحرام . وقال أبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام : كلّ شيء من المرأة عورة حتى ظُفرها. وروى عن أحمد بن حنبل نحوُه . وأما أمّ الولد فقال الأثرم : سمعته — يعني أحمد بن حنبل — يُسأل عن أم الولد كيف تصلّي ؟ فقال : تُغَطِّي رأسها وقدميها ؛ لأنها لا تُباع ، وتُصلّي كما تصلي الحرة . وأما الأَمَة فالعورة منها ما تحت ثديها، ولها أن تُبدى رأسها ومِعْصَمَيها . وقيل : حكمها حكم الرجل . وقيل : يُكره لها كشف رأسها وصدرها . وكان عمر رضي الله عنه يضرب الإماء على تغطيتهن رءوسهن ويقول: لا تشبّهن بالحرائر. وقال أَصْبَغ : إن انكشف فخذها أعادت الصلاة في الوقت . وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: كل شيء من الأمة عورة حتى ظفرها. وهذا خارج عن أقوال الفقهاء؛ لأجماعهم على أن المرأة الحرة لها أن تصلي المكتوبة ويداها ووجهها مكشوف ذلك كله ، تباشر الأرض به . فالأَمَة أَوْلَى ، وأُمّ الولد أغلظ حالا من الأمة . والصبيّ الصغير لا حُرمة لعورته . فإذا بلغت الجارية إلى حَدّ تأخذها العين وتُشْتَهى سترت عورتها . وحجة أبي بكر بن عبد الرحمن قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ » (1) . وحديثُ أم سلمة أنها سئلت : ما ذا تصلي فيه المرأة من الثياب؟ فقالت : تصلي في الدِّرع والخمار السابغ الذي يُغَيِّب ظهور قدميها . وقد روى مرفوعا . والذين أوقفوه على أم سلمة أكثر وأحفظ ؛ منهم مالك وابن إسحاق وغيرهما . قال أبو داود : ورفعه عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن محمد بن زيد عن أمه عن أم سلمة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(1) آية ٥٩ سورة الأحزاب .

قال أبو عمر : عبد الرحمن هـذا ضعيف عندهم ؛ إلا أنه قد خرّج البخارى بعض حديثه . والإجماع فى هذا الباب أقوى من الخبر .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ يعنى المطر الذى ينبت القطن والكتّان ، ويقيم البهائم الذى منها الأصواف والأوبار والأشعار ؛ فهو مجاز مثل « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »(١) على ما يأتى . وقيل : هذا الإنزال إنزالُ شىء من اللباس مع آدم وحوّاء ، ليكون مثالا لغـيره . وقال سعيد بن جُبير . « أنزلنا عليكم » خلقنا لكم ؛ كقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانيةَ أزواج » أى خلق . على ما يأتى . وقيل : ألهمنا كم كيفية صنعته .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَرِيشًا ﴾ قرأ أبو عبـد الرحمن والحسن وعاصم من رواية المفضّـل الضبّى ، وأبو عمرو من رواية الحسـين بن على الجُعْفِى « ورياشا » . ولم يحكه أبو عبيد إلا عن الحسن ، ولم يفسر معناه . وهو جمع ريش . وهو ما كان من المـال واللباس . وقال الفرّاء : ريش ورياش ، كما يقال : لِبس ولباس . وريش الطائر ما ستره الله به . وقيل : هو الخصب ورفاهيةُ العيش . والذى عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة . وأنشد سيبويه :

فَرِيشِى منكمُ وهَواىَ معكم * وإن كانت زيارتكم لِماما

وحكى أبو حاتم عن أبى عبيدة : وهبْت له دابة بريشها ؛ أى بكسوتها وما عليها من اللباس .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ بيّن أن التقوى خير لباس ؛ كما قال :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التُّقَى * تقلب عُريانًا وإن كان كاسيا
وخيرُ لبـاس المرء طاعةُ ربّه * ولا خيرَ فيمن كان لله عاصيا

وروى قاسم بن مالك عن عوف عن معبـد الجُهَنِى قال : « لباس التقـوى » الحيـاء . وقال ابن عباس : « لبـاس التقوى » هـو العمل الصالح . وعنـه أيضا السَّمْت الحَسن

(١) آية ٦ سورة الزمر .

فى الوجه . وقيل ما علمه عز وجل وهدى به . وقيل : « لباس التقوى » لبس الصوف والخشن من الثياب، مما يُتواضع به لله تعالى و يتعبّد له خيرٌ من غيره. وقال زيد بن علىّ : « لباس التقوى » الدّرع والمِغفر ، والساعدان ، والساقان ، يُتّقى بهما فى الحرب . وقال عروة بن الزبير : هو الخشية لله . وقيل : هو آستشعار تقوى الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه .

قلت : وهو الصحيح ، و إليه يرجع قول ابن عباس وعروة . وقول زيد بن علىّ حَسَنٌ ، فإنه حضٌّ على الجهاد . وقال ابن زيد : هو ستر العورة . وهذا فيه تكرار ؛ إذ قال أوّلا : « قد أنزلنا عليكم لباسا يُوارى سوءاتكم » . ومن قال إنه لبس الخشن من الثياب فإنه أقرب إلى التواضع وترك الرعونات فدَعْوَى ؛ فقد كان الفضلاء من العلماء يلبَسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى ، على ما يأتى مبيَّنا إن شاء الله تعالى . وقرأ أهل المدينة والكسائىّ « ولباسَ » بالنصب عطفا على « لباسا » الأول . وقيل : انتصب بفعل مضمر ؛ أى وأنزلنا لباس التقوى . والباقون بالرفع على الابتداء . و « ذلك » نعته و « خير » خبر الابتداء . والمعنى : ولباس التقوى المشار إليه ، الذى علمتموه ، خيرٌ لكم من لبس الثياب التى تُوارى سوءاتكم ، ومن الرّياش الذى أنزلنا إليكم ؛ فآلبَسوه . وقيل : آرتفع بإضمار هو ؛ أى وهو لباس التقوى ؛ أى وهو ستر العورة . وعليه يُخرّج قول ابن زيد . وقيل : المعنى ولباس التقوى هو خير ؛ فـ « ذلك » بمعنى هو . والإعراب الأوّل أحسنُ ما قيل فيه . وقرأ الأعمش « ولباس التقوى خير » ولم يقرأ « ذلك » . وهو خلاف المصحف . ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ ﴾ أى مما يدلّ على أن له خالقا . و « ذلك » رفع على الصفة ، أو على البدل ، أو عطف بيان .

قوله تعالى : يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ﴾ أى لا يصرفنكم الشيطان عن الدّين ؛ كما فتن أبويكم بالإخراج من الجنة . « أب » للذكر، و « أبة » للؤنث . فعلى هذا قيل : أبوان . ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ فى موضع نصب على الحال . ويكون مستأنفا فيوقف على « من الجنة » . ﴿ لِيُرِيَهُمَا ﴾ نصب بلام كى . ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ الأصل « يرءاكم » ثم خففت الهمزة . « وقبيله » عطف على المضمر وهو توكيد ليحسُن العطف ؛ كقوله : « اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » . وهذا يدلّ على أنه يقبُح رأيتك وعمرو ، وأن المضمر كالمظهر . وفى هذا أيضا دليل على وجوب ستر العورة؛ لقوله : « يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » . قال الاخرون: إنما فيه التحذير من زوال النعمة؛ كما نزل بآدم عليه السلام . هذا أن لو ثبت أن شرع آدم يلزمنا، والأمر بخلاف ذلك .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ « قبيله » جنوده . قال مجاهد : يعنى الجن والشياطين. ابن زيد : «قبيله» نسله . وقيل : جيله . ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ قال بعض العلماء : فى هذا دليل على أن الجن لا يُرَون؛ لقوله : « من حيث لاترونهم » . وقيل : جائز أن يُرَوْا ؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى . قال النحاس : « من حيث لا ترونهم » يدلّ على أن الجن لا يُرَون إلا فى وقت نبىّ ؛ ليكون ذلك دلالة على نبوّته ؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقا لا يُرَون فيه ، وإنما يرون إذا نُقلوا عن صورهم . وذلك من المعجزات التى لا تكون إلا فى وقت الأنبياء صلوات الله عليهم . قال القُشَيْرِىّ : أجرى الله العادة بأن بنى آدم لا يَرون الشياطين اليوم . وفى الخبر " إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم " . وقال تعالى : « الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ » . وقال عليه السلام : " إن للمَلَك لَمّة وللشيطان لَمّة — أى بالقلب — فأما لَمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق وأما لَمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق " . وقد تقدم

فى « البقرة »(١) . وقد جاء فى رؤيتهم أخبار صحيحة . وقد خرّج البخاري عن أبى هريرة قال: وكّلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان ، وذكر قصة طويلة ، ذكر فيها أنه أخذ الجنّىّ الذى كان يأخذ التمر ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : " ما فعل أسيرك البارحة " . وقد تقدّم فى « البقرة »(٢) . وفى صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة " — فى العفريت الذى تفلّت(٣) عليه . وسيأتى فى « ص » إن(٤) شاء الله تعالى . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى زيادة فى عقوبتهم وسوّينا بينهم فى الذهاب عن الحق .

قوله تعالى : وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)

الفاحشة هنا فى قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عُراة . وقال الحسن : هى الشرك والكفر . واحتجّوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم ، وبأن الله أمرهم بها . قال الحسن : « والله أمرنا بها » قالوا : لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ بيّن أنهم متحكّمون ، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادّعوا . وقد مضى ذمّ التقليد وذمّ كثير من جهالاتهم . وهذا منها .

قوله تعالى : قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) أى تعرض بغتة . (٤) فى قوله تعالى : « قال رب اغفرلى وهب لى ... » آية ٣٥

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ قال ابن عباس : لا إله إلا الله . وقيل : القسط العدل ؛ أي أمر بالعدل فأطيعوه . ففي الكلام حذف . ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي توجّهوا إليه في كل صلاة إلى القِبْلة . ﴿ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أي في أي مسجد كنتم . ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي وحدّوه ولا تشركوا به . ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ نظيره « ولقد جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[1] وقد تقدم . والكاف في موضع نصب؛ أي تعودون كما بدأكم؛ أي كما خلقكم أوّل مرّة يعيدكم . وقال الزجاج : هو متعلّق بما قبله . أي ومنها تخرجون كما بدأكم تعودون . ﴿ فَرِيقًا هَدَى ﴾ « فريقاً » نصب على الحال من المضمر في « تعودون » أي تعودون فريقين : سعداء، وأشقياء . يقوّى هذا قراءةُ أُبَيّ « تعودون فريقين فريقًا هدى وفريقًا حقّ عليهم الضلالةُ » ؛ عن الكسائي . وقال كعب القُرَظِيّ في قوله تعالى : « فَرِيقًا هَدَى وفريقًا حقّ عليهم الضلالةُ » قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيّره إلى الضلالة، وإن عمِل عمل أهل السعادة . ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيّره إلى الهدى ، وإن عمِل بأعمال الضلالة . ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة ، وعمِل بعمل السعادة مع الملائكة، ثم ردّه الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه . قال : « وكان مِن الكافرين » .

وفي هذا ردٌّ واضح على القدرية ومَن تابعهم . وقيل : « فريقًا » نصب بـ « هَدَى » ، « وفريقا » الثاني نصب بإضمار فعل؛ أي وأضلّ فريقا . وأنشد سيبويه :

أصبحتُ لا أحمل السلاحَ ولا ⁕ أملِك رأسَ البعير إنْ نَفَرا
والذئبُ أخشاه إن مررتُ به ⁕ وَحْدِى وأخشى الرياحَ والمطرا[2]

قال الفرّاء : ولو كان مرفوعا لجاز . ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وقرأ عيسى ابن عمر « أنهم » بفتح الهمزة، بمعنى لأنهم .

قوله تعالى : يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

(١) آية ٩٤ سورة الأنعام ص ٤٢ من هذا الجزء .

(٢) البيتان للربيع بن ضبع الفزاري . وصف فيهما انتهاء شبيبته وذهاب قوته .

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي آدَمَ ﴾ هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عُريانا ؛ فإنه عامٌّ فى كل مسجد للصلاة . لأن العبرة للعموم لا للسّبب . ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف ؛ لأن الطواف لا يكون إلا فى مسجد واحد . والذى يعم كلّ مسجد هو الصلاة . وهذا قول مَن خفى عليه مقاصد الشريعة . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عُريانة وتقول : من يُعيرُنى تِطْوَافًا؟ تجعله على فرجها . وتقول :

اليوم يَبْدُو بعضُه أو كلّه * وما بدا منـه فلا أُحِلّه

فنزلت هذه الآية « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » . التِّطواف (بكسر التاء) . وهذه المرأة هى ضُباعة بنت عامر بن قُرْط ؛ قاله القاضى عياض . وفى صحيح مسلم أيضا عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت العرب تطوف بالبيت عُراةً إلا الحُمْس ، والحُمْسُ قريش وما ولدت ، كانوا يطوفون بالبيت عُراةً إلا أن تُعطيهم الحُمْس ثيابا فيُعْطَى الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ . وكانت الحمس لا يخرجون من المُزْدلِفة ، وكان الناس كلّهم يقفون بعرفات (1) . فى غير مسلم ويقولون : نحن أهل الحَرَم ، فلا ينبغى لأحد من العرب أن يطوف إلا فى ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضَنا إلا من طعامنا . فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يُعيره ثوبا ولا يَسارٌ يستأجره به كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عُريانا ، وإما أن يطوف فى ثيابه ؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد . وكان ذلك الثوب يُسَمّى اللَّقَى ؛ قال قائل من العرب :

كَفَى حَزَنًا كَرِّى عليه كأنه * لَقًى بين أيدى الطائفين حَرِيمُ

فكانوا على تلك الجهالة والبدعة والضلالة حتى بعث الله نبيه محمدا عليه السلام ؛ فأنزل الله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ » . وأذّن مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا لا يطوف بالبيت عُريانٌ .

---

(1) فى صحيح مسلم : « يبلغون عرفات » .

قلت : ومن قال بأن المراد الصلاة فزينتها النعال؛ لمـا رواه كُرْز بن وَبْرَة عن عطاء عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم : "خذوا زينة الصلاة" قيل : وما زينة الصلاة ؟ قال : "البسوا نعالكم فصَلّوا فيها" .

الثانيــة — دلّت الآية على وجوب ستر العورة كما تقدّم . وذهب جمهور أهل العلم إلى أنهـا فرض من فروض الصلاة . وقال الأَبْهَرِيّ هى فرض فى الجملة ، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس فى الصلاة وغيرها . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام للمِسْـوَر بن مَخْرَمة : "ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة" . أخرجه مسلم . وذهب إسماعيل القاضى إلى أن ســتر العورة من سنن الصلاة ، واحتج بأنه لو كان فرضا فى الصـلاة لكان العريان لا يجوز له أن يصلى ؛ لأن كل شىء من فروض الصـلاة يجب الإتيان به مع القدرة عليه ، أو بدله مع عدمه ، أو تسقط الصلاة جملةً ، وليس كذلك . قال ابن العربىّ : وإذا قلنا أن ستر العورة فرض فى الصلاة فسقط ثوبُ إمامٍ فانكشف دُبُره وهو راكع فرفع رأســه فغطّاه اجزأه ؛ قاله ابن القـاسم . وقال سُحْنون : وكلّ من نظر إليه من المأمومين أعاد . ورُوى عن سُحْنون أيضا أنه يعيد ويعيدون؛ لأن ستر العورة شرط من شروط الصلاة ، فإذا ظهرت بطلت الصلاة . أصله الطهارة . قال القاضى ابن العربىّ : أما من قال إن صلاتهم لاتبطل فإنهم لم يفقدوا شرطا . وأما من قال إن أخذه مكانه صحت صلاته وتبطل صـلاة من نظر إليه فصحيفة يجب مَحْوها ولا يجوز الاشتغال بها . وفى البخارىّ والنّسائِىّ عن عمرو بن سَلَمة قال : لمـا رجع قومى من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا قال : "ليؤمّكم أكثركم قراءة للقرآن" . قال : فدعونى فعلّمونى الركوع والسجود ؛ فكنت أصـلّى بهم وكانت علىّ بردة مفتوقة، وكانوا يقولون لأبى : ألَا تُغَطِّى عنا آسْتَ آبنك . لفظ النّسائىّ . وثبت عن سهل ابن سعد قال: لقد كانت الرجال عاقدى أُزُرِهم فى أعناقهم من ضيق الأُزُر خلف رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى الصـلاة كأمثال الصبيان ؛ فقال قائل : يا معشر النساء ، لا ترفعن رءوسكن حتى ترفع الرجال . أخرجه البُخارِىّ والنّسائِىّ وأبو داود .

الثالثة — واختلفوا إذا رأى عورة نفسه؛ فقال الشافعيّ : إذا كان الثوب ضيقا يَزُرّه أو يخلّله بشيء لئلّا يتجافى القميص فتُرى من الجيب العورة، فإن لم يفعل ورأى عورة نفسه أعاد الصلاة . وهو قول أحمد . ورخّص مالك في الصلاة في القميص محلول الأزرار ليس عليه سراويل . وهو قول أبي حنيفة وأبي ثَوْر . وكان سالم يُصلّي محلولَ الأزرار . وقال داود الطائي : إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به . وحكى معناه الأَثْرَم عن أحمد . فإن كان إماماً فلا يصلّي إلا بردائه؛ لأنه من الزينة . وقيل : من الزينة الصلاة في النعلين؛ رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يصحّ . وقيل : زينة الصلاة رفع الأيدي في الركوع وفي الرفع منه . قال أبو عمر : لكل شيء زينة وزينةُ الصلاة التكبير ورفع الأيدي . وقال عمر رضي الله عنه : إذا وَسّع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم، جَمَع رجل عليه ثيابه، صلّى في إزار[(1)] ورداء، في إزار وقميص، في إزار وقَباء، في سراويلَ ورداء، في سراويلَ وقميص، في سراويلَ وقَباء[(2)] — وأحسبه قال : في تُبّان[(3)] وقميص — في تُبّان ورداء، في تُبّان وقَباء . رواه البُخارِيّ والدّارَقُطْنِيّ .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ قال ابن عباس : أحل الله في هذه الآية الأكلَ والشربَ ما لم يكن سَرَفاً أو مَخِيلة[(4)] . فأمّا ما تدعو الحاجة إليه، وهو ماسَدّ الجَوْعة وسكّن الظمأ، فمندوب إليه عقلا وشرعا، لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس؛ ولذلك ورد الشرع بالنّهي عن الوصال، لأنه يُضعف الجسد ويُميت النفس، ويضعف عن العبادة، وذلك يمنع منه الشرعُ ويدفعه العقل . وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد؛ لأن ماحَرَمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثرُ ثوابا وأعظمُ أجرا . وقد ٱختُلف في الزائد على قدر الحاجة على قولين : فقيل حرام، وقيل مكروه . قال ابن العربيّ : وهو الصحيح؛ فإن قَدْر الشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان

(١) الإزار : ما يؤتزر به في النصف الأسفل . والرداء للنصف الأعلى .
(٢) القباء (بالفتح) : ثوب يلبس فوق الثياب . وقيل : يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه .
(٣) التبان (بضم المثناة وتشديد الموحدة) سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط .
(٤) المخيلة : الكبر .

والأسنان والطّعام . ثم قيـل : فى قلة الأكل منافع كثيرة؛ منها أن يكون الرجل أصحّ جسما وأجود حفظا وأزكى فهما وأقـل نوما وأخفّ نفسا . وفى كثرة الأكل كَظّ المعـدة ونتن التّخمة، ويتولد منه الأمراض المختلفة، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه القليل الأكل . وقال بعض الحكماء : أكبر الدواء تقدير الغذاء . وقد بيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بيانا شافيا يُغنِى عن كلام الأطباء فقال: " ما ملأ آدميٌّ وعاء شرا من بطن بحسْب ابن آدم لُقيمات يقمن صُلْبه فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه " . خرّجه الترمذيّ من حديث المِقْدام بن مَعْدِى كرِب. قال علماؤنا: لو سمع بُقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة . ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نَصْرانِىّ حاذق فقال لعلىّ بن الحسين: ليس فى كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. فقال له علىّ: قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا . فقال له : ما هى؟ قال قوله عز وجل « وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ». فقال النّصرانِىّ: ولا يُؤثر عن رسولكم شيء من الطب . فقال علىّ : جمع رسول الله صـلى الله عليه وسلم الطبّ فى ألفاظ يسيرة . قال: ما هى؟ قال: " المَعدة بيت الأدواء والحِمْيَةُ رأسُ كلّ دواء وأعط كلّ جسد ما عوّدته " . فقال النّصرانِىّ : ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طِباً .

قلت : ويقال إن معالجة المريض نصفان : نصفٌ دواء، ونصفٌ حِمية . فإن اجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصحّ، وإلّا فالحِمية به أولى؛ إذ لا ينفع دواء مع ترك الحِمية . ولقد تنفع الحِمْيةُ مع ترك الدواء . ولقد قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : " أصل كلّ دواء الحِمية " . والمعنىّ بهـا — والله اعلم — أنهـا تغنى عن كلّ دواء، ولذلك يقال : إن الهند جُلّ معالجتهم الحِمية، يمتنع المريض عن الأكل والشرب والكلام عدّة أيام فيبرأ ويصحّ .

الخامسـة — روى مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول : " الكافر يأكل فى سبعة أمعاء والمؤمن يأكل فى معًى واحد " . وهذا منه صلى الله

عليه وسلم حضّ على التقلّل من الدنيا والزهد فيها والقناعة بالبُلْغة . وقد كانت العرب تُمتدح بقلة الأكل وتُذَم بكثرته . كما قال قائلهم :

تكفيه فِلذة كِبْد إن ألَمّ بها * من الشِّواء ويُرْوِى شُرْبَهُ الغُمَر (١)

وقالت أمّ زرع فى ابن أبى زرع : ويُشبعه ذراعُ الجَفْرَة (٢). وقال حاتم الطائى يذم بكثرة الأكل:

فإنك إن أعطيتَ بطنك سؤْلَهُ * وفرجَك نالا منتهى الذم أجمعَا (٣)

وقال الخَطّابى : معنى قوله : " المؤمنُ يأكل فى مِعًى واحد " أنه يتناول دون شبعه، ويؤثر على نفسه ويُبقى من زاده لغيره ؛ فيقنعه ما أكل . والتأويل الأوّل أوْلى والله أعلم . وقيل فى قوله عليه السلام : " الكافر يأكل فى سبعة أمعاء " ليس على عمومه ؛ لأن المشاهدة تدفعه ، فإنه قد يوجد كافر أقلّ أكلًا من مؤمن، ويُسلم الكافرُ فلا يَقِلّ أكله ولا يزيد . وقيل: هو إشارة إلى معيّن . ضاف النبيّ صلى الله عليه وسلم ضيفٌ كافر يقال : إنه الجَهْجَاه الغِفارىّ . وقيل : ثُمَامة بن اثال . وقيل : نَضْلة بن عمرو الغِفارىّ . وقيل بَصْرة بن أبى بصرة الغِفارىّ . فشرب حِلابَ سبع شياه ، ثم إنه أصبح فأسلم فشرب حِلاب شاةٍ فلم يَستتمّه ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ذلك ". فكأنه قال: هذا الكافر . والله أعلم . وقيل : إن القلب لما تنوّر بنور التوحيد نظر إلى الطعام بعين التقوى على الطاعة، فأخذ منه قدر الحاجة ، وحين كان مُظلِما بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تَثْلِط (٤) .

واختلف فى هذه الأمعاء ، هل هى حقيقة أم لا ؛ فقيل : حقيقة، ولها أسماء معروفة عند أهل العلم بالطب والتشريح . وقيل : هى كنايات عن أسباب سبعة يأكل بها النَّهِم : يأكل للحاجة والخبر (٥) والشم والنظر واللمس والذوق ويزيد استغنامًا (٦) . قيل : المعنى أن يأكل أكل من له سبعة أمعاء . والمؤمن بخفة أكله يأكل أكل من ليس له إلا مِعًى واحد ؛

(١) البيت لأعشى باهلة ، يرثى أخاه المنتشر بن وهب الباهلى . ورواية اللسان : يكفيه حزة فلذ ... والمعنى واحد . والغمر (بضم الأول وفتح الثانى) : القدح الصغير . (٢) الجفرة : الصغيرة من ولد المعزى إذا تمّ أربعة أشهر . (٣) الذى فى ديوانه : * وانك مهما تعط ... * الخ .

(٤) الثلط : الرقيق من الروث. (٥) يريد شهوة الأذن. (٦) كذا فى الأصول . ولعلها : «استمتاعا» .

فيشارك الكافر بجزء من أجزاء أكله، ويزيد الكافر عليه بسبعة أمثاله. والمِعَى في هذا الحديث هو المعدة.

السادسـة — وإذا تقرّر هـذا فآعلم أنه يُستحب للإنسان غسلُ اليـد قبل الطعام وبعده؛ لقوله عليه السلام: "الوضوء قبل الطعام وبعده بركة". وكذا في التوراة. رواه زاذان عن سلمان. وكان مالك يكره غسل اليد النظيفة. والآقتداء بالحديث أَوْلى. ولا يأكل طعاما حتى يعرف أحارا هو أم باردا؛ فإنه إن كان حارًّا فقد يتأذى. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أَبْرِدُوا بالطعام فإن الحارّ غيرُ ذي بركة" حديث صحيح. وقد تقدم في « البقرة ». ولا يشمّه فإن ذلك من عمل البهائم، بل إن آشتهاه أكله، وإن كرهه تركه، ويصغّر اللقمة ويكثر مضغها لئلا يُعَـدّ شَرِهًا. ويُسمّي الله تعـالى في أوّله ويحمـده في آخره. ولا ينبغي أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل؛ لأن في رفع الصـوت مَنْعًا لهم من الأكل. وآداب الأكل كثيرة، هـذه جملة منهـا. وسيأتي بعضها في سورة « هود »(١) إن شاء الله تعـالى. وللشراب أيضا آداب معروفة، تركنا ذكرها لشهرتها. وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله".

السابعـة — قوله تعـالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي في كثرة الأكل. وعنه يكون كثرة الشُّرب. وذلك يثقل المعدة، ويثبّط الإنسان عن خدمة ربّه، والأخذِ بحظه من نوافل الخير. فإن تعدّى ذلك إلى ما فوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه حُرِم عليه، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه. روى أسـد بن موسى من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيـه قال: أكلت ثريدا بلحم سمين، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أتجشّى(٢)؛ فقال: "آكفف عليك من جُشائك أبا جحيفة فإن أكثر الناس شِبَعًا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة". فما أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدّى لا يتعشّى، وإذا تعشّى لا يتغدّى.

(١) في قوله تعالى: « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ... » آية ٦٩

(٢) التجشؤ: تنفس المعدة عند الامتلاء.

قلت : وقد يكون هذا معنى قوله عليه السلام : "المؤمن يأكل فى مِعًى واحد" أى التام الإيمان؛ لأن من حَسُن إسلامه وكَمُل إيمانه كأبى جُحيفة تفكّر فيما يصير إليه من أمر الموت وما بعده؛ فيمنعه الخوف والإشفاق من تلك الأهوال من استيفاء شهواته . والله أعلم . وقال ابن زيد : معنى «ولا تسرفوا» لا تأكلوا حراما . وقيل : "مِن السَّرَف أن تأكل كل ما اشتهيت" . رواه أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، خرّجه ابن ماجه فى سننه . وقيل : من الإسراف الأكل بعد الشبع . وكل ذلك محظور . وقال لقمان لابنه : يا بُنَيّ لا تأكل شبعا فوق شبع ، فإنك إن تنبذه للكلب خير من أن تأكله . وسأل سَمُرَةُ بن جُنْدب عن ابنه ما فعل؟ قالوا : بَشِم البارحة . قال : بَشِم! فقالوا نعم . قال : أما إنه لو مات ما صليتُ عليه . وقيل : إن العرب فى الجاهلية كانوا لا يأكلون دَسِمًا فى أيام حجّهم، ويكتفون باليسير من الطعام، ويطوفون عُراة . فقيل لهم : «خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» أى لا تسرفوا فى تحريم ما لم يحرّم عليكم .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ بيّن أنهم حرّموا من تلقاء أنفسهم ما لم يُحرّمه الله عليهم . والزينة هنا الملبس الحسن، إذا قدر عليه صاحبه . وقيل : جمع الثياب؛ كما روى عن عمر : إذا وسّع الله عليكم فأوسعوا . وقد تقدّم . وروى عن علىّ بن الحسين ابن علىّ بن أبى طالب شيخ مالك رضى الله عنهم أنه كان يلبس كساء خَزٍّ بخمسين دينارا ، يلبَسه فى الشتاء، فإذا كان الصيف تصدّق به، أو باعه فتصدّق بثمنه، وكان يلبَس فى الصيف

ثوبين من مَتاع مِصْر مُمَشَّقَيْن(١) ويقول : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

الثانيــة — وإذا كان هذا فقد دلّت الآية على لباس الرفيع من الثياب، والتجمّل بها فى الجُمَع والأعياد، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان . قال أبو العاليـة : كان المسلمون إذا تزاوروا تجمّلوا . وفى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلّة سِيرَاء(٢) تباع عند باب المسجد ، فقال : يارسول الله، لو اشتريتَها ليوم الجمعة وللوفود إذا قدِموا عليك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما يلبس هذا من لا خلاق له فى الآخرة " . فما أنكر عليه ذكْرَ التجمُّل ، وإنما أنكر عليه كونها سِيرَاء . وقد اشترى تميم الدّارِى حلّة بألف درهم كان يصلّى فيها . وكان مالك بن دِينار يلبس الثياب العدنيةَ الجياد . وكان ثوب أحمد بن حنبل يُشتَرى بنحو الدينار . أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتّان والصوف من الثياب . ويقول : ولباس التّقوى ذلك خير، هيهات ! أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى، لا والله ! بل هم أهل التقوى وأولو المعرفة والنُّهى، وغيرهم أهل دعوى، وقلوبُهم خالية من التقوى . قال خالد بن شَوْذب : شهدت الحسن وأتاه فرقد، فأخذ الحسن بكسائه فمدّه إليه وقال : يافريقد، يآبن أمّ فريقد، إن البِرّليس فى هــذا الكساء، إنمـا البِرّما وَقَر فى الصدر وصدّقه العمل . ودخل أبو محمد آبن أخى معروف الكَرْخىّ على أبى الحسن بن يَسار(٣) وعليه جُبّة صوف ، فقال له أبو الحسن : ياأبا محمد ، صوّفت قلبك أو جسمك ؟ صوّف قلبك وآلبس القُوهِىّ على القُوهِىّ(٤) . وقال رجل للشّبلىّ : قد ورد جماعة من أصحابك وهم فى الجامع ، فمضى فرأى عليهم المرقّعات والفُوَط ، فأنشأ يقول :

أمّا الخيام فإنهـا كخيامهـم * وأرى نساء الحىّ غير نسائه

---

(١) ثوب ممشق وممشوق : مصبوغ بالمشق ، وهو صبغ أحمر . (٢) سيراء (بسين مهملة مكسورة ثم ياء مثناة مفتوحة ثم ألف ممدودة) : نوع من البرود فيه خطوط صفر، أو يخالطه حرير. وضبطوا « الحلة » هنا بالتنوين ، على أن سيراء صفة . وبغير تنوين على الاضافة . وهما وجهان مشهوران .

(٣) فى بعض نسخ الأصل : « بشار » . (٤) القوهى : ضرب من الثياب بيض فارسى .

قال أبو الفرج الجَوْزِيّ رحمه الله : وأنا أكره لُبس الفُوَط والمرقّعات لأربعة أوجه : أحدها — أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورةً. والثاني — أنه يتضمن آدعاء الفقر، وقد أمِر الإنسان أن يُظهر أثر نعم الله عليه . والثالث — إظهار التزهد، وقد أمِرنا بستره . والرابع — أنه تشبه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة، ومن تشبّه بقوم فهو منهم . وقال الطبريّ : ولقد أخطأ من آثر لباس الشَّعر والصُّوف على لباس القطن والكَتّان مع وجود السبيل إليه من حلّه . ومَن أكل البقول والعدس وآختاره على خبز البر . ومَن ترك أكل اللحم خوفًا من عارض شهوة النساء . وسئل بشر بن الحارث عن لبس الصوف، فشقّ عليه وتبيّنت الكراهة في وجهه ثم قال : لبس الخَزّ والمُعَصْفَر أحبّ إليّ من لبس الصوف في الأمصار . وقال أبو الفرج : وقد كان السلف يلبَسون الثياب المتوسطة، لا المترفّعة ولا الدُّون، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيّر الأجود عندهم قبيحا . وأما اللباس الذى يُزْرِى بصاحبه فإنه يتضمنّ إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس؛ وكل ذلك مكروه مَنْهِيّ عنه . فإن قال قائل : تجويد اللباس هوى النفس وقد أمِرنا بمجاهدتها، وتزّين للخَلْق وقد أمِرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخَلْق . فالجواب أنه ليس كل ماتهواه النفس يُذَم، ولا كلّ ما يُتزيّن به للناس يُكره، وإنما يُنْهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه أو على وجه الرياء في باب الدِّين . فإن الإنسان يحب أن يُرى جميلا، وذلك حظٌّ للنفس لا يلام فيه . ولهذا يسرّح شعره وينظر في المرآة ويسوّى عمامته ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج . وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يُذَم . وقد روى مَكْحول عن عائشة قالت : كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب، فخرج يريدهم، وفى الدار رَكْوة فيها ماء؛ فجعل ينظر في الماء ويسوّى لحيته وشعره . فقلت : يارسول الله، وأنت تفعل هذا؟ قال : " نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فلْيُهيِّئ من نفسه فإن الله جميل يحبّ الجمال " . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذَرّة من كِبر " .

فقال رجل : إن الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا ونعله حَسَنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْط الناس " . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة، تدلّ كلها على النظافة وحسن الهيئة . وقد روى محمد بن سعد أخبرنا الفضل بن دُكين قال حدّثنا مَنْدَل عن ثَور عن خالد بن مَعْدان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسافر بالمشط والمرآة والدّهن والسّواك والكحل . وعن ابن جُرَيج : مشط عاج يمتشط به . قال ابن سعد : وأخبرنا قَبيصة بن عقبة قال حدّثنا سفيان عن ربيع بن صَبيح عن يزيد الرّقاشيّ عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ويسرّح لحيته بالماء . أخبرنا يزيد ابن هارون حدّثنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال : كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْحُلَة يكتحل بها عند النوم ثلاثا فى كل عين .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ الطيبات آسم عامٌّ لما طاب كَسْباً وطَعْمًا . قال ابن عباس وقتادة : يعنى بالطيبات من الرزق ما حَرّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب والوصائل والحوامِى . وقيل : هى كل مستلَذّ من الطعام . وقد آختلف فى ترك الطيبات والإعراض عن اللذات؛ فقال قوم : ليس ذلك من القُربات، والفعل والترك يستوى فى المباحات . وقال آخرون : ليس قُرْبة فى ذاته ، وإنما هو سبيل إلى الزهد فى الدنيا، وقصرِ الأمل فيها ، وترك التكلّف لأجلها؛ وذلك مندوب إليه، والمندوب قُرْبة . وقال آخرون : ونقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : لو شئنا لآتخذنا صِلاءً وصَلائقَ وصِنَاباً، ولكنى سمعت الله تعالى يذمّ أقواما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا »[1]. ويروى « صرائق» بالراء، وهما جميعا الجرادق[2] . والصلائق (باللام) : ما يصلق من اللحوم والبقول . والصِّلاء (بكسر الصاد والمد) : الشواء . والصِّناب : الخردل بالزبيب . وفرق آخرون بين حضور ذلك كلّه بكُلْفة و بغير كلفة . قال أبو الحسن على بن المفضل المقدسى شيخ أشياخنا : وهو الصحيح إن شاء الله عز وجل ؛ فإنه لم ينقل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه آمتنع من

(١) آية ٢٠ سورة الأحقاف . (٢) الجرادق : جمع جردقة ، وهى الرغيف .

طعام لأجل طيبه قطُّ، بل كان يأكل الحلوى والعسل والبِطّيخ والرُّطب، وإنما يكره التكلف لما فيه من التشاغل بشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة . والله تعالى أعلم .

قلت : وقد كره بعض الصوفية أكلَ الطيبات، واحتج بقول عمر رضى الله عنه : إياكم واللحمَ فإن له ضراوة كضَراوة الخمر (١) . والجواب أن هذا من عمر قولٌ خرج على من خشى منه إيثار التنعم فى الدنيا، والمداومة على الشهوات، وشفاء النفس من اللذات، ونسيان الآخرة والإقبال على الدنيا؛ ولذلك كان يكتب عمر إلى عماله : إياكم والتّنعّمَ وزِىَّ أهل العجم، واْخشَوْشِنُوا . ولم يُرد رضى الله عنه تحريمَ شىءٍ أحلّه الله، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه . وقولُ الله عز وجل أولى ما امتُثل واعتُمد عليه . قال الله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » . وقال عليه السلام : " سيّد إدام الدنيا والآخرة اللحم ". وقد روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الطِّبّيخ بالرطب ويقول : " يكسر حَرُّ هذا بَرْدَ هذا وبَرْدُ هذا حَرَّ هذا " . والطِّبِّيخ لغة فى البِطّيخ، وهو من المقلوب . وقد مضى فى « المائدة (٢) » الردُّ على من آثر أكل الخشن من الطعام . وهذه الآية تردّ عليه وغيرها . والحمد لله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى بحقها من توحيد الله تعالى والتصديق له؛ فإن الله يُنعم ويرزق، فإن وحّده المنعَم عليه وصدّقه فقد قام بحق النعمة، وإن كفر فقد أمكن الشيطان من نفسه . وفى صحيح الحديث " لا أحدَ أصبرُ على أذى من الله يعافيهم ويرزقهم وهم يدعون له الصاحبة والولد ". وتمّ الكلام على «الحياة الدنيا» . ثم قال « خالصةٌ » بالرفع، وهى قراءة ابن عباس ونافع . ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى يُخلص الله الطيبات فى الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شىء كما كان لهم فى الدنيا من الاشتراك فيها . ومجاز الآية : قل هى للذين آمنوا مشتركة فى الدنيا مع غيرهم، وهى للمؤمنين

---

(١) أى أن له عادة ينزع إليها كعادة الخمر .

(٢) فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا ... » آية ٨٧

خالصة يوم القيامة. فخالصة مستأنف على خبر مبتدأ مضمر. وهذا قول ابن عباس والضحاك والحسن وقَتادة والسُّدِّى وابن جُريج وابن زيد . وقيل : المعنى أن هذه الطيبات الموجودات فى الدنيا هى خالصة يوم القيامة للؤمنين فى الدنيا؛ وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون. فقوله « فى الحياة الدنيا » متعلق « بآمنوا ». وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جُبير . وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع؛ لأن الكلام قد تمّ دونَه. ولا يجوز الوقف على هذه القراءة على « الدنيا »؛ لأن ما بعده متعلق بقوله « للذين آمنوا » حالا منه؛ بتقدير قل هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها لهم يوم القيامة؛ قاله أبو علىّ . وخبر الابتداء « للذين آمنوا » . والعامل فى الحال ما فى اللام من معنى الفعل فى قوله « للذين » . واختار سيبويه النّصب لتقدم الظرف . ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ ﴾ أى كالذى فصّلت لكم الحلال والحرام أفصل لكم ما تحتاجون إليه .

قوله تعالى : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

فيـه مسألة واحدة :

قال الكلبى : لمـا لبس المسلمون الثيـاب وطافوا بالبيت عيّرهم المشركون؛ فنزلت هذه الآية . والفواحش: الأعمال المُفْرِطة فى القبح، ما ظهر منها وما بطن . روى رَوح بن عُبادة عن زكريا بن إسحاق عن ابن أبى نَجيح عن مجاهـد قال : « ما ظهر منهـا » نكاح الأمهات فى الجاهلية . « وما بطن » الزنى . وقال قَتادة : سرّها وعلانيتها . وهذا فيه نظر؛ فإنه ذكر الإثم والبغى فدلّ أن المراد بالفواحش بعضهـا ، وإذا كان كذلك فالظـاهر من الفواحش الزنى . والله أعلم . ﴿ والإثمَ ﴾ قال الحسن : الخمر . قال الشاعر :

شربتُ الإثمَ حتى ضلّ عقلى * كذاك الإثم تذهب بالعقول

وقال آخر :

نشرب الإثم بالصُّواع جهارًا * وترى المسك بيننا مُستعارا (١)

﴿ وَٱلْبَغْىَ ﴾ الظلم وتجاوز الحدّ فيه . وقد تقدّم . وقال ثعلب : البغى أن يقع الرجل فى الرجل فيتكلّم فيه ، ويبغى عليه بغير الحق ؛ إلا أن ينتصر منه بحق . وأخرج الإثم والبغى من الفواحش وهما منه لعظمهما وفحشهما ؛ فنصّ على ذكرهما تأكيدا لأمرهما وقصدًا للزجر عنهما . وكذا « وأن تشركوا » « وأن تقولوا » وهما فى موضع نصب عطفا على ما قبلُ . وقد أنكر جماعة أن يكون الإثم بمعنى الخمر . قال الفَرّاء : الإثم ما دون الحدّ والاستطالة على الناس . قال النحاس : فأما أن يكون الإثم الخمر فلا يعرف ذلك ، وحقيقة الإثم أنه جميع المعاصى ؛ كما قال الشاعر :

إنى وجدتُ الأمرَ أرشَدُه * تقوى الإله وشرُّه الإثمُ

قلت : وأنكره ابن العربىّ أيضا وقال : « ولا حجة فى البيت (٢) ؛ لأنه لو قال : شربت الذنب أو شربت الوزر لكان كذلك ، ولم يوجب قوله أن يكون الذنب والوزر اسما من أسماء الخمر كذلك الإثم . والذى أوجب التكلم بمثل هذا الجهلُ باللغة وبطريق الأدلة فى المعانى » .

قلت : وقد ذكرناه عن الحسن . وقال الجوهرىّ فى الصّحاح : وقد يسمى الخمر إثما ، وأنشد :

* شربت الإثم ... ... * البيت

وأنشده الهَرَوِىّ فى غريبيه ، على أن الخمر الإثم . فلا يبعد أن يكون الإثم يقع على جميع المعاصى وعلى الخمر أيضا لغة ، فلا تناقض . والبغى : التجاوز فى الظلم ، وقيل الفساد .

قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

فيه مسألة واحدة :

(١) الصواع : إناء يشرب فيه . ومستعار : متداول . أى نتعاوره بأيدينا نشتمه .

(٢) يريد به البيت الأول .

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أى وقت مؤقت . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أى الوقت المعلوم عند الله عز وجل . وقرأ ابن سيرين « جاء آجالهم » بالجمع . ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ساعة ولا أقلّ من ساعة؛ إلا أن الساعة خُصّت بالذكر لأنها أقلّ أسماء الأوقات، وهى ظرف زمان . ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فدلّ بهذا على أن المقتول إنما يُقتل بأجله . وأجل الموت هو وقت الموت ؛ كما أن أجل الدّين هو وقت حلوله . وكلُّ شيء وُقّت به شيء فهو أجل له . وأجل الإنسان هو الوقت الذى يعلم الله أنه يموت الحيّ فيـه لا محالة . وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنه، لا من حيث إنه ليس مقدوراً تأخيرُه . وقال كثير من المعتزلة إلا من شذّ منهم : إن المقتول مات بغير أجله الذى ضُرب له ، وأنه لو لم يقتل لحيِيَ . وهذا غلط، لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره له، بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عنـد الضرب له . فإن قيل : فإن مات بأجله فلِمَ تقتلون ضاربه وتقتصّون منه . قيل له : نقتله لتعدّيه وتصرّفه فيما ليس له أن يتصرف فيه، لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله . ولو تُرِكَ الناسُ والتعدّى من غير قصاص لأدّى ذلك إلى الفساد ودمار العباد . وهذا واضح .

قوله تعـالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَآ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ شرط . ودخلت النـون توكيدا لدخول « ما » . وقيل : ما صلة، أى إن يأتكم . أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب . والقصص إتباع الحديث بعضه بعضا . ﴿ آيَاتِى ﴾ أى فرائضى وأحكامى .

﴿ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ ﴾ شرط ، وما بعده جوابه ، وهو جواب الأول . أى وأصلح منكم ما بينى وبينه . ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ، ولا يلحقهم رُعْب ولا فزع . وقيل : قد يلحقهم أهوال يوم القيامة، ولكن

مالهم الأمن . وقيل : جواب « إمّا يأتينكم » ما دلّ عليه الكلام ، أى فأطيعوهم فمن اتقى وأصلح . والقولُ الأوّل قول الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ المعنى أىّ ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته . ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى ما كُتب لهم من رزق وعمر وعمل ؛ عن ابن زيد . ابن جُبير : من شقاء وسعادة . ابن عباس : من خير وشر . الحسن وأبو صالح : من العذاب بقدر كفرهم . واختيار الطبرى أن يكون المعنى : ما كُتب لهم ، أى ما قُدّر لهم من خير وشر ورزق وعمل وأجل ؛ على ماتقدّم عن ابن زيد وابن عباس وابن جبير . قال : ألا ترى أنه أتبع ذلك بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يعنى رسل ملك الموت . وقيل : «الكتاب» هنا القرآن ؛ لان عذاب الكفار مذكور فيه . وقيل : «الكتاب» اللوح المحفوظ . ذكر الحسن بن علىّ الحُلْوانىّ قال : أملى عَلَىّ علِىُّ بن المَدِينى قال : سألت عبد الرحمن بن مَهْدِىّ عن القَدَر فقال لى : كل شىء بقَدَر ، والطاعة والمعصية بقَدَر ، وقد أعظم الفِرية من قال : إن المعاصى ليست بقَدَر . قال علىّ وقال لى عبد الرحمن بن مَهْدى : العلم والقدر والكتاب سواء . ثم عَرضت كلام عبد الرحمن بن مَهدىّ على يحيى بن سعيد فقال : لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير . وروى يحيى ابن مَعين حدّثنا مَرْوان الفَزارىّ حدّثنا إسماعيل بن سميع عن بُكير الطّويل عن مجاهد عن ابن عباس «أولئك ينالُهم نَصيبُهم من الكتاب» قال : قوم يعملون أعمالا لا بدّ لهم من أن يعملوها . و « حتى » ليست غاية ، بل هى ابتداء خبر عنهم . قال الخليل وسيبويه : حتى و إمّا وألا

لا يُمَلْنَ لأنهن حروف ففرق بينها و بين الأسماء نحو حُبْلَى وسَكْرَى. قال الزجاج: تكتب حتى بالياء لأنها أشبهت سكرى، ولو كتبت ألَا بالياء لأشبهت إلى. ولم تكتب إمّا باليـاء لأنها «إن» ضُمّت إليها ما. ﴿ قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ سؤال تو بيخ. ومعنى « تدعون » تعبدون. ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى بطلوا وذهبوا. قيل: يكون هذا فى الآخرة. ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ أى أقروا بالكفر على أنفسهم.

قوله تعالى: قَالَ ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِى النَّارِ ﴾ أى مع أمم؛ فـ«في» بمعنى مع. وهذا لا يمتنع؛ لأن قولك: زيد فى القوم، أى مع القوم. وقيل: هى على بابها، أى ادخلوا فى جملتهم. والقائل قيل: هو الله عز وجل، أى قال الله ٱدخلوا. وقيل: هو مالك خازنُ النـار. ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ أى التى سبقتها إلى النار، وهى أختها فى الدِّين والمِلّة. ﴿ حَتَّى إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أى اجتمعوا. وقـرأ الأعمش «تداركوا» وهو الأصـل، ثم وقع الإدغام فاْحتِيج إلى ألف الوصل. وحكاها المَهْدَوِى عن ابن مسـعود. النحاس: وقرأ ابن مسـعود «حتى إذا ٱدْرَكوا» أى أدرك بعضهم بعضا. وعِصْمةُ عن ابى عمرو «حتى إذا ادّاركوا» بإثبات الألف على الجمع بين السا كنين. وحُكى: هذان عبدا الله. وله ثلثـا المـال. وعـن أبى عمـرو أيضا: «إذا إدّاركوا» بقطع ألف

الوصل؛ فكأنه سكت على «إذا» للتذكر، فلما طال سكوته قطع ألف الوصل كالمبتدئ بها . وقد جاء فى الشعر قطع ألف الوصل نحو قوله :

يا نفسُ صبرًا كلُّ حىّ لاقى * وكل إثنين إلى ٱفتراق

وعن مجاهد وحُميد بن قيس «حتى إذ ادركوا» بحذف ألف «إذا» لالتقاء الساكنين، وحذف الألف التى بعد الدال . «جميعا» نصب على الحال . ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أى آخرهم دخولا وهم الأتباع لأولاهم وهم القادة . ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ فاللام فى «لِأُولَاهم» لام أجل؛ لأنهم لم يخاطبوا أولاهم ولكن قالوا فى حق أُولاهم ربّنا هؤلاء أضلونا . والضِّعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات . وعن ابن مسعود أن الضعف هاهنا الأفاعى والحيات . ونظير هذه الآية «رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا»(١) . وهناك يأتى ذكر الضِّعف بأشبع من هذا وما يترتب عليه من الأحكام، إن شاء الله تعالى . ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أى للتابع والمتبوع . ﴿وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على قراءة من قرأ بالياء؛ أى لا يعلم كلّ فريق ما بالفريق الآخر، إذ لو علم بعض من فى النار أن عذاب أحد فوق عذابه لكان نوعَ سلوة له . وقيل : المعنى «ولكن لا تعلمون» بالتاء ، أى ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما يجدون من العذاب . ويجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يأهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب . ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أى قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

(١) آية ٦٨ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ أى لأرواحهم . جاءت بذلك أخبار صحاح ذكرناها فى كتاب (التـذكرة) . منها حديث البراء بن عازِب ، وفيـه فى قبض روح الكافر قال : و يخرج منها ريح كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيَصْعدون بها فلا يمرّون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة . فيقولون فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يُسَمَّى بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون فلا يفتح لهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ » الآية . وقيل : لا تفتح لهم أبواب السماء إذا دعوا ؛ قاله مجاهد والنَّخَعِيّ . وقيل : المعنى لا تفتح لهم أبواب الجنة؛ لأن الجنة فى السماء.ودلّ على ذلك قولُه « وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ » والجمل لا يلج فلا يدخلونها أَلْبَتَّةَ . وهذا دليل قطعِيّ لا يجوز العفو عنهم . وعلى هـذا أجمع المسلمون الذين لا يجوز عليهم الخطأ أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر لهم ولا لأحد منهـم . قال القاضى أبو بكر بن الطيّب : فإن قال قائل كيف يكون هذا إجماعا من الأمة ، وقد زعم قوم من المتكلمين بأن مُقلِّدة اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ليسوا فى النار. قيل له : هؤلاء قوم أنكروا أن يكون المقلِّد كافرا لشبهة دخلت عليهم، ولم يزعموا أن المقلِّد كافر وأنه مع ذلك ليس فى النار، والعلم بأن المقلِّد كافر أو غير كافر طريقـه النظر دون التوقيف والخبر . وقرأ حمزة والكسائيّ « لا يُفَتَّح » باليـاء مضمومة على تذكير الجمع . وقرأ الباقون بالتاء على تأنيث الجماعة ؛ كما قال : « مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ »(١) فأنّث . ولمـا كان التأنيث فى الأبواب غير حقيقى جاز تذكير الجمع . وهى قراءة ابن عبـاس باليـاء . وخفّف أبو عمرو وحمزة والكسائيّ ، على معنى أن التخفيف يكون للقليل والكثير، والتشديد للتكثير والتكرير مرة بعـد مرة لا غير . والتشديد هنا أَوْلَى لأنه على الكثير أدلّ . والجَمَلُ من الإبل . قال الفَرّاء : الجمل زوج الناقة . وكذا قال عبد الله بن مسعود لمـا سئل عن الجمل فقال : هو زوج الناقة ؛ كأنه استجهل من سأله عمـا يعرفه الناس جميعا . والجمع

---

(١) آية ٥٠ سورة ص .

جمال وأجمال وجمالات وجمائل . وإنما يُسَمَّى جملا إذا أربع . وفى قراءة عبد الله « حتى يلج الجمل الأصفر فى سم الخياط » . ذكره أبو بكر الأنبارى حدّثنا أبى حدّثنا نصر بن داود حدّثنا أبو عبيد حدّثنا حجاج عن ابن جُريج عن ابن كثير عن مجاهد قال فى قراءة عبد الله ... ؛ فذكره . وقرأ ابن عباس « الجُمَّل » بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو حبل السفينة الذى يقال له القَلْس، وهو حبال مجموعة ، جمع جُملة ؛ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقيل : الحبل الغليظ من القُنَّب . وقيل : الحبل الذى يصعد به فى النخل . وروى عنه أيضا وعن سعيد بن جُبير : « الجُمَل » بضم الجيم وتخفيف الميم هو القلس أيضا والحبل ، على ما ذكر آنفا . وروى عنه أيضا « الجُمُل » بضمتين جمع جَمَل ، كأسَد وأسُد ، والجُمْل مثل أُسد وأسْد . وعن أبى السَّمّال « الجَمْل » بفتح الجيم وسكون الميم ، تخفيف « جَمَل » . وسَمّ الخياط : ثقب الإبرة ؛ عن ابن عباس وغيره . وكلّ ثقب لطيف فى البدن يُسمَّى سَمّا وسُمّا وجمعه سُموم . وجمع السّمّ القاتل سِمَام . وقرأ ابن سِيرين « فى سُمّ » بضم السين . والخياط : ما يخاط به ؛ يقال : خِياط ومِخْيَط ؛ مثلُ إزار ومئزر وقناع ومِقنع . والمِهاد : الفراش . وغَواش جمع غاشية ، أى نيران تغشاهم . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ يعنى الكفار . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾

كلام معترض ، أى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ومعنى ﴿ لا نُكَلِّفُ نفسًا إلَّا وُسْعَهَا ﴾ أى أنه لم يكلِّف أحدا من نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه ، دون ما لا تناله يده ، ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل الفعل ؛ قاله ابن الطيب . نظيره « لا يُكلِّف الله نفسًا إلا ما آتاها »[1] .

---

(١) آية ٧ سورة الطلاق .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ذكر الله عز وجل فيما يُنعم به على أهل الجنة نَزْعَ الغِلّ من صدورهم . والنَّزْع : الاستخراج . والغِلّ : الحقد الكامن فى الصدر . والجمع غِلال . أى أذهبنا فى الجنة ما كان فى قلوبهم من الغِل فى الدنيا . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "الغِل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين" . ورُوِى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : « وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ » . وقيل : نزع الغل فى الجنة ألا يحسُد بعضهم بعضا فى تفاضل منازلهم . وقد قيل : إن ذلك يكون عن شراب الجنة ، ولهذا قال : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا »[1] أى يطهر الأوضار من الصدور ، على ما يأتى بيانه فى سورة « الإنسان » و « الزمر »[2] إن شاء الله تعالى . ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا ﴾ الثواب ، بأن أرشدنا وخلق لنا الهداية . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ قراءة ابن عامر بإسقاط الواو . والباقون بإثباتها . ﴿ لِنَهْتَدِىَ ﴾ لام كَىْ . ﴿ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فى موضع رفع . ﴿ وَنُودُوا ﴾ أصله . نوديوا « أن » فى موضع نصب مخففة من الثقيلة ؛ أى بأنه تِلْكُمُ الْجَنَّةُ . وقد تكون تفسيرا لما نودوا به ؛ لأن النداء قول ؛ فلا يكون لها موضع . أى قيل لهم : « تلكم الجنة » لأنهم وُعدوا بها فى الدنيا ؛ أى قيل لهم : هذه تلكم الجنة التى وعدتم بها ، أو يقال لهم ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بُعْد . وقيل : « تلكم » بمعنى هذه . ومعنى ﴿ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله . كما قال : « ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ »[3] .

(١) آية ٢١ سورة الإنسان . (٢) فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم ... » آية ٧٣
(٣) آية ٧٠ سورة النساء .

وقال : « فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل »(١) . وفى صحيح مسلم : "لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة" قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : "ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل" .

وفى غير الصحيح : ليس من كافر ولا مؤمن إلا وله فى الجنة والنار منزل ؛ فإذا دخل أهل الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ رُفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها ، فقيل لهم : هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله . ثم يقال : يأهل الجنة رِثُوهم بما كنتم تعملون ؛ فتقتسم بين أهل الجنة منازلهم .

قلت : وفى صحيح مسلم : "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا" . فهذا أيضا ميراث ؛ نَعّم بفضله من شاء وعذّب بعدله من شاء . وبالجملة فالجنة ومنازلها لا تُنال إلا برحمته ؛ فإذا دخلوها بأعمالهم فقد ورثوها برحمته ، ودخلوها برحمته ؛ إذ أعمالهم رحمة منه لهم وتفضّل عليهم . وقرئ «أورثتموها» من غير إدغام . وقرئ بإدغام التاء فى الثاء .

قوله تعالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ هذا سؤال تقريع وتعيير . ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا ﴾ مثل «أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ» أى أنه قد وجدنا . وقيل : هو نفس النداء . ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ أى نادى وصوّت ؛ يعنى من الملائكة . «بينهم» ظرف ؛ كما تقول : أعلَم وسطهم . وقرأ الأعمش والكسائى « نَعِم » بكسر العين . وتجوز على هذه اللغة بإسكان العين . قال مكّى : من قال « نَعِم » بكسر العين أراد أن يفرق بين « نَعَم » التى هى جواب وبين « نعم » التى هى اسم للإبل والبقر والغنم . وقد روى عن عمر إنكار « نَعَم » بفتح العين فى الجواب ، وقال : قل

(١) آية ١٧٥ سورة النساء .

نَعِم . ونَعَم ونِعِم، لغتان بمعنى العِدَة والتصديق . فالعِدة إذا آستفهمت عن موجب نحو قولك أيقوم زيد، فيقول نعم . والتصديق إذا أخبرت عما وقع، تقول : قد كان كذا وكذا، فيقول نعم . فإذا آستفهمت عن منفيّ فالجواب على نحو قولك ألم أكرمك، فتقول بلى . فنعم، لجواب الاستفهام الداخل على الإيجاب كما فى هذه الآية . وبلى، لجواب الآستفهام الداخل على النفى؛ كما قال تعالى : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى» . وقرأ البَزّى وابن عامر وحمزة والكسائىّ «انّ لعنة الله » وهو الأصل . وقرأ الباقون بتخفيف « أن » ورفع اللعنة على الابتداء . فـ « أن » فى موضع نصب على القراءتين على إسقاط الخافض . ويجوز فى المخففة ألا يكون لها موضع من الإعراب، وتكون مفسّرة كما تقدّم . وحكى عن الأعمش أنه قرأ « إنّ لعنة الله » بكسر الهمزة؛ فهذا على إضمار القول كما قرأ الكوفيون « فناداه الملائكة وهو قائمٌ يُصَلِّى فى المِحْرَابِ إن الله »(١) ويُروى أن طاوسا دخل على هشام بن عبد الملك فقال له : آتق الله وآحذر يوم الأذان . فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى « فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» فصعِق هشام . فقال طاوس : هذا ذُلّ الصِّفة فكيف ذُلّ المعاينة .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ فى موضع خفض لـ«لظالمين» على النعت . ويجوز الرفع والنصب على إضمار هم أو أعنى . أى الذين كانوا يصدون فى الدنيا الناس عن الإسلام . فهو من الصدّ الذى هو المنع . أو يصدون بأنفسهم عن سبيل الله أى يعرضون . وهـذا من الصدود . ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يطلبون اعوجاجها ويذمّونها فلا يؤمنون بها . وقد مضى هذا المعنى(٢). ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ أى وكانوا بها كافرين ، فحذف وهو كثير فى الكلام .

---

(١) آية ٣٩ سورة آل عمران . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ أى بين النار والجنة — لأنه جرى ذكرهما — حاجز؛ أى سور . وهو السور الذى ذكره الله فى قوله : «فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ»[1] . ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ أى على أعراف السور؛ وهى شُرَفُه . ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك . روى عبد الله بن أبى يزيد عن ابن عباس أنه قال : الأعراف الشىء المُشْرِف . وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال : الأعراف سور له عُرْف كعُرف الدِّيك . والأعراف فى اللغة : المكان المُشْرف؛ جمع عُرْف . قال يحيى بن آدم : سألت الكسائىّ عن واحد الأعراف فسكت، فقلت : حدثنا إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال : الأعراف سور له عُرف كعرف الدّيك . فقال : نعم والله، واحده يعنى، وجماعته أعراف ، ياغلام ، هاتِ القرطاس؛ فكتبه . وهذا الكلام خرج مخرج المدح؛ كما قال فيه : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ »[2] . وقد تكلّم العلماء فى أصحاب الأعراف على عشرة أقوال : فقال عبد الله ابن مسعود وحُذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبىّ والضحاك وابن جُبير : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . قال ابن عطية : وفى مسند خيثمة بن سليمان (فى آخر الجزء الخامس عشر) حديثٌ عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تُوضع الموازين يوم القيامة فتُوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقالَ صُؤابة[3] دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقالَ صُؤابة دخل النار" . قيل : يارسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال : "أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون" . وقال مجاهد هم قوم صالحون فقهاء علماء . وقيل : هم الشهداء؛ ذكره المَهْدوِىّ . وقال القشيرىّ : وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء ، فَرَغوا من شغل أنفسهم ، وتفرّغوا لمطالعة حال الناس؛ فإذا

---

(١) آية ١٣ سورة الحديد . (٢) آية ٣٧ سورة النور . (٣) الصؤابة : بيضة القملة .

رأوا أصحاب النـار تعوّذوا بالله أن يُرَدّوا إلى النـار ، فإنّ فى قـدرة الله كلَّ شىء ، وخلاف المعلوم مقدور . فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ يرجون لهم دخولهـا . وقال شَرَحْبيل ابن سعد : هم المستشهِدون فى سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم . وذكر الطَّبَرِىّ فى ذلك حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأنه تعادل عقوقهم وٱستشهادهم . وذكر الثّعلبىّ بإسناده عن ابن عباس فى قوله عز وجل « وعلى الأعراف رِجَالٌ » قال : الأعراف موضع عالٍ على الصراط ، عليه العباس وحمزة وعلىّ بن أبى طالب وجعفر ذو الجناحين ، رضى الله عنهـم ، يعرفون محبّيهم ببياض الوجوه ومُبْغضيهم بسواد الوجوه . وحكى الزَّهْرَاوِىّ أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ، وهم فى كل أمة . وٱختار هذا القول النحاس ، وقال : وهو من أحسن ما قيل فيه ؛ فهم على السور بين الجنة والنـار . وقال الزجاج : هم قوم أنبياء . وقيـل : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهـم بالآلام والمصائب فى الدنيا وليست لهم كبائر فيُحبسون عن الجنـة لينالهم بذلك غمّ فيقع فى مقابلة صغائرهم . وتمنّى سالم مولى أبى حُذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف ؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون . وقيل : هم أولاد الزنى ؛ ذكره القُشَيرِىّ عن ابن عباس . وقيـل : هم ملائكة موكَّلون بهذا السور ، يميّزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنـار ؛ ذكره أبو مِجْلَز . فقيل له : لا يقال للملائكة رجال ؟ فقال : إنهم ذكور وليسوا بإناث ، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم ؛ كما أوقـع على الجنّ فى قوله : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ »(١) . فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفارَ بعلاماتهم ؛ فيبشّرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة وهم لم يدخلوها بعـدُ فيطمعون فيهـا . وإذا رأوا أهل النـار دَعَوْا لأنفسهم بالسلامة من العـذاب . قال ابن عطيّة : واللازم من الآية أن على الأعراف رجالا من أهل الجنة يتأخّر دخولهم ويقع لهم ما وُصف من الاعتبار فى الفريقين . و ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى بعلاماتهم ، وهى بياض الوجوه وحسنُها فى أهـل الجنة ، وسوادُها وقبحُها فى أهل النـار ، إلى غير ذلك من معـرفة حَيِّز هؤلاء وحَيِّز هؤلاء .

(١) آية ٦ سورة الجن .

قلت : فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل ، والله بحقائق الأمور عليم .
ثم قيل : الأعراف جمع عُرْف وهو كل عالٍ مرتفع؛ لأنه بظهوره أعرف من المنخفض .
قال ابن عباس : الأعراف شُرَف الصراط . وقيل : هو جبل أُحُد يوضع هناك . قال ابن عطية : وذكر الزَّهْرَاوِيّ حدّثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أُحُدًا جبل يحبنا ونُحبه وإنه يوم القيامة يمثّل بين الجنة والنار يُحبَس عليه أقوام يعرفون كلًّا بسيماهم هم إن شاء الله من أهل الجنة " . وذكر حديثا آخر عن صَفْوان بن سليم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن أُحُدًا على ركن من أركان الجنة" .

قلت : وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أُحُد جبل يحبّنا ونحبّه وإنه لعلى تُرْعة من تُرَع الجنة" .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أى نادى أصحابُ الأعراف أصحاب الجنة . ﴿ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى قالوا لهم سلام عليكم . وقيل : المعنى سلمتم من العقوبة . ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أى لم يدخل الجنة أصحابُ الأعراف ، أى لم يدخلوها بعدُ . «وَهُمْ يَطْمَعُونَ» على هذا التأويل بمعنى وهم يعلمون أنهم يدخلونها . وذلك معروف فى اللغة أن يكون طَمِعَ بمعنى عَلِم؛ ذكره النحاس . وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما ، أن المراد أصحاب الأعراف . وقال أبو مِجْلَز : هم أهل الجنة ، أى قال لهم أصحاب الأعراف سلامٌ عليكم وأهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون فى دخولها للمؤمنين المارّين على أصحاب الأعراف . والوقف على قوله « سلام عليكم » . وعلى قوله «لم يدخلوها» . ثم يبتدئ « وَهُمْ يَطْمَعُونَ » على معنى وهم يطمعون فى دخولها . ويجوز أن يكون «وهم يطمعون» حالًا ، ويكون المعنى : لم يدخلها المؤمنون المارّون على أصحاب الأعراف طامعين ، وإنما دخلوها غير طامعين فى دخولها؛ فلا يوقف على «لم يدخلوها» .

قوله تعالى : وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى جهة اللقاء وهى جهة المقابلة . ولم يأت مصدر على تِفعال غيرُ حرفين : تِلقاء وتِبيان . والباقى بالفتح ؛ مثل تَسيار وتَهمام وتَذكار . وأما الاسم بالكسر فيه فكثير ؛ مثل تِقصار وتِمثال . ﴿ قَالُوا ﴾ أى قال أصحاب الأعراف . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ سألوا الله ألّا يجعلهم معهم، وقد علموا أنه لا يجعلهم معهم . فهذا على سبيل التذلّل؛ كما يقول أهل الجنة : «رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا»(١) ويقولون : الحمد لله . على سبيل الشكر لله عز وجل . ولهم فى ذلك لذّة .

قوله تعالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى من أهل النار. ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى للدنيا واستكباركم عن الإيمان . ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ﴾ إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء ؛ كبلال وسَلْمان وخَبّاب وغيرهم . ﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ فى الدنيا . ﴿ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ ﴾ فى الآخرة . ﴿ بِرَحْمَةٍ ﴾ يوبّخونهم بذلك . وزيدوا غمًّا وحسرة بأن قالوا لهم ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ . وقرأ عكرمة «دخلوا الجنة» بغير ألف والدال مفتوحة . وقرأ طَلْحة بن مُصَرِّف «أُدْخِلوا الجنة» بكسر الخاء على أنه فعل ماض .

ودلّت الآية على أن أصحاب الأعراف ملائكةٌ وأنبياء؛ فإن قولهم ذلك إخبار عن الله تعالى . ومن جعل أصحاب الأعراف المذنبين كان آخر قولهم لأصحاب النار « وما كنتم تستكبرون » ، ويكون «أهؤلاء الذين» إلى آخر الاية من قوله تعالى لأهل النار توبيخا لهم على ما كان من قولهم فى الدنيا . ورُوى عن ابن عباس، والأوّل عن الحسن . وقيل : هو من الملائكة

(١) آية ٨ سورة التحريم .

الموكَّلين بأصحاب الأعراف ؛ فإن أهل النار يحلفون أن أصحاب الأعراف يدخلون معهم النار فتقول الملائكة لأصحاب الأعراف : «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» .

قوله تعالى : وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى ﴾ قيل : إذا صار أهل الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار فقالوا : يا رَبَّنَا إن لنا قرابات فى الجنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلّمهم . وأهل الجنة لا يعرفونهم لسواد وجوههم ، فيقولون : «أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ» . فبيّن أن ٱبن آدم لا يستغنى عن الطعام والشراب وإن كان فى العذاب . ﴿ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعنى طعام الجنة وشرابها . والإفاضة التّوسعة ؛ يقال : أفاض عليه نِعَمه .

الثانيــة — فى هـذه الآية دليل على أن سق الماء من أفضل الأعمال . وقد سئل ابن عباس : أىُّ الصدقة أفضل ؟ فقال : الماء، ألم تروْا إلى أهل النار حين ٱستغاثوا بأهل الجنة « أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ » . وروى أبو داود أن سعدًا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أىّ الصدقة أعجب إليك ؟ قال : "الماء" . وفى رواية : فحفر بئرا وقال "هـذه لأمّ سعد" . وعن أنس قال قال سعد : يارسول الله ، إن أمّ سعد كانت تحبّ الصدقة، أفينفعها أن أتصدّق عنها؟ قال : "نعم وعليك بالماء" . وفى رواية أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر سعد بن عُبادة أن يسق عنها الماء . فدلّ على أن سَقْىَ الماء من أعظم القُرُبات عند الله تعالى . وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه فعليه بسق الماء . وقد غفر الله ذنوب الذى سق الكلب، فكيف بمن سق رجلا مؤمنا مُوَحّدا وأحياه . روى

البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينا رجل يمشى بطريق اشتدّ عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا كلب يأكل الثّرى من العطش فقال لقد بلغ هـذا الكلبَ مثـلُ الذى بلغ بى فملأ خُفّه ثم أمسكه بفيه ثم رَقِىَ فسقى الكلبَ فشكر اللهُ[1] له فغفر له". قالوا : يارسول الله، وإن لنا فى البهائم لأجرا؟ قال : "فى كل ذات كبد رَطْبة أجرٌ". وعكس هـذا ما روى مسلم عن عبـد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "عُذّبت امرأة فى هِرّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش[2] الأرض". وفى حديث عائشـة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "ومَن سَقَى مسلما شَرْبة من ماء حيث يوجد المـاء فكأنما أعتق رقبة ومن سقى مسلما شربة من ماء حيث لا يوجد المـاء فكأنما أحياها". خرّجه ابن ماجه فى السُّنَن.

الثالثـة ــ وقد استدلّ بهذه الاية من قال : إن صاحب الحوض والقِرْبة أحقّ بمائه، وأن له منعه ممن أراده ؛ لأن معنى قول أهل الجنة « إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » لا حقّ لكم فيها. وقد بوّب البخاريّ رحمه الله على هذا المعنى (باب من رأى أن صاحب الحوض والقِرْبة أحق بمائه) وأدخل فى الباب عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : "والذى نفسى بيـده لأذودنّ رجالا عن حوضى كما تُذاد الغريبة من الإبل عن الحوض". قال المُهَلّب : لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمـائه، لقوله عليه السلام : "لأذودَنّ رجالا عن حوضى".

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُـمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

« الذين » فى موضع خفض نعت للكافرين. وقـد يكون رفعا ونصبا بإضمار. قيل : هو من قول أهل الجـنة. ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ ﴾ أى نتركهم فى النار. ﴿ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ

(١) أى أثنى عليه، أو قبل عمله ذلك، أو أظهر ما جازاه به عند ملائكته. (عن شرح القسطلانى).

(٢) خشاش الأرض (مثلثة الخاء) : هوامها وحشراتها.

هَذَا ﴾ أى تركوا العمل به وكذّبوا به . و « ما » مصدرية ، أى كنسيهم . ﴿ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ عطف عليه ، أى وجحدهم .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ أى بيّناه حتى يعرفه من تدبره . وقيل : «فَصَّلْنَاهُ» أنزلناه متفرقا . ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ مِنّا به ، لم يقع فيه سهو ولا غلط . ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ قال الزجاج : أى هاديا وذا رحمة ، بجعله حالا من الهاء التى فى «فصلناه» . قال الزجاج : ويجوز هدًى ورحمةٌ ، بمعنى هو هدى ورحمة . وقيل : يجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على البدل من كتاب . وقال الكسائى والفرّاء : ويجوز هدى ورحمةٍ بالخفض على النعت لكتاب . قال الفرّاء : مثل « وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ »[(1)] . ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خُصّ المؤمنون لأنهم المنتفعون به .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ بالهمز ، من آل . وأهل المدينة يخفّفون الهمزة . والنظر : الانتظار ، أى هل ينتظرون إلا ما وُعدوا به فى القرآن من العقاب والحساب . وقيل : «ينظرون» من النظر إلى يوم القيامة . فالكناية فى « تأويله » ترجع إلى الكتاب . وعاقبة الكتاب ما وعد الله فيه من البعث والحساب . وقال مجاهد : «تأويله»

---

(١) آية ٩٢ سورة الأنعام .

جزاؤه ، أى جزاء تكذيبهم بالكتاب . قال قتادة : « تأويله » عاقبته . والمعنى متقارب . ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أى تبدو عواقبه يوم القيامة . و « يوم » منصوب بيقول، أى يقول الذين نسوه من قبل يوم يأتى تأويله . ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ ﴾ استفهام فيه معنى التمنى . ﴿ فَيَشْفَعُوا ﴾ نصب لأنه جواب الاستفهام . ﴿ لَنَا أَوْ نُرَدُّ ﴾ قال الفرّاء : المعنى أوهل نردّ . ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ قال الزجاج : نردّ عطف على المعنى، أى هل يشفع لنا أحد أو نردّ . وقرأ ابن إسحاق « أو نردَّ فنعملَ » بالنصب فيهما . والمعنى إلا أن نردَّ، كما قال :

فقلتُ له لاتَبْكِ عينُك إنما * نحاول مُلْكًا أو نموت فنعذَرا

وقرأ الحسن « أو نردُّ فنعملُ » برفعهما جميعا . ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى فلم ينتفعوا بها ، وكل من لم ينتفع بنفسه فقد خسرها . وقيل : خسروا النِّعم وحظّ أنفسهم منها . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى بطل ما كانوا يقولون من أنّ مع الله إلها آخر .

قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ بيّن أنه المنفرد بقدرة الإيجاد ، فهو الذى يجب أن يُعبد . وأصل « ستّة » سدسة ، فأرادوا إدغام الدال فى السين فالتقيا عند مخرج التاء فغلبت عليها . وإن شئت قلت : أبدل من إحدى السينين تاء وأدغم فى الدال ؛ لأنك تقول فى تصغيرها : سديسة ، وفى الجمع أسداس، والجمع والتصغير يردّان الأسماء إلى أصولها . ويقولون : جاء فلان سادسا وسادتا وساتًّا؛ فمن قال : سادتا أبدل من السين تاء . واليوم : من طلوع الشمس إلى غروبها . فإن لم يكن شمس

فلا يوم؛ قاله القُشَيْرِيّ . وقال : ومعنى « فى ستة أيام » أى من أيام الآخرة، كلّ يوم ألف سنة ؛ لتفخيم خلق السموات والأرض . وقيل : من أيام الدنيا . قال مجاهد وغيره : أولها الأحد وآخرها الجمعة . وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها فى لحظة لفعل ؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كونى فتكون . ولكنه أراد أن يعلّم العباد الرفق والتثبّت فى الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئا بعد شيء . وهذا عند من يقول : خلق الملائكة قبل خلق السموات والأرض . وحكمة أخرى — خلقها فى ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا . وبيّن بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب لأن لكل شيء عنده أجلا . وهذا كقوله : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ. فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ»(١) . بعد أن قال : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا » .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ هذه مسألة الاستواء؛ وللعلماء فيها كلام وإجراء . وقد بيّنا أقوال العلماء فيها فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى) وذكرنا فيها هناك أربعة عشر قولا . والأكثر من المتقدّمين والمتأخرين أنه إذا وجب تنزيه البارى سبحانه عن الجهة والتحيز فمن ضرورة ذلك ولواحقه اللازمة عليه عند عامة العلماء المتقدّمين وقادتهم من المتأخرين تنزيهُه تبارك وتعالى عن الجهة ، فليس بجهة فوق عندهم ؛ لأنه يلزم من ذلك عندهم متى اختص بجهة أن يكون فى مكان أوحيّز، ويلزم على المكان والحيّز الحركةُ والسكونُ للتحيّز، والتغيّرُ والحدوث . هذا قول المتكلمين . وقد كان السلف الأوّل رضى الله عنهم لايقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله . ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة . وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تعلم حقيقته . قال مالك رحمه الله : الاستواء معلوم — يعنى فى اللغة — والكَيْف مجهول، والسؤال عن هذا بدعة . وكذا قالت أم سلمة رضى الله عنها . وهذا القدر كافٍ، ومن أراد

(١) آية ٣٨ سورة ق .

زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء . والاستواء في كلام العرب هو العُلُوّ والاستقرار . قال الجوهري : واستوى من اعوجاج ، واستوى على ظهر دابته؛ أي استقر. واستوى إلى السماء أي قصد . واستوى أي استولى وظهر . قال :

قد ٱسْتَوَى بِشْرٌ على العِراق * من غير سَيْف ودَمٍ مُهْراق

واستوى الرجل أي ٱنتهى شبابه . واستوى الشيء إذا اعتدل . وحكى أبو عمر بن عبد البر عن أبي عبيدة في قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » قال : علا . وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بِفَيْفَاء قَفْرَةٍ * وقد حلّق النجم اليمانيّ فاستوَى

أي علا وارتفع .

قلت : فعُلُوّ الله تعالى وٱرتفاعه عبارةٌ عن عُلُوّ مجده وصفاته وملكوته . أي ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد ، ولا معه من يكون العُلُوّ مشتركا بينه و بينه؛ لكنه العليّ بالإطلاق سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ لفظ مشترك يُطلق على أكثر من واحد . قال الجوهري وغيره : العرش سرير الملك . وفي التنزيل «نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا»[(١)] ، «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ»[(٢)] . والعرش : سقف البيت . وعَرْش القَدَم : ما نتأ في ظهرها وفيه الأصابع . وعرش السِّماك : أربعة كواكب صغار أسفل من العَوّاء[(٣)] ، يقال : إنها عَجُز الأسد . وعَرْش البئر : طَيّها بالخشب، بعد أن يُطْوَى أسفلها بالحجارة قدر قامة؛ فذلك الخشب هو العرش ، والجمع عروش . والعَرْش اسم لمكة . والعَرْش المُلْك والسُّلْطان . يقال : ثُلّ عرش فلان إذا ذهب ملكه وسلطانه وعِزّه . قال زُهير :

تدارَكتما عَبْسًا وقد ثُلّ عَرْشُها * وذُبْيانَ إذ ذَلّت بأقدامها النَّعلُ

---

(١) آية ٤٠ سورة النمل . (٢) آية ١٠٠ سورة يوسف . (٣) العواء : خمسة كواكب على خط معقف الطرف . وقال ابن سيده : العواء منزل من منازل القمر ، يمد و يقصر ، والألف في آخره للتأنيث .

وقد يُؤوّل العرش فى الآية بمعنى المُلْك ، أى ما آستوى المُلْك إلا له جلّ وعز . وهو قول حَسَن وفيه نظر، وقد بيّناه فى جملة الأقوال فى كتابنا، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ أى يجعله كالغشاء ، أى يُذهب نور النهار ليتمّ قوام الحياة فى الدنيا بمجىء الليل . فالليل للسكون ، والنهار للمعاش . وقرئ « يغشى » بالتشديد؛ ومثله فى « الرعد »[1] . وهى قراءة أبى بكر عن عاصم وحمزة والكسائىّ . وخفّف الباقون . وهما لغتان أغشى وغَشّى . وقد أجمعوا على « فَغَشّاها ماغَشّى »[2] مشددا . وأجمعوا على « فأغْشَيْنَاهم »[3] فالقراءتان متساويتان . وفى التشديد معنى التكرير والتكثير . والتغشية والإغشاء : إلباسُ الشىء الشىء . ولم يذكر فى هذه الآية دخول النهار على الليل، فآكتفى بأحدهما عن الآخر؛ مثل « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »[4] . « بِيَدِكَ الْخَيْرُ »[5] . وقرأ حُميد بن قيس « يَغْشى الليلَ النهارُ » ومعناه أن النهار يغشى الليل . ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أى يطلبه دائما من غير فتور . و « يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ » فى موضع نصب على الحال . والتقدير : آستوى على العرش مُغشيا الليل النهار . وكذا « يطلبه حثيثا » حال من الليل؛ اى يُغشى الليل النهار طالبا له . ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ليست بحال . « حَثِيثا » بدل من طالب المقدّر أو نعت له ، أو نعت لمصدر محذوف ؛ أى يطلبه طلبا سريعا . والحثّ : الإعجال والسرعة . وولّى حَثِيثا أى مسرعا . ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ قال الأخفش : هى معطوفة على السموات؛ أى وخلق الشمس . ورُوى عن عبد الله بن عامر بالرفع فيها كلها على الابتداء والخبر .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — صدق الله فى خبره، فله الخلق وله الأمر، خلقهم وأمرهم بما أحبّ . وهذا الأمر يقتضى النّهى . قال ابن عُيينة : فَرّق بين الخلق والأمر ؛ فمن جمع بينهما فقد كفر .

(١) فى قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » آية ٣ . (٢) آية ٥٤ سورة النجم .
(٣) آية ٩ سورة يس . (٤) آية ٨١ سورة النحل . (٥) آية ٢٦ سورة آل عمران .

فالخلق المخلوق . والأمر كلامُـه الذى هو غير مخلوق وهـو قوله : « كن » . « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون »(١) . وفى تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن على فساد قول من قال بخلق القرآن ؛ إذ لو كان كلامه الذى هـو أمر مخلوقا لكان قـد قال : ألا له الخلق والخلق . وذلك عِيّ من الكلام ومستهجَن ومُسْتَغَث . والله يتعالى عن التكلم بما لا فائدة فيه. ويدلّ عليـه قوله سبحانه : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُـومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ »(٢) . « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ »(٣) . فأخبر سبحانه أن المخلوقات قائمة بأمره ؛ فلو كان الأمر مخلوقا لافتقر إلى أمر آخر يقوم به ، وذلك الأمر إلى أمر آخر إلى مالا نهاية له . وذلك محال . فثبت أن أمره الذى هو كلامه قديم أزلىّ غير مخلوق ؛ ليصح قيام المخلوقات به . ويدل عليه أيضا قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ »(٤) . وأخبر تعالى أنه خلقهما بالحق ، يعنى القول وهو قوله للمكوّنات « كن » . فلو كان الحق مخلوقا لمـا صح أن يخلق به المخلوقات ؛ لأن الخلق لا يخلق بالمخلوق . يدلّ عليه «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ»(٥) . « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ »(٦) . «وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي»(٧) . وهذا كله إشارة إلى السبق فى القول فى القِدم ، وذلك يوجب الأزل فى الوجود . وهذه النكتة كافية فى الردّ عليهم . ولهم آيات احتجوا بها على مذهبهم مثل قوله تعالى : «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ»(٨) الآية . ومثل قوله تعالى : «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا»(٩) . و «مفعولا»(١٠) وما كان مثله . قال القاضى أبو بكر : معنى « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ » أى من وعظ النبىّ صلى الله عليه وسـلم ووعدٍ وتخويف «إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ» ؛ لأن وعظ الرسل عليهم السلام وتحذيرهم ذِكر . قال الله تعالى : «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ»(١١) . ويقال . فلان فى مجلس الذِّكر . ومعنى « وكان أمر الله قَدَرًا مَقْدُورا » و «مفعولا » : أراد سبحانه عقابه وانتقامه من الكافرين ،

(١) آية ٨٢ ســورة يس . (٢) آية ٢٥ سورة الروم . (٣) آية ١٢ سورة النحل .
(٤) آية ٨٥ سورة الحجر . (٥) آية ١٧١ سورة الصافات . (٦) آية ١٠١ ســورة الأنبياء .
(٧) آية ١٣ سورة السجدة . (٨) آية ٢ ســورة الأنبياء . (٩) آية ٣٨ سورة الأحزاب .
(١٠) آية ٤٧ سورة النساء . (١١) آية ٢١ سورة الغاشية .

ونصره للؤمنين وما حكم به وقدره من أفعاله . ومن ذلك قوله تعالى : «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا»(١) وقال عز وجل : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ»(٢) يعنى به شأنه وأفعاله وطرائقه . قال الشاعر :

لها أمْرُها حتى إذا ما تبوّأت * بأخفافها مَرْعًى تبـوّأ مضجعا

الثانيـــة — و إذا تقرر هذا فآعلم أن الأمر ليس من الإرادة فى شىء . والمعتزلة تقول : الأمر نفس الإرادة . وليس بصحيح، بل يأمر بما لا يريد و ينهى عمـا يريد . ألا ترى أنه أمر إبراهيمَ بذبح ولده ولم يرده منه، وأمر نبيه أن يصلّىَ مع أُمّته خمسين صلاة ، ولم يرد منه إلا خمسَ صلوات . وقد أراد شهادة حمزة حيث يقول : « وَيَتَّخِـذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ»(٣) . وقد نهى الكفار عن قتله ولم يأمرهم به . وهذا صحيح نفيس فى بابه؛ فتأمله .

قوله تعـالى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ « تبارك » تفاعل ، من البركة وهى الكثرة والآتساع . يقال : بُورك الشىءُ وبُورك فيه؛ قاله ابن عرفة . وقال الأزهرىّ : «تبارك» تعـالى وتعاظم وآرتفع . وقيل : إن باسمه يُتَبَرّك و يُتيَمّن . وقد مضى فى الفـاتحة معنى « رب العالمين»(٤) .

قوله تعـالى : ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٥٥)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ ﴾ هذا أمر بالدعاء وتعبُّد به . ثم قَرَن جل وعز بالأمر صفاتٍ تحسُن معه . وهى الخشوع والاستكانة والتضرع . ومعنى « خفية» أى سِرًّا فى النَّفْس ليبعد عن الرياء ؛ وبذلك أثنى على نبيّه زكريّا عليـه السلام إذ قال مخبرا عنـه : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا»(٥) . ونحوه قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم : "خيرُ الذكْر الخفىُّ وخيرُ الرزق ما يكفِي". والشريعة مقرّرة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرا من الجهر.

(١) آية ٤٠ سورة هود . (٢) آية ٩٧ سورة هود .
(٣) آية ١٤٠ سورة آل عمران . (٤) راجع جـ ١ ص ١٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٥) آية ٣ سورة مريم .

وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة»(١) . قال الحسن بن أبى الحسن : لقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرًّا فيكون جهرًا أبدا . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . وذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال : « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » . وقد ٱستدلّ أصحاب أبى حنيفة بهذا على أن إخفاء «آمين» أوْلَى من الجهر بها ؛ لأنه دعاء . وقد مضى القول فيه فى «الفاتحة»(٢) . وروى مسلم عن أبى موسى قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى سفر — وفى رواية فى غَزاة — فجعل الناس يجهرون بالتكبير — وفى رواية فجعل رجل كلّما علا ثَنِيّة قال : لا إله إلا الله — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيها الناس ٱرْبَعُوا(٣) على أنفسكم إنكم لستم تَدْعُون أصمّ ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم" . الحديث .

الثانيــة — وٱختلف العلماء فى رفع اليدين فى الدعاء، فكرهه طائفة منهم جُبير بن مُطْعِم وسعيد بن المسيِّب وسعيد بن جُبير . ورأى شُريح رجلا رافعا يديه فقال : من تتناول بهما، لا أمّ لك ! وقال مسروق لقوم رفعوا أيديهم : قطعها الله . واختاروا إذا دعا الله فى حاجة أن يشير بأصبعه السبابة . ويقولون : ذلك الإخلاص . وكان قتادة يشير بأصبعه ولا يرفع يديه . وكره رفع الأيدى عطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم . ورُوى جواز الرفع عن جماعة من الصحابة والتابعين، ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره البُخارِيّ . قال أبو موسى الأشعرىّ . دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه . ومثلُه عن أنس . وقال ابن عمر : رفع النبيّ صلى الله عليه وسلم يديه وقال : "اللّهمّ إنى أبرأ إليك مما صنع خالد(٤)" . وفى صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله

(١) راجع ج ٣ ص ٣٣٢ طبعة اولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ١٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) أى ارفقوا بها ولا تبالغوا فى الجهد . (٤) هو خالد بن الوليد ، بعثه النبى صلى الله عليه وسلم الى بنى جذيمة داعيا الى الاسلام ؛ فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعل خالد يقتل منهم و يأسر . فنقم النبى صلى الله عليه وسلم على خالد استعجاله فى شأنهم وترك التثبت فى أمرهم . راجع كتاب المغازى فى صحيح البخارى .

عليه وسلم إلى المشركين ، وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل نبيّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة مادًّا يديه، فجعل يهتف بربه؛ وذكر الحديث . وروى الترمذيّ عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه. قال: هذا حديث صحيح غريب . وروى ابن ماجه عن سَلمان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن ربكم حيّ كريم يستحيي من عبده أن يرفع يديه إليه فيردّهما صِفْرًا [أو قال] (١) خائبتين" . احتج الأوّلون بما رواه مسلم عن عمارة بن رُوَيبة ورأى بشر بن مروان على المنبر رافعا يديه فقال : قبّح الله هاتين اليدين، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على أن يقول بيده هكذا؛ وأشار بأصبعه المسبِّحة . وبما روى سعيد بن أبي عَروبة عن قَتادة أن أنس ابن مالك حدّثه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه فى شيء من الدعاء إلا عند الاستسقاء فإنه كان يرفعهما حتى يُرَى بياضُ إبطيه . والأوّل أصح طُرُقا وأثبت من حديث سعيد بن أبي عَروبة؛ فإن سعيدا كان قد تغيّر عقله فى آخر عمره. وقد خالفه شعبة فى روايته عن قَتادة عن أنس فقال فيه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه . وقد قيل : إنه إذا نزلت بالمسلمين نازلة أن الرفع عندذلك جميل حسَن؛ كما فعل النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الاستسقاء ويوم بدر .

قلت : والدعاء حَسَن كيفما تيسّر، وهو المطلوب من الإنسان لإظهار موضع الفقر والحاجة إلى الله عز وجل ، والتذلل له والخضوع . فإن شاء استقبل القبلة ورفع يديه فحسن، وإن شاء فلا؛ فقد فعل ذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم حسبما ورد فى الأحاديث . وقد قال تعالى : «ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً» . ولم يرد صفةٌ من رفع يدين وغيرها . وقال «ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا» (٢) فمدحهم ولم يشترط حالة غير ما ذُكر. وقد دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم فى خطبته يوم الجمعة وهو غير مستقبل القبلة .

(١) الزيادة عن سنن ابن ماجه .   (٢) آية ١٩١ سورة آل عمران .

الثالثــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ يريد فى الدعاء وإن كان اللفظ عاما [إلى هـذا هى الإشارة](١) . والمعتدى هو المجاوز للحدّ والمرتكب الحَظْر . وقد يتفاضل بحسب ما ٱعتدى فيه . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيكون قوم يعتدون فى الدعاء " . أخرجه ٱبن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة . حدّثنا عفّان حدّثنا حماد بن سلمة أخبرنا سعيد الجُرَيْرِيّ عن أبى نعامة أن عبد الله بن مُغَفَّل سمع ٱبنه يقول : اللّهُمَّ إنى أسألك القَصْرَ الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها . فقال : أىْ بُنَىّ، سَلِ الله الجنة وعُذْ به من النار؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " سيكون قوم يعتدون فى الدعاء " . والاعتداء فى الدعاء على وجوه : منهـا الجهر الكثير والصياح ؛ كما تقدم . ومنهـا أن يَدْعُوَ الإنسان فى أن تكون له منزلة نبىّ، أو يدعُوَ فى محال، ونحو هـذا من الشَّطَط . ومنها أن يدعُوَ طالبا معصيةً وغير ذلك . ومنها أن يدعُوَ بمـا ليس فى الكتاب والسنّة ؛ فيتخيّر ألفاظا مفقرة وكلمات مسجّعة قد وجدها فى كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها ، فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله . وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء، كما تقدم فى « البقرة »(٢) بيانه .

قوله تعـالى : وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ فيه مسألة واحدة — وهو أنه سبحانه نَهى عن كل فساد قلّ أو كَثُرَ بعد صلاح قلّ أو كَثُرَ . فهو على العموم على الصحيح من الأقوال . وقال الضّحاك : معنـاه لا تعوّروا(٣) المـاء المَعين ، ولا تقطعوا الشجر المُثْمِر ضِرارًا . وقد ورَدَ : قطعُ الدنانير من الفساد فى الأرض . وقد قيل : تجارة الحُكّام من الفساد فى الأرض . وقال القُشيرِىّ : المراد ولا تشركوا؛ فهو نهى عن الشرك وسفك الدماء والهَرْج فى الأرض . وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها، بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسل، وتقدير

(١) ما بين المربعات هكذا ورد فى نسخ الأصل، ولعله زيادة من الناسخ .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ طبعة ثانية . (٣) عوّرت عيون المياه : اذا دفنتها وسددتها .

الشرائع ووضوح ملة محمد صلى الله عليه وسلم . قال ٱبن عطية : وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك فليس على عمومه ، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن ، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد عوّر ماء قَلِيب[1] بَدْر وقطع شجر الكافرين . وسيأتى الكلام فى قطع الدنانير فى « هود »[2] إن شاء الله تعالى .

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أمر بأن يكون الإنسان فى حالة ترقّب وتخوّف وتأميل لله عز وجل ، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه فى طريق استقامته ، وإن ٱنفرد أحدهما هلك الإنسان ، قال الله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ »[3] . فرجّى وخوّف . فيدعو الإنسان خوفا من عقابه وطمعا فى ثوابه ؛ قال الله تعالى : « وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا »[4] . وسيأتى القول فيه . والخوف : الآنزعاج لما لا يؤمَن من المضار . والطمع : توقّع المحبوب ؛ قاله القشيرى . وقال بعض أهل العلم : ينبغى أن يغلب الخوف الرجاء طولَ الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يموتنّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله " . صحيح أخرجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ولم يقل قريبة . فيه سبعة أوجه : أوّلها أن الرّحمة والرُّحْم واحد ، وهى بمعنى العفو والغفران ؛ قاله الزجاج وٱختاره النحاس . وقال النَّضر بن شُمَيْل : الرحمة مصدر ، وحقّ المصدر التذكير ؛ كقوله : « فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ »[5] . وهذا قريب من قول الزجاج ؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ . وقيل : أراد بالرحمة الإحسان ،

---

(١) القليب (بفتح القاف) : البئر العادية القديمة التى لا يعلم لها رب ولا حافر ، تكون فى البرارى .

(٢) فى قوله تعالى : « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ... » آية ٨٨

(٣) آية ٤٩ سورة الحجر .   (٤) آية ٩٠ سورة الأنبياء .   (٥) آية ٢٧٥ سورة البقرة .

ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقيًّا جاز تذكيره؛ ذكره الجوهرى . وقيـل : أراد بالرحمة هنا المطر؛ قاله الأخفش . قال : ويجوز أن يذكّر كما يذكّر بعض المؤنث . وأنشد :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقتْ وَدْقها * ولا أرضَ أَبْقَل إبقالها (١)

وقال أبو عبيدة : ذكّر « قريب » على تذكير المكان، أى مكانا قريبا. قال علىّ بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان « قريب » منصوبا فى القرآن؛ كما تقول : إن زيدا قريبا منك . وقيل : ذكّر على النسب ؛ كأنه قال : إن رحمـة الله ذات قُرْب؛ كما تقول : امرأة طالق وحائض . وقال الفـرّاء : إذا كان القريب فى معنى المسافة يذكّر و يؤنّث، و إن كان فى معنى النسب يؤنّث بلا آختلاف بينهـم . تقول : هـذه المرأة قريبتى ، أى ذات قرابتى؛ ذكره الجوهرى . وذكر غيره عن الفرّاء: يقال فى النسب قريبة فلان، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث؛ يقال : دارُك منا قريب، وفلانة منا قريب؛ قال الله تعالى: « وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا » (٢) . وقال من آحتج له : كذا كلام العرب ؛ كما قال امرؤ القيس :

له الوَيْلُ إنْ أمسى ولا أمّ هاشم * قريبٌ ولا البَسْبَاسَةُ آبنةُ يَشْكُرَا

قال الزجاج : هذا خطأ؛ لأن سبيل المذكّر والمؤنث أن يجريا على أفعالها .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥٧)

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ عطف على قوله «يغشى اللَّيْلَ النَّهَار » . ذكر شيئا آخر من نعمه، ودلّ على وحدانيته وثبوت إلهيّته . وقد مضى الكلام

---

(١) البيت لعامر بن جوين الطائى، وصف أرضا مخصبة لكثرة ما نزل بها من الغيث . والودق : المطر . والمزنة : السحابة . (عن شرح الشواهد) . (٢) آية ٦٣ سورة الأحزاب .

فى الريح فى « البقرة »[1] . ورياح جمع كثرة، وأرواح جمع قِلّة . وأصل ريح رِوْح . وقد خُطِّئ من قال فى جمع القلة أرياح . ﴿ بُشْرًا ﴾ فيه سبع قراءات : قرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو « نُشُرًا » بضم النون والشين جمع ناشر على معنى النسب ، أى ذات نشر؛ فهو مثل شاهد وشُهُد . ويجوز أن يكون جمع نَشُور كرسول ورُسُل . يقال : ريح النشور إذا أتت من هاهنا وهاهنا . والنَّشُور بمعنى المنشور ؛ كالرَّكوب بمعنى المركوب . أى وهو الذى يرسل الرياح منشرة . وقرأ الحسن وقَتادة « نُشْرا » بضم النون وإسكان الشين مخففًا من نُشُر؛ كما يقال : كُتْب ورُسْل . وقرأ الأعمش وحمزة « نَشْرًا » بفتح النون وإسكان الشين على المصدر ، أعمل فيه معنى ما قبله ؛ كأنه قال : وهو الذى ينشر الرياح نشْرا . نشرت الشيء فانتشر ، فكأنها كانت مطوِيّة فتُنشر عند الهبوب . ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال من الرياح ؛ كأنه قال يرسل الرياح مُنْشِرة ، أى مُحيية؛ من أنشر الله الميت فنشَر، كما تقول : أتانا ركضا، أى راكضا . وقد قيل : إن نَشرا (بالفتح) من النَّشْر الذى هو خلاف الطّىّ على ما ذكرنا . كأن الريح فى سكونها كالمطوية ثم تُرسل من طَيّها ذلك فتصير كالمنفتحة . وقد فسّره أبو عبيد بمعنى متفرقة فى وجوهها، على معنى ينشرها هاهنا وهاهنا . وقرأ عاصم « بُشْرا » بالباء وإسكان الشين والتنوين جمع بشير ، أى الرياح تبشّر بالمطر . وشاهده قوله : « ومِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ »[2] . وأصل الشين الضم ، لكن سكنت تخفيفا كرُسُل ورُسْل . وروى عنه « بَشْرا » بفتح الباء . قال النحاس : ويقرأ « بُشُرًا » و « بَشْرًا » مصدر بشَره يبشره بمعنى بشّره . فهذه خمس قراءات . وقرأ محمد اليمانىّ « بُشْرى » على وزن حُبْلَى . وقراءة سابعة « بُشُرَى » بضم الباء والشين .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ السحاب يذكّر ويؤنّث . وكذا كل جمع بينه وبين واحدته هاء . ويجوز نعته بواحد فتقول : سحاب ثقيل وثقيلة . والمعنى : حملت الريح سحابا ثقالا بالماء، أى أثقلت بحمله . يقال : أقلّ فلان الشيء أى حمله . ﴿ سُقْنَاهُ ﴾

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٧ طبعة ثانية . (٢) آية ٤٦ سورة الروم .

أى السحاب . ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ أى ليس فيه نبات . يقال : سُقْته لبـلد كذا وإلى بلد كذا . وقيـل : لأجل بلد ميت ؛ فاللام لام أَجْل . والبـلد كل موضـع من الأرض عامر أو غير عامر خالٍ أو مسكون . والبلدة والبـلد واحد البلاد والبُـلدان . والبَلَد الأثر وجمعه أبلاد . قال الشاعر :

* مِن بعـد ما شَمل البِـلَى أبلادَها[1] *

والبـلد : أُدْحِيّ[2] النَّعام . يقال : هو أذلّ من بَيْضة البلد ، أى من بيضة النعام التى يتركها . والبلدة الأرض ؛ يقال : هذه بلدتنا كما يقال بَحْرتنا . والبلدة من منازل القمر ، وهى ستة أنجم من القوس تنزلها الشمس فى أقصر يوم فى السنة . والبلدة الصّدر ؛ يقال : فلان واسع البلدة أى واسع الصدر . قال الشاعر :

أُنيخت فألقتْ بلدةً فَـوقَ[3] بلدة * قليلٍ بها الأصـوات إلا بُغامُها

يقول : بركت الناقة فألقت صدرها على الأرض . والبـلدة (بفتح الباء وضمها) : نقاوة ما بين الحاجبين ؛ فهما من الألفاظ المشتركة . ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَـاءَ ﴾ أى بالبـلد . وقيل : أنزلنا بالسحاب المـاء ؛ لأن السحاب آلة لإنزال المـاء . ويحتمل أن يكون المعنى فأنزلنا منه المـاء ؛ كقوله : « يَشْرَبُ بِها عِبَادُ اللهِ[4] » أى منهـا . ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الكاف فى موضع نصب . أى مثل ذلك الإخراج يحيى الموتى. وخرّج البَيْهَقِيّ وغيره عن أبى رَزين العقيلى قال : قلت يارسول الله ، كيف يعيد الله الخلق ، وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : " أَمَا مررتَ بوادِى قومك جَدْبًا ثم مررتَ به يهتز خَضِرا " قال نعم ، قال : " فتلك آية الله فى خلقه " . وقيـل : وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم ، فتنشقّ عنهم القبور ، ثم تعود إليهم الأرواح . وفى صحيح

(١) هذا عجز بيت لابن الرقاع . وصدره : * عرف الديار توهما فاعتادها *

(٢) الأدحى (بضم الهمزة وكسرها) : مبيض النعام فى الرمل ؛ لأن النعام تبيض فيه وليس للنعام عش .

(٣) فى الأصول : «بعد» . والتصويب عن اللسان وديوان ذى الرمة . أراد بالبـلدة الأولى ما يقع على الأرض من صـدرها . وبالثانية الفلاة التى أناخ ناقته فيها . والبغام : صوت الناقة . وأصله للظبي فاستعاره للناقة .

(٤) آية ٦ سورة الإنسان .

مسلم من حديث عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم " ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلُّ فتنبت منه أجساد الناس ثم يقال يأيها الناس هَلُمُّوا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون ". وذكر الحديث . وقد ذكرناه بكماله فى كتاب (التذكرة) والحمد لله . فدلّ على البعث والنشور ؛ وإلى الله ترجع الأمور .

قوله تعالى : وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ أى التُّربة الطيبة . والخبيث الذى فى تربته حجارة أو شَوْك ؛ عن الحسن . وقيل : معناه التشبيه ، شبّه تعالى السريعَ الفهم بالبلد الطيب ، والبليدَ بالذى خَبُثَ ؛ عن النحاس . وقيل : هذا مثلٌ للقلوب ؛ فقلْبٌ يقبل الوعظ والذّكرى ، وقلب فاسق يَنْبُو عن ذلك ؛ قاله الحسن أيضا . وقال قتادة : مثل المؤمن يعمل محتسبا متطوّعا والمنافق غير محتسب ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مِرْمَاتَيْن(١) حَسَنَتين لشهد العِشاء " . ﴿ نَكِدًا ﴾ نصب على الحال ، وهو العَسِر الممتنع من إعطاء الخير . وهذا تمثيل . قال مجاهد : يعنى أن فى بنى آدم الطيِّب والخبيث . وقرأ طلحة « إلّا نَكْدا » حذف الكسرة لثقلها . وقرأ ابن القَعْقاع « نَكَدا » بفتح الكاف، فهو مصدر بمعنى ذا نكد . كما قال :

* فإنما هى إقبال وإدبار *

وقيل : « نَكِدَا » بنصب الكاف وخفضها بمعنًى ؛ كالدَّنَف والدَّنِف ، لغتان . ﴿ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أى كما صرّفنا من الآيات ، وهى الحجج والدّلالات ، فى إبطال الشرك ؛ كذلك نصرف الايات فى كل ما يحتاج إليه الناس . ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ وخصّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك .

(١) المرماة (بكسر الميم وفتحها) : ظلف الشاة . وقيل ما بين ظلفيها .

قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾ لما بيّن أنه الخالق القادر على الكمال ذكر أقاصيص الأمم وما فيها من تحذير الكفار . واللام فى « لقد » للتأكيد المنبّه على القسم . والفاء دالة على أن الثانى بعد الأوّل . ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ نداء مضاف . ويجوز « يا قومى » على الأصل . ونوحٌ أوّل الرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات . قال النحاس : وانصرف لأنه على ثلاثة أحرف . وقد يجوز أن يُشتقّ من ناح ينوح ؛ وقد تقدّم فى « آل عمران »[1] هذا المعنى وغيره فأغنى عن إعادته . قال ابن العربى : ومن قال إن إدريس كان قبله من المؤرّخين فقد وَهِم . والدليل على صحة وهمه الحديث الصحيح فى الإسراء حين لقى النبى صلى الله عليه وسلم آدم وإدريس فقال له آدم : "مَرْحَبًا بالنبى الصالح" . وقال له إدريس : "مَرْحَبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح" . فلو كان إدريس أبًا لنوح لقال مرحبا بالنبى الصالح والابن الصالح . فلما قال له والأخ الصالح دلّ على أنه يجتمع معه فى نوح، صلواتُ الله عليهم أجمعين . ولا كلام لمنصف بعد هذا . قال القاضى عِياض : وجاء جواب الآباء هاهنا كنوح وإبراهيم وآدم "مرحبا بالابن الصالح" . وقال عن إدريس "بالأخ الصالح" كما ذُكر عن موسى وعيسى ويوسف وهارون ويحيى ممن ليس بأب باتفاق للنبى صلى الله عليه وسلم . وقال المازَرى : قد ذكر المؤرّخون أن إدريس جدّ نوح عليهما السلام . فإن قام الدليل على أن إدريس بُعث أيضا لم يصح قول النسّابين أنه قبل نوح ؛ لما أخبر عليه السلام من قول آدم أن نوحا أوّل رسول بُعث، وإن لم يقم دليل جازما قالوا ، وصح أن يحمل أن إدريس كان نبيًّا غير مرسل . قال القاضى عِياض : قد يجمع بين هذا بأن يقال : اختصّ بعث نوح لأهل الأرض — كما قال فى الحديث — كافّةً كنبيّنا عليه السلام . ويكون إدريس لقومه كموسى وهود وصالح ولوط وغيرهم . وقد استدل

(١) راجع جـ ٤ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

بعضهم على هذا بقوله تعالى: « وإنَّ إلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ »(١). وقد قيل : إن إلياس هو إدريس . وقد قرئ « سَلَامٌ على إدْرَاسِينَ »(٢) . قال القاضي عِياض : وقد رأيت أبا الحسن بن بَطّال ذهب إلى أن آدم ليس برسول ؛ ليسلم من هذا الاعتراض . وحديثُ أبي ذَرٍّ الطويل يدل على أن آدم وإدريس رسولان . قال ابن عطيّة : ويجتمع ذلك بأن تكون بِعثة نوح مشهورة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان ؛ فالمراد أنه أوّل نبيّ بُعث على هذه الصفة . والله أعلم . ورُوِى عن ابن عباس أن نوحا عليه السلام بُعث وهو ابن أربعين سنة . قال الكلْبيّ : بعد آدم بثمانمائة سنة . وقال ابن عباس : وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما ؛ كما أخبر التنزيل . ثم عاش بعد الطوفان ستّين سنة حتى كَثُر الناس وفشَوْا . وقال وهب : بُعث نوح وهو ابن خمسين سنة . وقال عَوْن ابن شداد : بُعث نوح وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة . وفي كثير من كتب الحديث : الترمذيّ وغيره أن جميع الخلق الآن من ذُرّية نوح عليه السلام . وذكر النقّاش عن سليمان بن أرْقَم عن الزُّهْرِيّ أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح . والسِّنْد والهند والزّنج والحبشة والزُّط والنُّوبة ، وكُلّ جلد أسود من ولد حام بن نوح . والترك وبَرْبَر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصّقالبة كلُّهم من ولد يافِث بن نوح . والخلق كلهم ذرّية نوح .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ برفع « غيرُه » قراءة نافع وأبي عمرو وعاصم وحمزة . أي ما لكم إله غيره . نعت على الموضع . وقيل : « غير » بمعنى إلا ؛ أي ما لكم من إلهٍ إلا الله . قال أبو عمرو: ما أعرف الجرّ ولا النصب . وقرأ الكِسائيّ بالخفض على الموضع . ويجوز النصب على الاستثناء ، وليس بكثير ؛ غير أن الكِسائيّ والفرّاء أجازا نصب « غير » في كل موضع يحسُن فيه « إلا » تمّ الكلام أو لم يتم . فأجازا : ما جاءني غيرك . قال الفرّاء : هي لغة بعض بني أسد وقضاعة . وأنشد :

(١) آية ١٢٣ سورة الصافات .
(٢) في قوله تعالى : « سلام على آل ياسين » آية ١٣٠ سورة الصافات .

لم يَمْنَع الشُّرْبَ منها غيرَ أن هتفَتْ * حمامةٌ فى سُحُوق ذاتِ أَوْ قالِ (١)

قال الكسائىّ : ولا يجوز جاءنى غيرك ، فى الإيجاب ؛ لأن إلّا لا تقع ها هنا . قال النحاس : لا يجوز عند البصريين نصب «غير» إذا لم يتمّ الكلام . وذلك عندهم من أقبح اللحن .

قوله تعالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

«الملأ» أشراف القوم ورؤساؤهم . وقد تقدّم بيانه فى «البقرة» (٢) . والضّلال والضّلالة : العدول عن طريق الحق ، والذهاب عنه . أى إنا لنراك فى دعائنا إلى إلٰه واحد فى ضلالٍ عن الحق . ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بالتشديد من التبليغ ، وبالتخفيف من الإبلاغ . وقيل : هما بمعنًى واحد لغتان ؛ مثل كرّمه وأكرمه . ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ النُّصح : إخلاص النية من شوائب الفساد فى المعاملة ؛ بخلاف الغِشّ . يقال : نصحته ونصحت له نصيحةً ونَصاحة ونُصْحا . وهو باللام أفصح . قال الله تعالى : «وَأَنصَحُ لَكُمْ» . والاسم النصيحة . والنصيحُ الناصحُ ، وقوم نصحاء . ورجل ناصح الجَيْب أى نقىّ القلب . قال الأَصْمعِىّ : الناصح الخالص من العسل وغيره . مثلُ الناصع . وكلُّ شىء خَلَص فقد نَصَح . وٱنتصح فلان أقبل على النّصيحة . يقال : انتصِحْنِى إننى لك ناصح . والناصح الخياط . والنِّصاح السّلك يُخاط به . والنِّصاحات أيضا الجلود . قال الأعْشَى :

فترَى الشَّرْب نَشاوَى كلّهمْ * مثلَ ما مُدّتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ

الرُّبَح لغةٌ فى الرُّبَع ، وهو الفصيل . والرُّبَح أيضا طائر . وسيأتى لهذا زيادة معنًى فى «براءة» (٣) إن شاء الله تعالى .

---

(١) السحوق : ما طال من الدوم . وأوقاله ثماره . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) فى قوله تعالى : «ليس على الضعفاء ... » آية ٩١

قوله تعالى : أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ ﴾ فُتحت الواو لأنها واو عطف ، دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير. وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها. ﴿ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ ﴾ أى وَعْظ من ربكم . ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ أى على لسان رجل . وقيل : «على» بمعنى «مع» ، أى مع رجل . وقيل : المعنى أن جاءكم ذكر من ربّكم منزّل على رجل منكم ، أى تعرفون نسبه . أى على رجل من جنسكم ولو كان مَلَكا . فربما كان فى ٱختلاف الجنس تنافر الطبع . « والفُلْك » يكون واحدا ويكون جَمْعًا . وقد تقدّم فى « البقرة » (١) . و «عمين» أى عن الحق ؛ قاله قَتَادة . وقيل : عن معرفة الله تعالى وقدرته ، يقال : رجلٌ عَمٍ بكذا ، أى جاهل .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم هُودًا . قال ابن عباس : أى ٱبن أبيهم . وقيل : أخاهم فى القبيلة . وقيل : أى بشرا من بنى أبيهم آدم .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

وفى مصنَّف أبى داود أن أخاهم هودا أى صاحبهم . وعادٌ من ولد سام بن نوح . قال ابن إسحاق: وعاد هو ٱبن عَوْص بن إرم بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . وهود هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . بعثه الله إلى عاد نبيًّا . وكان من أوسطهم نَسَبا وأفضلهم حَسَبا . و «عاد» من لم يصرفه جعله ٱسما للقبيلة، ومن صرفه جعله ٱسما للحَىّ . قال أبو حاتم : وفى حرف أُبىّ وٱبن مسعود «عادَ ٱلأولى»(١) بغير ألف . و «هود» أعجمى، وانصرف لخفّته؛ لأنه على ثلاثة أحرف . وقد يجوز أن يكون عربيا مشتقًّا من هاد يهود . والنصب على البدل . وكان بين هود ونوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء . وكانت عاد فيما رُوِى ثلاث عشرة قبيلة، ينزلون الرمال، رمل عالج . وكانوا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت بلادهم أخصب البلاد، فسخط الله عليهم فجعلها مفاوز، وكانت فيما رُوِى بنواحى حضرموت إلى اليمن ، وكانوا يعبدون الأصنام . ولحق هود حين أهلك قومه بمن آمن معه بمكة ، فلم يزالوا بها حتى ماتوا . ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ أى فى حُمْق وخفّة عقل . قال :

مَشَيْنَ كما اهتزّت رِياحٌ تسفّهتْ * أعالِيَها مَرُّ الرياح النَّوَاسِم

وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة »(٢) . والرؤية هنا وفى قصة نوح قيل : هى من رؤية البصر . وقيل : يجوز أن يراد بها الرأى الذى هو أغلب الظن .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ « خلفاء » جمع خليفة على التذكير والمعنى، وخلائف على اللفظ . مَنّ عليهم بأن جعلهم سُكّان الأرض بعد قوم نوح . ﴿ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ ويجوز « بصطة » بالصاد لأن بعدها طاء؛ أى طولا فى الخلق وعظم الجسم . قال ٱبن عباس : كان أطولهم مائة ذراع ، وأقصرهم ستين ذراعا . وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم . وقيل : على خلق قوم نوح . قال وهب : كان رأس أحدهم

(١) فى قوله تعالى : « وأنه أهلك عادًا الأولى » آية ٥٠ سورة النجم .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .

مثل قُبّة عظيمة، وكان عَيْن الرجل يُفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم. وروى شَهر ابن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: أن كان الرجل من قوم عاد يتخذ المصراعَيْن من حجارة لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمّة لم يطيقوه، وأن كان أحدهم ليغمز برجله الأرض فتدخل فيها. ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾ أى نِعم الله، واحدها إِلًى وإِلْيٌ وإِلْوٌ وأَلًى. كالآناء واحدها إِنًى وإِنْيٌ وإِنْوٌ وأَنًى. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تقدّم[1].

قوله تعالى: قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

طلبوا العذاب الذى خوّفهم به وحذّرهم منه فقال لهم ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾. ومعنى وقع أى وجب. يقال: وقع القول والحُكم أى وجب، ومثله: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ»[2]. أى نزل بهم. «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ»[3]. والرِّجْس العذابُ وقيل: عُنى بالرجس الرَّيْن على القلب بزيادة الكفر. ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ﴾ يعنى الأصنام التى عبدوها، وكان لها أسماء مختلفة. ﴿مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى من حُجّة لكم فى عبادتها. فالاسم هنا بمعنى المسمّى. نظيره «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا»[4]. وهذه الأسماء مثل العُزّى من العِزّ والأعزّ واللّات، وليس لها من العزّ والإلهيّة شىء. ﴿دَابِرَ﴾ آخر. وقد تقدّم[5]. أى لم يبق لهم بقيّة.

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) آية ١٣٤ من هذه السورة.
(٣) آية ٨٢ سورة النمل. (٤) آية ٤٠ سورة يوسف. (٥) آية ٤٥ سورة الأنعام.

قوله تعالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح . وهو أخو جَديس ، وكانوا فى سَعة من معايشهم ؛ فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره ، وأفسدوا فى الأرض . فبعث الله إليهم صالحا نبيًّا ، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود . وكانوا قوما عُرْبًا . وكان صالح من أوسطهم نَسَبًا وأفضلهم حَسَبًا فدعاهم إلى الله تعالى حتى شَمِط(١) ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعَفون . ولم ينصرف « ثمود » لأنه جُعل آسما للقبيلة . وقال أبو حاتم : لم ينصرف لأنه آسم أعجمى . قال النحاس : وهذا غلط ؛ لأنه مشتق من الثَّمَد وهو المال القليل . وقد قرأ القراء « أَلَآ إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ(٢) » على أنه آسم للحى . وكانت مساكن ثمود الحِجر بين الحجاز والشام إلى وادى القُرَى . وهم من ولد سام بن نوح . وسُمّيت ثمود لقلة مائها . وسيأتى بيانه فى « الحِجر(٣) » إن شاء الله تعالى .

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صَلْد ؛ فكان لها يوم تشرب فيه ماء الوادى كلّه ، وتسقيهم مثله لبنا لم يُشرب قطُّ ألذ وأحلى منه . وكان بقدر حاجتهم على كثرتهم ؛ قال الله تعالى : « لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ(٤) » . وأضيفت الناقة إلى الله عز وجل على جهة إضافة الخلق إلى الخالق . وفيه معنى التشريف والتخصيص .

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ أى ليس عليكم رزقها ومؤونتها .

---

(١) الشمط ، (بفتح الميم) : شيب اللحية . وقيل : بياض شعر الرأس يخالط سواده .

(٢) آية ٦٨ سورة هود .

(٣) فى قوله تعالى : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » آية ٨٠ .

(٤) آية ١٥٥ سورة الشعراء .

قوله تعالى : وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فيه محذوف، أى وبوأكم فى الأرض منازل . ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ أى تبنون القصور بكل موضع . ﴿ وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ اتخذوا البيوت فى الجبال لطول أعمارهم ؛ فإن السقوف والأبنية كانت تَبْلَى قبل فناء أعمارهم . وقرأ الحسن بفتح الحاء ، وهى لغة . وفيه حرف من حروف الحلق ؛ فلذلك جاء على فَعَل يَفْعَل .

الثانيــة — استدل بهذه الآية من أجاز جواز البناء الرفيع كالقصور ونحوها ، وبقوله : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ (١) » . ذُكر أن ابنًا لمحمد بن سِيرين بَنَى دارا وأنفق فيها مالا كثيرا ؛ فذُكر ذلك لمحمد بن سِيرين فقال : ما أرى بأسا أن يبنى الرجل بناء ينفعه . ورُوى أنه عليه السلام قال : " إذا أنعم الله على عبد أحبّ أن يُرى أثر النعمة عليه " . ومن آثار النعمة البناء الحسن ، والثياب الحسنة . ألا ترى أنه لو اشترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك ؛ فكذلك البناء . وكره ذلك آخرون ، منهم الحسن البصرى وغيره . واحتجّوا بقوله عليه السلام : " إذا أراد الله بعبد شرًّا أهلك ماله فى الطّين واللّبِن" . وفى خبر آخر عنه أنه عليه السلام قال : " من بَنَى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه " .

قلت : بهذا أقول؛ لقوله عليه السلام : " وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان فى بنيان أو معصية " . رواه جابر بن عبد الله وخرّجه الدّارَقُطْنِيّ . وقوله

(١) آية ٣٢ من هذه السورة .

عليه السلام : " ليس لابن آدم حقّ فى سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يُوارِى عورته وجِلْف(١) الخبز والماء " أخرجه الترمذى .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ ﴾ أى نعمه . وهذا يدلّ على أن الكفار مُنْعَم عليهم . وقد مضى فى « آل عمران »(٢) القول فيه . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم فى « البقرة »(٣) . والعِثِيّ والعُثُوّ لغتان . وقرأ الأعمش « تِعثوا » بكسر التاء أخذه من عَثِيَ يَعْثَى لا من عثا يعثو .

قوله تعالى : قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ الثانى بدل من الأوّل ، لأن المستضعفين هم المؤمنون . وهو بدل البعض من الكل .

قوله تعالى : فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ العَقْر الجرح . وقيل : قطع عضو يؤثر فى النفس . وعقرت الفرس : إذا ضربت قوائمه بالسيف ، وخيل عَقْرَى . وعقرت ظهر الدابة : إذا أَدْبَرْته .

---

(١) الجلف (بالكسر) : الخبز وحده لا أدم معه . وقيل : الخبز الغليظ اليابس .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١ ص ٤٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قال آمرؤ القيس :

تقول وقد مال الغَبِيط بنا معًا * عقَرْتَ بَعِيرى يا آمرأ القيس فآنزِلِ

أى جرحته وأدْبرته . قال القشيرى : العقر كشف عُرقوب البعير ؛ ثم قيل للنّحْر عقر ؛ لأن العقْر سبب النحر فى الغالب . وقد آختُلف فى عاقر الناقة على أقوال . أصحّها ما فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن زَمعة قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال : " إذ آنبعث أشقاها آنبعث لها رجل عزيز عارم[1] منيع فى رهطه مثل أبى زَمْعة " وذكر الحديث . وقيل فى آسمه : قدار بن سالف . وقيل : إن ملكهم كان إلى آمرأة يقال لها ملكى ، فحسدت صالحا لمّا مال إليه الناس ، وقالت لآمرأتين كان لهما خليلان يعشقانهما : لا تطيعاهما وآسألاهما عقر الناقة ؛ ففعلتا . وخرج الرجلان وألجآ الناقة إلى مَضِيق ورماها أحدهما بسهم وقتلاها . وجاء السَّقْب وهو ولدها إلى الصخرة التى خرجت الناقة منها فرغا ثلاثا وآنفجرت الصخرة فدخل فيها . ويقال : إنه الدّابة التى تخرج فى آخر الزمان على الناس ؛ على ما يأتى بيانه فى «النمل»[2] . وقال آبن إسحاق : أتبع السَّقْبَ أربعة نفر ممن كان عقر الناقة ، مصدع وأخوه ذؤاب . فرماه مصدع بسهم فآنتظم قلبه[3] ، ثم جرّ برجله فألحقه بأمّه ، وأكلوه معها . والأوّل أصح ؛ فإنّ صالحا قال لهم : إنه بَقِيَ من عمركم ثلاثة أيام ، ولهذا رَغَا ثلاثا . وقيل : عقرها عاقرها ومعه ثمانية رجال ، وهم الذين قال الله فيهم : « وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ » على ما يأتى بيانه فى « النمل »[4] . وهو معنى قوله « فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ »[5] . وكانوا يشربون فأعوزهم الماء يمزجوا شرابهم ، وكان يوم لبن الناقة ، فقام أحدهم وترصّد الناس وقال : لأرِيحَنّ الناس منها ؛ فعقرها .

قوله تعالى : ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى آستكبروا . عتَا يعتُو عتُوًّا آستكبر . وتَعَتَّى فلان إذا لم يُطع . والليل العاتى : الشديد الظلمة ؛ عن الخليل .

(١) عارم : أى خبيث شرير . (٢) فى قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم » آية ٨٢
(٣) آنتظم الصيد : اذا طعنه أو رماه حتى ينفذه . (٤) آية ٤٨ (٥) آية ٢٩ سورة القمر .

﴿ وَقَالُوا يَاصَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أى الزّلزلة الشديدة . وقيل : كانت صيحة شديدة خَلَعت قلوبهم ؛ كما فى سورة « هود » فى قصة ثمود[1] فأخذتهم الصيحة . يقال : رَجَف الشيء يَرْجُف رَجْفًا ورَجَفانًا . وأرجفت الريحُ الشجرَ حرّكته . وأصله حركة مع صوت؛ ومنه قوله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ[2] » قال الشاعر :

ولما رأيت الحج قـد آن وَقْتُـه * وظلّت مَطايَا القـوم بالقوم تَرْجُفُ

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴾ أى بلدهم . وقيل : وحّد على طريق الجنس ، والمعنى : فى دُورهم . وقال فى موضع آخر . « فى ديارهم[3] » أى فى منازلهم . ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أى لاصقين بالأرض على رُكَبهم ووجوههم ، كما يجثُم الطائر . أى صاروا خامدين من شـدّة العذاب . وأصل الجُثُوم للأرنب وشبهها ، والموضع مَجْثَم . قال زهير :

بها العِينُ والآرامُ يمشِين خِلْفـة * وأطلاؤها يَنْهَضْن مِن كلّ مَجْثَمِ[4]

وقيل : احترقوا بالصاعقة فأصبحوا ميّتين، إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله ؛ فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه . ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أى عنـد اليأس منهم . ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَـدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ يحتمل أنه قال ذلك قبل موتهم . ويحتمل أنه قاله بعد موتهم ؛ كقوله عليه السلام لقَتْلَى بَدْر : "هل وجدتم ما وعد ربكم حقا" ؟ فقيل : أتُكلّم هؤلاء الجِيَف ؟ فقال : "ما أنتم بأسمعَ منهم ولكنهم لا يقـدرون على الجواب" . والأول أظهر . يدلّ عليه ﴿ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّـاصِحِينَ ﴾ أى لم تقبلوا نُصْحى .

قوله تعـالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيها أربع مسائل :

---

(١) فى قوله تعالى : «وأخذ الذين ظلموا الصيحة ...» آيه ٦٧ (٢) آية ٦ سورة النازعات .
(٣) آية ٦٧ و ٩٤ سورة هود . (٤) العين (بكسر أوله) : البقر واحدها أعين وعيناء . والآرام : الظباء . والأطلاء : الأولاد ؛ الواحد طَلا . وخلفة : فوج بعد فوج . وقيل مختلفة ، هذه مقبلة وهذه مدبرة ، وهذه صاعدة وهذه نازلة . (عن شرح المعلقات) .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ قال الفرّاء : لوط مشتق من قولهم : هـذا أَلْيَطُ بقلبي، أى ألصق . وقال النحاس : قال الزجاج زعم بعض النحويين — يعنى الفرّاء — أن لوطا يجوز أن يكون مشتقا من لُطْتُ الحوض إذا ملسته بالطين . قال : وهذا غلط ؛ لأن الأسماء الأعجمية لا تشتقّ كإسحاق، فلا يقال : إنه من السُّحق وهو البُعد . وإنما صُرف لوط لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسـط . قال النقاش : لوط من الأسماء الأعجمية وليس من العربية . فأما لُطْت الحوض ، وهذا أَلْيَط بقلبي من هـذا ؛ فصحيح . ولكن الاسم أعجمىّ كإبراهيم وإسحاق . قال سـيبويه : نوح ولوط أسمـاء أعجمية، إلا أنها خفيفة فلذلك صُرفت . بعثه الله تعالى إلى أمّة تسمى سدوم، وكان ٱبن أخى إبراهيم . وَنَصْبه إما بـ«أَرْسَلْنا» المتقدّمة فيكون معطوفا . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى وٱذكر .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ يعنى إتيان الذُّكور . ذكرها الله باسم الفاحشة ليبين أنها زِنًى؛ كما قال تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً »(1) .

وٱختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعـد إجماعهم على تحريمه ؛ فقال مالك : يُرْجَم ؛ أحصِن أو لم يحصن . وكذلك يُرجم المفعول به إن كان محتلما . وروى عنه أيضا: يُرجم إن كان مُحْصنا، ويُحبس ويؤدّب إن كان غير محصن . وهـو مذهب عطاء والنَّخَعىّ وٱبن المسيِّب وغيرهم . وقال أبو حنيفـة : يُعزَّر المحصن وغيره ؛ وروى عن مالك . وقال الشافعىّ : يُحَدّ حَدّ الزنى قياسا عليه . احتج مالك بقوله تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ »(2) . فكان ذلك عقوبةً لهم وجزاءً على فعلهم . فإن قيل: لا حجة فيها لوجهين؛ أحدهما — أن قوم لوط إنما عُوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم . الثانى — أن صـغيرهم وكبيرهم دخل فيها؛ فدلّ على خروجها من باب الحـدود . قيل : أمّا الأوّل فغلط ؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصى فأخذهم بها؛ منها هـذه . وأمّا الثـانى فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ، فعُوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه. وهى حكمة الله وسنّته فى عباده.

---

(1) آية ٣٢ سورة الإسراء . (2) آية ٧٤ سورة الحجر .

ويَبقَى أمر العقوبة على الفاعلين مستمرًا . والله أعلم . وقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذيّ والنَّسائيّ والدَّارَقُطْنِيّ أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به". لفظ أبي داود وابن ماجه . وعند التِّرمذيّ "أُحْصنا أو لم يحصنا" . وروى أبو داود والدَّارَقُطْنِيّ عن ابن عباس فى البِكْر يوجد على اللّوطِيّـة قال يرجم . وقد رُوى عن أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه حرق رجلا يُسمَّى الفُجاءة حين عمل عمل قوم لوط بالنار . وهو رأى عليّ بن أبي طالب ؛ فإنه لمـا كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر فى ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم واستشارهم فيه ؛ فقال عليّ : إن هـذا الذنب لم تَعْصِ به أمّة من الأمم إلا أمّة واحدة صنع الله بها ما علمتم ، أرى أن يُحرق بالنار . فاجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرق بالنـار . فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه . ثم أحرقهم ابن الزبير فى زمانه . ثم أحرقهم هشام بن الوليد . ثم أحرقهـم خالد القَسْرى بالعراق . ورُوى أن سـبعة أُخذوا فى زمن ابن الزُّبير فى لِواط ؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أُحْصِنوا فأمر بهم فخرجوا من الحَرَم فرُجِموا بالحجارة حتى ماتوا ، وحدّ الثلاثة ؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم يُنكرا عليه . وإلى هـذا ذهب الشافعيّ . قال ابن العربيّ : والذى صار إليه مالك أحقّ ، فهو أصحّ سندًا وأقوى معتمَدًا . وتعلّق الحنفيّون بأن قالوا : عقوبة الزِّنَى معلومة ؛ فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألّا يشاركها فى حدّها . ويأثرون فى هذا حديثا : "مَن وضع حدّا فى غير حَدٍّ فقد تعدّى وظَلَمَ" . وأيضا فإنه وطء فى فرج لا يتعلّق به إحلالٌ ولا إحصان ، ولا وجوبُ مهر ولا ثبوتُ نسب ؛ فلم يتعلق به حدّ .

الثالثـــة — فإن أتى بهيمة فقد قيل : لا يقتل هو ولا البهيمة . وقيل : يقتلان ؛ حكاه ابن المنـذر عن أبي سلمة بن عبد الرحمن . وفى البـاب حديث رواه أبو داود والدارَقُطْنِيّ عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه" . فقلنـا لابن عباس : ما شأن البهيمة ؟ قال : ما أراه قال ذلك ، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عُمل بها ذلك العمل . قال ابن المنـذر : إن يَكُ الحديث ثابتا فالقول به

يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيرا، وإن عزّره الحاكم كان حَسَناً . والله أعلم. وقد قيل : إن قتل البهيمة لئلا تُلْقِي خَلْقا مشوَّهًا ؛ فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن آبن عباس قال : ليس على الذى زَنَى بالبهيمة حَدٌّ . قال أبو داود : وكذا قال عطاء . وقال الحَكَم : أرى أن يُجلد ولا يبلغ به الحدّ . وقال الحسن : هو بمنزلة الزانى . وقال الزُّهْرِىّ : يُجلد مائةً أحصن أو لم يحصن . وقال مالك والثَّوْرِىّ وأحد أصحاب الرأى يُعَـزَّر . ورُوى عن عطاء والنَّخَعِىّ والحكم . وآختلفت الرواية عن الشافعىّ ، وهذا أشبه على مذهبه فى هذا البـاب. وقال جابر بن زيد: يقام عليه الحدّ، إلا أن تكون البهيمة له .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ «من» لآستغراق الجنس، أى لم يكن اللّواط فى أمّة قبل قوم لوط . والملحِدون يزعمون أن ذلك كان قبلهم . والصِّدْق ماورد به القرآن . وحكى النقاش أن إبليس كان أَصْل عملهم بأن دعاهم إلى نفسه لعنه الله، فكان ينكح بعضهم بعضا . قال الحسن : كانوا يفعلون ذلك بالغُـرَباء ، ولم يكن يفعله بعضهم ببعض . وروى ابن ماجه عن جابر بن عبـد الله قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ أَخْوَفَ ما أخاف على أمّتى عمل قوم لوط" . وقال محمد بن سِيرين : ليس شىء من الدواب يعملُ عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار .

قوله تعـالى : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى ﴿ إنكم ﴾ قرأ نافع وحفص على الخبر بهمزة واحدة مكسورة، تفسيرا للفاحشة المذكورة، فلم يحسن إدخال الاستفهام عليه لأنه يقطع مابعده مما قبله. وقرأ الباقون بهمزتين على لفظ الاستفهام الذى معناه التوبيخ، وحَسُن ذلك لأن مابعده وقبله كلام مستقل. وآختار الأوّل أبو عبيد والكِسائىّ وغيرهما ؛ واحتجُّوا بقوله عز وجل : «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»[1] ولم يقل أفهم.

(١) آية ٣٤ سورة الأنبياء .

وقال : «أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ»(١) ولم يقل أنقلبتم . وهذا من أقبح الغلط لأنهما شبّها شيئين بما لا يشتبهان ؛ لأن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد كالمبتدأ والخبر ؛ فلا يجوز أن يكون فيهما استفهامان . فلا يجوز : أفإن متّ أفهم ، كما لا يجوز أزيد أمنطلق . وقصة لوط عليه السلام فيها جملتان ، فلك أن تستفهم عن كل واحدة منهما . هذا قول الخليل وسيبويه ، واختاره النحاس ومكّيّ وغيرهما . ﴿ شَهْوَةً ﴾ نصب على المصدر ، أى تشتهونهم شهوة . ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ نظيره « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » فى جمعكم إلى الشرك هذه الفاحشة .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم ﴾ أى لوطا وأتباعه . ومعنى ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عن الإتيان فى هذا المأتى . يقال : تطهّر الرجل أى تنزّه عن الإثم . قال قتادة : عابوهم والله بغير عَيْب . ﴿ مِنَ الغَابِرِينَ ﴾ أى من الباقين فى عذاب الله ؛ قاله ابن عباس وقتادة . غَبر الشيء إذا مضى . وغَبر إذا بَقِىَ ، وهو من الأضداد . وقال قوم : الماضى عابر بالعين غير معجمة . والباقى غابر بالغين معجمة . حكاه ابن فارس . وقال الزجاج : « من الغابرين » أى من الغائبين عن النجاة . وقيل : لطول عمرها . قال النحاس : وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من المعمّرين ؛ أى أنها قد هرِمت . والأكثر فى اللغة أن يكون الغابر الباقى ؛ قال الراجز :

فما وَنَى محمدٌ مُذْ أن غَفَرْ * له الإلهُ ما مضى وما غَبَرْ

قوله تعالى : وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

(١) آية ١٤٤ سورة آل عمران .

سَرَى لُوطٌ بأهله كما وصف الله « بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ »(١) ثم أمر جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونُباح الكلاب ، ثم جعل عاليها سافلها ، وأمطرت عليهم حجارة من سجّيل، قيل على من غاب منهم، وأدرك آمرأة لوط ، وكانت معه حجر فقتلها. وكانت فيما ذُكر أربع قُرًى . وقيل : خمس فيها أربعمائة ألف . وسيأتى فى سورة «هود» قصة لوط بأبين من هذا، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قيل فى مَدْين: آسم بلد وقُطْر . وقيل اسم قبيلة؛ كما يقال : بَكْر وتَميم . وقيل : هم من ولد مَدْين بن إبراهيم الخليل عليه السلام . فمن رأى أن مَدْين آسم رجل لم يَصرفه لأنه معرفة أعجمىّ . ومن رآه آسما للقبيلة أو الأرض فهو أحْرَى بألا يصرفه . قال المهدَوىّ : ويُروى أنه كان ابن بنت لوط . وقال مَكّىّ : كان زوج بنت لوط . وآختُلف فى نسبه ؛ فقال عطاء وابن إسحاق وغيرهما : وشعيب هو آبن ميكيل بن يشجر بن

(١) آية ٨١ سورة هود .

مدين بن إبراهيم عليه السلام . وكان آسمه بالسُّرْيانية بيروت . وأمه ميكائيل بنت لوط . وزعم الشَّرقِيّ بن القُطَامِيّ أن شعيبا بن عيفـاء بن يَوْبَب بن مدين بن إبراهيم . وزعم ابن سمعان أن شـعيبا بن جزى بن يشجر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وشـعيب تصغير شَعْب أو شِعْب(١) . وقال قتادة : هو شعيب بن يوبب . وقيل : شعيب بن صفوان بن عيفـاء بن ثابت بن مـدين بن إبراهيم(٢) . والله أعلم . وكان أعمى؛ فلذلك قال قومه : « وإنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا(٣) » . وكان يقال له : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه . وكان قومه أهل كفر بالله وبخس للكيال والميزان .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى بيـان ، وهو مجىء شـعيب بالرسالة . ولم يذكر له معجزة فى القرآن . وقيل : معجزته فيما ذكر الكسائى فى قصص الأنبياء .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس : النقص. وهو يكون فى السِّلعة بالتعييب والتزهيـد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيـال فى التزيّد فى الكيل والنقصان منه . وكلّ ذلك من أكل المـال بالباطل ، وذلك مَنْهِىٌّ عنه فى الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ عطف على « ولا تبخسوا » . وهو لفظ يعمّ دقيق الفساد وجليله . قال ابن عباس : كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيبا رسـولا يُعمل فيها بالمعاصى وتُستَحلّ فيها المحارم وتُسفك فيها الدماء . قال : فذلك فسادها . فلما بعث الله شعيبا ودعاهم إلى الله صَلَحت الأرض . وكل نبىّ بُعث إلى قومه فهو صلاحهم .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ نهاهم عن القعود بالطرق والصَّدّ عن الطريق الذى يؤدّى إلى طاعة الله ، وكانوا يُوعِدون العذاب من آمن . واختلف العلمـاء فى معنى قعودهم على الطرق على ثلاثة معان؛ فقال آبن عباس وقَتادة ومُجاهد والسُّدّى : كانوا

(١) فى شرح القاموس : « تصغير شعب أو أشعب ؛ كما قالوا فى تصغير أسود سويد » . (٢) وردت هذه الأسماء مضطربة فى نسخ الأصـل وفى المصادر التى بين أيدينا . ولم نوفق لضبطها . (٣) آية ٩١ سورة هود .

يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجىء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه؛ كما كانت قريش تفعله مع النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا ظاهر الآية. وقال أبو هريرة: هذا نَهْىٌ عن قطع الطريق، وأخذ السَّلَب؛ وكان ذلك من فعلهم. ورُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رأيت ليلة أُسْرِىَ بِي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته فقلت ما هذا ياجبريل قال هذا مَثَلٌ لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه — ثم تلا — ولا تقعدوا بكل صراط توعدون" الآية. وقد مضى القول في اللُّصُوص والمحاربين، والحمد لله (١). وقال السُّدِّى أيضا: كانوا عشّارين متقبّلين. ومثلهم اليوم هؤلاء المكّاسون الذين يأخذون من الناس مالا يلزمهم شرعا من الوظائف المالية بالقهر والجبر؛ فضمنوا مالا يجوز ضمان أصله من الزكاة والمواريث والملاهى. والمترتبون فى الطرق إلى غير ذلك مما قد كثر فى الوجود وعُمِل به فى سائر البلاد. وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غَصْب وظُلْم وعَسْف على الناس وإذاعةٌ للمنكر وعمل به ودوام له وإقرار له، وأعظمه تضمين الشرع والحكم للقضاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لم يبق من الإسلام إلا رسمه، ولا من الدِّين إلا آسمه. يَعْضُد هذا التأويل ماتقدم من النهى فى شأن المال فى الموازين والأكيال والبخس.

قوله تعالى: ﴿ من آمن بِهِ ﴾ الضمير فى « به » يحتمل أن يعود إلى آسم الله، وأن يعود إلى شعيب فى قول من رأى القعود على الطريق للصّد، وأن يعود على السبيل. ﴿ عِوَجًا ﴾ قال أبو عبيدة والزجاج: كسر العين فى المعانى. وفتحها فى الأجرام.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أى كثّر عددكم، أو كثّركم بالغنى بعد الفقر. أى كنتم فقراء فأغناكم. ﴿ فاصْبِرُوا ﴾ ليس هذا أمرا بالمقام على الكفر، ولكنه وعيد وتهديد. وقال: ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ ﴾ فذكّر على المعنى، ولو راعى اللفظ قال: كانت.

---

(١) فى قوله تعالى: « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ... » آية ٣٣ سورة المائدة. راجع جـ ٦ ص ١٤٧ طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى : قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ تقدم معناه . ومعنى ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى لتصيرن إلى ملتنا . وقيل : كان أتباع شعيب قبل الإيمان به على الكفر ، أى لتعودن إلينا كما كنتم من قبل . قال الزجاج : يجوز أن يكون العَوْد بمعنى الابتداء ؛ يقال : عاد إلىّ من فلان مكروه ، أى صار ، وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك ، أى لحقنى ذلك منه . فقال لهم شعيب : ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أى ولو كنا كارهين تجبروننا عليه ، أى على الخروج من الوطن أو العَوْد فى مِلتكم . أى إن فعلتم هذا أتيتم عظيما .

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ إياس من العَوْد إلى مِلّتهم . ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج : أى إلا بمشيئة الله عز وجل ، قال : وهذا قول أهل السُّنة ؛ أى وما يقع منا العَوْد إلى الكفر إلا أن يشاء الله ذلك . فالاستثناء منقطع . وقيل : الاستثناء هنا على جهة التسليم لله عز وجل ؛ كما قال : « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ » . والدليل على هذا أن بعده « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا » . وقيل : هو كقولك لا أكلمك حتى يبيضّ الغُرَاب ، وحتى يلج الجمل فى سَمّ الخياط . والغراب لا يبيضّ أبدا ، والجمل لا يلج .

قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي علِم ما كان وما يكون . «عِلْمًا» نصب على التمييز. وقيل : المعنى «وما يكون لنا أن نعود فيها» أي في القرية بعد أن كرهتم مجاورتنا، بل نخرج من قريتكم مهاجرين إلى غيرها . « إلا أن يشاء الله» ردّنا إليها . وفيه بُعْد ، لأنه يقال : عاد للقرية ولا يقال عاد في القرية .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أي آعتمدنا . وقد تقدّم في غير موضع.[1] ﴿ رَبَّنَا آفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ قال قتادة : بعثه الله إلى أُمّتين : أهل مَدْين ، وأصحاب الأَيْكة.[2] قال ابن عباس : وكان شعيب كثير الصلاة ، فلما تمادى قومُه في كفرهم وغيّهم ، ويئس من صلاحهم، دعا عليهم فقال : « رَبَّنَا افتح بيننا وبين قومنا بِالحقّ وأنت خير الفاتحين » . فآستجاب الله دعاءه فأهلكهم بالرجفة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي وقالوا لِمَن دُونَهم . ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ أي هالكون . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أي الزلزلة . وقيل : الصيحة . وأصحاب الأيكة أُهلِكوا بالظُّلّة[3] ، على ما يأتي .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ قال الجُرجانيّ : قيل هذا كلام مستأنف ؛ أي الذين كذبوا شعيبا صاروا كأنهم لم يزالوا مَوْتَى . و «يَغْنَوْا» يُقيموا ؛ يقال :

(١) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الأيكة : الشجر الكثير الملتف .
(٣) غيم تحته سموم .

غَنِيت بالمكان إذا أقمت به . وغَنِى القوم فى دارهم أى طال مُقامهم فيها . والمَغْنَى : المنزل، والجمع المغانى . قال لَبِيد :

وغَنِيت سِتًّا قبل مَجْرَى داحِس * لو كان للنفس اللَّجُوج خُلود

وقال حاتم طىّ :

غَنِينا زمانا بالتَّصعْلُك والغِـنَى * [كما الدّهرُ فى أيامه العُسْرُ واليسرُ] (١)

[كسِينا صروف الدهر لِينًا وغلظة] (١) * وكُلًّا سـقاناه بكأسيهما الدهر

فما زادنا بَغْيًا على ذى قـرابة * غِنَانَا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ابتـداء خطاب، وهو مبالغة فى الذم والتوبيخ وإعادة لتعظيم الأمر وتفخيمه . ولما قالوا : من آتبع شعيبا خاسر قال الله الخاسرون هم الذين قالوا هذا القول. ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أى أحزن. أسِيت على الشىء أسًى، وأنا آس .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ ﴾ فيـه إضمار، وهو فكذّب أهلها إلا أخذناهم . ﴿ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ تقدّم القول فيـه (٢) . ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ أى أبدلناهم بالجَدْب خِصْبًا . ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أى كَثُروا، عن ابن عباس . وقال ابن زيد : كَثُرت أموالهُم وأولادهم . وعفا : من الأضداد . عفا : كثر . وعفا : درس . أعلم الله تعالى أنه أخذهم بالشدّة والرخاء فلم يَزْدَجِروا ولم يشكروا . ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ فنحن مثلهم . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة ليكون أكثر حسرة .

(١) التكملة عن ديوان حاتم . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣ طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ﴾ يقال للمدينة قَرْية لاجتماع الناس فيها . من قريت الماء إذا جمعته . وقد مضى فى «البقرة» مُسْتَوْفًى[1] . ﴿ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا . ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ أى الشرك . ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعنى المطر والنبات . وهذا فى أقوام على الخصوص جَرَى ذكرهم . إذ قد يُمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرا لذنوبهم . ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا[2]» . وعن هود «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا[3]» . فوعدهم المطرَ والخِصْبَ على التخصيص . يدلّ عليه ﴿ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى كذبوا الرسل . والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا .

قوله تعالى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف . نظيره : «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ[4]» . والمراد بالقرى مكة وما حولها ؛ لأنهم كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو عام فى جميع القُرَى . ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ بَيَاتًا ﴾ أى ليلا «وهم نائمون» . ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ قرأه الحَرَمِيّان وابن عامر بإسكان الواو للعطف ، على معنى الإباحة ؛ مثل «وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا[5]» . جالس الحسن أو ابن سيرين . والمعنى : أو أمنوا هذه الضروب من العقوبات . أى إن أمنتم ضَرْبًا منها لم تأمنوا الآخر .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ١٠ و ١١ سورة نوح .
(٣) آية ٥٢ سورة هود . (٤) آية ٥٠ سورة المائدة . (٥) آية ٢٤ سورة الإنسان .

ويجوز أن يكون « أو » لأحد الشيئين، كقولك : ضربت زيدا أو عمـرا . وقرأ الباقون بفتحها بهمزة بعـدها . جعلها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام ؛ نظيره «أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا»(١) . ومعنى ﴿ ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي وهم فيما لا يُجْدى عليهم ؛ يقال لكل من كان فيما يضره ولا يجدى عليه لاعب ، ذكره النحاس . وفي الصحاح . اللَّعِب معروف ، واللَّعْب مثله . وقد لَعِب يَلْعب . وتلعَّب : [لَعِب](٢) مرّة بعد أخرى . ورجل تِلْعَابة : كثير اللَّعِب ، والتَّلْعاب (بالفتح) المصدر . وجارية لَعوب .

قوله تعالى : أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩)

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أي عذابه وجزاءه على مكرهم . وقيل : مَكْرُه استدراجه بالنعمة والصحة .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ أي يُبَيِّن . ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ ﴾ يريد كفار مكة ومَن حولهم . ﴿ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ أي أخذناهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم . ﴿ وَنَطْبَعُ ﴾ أي نحن نطبع ؛ فهو مستأنف . وقيـل : هو معطوف على أصبنا ، أي نصيبهـم ونطبع ؛ فوقع الماضي موقع المستقبل .

قوله تعالى : تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠١)

(١) آية ١٠٠ سورة البقرة . (٢) زيادة عن كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى ﴾ أى هذه القرى التى أهلكناها ؛ وهى قُرَى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب المتقدّمة الذكر . ﴿ نَقُصُّ ﴾ أى نتلو . ﴿ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ أى من أخبارها . وهى تسلية للنبيّ عليه السلام والمسلمين . ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أى فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد هلاكهم لو أحييناهم ؛ قاله مجاهد . نظيره « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا »(١) . وقال ابن عباس والرّبيع : كان فى علم الله تعالى يوم أخذ عليهم الميثاق أنهم لا يؤمنون بالرسل . ﴿ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ يريد يوم الميثاق حين أخرجهم من ظهر آدم فآمنوا كرها لا طَوْعا . قال السُّدّى : آمنوا يوم أخذ عليهم الميثاق كرها فلم يكونوا ليؤمنوا الآن حقيقة . وقيل : سألوا المعجزات ، فلما رأوها ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل رؤية المعجزة . نظيره « كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ »(٢) . ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى مثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد عليه السلام .

قوله تعالى : وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

« مِنْ » زائدة ، وهى تدلّ على معنى الجنس ؛ ولولا « مِن » لجاز أن يتوهّم أنه واحد فى المعنى . قال ابن عباس : يريد العهد المأخوذ عليهم وقت الذّر ، ومَن نَقَض العهد قيل له إنه لا عهد له ، أى كأنه لم يعهد . وقال الحسن : العهد الذى عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . وقيل : أراد أن الكفار منقسمون ؛ فالأكثرون منهم مَن لا أمانة له ولا وفاء ، ومنهم من له أمانة مع كفره وإن قلّوا ؛ رُوِى عن أبى عبيدة .

قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

---

(١) آية ٢٨ سورة الأنعام .　　(٢) آية ١١٠ سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم ﴾ أى من بعد نوح وثمود وصالح ولوط وشعيب . ﴿ مُوسَى ﴾ أى موسى بن عمران . ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى بمعجزاتنا . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى كفروا ولم يصدّقوا بالآيات . والظلم : وَضْع الشيء فى غير موضعه .

قوله تعالى : ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى آخر أمرهم .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ
عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

﴿ حَقِيقٌ عَلَيَّ ﴾ أى واجب . ومن قرأ « عَلَى أَلَّا » فالمعنى حريص على ألا أقول . وفى قراءة عبد الله « حَقِيقٌ أَلّا أقول » بإسقاط « على » . وقيل : « على » بمعنى الباء ، أى حقيق بألّا أقول . وكذا فى قراءة أُبَيّ والأعمش « بألّا أقول » . كما تقول : رميت بالقوس وعلى القوس . فـ « حقيق » على هذا بمعنى محقوق . ومعنى « فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى خلّهم . وكان يستعملهم فى الأعمال الشاقة . ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ ﴾ يُستعمل فى الأجسام والمعانى . وقد تقدّم (١) . والثعبان : الحَيّة الضخم الذكَر ، وهو أعظم الحيات . ﴿ مُبِينٌ ﴾

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

أى حيّة لا لبس فيها . ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى أخرجها وأظهرها . قيل : من جيبه أو من جناحه؛ كما فى التنزيل « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ »(١) أى من غير برص . وكان موسى أسمر شديد السُّمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول . قال ابن عباس : كان لِيَدِه نور ساطع يضىء ما بين السماء والأرض . وقيل : كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تَلُوح ، فإذا ردّها عادت إلى مثل سائر بدنه . ومعنى ﴿ عَلِيمٍ ﴾ أى بالسحر . ﴿ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أى من مُلْكِكم معاشِرَ القبط ، بتقديمه بنى إسرائيل عليكم . ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى قال فرعون : فماذا تأمرون . وقيل : هو من قول الملأ ؛ أى قالوا لفرعون وحده : فماذا تأمرون . كما يخاطَب الجبّارون والرؤساء : ما تَرَوْن فى كذا . ويجوز أن يكون قالوا له ولأصحابه . و « ما » فى موضع رفع ، على أن « ذا » بمعنى الذى . وفى موضع نصب ، على أن « ما » و « ذا » شىء واحد . ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ ﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم والكسائىّ بغير همز ؛ إلّا أن وَرْشًا والكسائِىّ أشبعا كسرة الهاء . وقرأ أبو عمرو بهمزة ساكنة والهاء مضمومة . وهما لغتان ؛ يقال : أرجأته وأرجيته ، أى أخّرته . وكذلك قرأ ابن كَثير وابن مُحَيْصِن وهِشام ؛ إلا أنهم أشبعوا ضَمّة الهاء . وقرأ سائر أهلِ الكوفة « أَرْجِهْ » بإسكان الهاء . قال الفرّاء : هى لغة للعرب ، يقفون على الهاء المكنِىّ عنها فى الوصل إذا تحرّك ما قبلها ، وكذا هَـذِهْ طلحةُ قد أقبلت . وأنكر البصريون هـذا . قال قتادة : معنى « أرجه » آحبسه . وقال ابن عباس : أخّره . وقيل : « أرجِه » مأخوذ من رجا يرجو ؛ أى أَطْمِعه ودَعْه يرجو ؛ حكاه النحاس عن محمد ابن يزيد . وكسرُ الهاء على الإتباع . ويجوز ضَمّها على الأصل . وإسكانها لحن(٢) لا يجوز إلا فى شذوذ من الشعر . ﴿ وأخاهُ ﴾ عطف على الهاء . ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ يَأْتُوكَ ﴾ جزم ؛ لأنه جواب الأمر ، ولذلك حذفت منه النون . قرأ أهل الكوفة إلاعاصما « بِكل سَحّارٍ » وقرأ سائر الناس « ساحِرٍ » وهما متقاربان ؛ إلا أنّ فعّالا أشد مبالغة .

---

(١) آية ١٢ سورة النمل .

(٢) كذا فى الأصول و إعراب القرآن للنحاس . و يلاحظ أنها قراءة أهل الكوفة .

قوله تعالى : وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ وحُذف ذِكر الإرسال لعلم السامع . قال ابن عبد الحكم : كانوا اثنى عشر نَقِيبا ، مع كل نَقِيب عشرون عَرِيفا، تحت يدى كلّ عريف ألفُ ساحرٍ . وكان رئيسهم شمعون فى قول مقاتل بن سليمان . وقال ابن جُريج : كانوا تسعمائة من العَرِيش والفيّوم والإسكندرية أثلاثا . وقال ابن إسحاق : كانوا خمسة عشر ألف ساحر؛ وروى عن ابن وهب . وقيل : كانوا اثنى عشر ألفا . وقال آبن المنكدر: ثمانين ألفا . وقيل : أربعة عشر ألفا . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الرِّيف ، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد ، وثلثمائة ألف ساحر من الفيُّوم وما والاها . وقيل : كانوا سبعين رجلا . وقيل : ثلاثة وسبعين ؛ فآلله أعلم . وكان معهم فيما رُوِى حِبالٌ وعِصِىّ يحملها ثلثمائة بعير ، فآلتقمت الحيّة ذلك كلَّه . قال آبن عباس والسُّدّى : كانت إذا فتحت فاهَا صار شِدْقُها ثمانين ذراعا ؛ واضعة فكَّها الأسفل على الأرض، وفكّها الأعلى على سُور القصْر . وقيل : كان سعة فِمها ثمانين ذراعا ؛ فآلله أعلم . فقصدت فرعونَ لتبتلعه ، فوثب من سريره فهرب منها واستغاث بموسى ؛ فأخذها فإذا هى عَصًا كما كانت . قال وهب : مات من خوف العَصَا خمسة وعشرون ألفا . ﴿ قَالُوا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أى جائزةً ومالا . ولم يقل فقالوا بالفاء؛ لأنه أراد لما جاءوا قالوا . وقرئ «إن لنا» على الخبر . وهى قراءة نافع وابن كثير. ألزموا فرعونَ أن يجعل لهم مالا إن غَلَبُوا؛ فقال لهم فرعون : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أى لَمِن أهل المنزلة الرفيعة لدينا؛ فزادهم على ما طلبوا. وقيل : إنهم إنما قطعوا ذلك لأنفسهم فى حكمهم إن غَلَبُوا . أى قالوا : يجب لنا الأجر إن غَلَبنا . وقرأ الباقون بالآستفهام على جهة الإخبار . استخبروا فرعون : هل يجعل لهم أجرا إن غَلبوا أولا ؛ فلم يقطعوا على فرعون بذلك، إنما استخبروه هل يفعل ذلك؛ فقال لهم « نعم » لكم الأجر والقُرْب إن غلبتم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾

تأدّبوا مع موسى عليه السلام فكان ذلك سببَ إيمانهم . و « أنْ » في موضع نصب عند الكسائيّ والفرّاء ، على معنى إما أن تفعل الإلقاء . ومثلُه قول الشاعر :

* قالوا الرُّكوبَ فقالوا تلك عادتنا[1] *

﴿ قَالَ أَلْقُوا ﴾ قال الفرّاء : في الكلام حذف . والمعنى : قال لهم موسى إنكم لن تَغْلِبوا ربّكم ولن تُبطلوا آياته . وهذا من معجز القرآن الذي لا يأتي مثله في كلام الناس ، ولا يقدرون عليه . يأتي اللفظ اليسير بجمع المعاني الكثيرة . وقيل : هو تهديد . أي ابتدِئوا بالإلقاء ، فسترون ما يحلّ بكم من الافتضاح ؛ إذ لا يجوز على موسى أن يأمرهم بالسحر . وقيل : أمرهم بذلك ليبيّن كذبهم وتمويههم . ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ أي الحبال والعِصِيّ . ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أي خيّلوا لهم وقلبوها عن صحة إدراكها ، بما يُتخيّل من التمويه الذي جرى مجرى الشَّعوذة وخفة اليد ؛ كما تقدّم في « البقرة »[2] بيانه . ومعنى ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي عندهم ؛ لأنه كان كثيرا وليس بعظيم على الحقيقة . قال ابن زيد : كان الاجتماع بالإسكندرية فبلغ ذَنَب الحيّة وراء البحيرة . وقال غيره : وفتحت فاها فجعلت تلقف — أي تلتقم — ما ألقَوْا من حبالهم وعِصيّهم . وقيل : كان ما ألقوا حبالا من أَدَم فيها زئبق فتحرّكت وقالوا هذه حيّات . وقرأ حَفْص « تَلْقَف » بإسكان اللام والتخفيف . جعله مستقبل لَقِفَ يَلْقَف . قال النحاس : ويجوز على هذه القراءة «تِلْقَف» لأنه من لَقِف . وقرأ الباقون بالتشديد وفتح اللام ، وجعلوه مستقبل تَلَقّف ؛ فهي تَتَلَقّف . يقال لَقِفت الشيء وتلقّفته إذا أخذته أو بلعته . تلقّف وتلقّم

(١) هذا صدر بيت وتمامه : * أو النزول فانا معشر نزل *

(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

وتَلْهَم بمعنًى واحد . قال أبو حاتم : وبلغنى فى بعض القراءات « تَلَقّم » بالميم والتشديد . قال الشاعر :

أنت عَصَا موسى التى لم تزل * تَلَقَّم ما يأفكه الساحر

ويروى : تلقف . ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أى ما يكذبون، لأنهم جاءوا بحبال وجعلوا فيها زِئْبقا حتى تحركت .

قوله تعالى : فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ قال مجاهد : فظهر الحق . ﴿ وَٱنقلبوا صاغِرِينَ ﴾ نصب على الحال . والفعل منه صَغِر يَصْغَر صَغَرًا وصِغَرًا وصَغارا (١) . أى انقلب قوم فرعونَ وفرعونُ معهم أذِلّاء مَقْهورين مغلوبين . فأمّا السحرة فقد آمنوا .

قوله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ إنكار منه عليهم . ﴿ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ أى جرت بينكم وبينه مُواطاة فى هذا لتستولوا على مصر، أى كان هـذا منكم فى مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء .

(١) هو من باب فرح وكرُم .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد لهم . قال ابن عباس : كان فرعون أوّلَ من صَلَب، وقَطَع الأيدي والأرْجُل من خلاف، الرِّجل اليُمْنَى واليد اليسرى، واليد اليمنى والرجل اليسرى؛ عن الحسن .

﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ قرأ الحسن بفتح القاف . قال الأخفش : هي لغة؛ يقال : نَقِمت الأمر ونَقَمته أنكرته؛ أي لست تكره منا سوى أن آمنا بالله وهو الحق .

﴿ لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ آياته و بيناته . ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ الإفراغ الصَّبّ؛ أي آصببه علينا عند القطع والصلب . ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ فقيل : إن فرعون أخذ السحرة وقطعهم على شاطئ النهر، وإنه آمن بموسى عند إيمان السحرة ستمائة ألف .

قوله تعالى : وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي بإيقاع الفرقة وتشتيت الشَّمل . ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ بنصب الراء جواب الاستفهام، والواو نائبة عن الفاء . ﴿ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال الحسن : كان فرعون يعبد الأصنام؛ فكان يَعْبُد و يُعْبَد . قال سليمان التيمي : بلغني أن فرعون كان يعبد البقر . قال التيمي : قلت للحسن هل كان فرعون يعبد شيئا ؟ قال نعم ، إنه كان يعبد شيئا كان قد جعله في عنقه . وقيل : معنى « وآلهتك » أي وطاعتك ؛ كما قيل في قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »[(1)] إنهم ما عبدوهم ولكن أطاعوهم ؛ فصار تمثيلا . وقرأ نُعيم بن ميسرة «وَيَذَرُكَ» بالرفع على تقدير وهو يَذَرُكَ . وقرأ الأشهب العقيلي « وَيَذْرْكَ » مجزوما مخفف يذرُك لثقل الضمة . وقرأ أنس

(١) آية ٣١ سورة التوبة .

ابن مالك « ونذرك » بالرفع والنون . أخبروا عن أنفسهم أنهم يتركون عبادته إن ترك موسى حيًّا . وقرأ عليّ بن أبي طالب وابن عباس والضحّاك « وإلاهتك » ومعناه وعبادتك . وعلى هذه القراءة كان يُعبَد ولا يَعبُد ، أي و يترك عبادته لك . قال أبو بكر الأنباريّ : فمن مذهب أصحاب هذه القراءة أن فرعون لمّا قال « أنا ربكم الأعلى » . «وما علمتُ لكم من إلهٍ غيري» نفى أن يكون له رب وآلهة . فقيل له : و يذرك و إلاهتك؛ بمعنى و يتركك وعبادة الناس لك . وقراءة العامة « وآلهتك » كما تقدّم، وهى مبنية على أن فرعون آدّعى الرُّبُو بيّة فى ظاهر أمره وكان يعلم أنه مَرْبُوب . ودليل هذا قوله عند حضور الحِمام « آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ[(١)] » فلم يُقبل هذا القول منه بعد إغلاق التو بة . وكان قبل هذه الحال له إله يعبده سرًّا دون رب العالمين جل وعز؛ قاله الحسن وغيره . وفى حرف أُبَىّ « أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فى الأرض وقد تَرَكُوكَ أن يَعْبُدُوك » . وقيل : « وآلهتك » قيل كان يعبد بقرة، وكان إذا آستحسن بقرة أمر بعبادتها ، وقال : أنا ربكم ورب هذه . ولهذا قال «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا[(٢)] » . ذكره ابن عباس والسُّدّى . قال الزّجاج : كان له أصنام صغار يعبدها قومه تقرُّبًا إليه فنُسبت إليه ؛ ولهذا قال « أنا رَبُّكم الأَعْلَى » . قال إسماعيل بن إسحاق : قول فرعون « أنا ربُّكم الأَعْلَى » . يدلّ على أنهم كانوا يعبدون شيئا غيره . وقد قيل : إن المراد بالإلاهة على قراءة ابن عباس البقرة التى كان يعبدها . وقيل : أرادوا بها الشمس وكانوا يعبدونها . قال الشاعر :

* وأعجلْنا الإلاهةَ أن تؤُوبا *

ثم آنس قومه فقال ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ بالتخفيف، قراءة نافع وابن كثير . والباقون بالتشديد على التكثير . ﴿ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أى لانخافوا جانبهم . ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ آنسهم بهذا الكلام . ولم يقل سنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه . وعن سعيد بن جُبير قال : كان فرعون قد مُلِئ من موسى رُعْبًا ؛ فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار . ولما بلغ قوم

(١) آية ٩٠ سورة يونس . (٢) آية ٨٨ سورة طه .

موسى من فرعون هذا قال لهم موسى ﴿ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أطمعهم فى أن يورثهم الله أرض مصر. ﴿ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى الجنة لمن آتقى. وعاقبة كل شيء: آخره، ولكنها إذا أُطْلقت فقيل العاقبة لفلان فهم منه فى العُرْف الخير.

قوله تعالى: قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ أى فى ابتداء ولادتك بقتل الأبناء وآسترقاق النساء. ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أى والآن أعيد علينا ذلك؛ يعنون الوعيد الذى كان من فرعون. وقيل الأذى من قبل: تسخيرهم لبنى إسرائيل فى أعمالهم إلى نصف النهار، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم. والأذى من بعد: تسخيرُهم جميع النهار كله بلا طعام ولا شراب؛ قاله جُوَيْبِر. وقال الحسن: الأذى من قبلُ ومن بعدُ واحد، وهو أخذ الجزية. ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ «عسى» من الله واجب؛ حدّد لهم الوعد وحقّقه. وقد استُخلِفوا فى مصر فى زمان داود وسليمان عليهما السلام، وفتحُوا بيت المقدس مع يُوشَع بن نون؛ كما تقدّم. ورُوى أنهم قالوا ذلك حين خرج بهم موسى وتبعهم فرعون فكان وراءهم والبحر أمامهم؛ فحقّق الله الوعد بأن غرّق فرعون وقومه وأنجاهم. ﴿ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تقدّم نظائره. أى يرى ذلك العمل الذى يجب به الجزاء؛ لأن الله لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، إنما يجازيهم على ما يقع منهم.

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ يعنى الجُدوب. وهذا معروف فى اللغة؛ يقال: أصابتهم سَنَة، أى جَدْب. وتقديره جَدْبُ سنة. وفى الحديث: "اللّهمّ

"اجعلها عليهم سنين كسني يوسف" . ومن العرب من يُعرب النون في السنين ؛ وأنشد الفرّاء :

أرى مرّ السنينِ أخذن منّي * كما أخذ السِّرار(١) من الهلال

قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون ؛ ولكن أنشد في هذا ما لا يجوز غيره ، وهو قوله :

* وقد جاوزت رأس الأربعينِ *

وحكى الفرّاء عن بني عامر أنهم يقولون : أقمتُ عنده سنيناً يا هذا ؛ مصروفا . قال : وبنو تميم لا يصرفون ويقولون : مضت له سنينُ يا هذا . وسنين جمع سنة ، والسنة هنا بمعنى الجَدْب لا بمعنى الحَوْل . ومنه أسنَتَ القوم أى أجْدَبُوا . قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

عَمْرُو العُلَا هَشَمَ الثَّرِيد لقومه * ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عِجَافُ(٢)

﴿ لعلهم يذّكّرون ﴾ أى ليتعظوا وترق قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣١)

فيـه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أى الخِصْب والسَّعة . ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أى أُعْطيناها باستحقاق . ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أى قَحْط ومرض ، وهى المسألة : —

الثانيـة — ﴿ يطّيّروا بموسى ﴾ أى يتشاءموا به . نظيره « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ(٣) » . والأصل « يتطيروا » أدغمت التاء فى الطاء . وقرأ طلحة « تطيّروا » على أنه فعل ماض . والأصل فى هذا من الطِّيَرَة وزَجْر الطَّير ، ثم كثُر استعمالهم حتى قيل لكل

(١) السرار والسرر (بفتح السين وكسرها فيهما) : الليلة التى يستتر فيها القمر . (٢) يريد به هاشم ابن عبد مناف أبا عبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمي عمرا . (٣) آية ٧٨ سورة النساء .

من تشاءم : تَطيَّر . وكانت العرب تتيمّن بالسّانح، وهو الذى يأتى من ناحية اليمين . وتتشاءم بالبارح ، وهو الذى يأتى من ناحية الشّمال . وكانوا يتطيّرون أيضا بصوت الغراب، ويتأوّلونه البَيْن . وكانوا يستدِلون بمجاوبات الطيور بعضِها بعضًا على أمور ، وبأصواتها فى غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك . وهكذا الظِّباء إذا مضت سانحة أو بارحة ، ويقولون إذا بَرَحت : « مَن لِى بالسّانح بعد البارح » (١) . إلّا أنّ أقوى ما عنـدهم كان يقع فى جميع الطير؛ فسمّوا الجميع تَطيُّرًا من هــذا الوجه . وتطيّر الأعاجمُ إذا رأوا صبيًّا يُذهب به إلى المُعلِّم بالغـداة ، ويتيمّنون برؤية صبىّ يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السقّاء على ظهره قربةٌ مملوءةٌ مشدودة ، ويتيمّنون برؤية فارغ السِّقاء مفتوحه ، ويتشاءمون بالحمّال المثقل بالحِمْـل ، والدابة المُوقَرة (٢) ، ويتيمّنون بالحمّال الذى وضع حِمله ، وبالدابة يُحَطّ عنها ثِقْلُها . فجاء الإسلام بالنّهى عن التّطيُّر والتشاؤم بمـا يُسمع من صوتِ طائرٍ ما كان ، وعلى أىّ حال كان ؛ فقـال عليه السلام : " أقِرّوا الطير على مَكِناتها " (٣) . وذلك ان كثيرا من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير فى وَكْرها فنفّرها ؛ فإن أخذت ذات اليمين مضى لحاجته ، وهذا هو السانح عندهم . وإن اخذت ذات الشّمال رجع ، وهـذا هو البارح عندهم . فنَهى النبىّ صـلى الله عليه وسـلم عن هذا بقوله : " أقِرّوا الطير على مَكِناتها " هكذا فى الحديث . وأهل العربية يقولون " وُكُناتها " قال آمرؤ القيس :

* وقد أغتدِى والطّيرُ فى وُكُناتها *

والوُكْنة : آسم لكلّ وَكْرٍ وعُش . والوَكْن : موضع الطائر الذى يبيض فيه ويُفرِخ، وهو الخرق فى الحيطان والشجر . ويقال : وَكَن الطائر يَكِن وُكونا إذا حضن بيضه . وكان أيضـا من العرب من لا يرى التطيّر شيئا، ويمدحون من كذّب به . قال المُرَقِّش :

(١) هذا مثل يضرب للرجل يسىء الرجل؛ فيقال له : إنه سوف يحسن إليك . وأصل ذلك أن رجلا مرت به ظباء بارحة فقيل له سوف تسنح لك ؛ فقال : من لى ... الخ . (٢) الدابة الموقرة : التى عليها حمل ثقيل ؛ والموقرة أيضا : التى أصابها الوقرة ، وهى صدع فى الساق . (٣) مكناتها (بكسر الكاف وقد تفتح) : أى بيضها . وهى فى الأصل بيض الضباب . وقيل : على أمكنتها ومساكنها . قال شمر : والصحيح فى قوله « على مَكِناتها » أنها جمع المَكِنة ، والمَكِنة التمكّن . وقال الزمخشرى : ويروى « مُكُناتها » جمع مُكُن، ومُكُن جمع مكان .

ولقـد غَدَوْتُ وكنتُ لا * أغـدُو على وَاقٍ وحاتِم[(١)]

فإذا الأشـائِمُ كالأيا * مِنِ والأيامِنُ كالأشائم

وقال عكرمة : كنت عند ٱبن عباس فمرّ طائر يصيح ؛ فقـال رجل من القوم : خير ، خير . فقـال ٱبن عباس : ما عند هـذا لا خير ولا شر . قال علمـاؤنا : وأما أقوال الطير فلا تعلّق لها بمـا يجعل دلالة عليـه . ولا لهـا علم بكائن فضـلًا عن مسـتقبل فتُخبِر به . ولا فى الناس من يعلم منطق الطير ؛ إلا ما كان الله تعالى خصّ به سليمان عليـه السلام من ذلك . فٱلتحق التطيّر بجملة الباطل . والله أعلم . وقال عليـه السلام : "ليس مِنّا من تحلّم[(٢)] أو تكهّن أو ردّه عن سـفره تطيّر" . وروى أبو داود عن عبـد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "الطِّيَرة شرك — ثلاثا — وما مِنا إلّا[(٣)] ولكِنّ الله يذهبه بالتوكّل" . وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَن رجّعته الطِّيرة عن حاجته فقـد أشرك" . قيل : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟ قال : "أن يقول أحدهم اللّهُمّ لا طَيْرَ إلا طَيْرُكَ ولا خَيْرَ إلّا خَيْرُكَ ولا إله غيرك ثم يمضى لحاجته" . وفى خبر آخر : "إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللّهمّ لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قُوّةَ إلا بك" . ثم يذهب متوكّلا على الله ؛ فإن الله يكفيه ما وجد فى نفسه من ذلك ، وكفاه الله تعالى ما يُهِمّه . وقد تقدّم فى « المـائدة » الفرق بين الفأل والطيرة[(٤)] . ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ وقرأ الحسن « طَيْرُهُم » جمع طائر . أى ما قُدِّر لهم

---

(١) الواق (بكسر القاف) : الصُّرَد ، وهو طائر أبقع ضخم الرأس يكون فى الشجر ، نصفه أبيض ونصفه أسود . والحاتم : الغراب الأسود .

(٢) تحلم : إذا ادعى الرؤيا كاذبا .

(٣) كذا فى مسند أبى داود وبعض نسخ الأصل . قال ابن الأثير : « هكذا جاء فى الحـديث مقطوعا ، ولم يذكر المستثنى . أى إلا وقـد يعتريه التطير ، وتسبق إلى قلبه الكراهة ؛ فحذف اختصارا واعتمادا على فهم السامع ... وقوله : "ولكن الله يذهبه بالتوكل" معناه أنه إذا خطر له عارض التطير فتوكل على الله وسـلم إليه ولم يعمل بذلك الخاطر غفره الله له ولم يؤاخذه به » . وفى بعض نسخ الأصـل : « ... وما منا إلا من تطير ... » الخ .

(٤) راجع المسألة التاسـعة عشرة فى قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة ... » جـ ٦ ص ٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

وعليهم . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عز وجل بذنوبهم لا من عند موسى وقومه .

قوله تعالى : وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ ﴾ أى قال قوم فرعون لموسى « مهما » . قال الخليل : الأصل ما ، ما ؛ الأولى للشرط ، والثانية زائدة توكيدا للجزاء ؛ كما تزاد فى سائر الحروف ، مثلُ إمّا وحيثما وأيما وكيفما . فكرهوا حرفين لفظهما واحد ؛ فأبدلوا من الألف الأولى هاء فقالوا مهما . وقال الكسائى : أصله مَهْ ؛ أى اكفف ، ما تأتنا به من آية . وقيل : هى كلمة مفردة ، يجازى بها ليُجزم ما بعدها على تقدير إنْ . والجواب « فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » ﴿ لِتَسْحَرَنَا ﴾ لتصرفنا عما نحن عليه . وقد مضى فى « البقرة »(١) بيان هذه اللفظة . قيل : بقِىَ موسى فى القبط بعد إلقاء السحرة سُجَّدًا عشرين سنة يُريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون ، فكان هذا قولهم .

قوله تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — روى إسرائيل عن سِماك عن نَوْف الشامى قال : مكث موسى عليه السلام فى آل فرعون بعد ما غلب السحرةَ أربعين عاما . وقال محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن مِنجاب : عشرين سنة ، يريهم الآيات : الجراد والقُمّل والضفادع والدّم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ الطُّوفَانَ ﴾ أى المطر الشديد حتى عامُوا فيه . وقال مجاهد وعطاء : الطوفان الموت . قال الأخفش : واحدته طوفانة . وقيل : هو مصدر كالرُّجحان

(١) راجع جـ ٢ ص ٥٠ طبعة ثانية .

والنُّقصان ؛ فلا يطلب له واحد . قال النحاس : الطوفان فى اللغة ما كان مُهلِكًا من موت أو سَيْل ؛ أى ما يُطيف بهم فيهلكهم . وقال السُّدّى : ولم يُصب بنى إسرائيل قطرةٌ من ماء، بل دخل بيوتَ القبط حتى قاموا فى الماء إلى تَراقيهم (١)، ودام عليهم سبعةَ أيام . وقيل : أربعين يوما . فقالوا : ادع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك؛ فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان فلم يؤمنوا . فأنبت الله لهم فى تلك السنة مالم يُنبته قبل ذلك من الكلإ والزرع . فقالوا : كان ذلك الماء نعمة؛ فبعث الله عليهم الجراد وهو الحيوان المعروف ، جمع جرادة فى المذكر والمؤنث . فإن أردت الفصل نعتَّ فقلت رأيت جرادة ذَكَرًا . فأكل زرعهم وثمارهم حتى أنها كانت تأكل السقوف والأبواب حتى تهدِم ديارهم . ولم يدخل دُورَ بنى إسرائيل منها شىء .

الثالثة — وٱختلف العلماء فى قتل الجراد إذا حَلّ بأرض فأفسد؛ فقيل : لا يقتل . وقال أهل الفقه كلهم : يُقتل . ٱحتج الأوّلون بأنه خَلْق عظيم من خلق الله يأكل من رزق الله، ولا يَجْرِى عليه القلم . وبما روى "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم" . وٱحتج الجمهور بأن فى تركها فساد الأموال ، وقد رخّص النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المسلم إذا أراد أخذ ماله ؛ فالجراد إذا أرادت فساد الأموال كانت أَولى أن يجوز قتلها . الا ترى أنهم اتفقوا على أنه يجوز قتل الحية والعقرب لأنهما يؤذيان الناس فكذلك الجراد . روى ٱبن ماجه عن جابر وأنس بن مالك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دَعا على الجراد قال : "اللّهُمّ أهلك كِباره واقتل صغاره وأفسد بيضه وٱقطع دابره وخُذْ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء" . قال رجل : يارسول الله، كيف يدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ قال : "إن الجراد نَثْرة (٢) الحوت فى البحر" .

الرابعة — ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : غَزَوْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه . ولم يختلف العلماء فى أكله على الجملة،

(١) التراقى : جمع الترقوة، وهى عظم وصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين . (٢) النثرة : شبه العطسة .

وأنه إذا أخذ حَيًّا وقطعت رأسه أنه حلال باتفاق . وأن ذلك يتنزّل منه منزلة الذكاة فيه .
وإنما اختلفوا هل يحتاج إلى سبب يموت به إذا صِيد أم لا ؛ فعامّتهم على أنه لا يحتاج إلى ذلك ، ويؤكل كيفما مات . وحكمه عندهم حكم الحِيتان ، وإليه ذهب ابن نافع ومُطَرِّف . وذهب مالك إلى أنه لا بُدّ له من سبب يموت به ؛ كقطع رءوسه أو أرجله أو أجنحته إذا مات من ذلك ، أو يُصْلَق أو يطرح في النار ؛ لأنه عنده من حيوان البر فَمَيْتَتُه محرّمة . وكان اللّيث يكره أكل ميّت الجراد ، إلا ما أخذ حَيًّا ثم مات فإن أخذه ذكاة . وإليه ذهب سعيد بن المُسَيَّب . روى الدّارَقُطْنِيّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أحِلّ لنا ميتتان الحُوت والجراد ودمان الكَبِد والطُّحال " . وقال ابن ماجه : حدّثنا أحمد ابن مَنيع حدّثنا سفيان بن عُيينة عن أبي سعيد سمع أنس بن مالك يقول : كُنّ أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يتهادَيْن الجراد على الأطباق . ذكره ابن المنذر أيضا .

الخامسة — روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى خلق ألف أُمّة ستمائة منها في البحر وأربعمائة في البر وإن أوّل هلاك هذه الأمم الجراد فإذا هلكت الجراد تتابعت الأمم مثل نظام السِّلك إذا انقطع " . وذكره التِّرمذيّ الحكيم في (نوادر الأصول) قال : وإنما صار الجراد أوّل هذه الأمم هلاكا لأنه خُلق من الطينة التي فَضَلت من طينة آدم . وإنما تهلك الأمم لهلاك الآدميّين لأنها مسخرة لهم .

رجعنا إلى قصة القبط — فعاهدوا موسى أن يؤمنوا لو كُشف عنهم الجراد ، فدعا فكُشف . وكان قد بَقِيَ من زروعهم شيء فقالوا : يكفينا ما بَقِيَ ؛ ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم القُمّل ، وهو صغار الدَّبى ؛ قاله قَتادة . والدَّبى : الجراد قبل أن يطير ، الواحدة دَباة . وأرض مَدْبِيّة إذا أكل الدَّبى نباتها . وقال ابن عباس : القُمّل السُّوس الذي في الحِنطة . وقال ابن زيد : البراغيث . وقال الحسن : دوابّ سود صغار . وقال أبو عبيدة : الحَمْنَان ، وهو ضرب من القُرَاد ، واحدها حَمْنانة . فأكلت دوابّهم وزروعهم ، ولزمت جلودهم كأنها الجُدَرِيّ عليهم ،

ومنعهم النومَ والقَرار . وقال حبيب بن ثابت : القُمّل الجعلان[١] . والقُمّل عند أهـل اللغة ضرب من القِردان . قال أبو الحسن الأعرابيّ العـدويّ : القُمّل دوابّ صغار من جنس القردان؛ إلا أنها أصغر منها، واحدتها قُمّلة . قال النحاس: وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير؛ لأنه يجوز أن تكون هـذه الأشياء كلّها أُرْسلت عليهم، وهى أنها كلها تجتمع فى أنها تؤذيهم . وذكر بعض المفسرين أنه كان بعَيْن شمْس كَثِيب من رمل فضربه موسى بعصـاه فصار قُمَّـلا . واحد القَمْل قَمْلة . وقيل : القُمَّل القَمْل؛ قاله عطاء الخُراسانيّ . وفى قراءة الحسن « والقَمْل » بفتح القاف وإسكان الميم . فتضرّعوا فلما كُشف عنهم لم يؤمنوا؛ فأرسل الله عليهم الضفادع؛ جمع ضِفْدِع[٢] وهى المعروفة التى تكون فى الماء، وقد ورد النهى عن قتلها؛ أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح. أخرجه أبو داود عن أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق. وابن ماجه عن محمد بن يحيى النيسابوريّ الذُّهْليّ عن أبى هريرة قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن قتل الصُّرَد والضِّفْـدع والنملة والهُـدهد . وخرّج النَّسائيّ عن عبد الرحمن ابن عثمان أن طبيبا ذكر ضِفْدعا فى دواء عند النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فنهاه النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتله . صححه أبو محمد عبد الحق . وعن أبى هريرة قال : الصُّرَد أوّل طير صام . ولمّا خرج إبراهيم عليه السلام من الشأم إلى الحَرَم فى بناء البيت كانت السَّكِينة[٣] معه والصرد؛ فكان الصُّرد دليلَه على الموضع ، والسَّكِينة مقداره . فلما صار إلى البقعة وقعت السَّكِينة على موضع البيت ونادت : ٱبْنِ يا إبراهيم على مقدار ظِلّى؛ فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتل الصّرد لأنه كان دليل إبراهيم على البيت، وعن الضفدع لأنها كانت تصبّ الماء على نار إبراهيم . ولمّا تسلّطت على فرعون جاءت فأخذت الأمكنة كلها ، فلما صارت إلى التنّور وَثَبَتْ فيهـا وهى نار تسعر ، طاعةً لله . فجُعل نَقِيقها تسبيحا . يقال : إنهـا أكثر الدواب تسبيحا . وقال عبد الله بن عمرو : لا تقتلوا الضّفدع فإن نقيقه الذى تسـمعون تسبيح . فرُوِى أنها ملأت

(١) الجعلان (بكسر الجيم جمع جُعَل كصرد) وهو دابة سوداء من دواب الأرض .

(٢) الضفدع : بفتح الضاد والدال وبكسرهما وسكون الفاء . (٣) السكينة : ريح نجوج ، أى سريعة المر .

فرشهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم؛ فكان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ، وإذا تكلّم وثب الضّفدع فى فِيه . فشكَوْا إلى موسى وقالوا : نتوب ؛ فكشف الله عنهم ذلك فعادوا إلى كفرهم؛ فأرسل الله عليهم الدم فسال النيل دمًا . وكان الإسرائيليّ يغترف منه الماء، والقبطىُّ الدمَ . وكان الإسرائيلى يَصُبّ الماء فى فمِ القبطى فيصير دمًا ، والقبطىُّ يصب الدم فى فم الإسرائيلى فيصير ماء زلالا . ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ أى مبيّنات ظاهرات؛ عن مجاهد . قال الزجاج : « آيات مفصّلات » نصب على الحال . ويروى أنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام . وقيل : أربعون يوما . وقيل : شهر؛ فلهذا قال « مفصلات » . ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أى ترفّعوا عن الإيمان بالله تعالى .

قوله تعالى : وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ أى العذاب . وقرئ بضم الراء، لغتان . قال ابن جبير : كان طاعونا مات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفا . وقيل : المراد بالرجز ما تقدم ذكره من الآيات . ﴿ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ « ما » بمعنى الذى، أى بما استودعك من العلم، أو بما اختصّك به فنبّأك . وقيل : هذا قسم، أى بعهده عندك إلّا ما دعوت لنا ؛ فـ « بما »[1] صلة . ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ ﴾ أى بدعائك لإلٰهك حتى يكشف عنا . ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ أى نصدّقك بما جئت به . ﴿ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وكانوا يستخدمونهم؛ على ما تقدم . ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ ﴾ يعنى أجلهم الذى ضُرب لهم فى التفريق . ﴿ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أى ينقضون ما عقدوه

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل؛ وظاهر أنها مصدرية .

على أنفسهم . ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ واليمّ البحر . ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا ﴾ أى النقمة . دلّ عليها «فانتقمنا» . وقيل : عن الآيات إن لم يعتبروا بها حتى صاروا كالغافلين عنها .

قوله تعالى : وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ ﴾ يريد بنى إسرائيل . ﴿ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ أى يُسْتَذَلّون بالخدمة . ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ زعم الكِسائى والفرّاء أن الأصل « فى مشارق الأرض ومغاربها » ثم حذف « فى » فنصب . والظاهر أنهم وَرِثوا أرض القبط . فهما نصب على المفعول الصريح؛ يقال : ورِث المال وأورثته المال؛ فلما تعدّى الفعل بالهمزة نصب مفعولين . والأرض هى أرض الشام ومصر . ومشارقها ومغاربها جهاتُ الشرق والغرب بها ، فالأرض مخصوصة؛ عن الحسن وقَتادة وغيرهما . وقيل : أراد جميع الأرض؛ لأن من بنى إسرائيل داود وسليمان وقد ملكا الأرض . ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى بإخراج الزروع والثمار والأنهار . ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ هى قوله « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ »(١) . ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى بصبرهم على أذى فرعون، وعلى أمر الله بعد أن آمنوا بموسى . ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ يقال : عَرَش يَعْرِش إذا بَنَى . قال ابن عباس ومجاهد : أى ما كانوا يبنون من القصور وغيرها . وقال الحسن : هو تعريش الكَرْم . وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم « يَعْرُشون » بضم الراء . قال الكسائىّ : هى لغة تميم . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلَة « يُعَرِّشون » بتشديد الراء وضم الياء .

(١) آية ٥ سورة القصص .

قوله تعالى : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ قرأ حمزة والكسائيّ بكسر الكاف ، والباقون بضمها . يقال : عَكَف يَعكِف ويَعكُف بمعنى أقام على الشيء ولزمه . والمصدر منهما على فُعول . قال قَتادة : كان أولئك القوم من لَخْم ، وكانوا نزولا بالرَّقة . وقيل : كانت أصنامهم تماثيلَ بقر ؛ ولهذا أخرج لهم السامِريّ عجلا . ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ نظيره قول جُهّال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تُسمَّى ذاتَ أنواط (١) يعظّمونها في كل سنة يوما : يا رسول الله ، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط . فقال عليه الصلاة والسلام : " الله أكبر . قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون لتركَبُنّ سَنن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة (٢) حتى إنهم لو دخلوا جحر ضَبّ لدخلتموه " . وكان هذا فى مَخرجه إلى حُنَين ، على ما يأتى بيانه فى « براءة (٣) » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ أى مُهْلَك . والتَّبار : الهلاك . وكل إناء منكسر مُتَبَّر . وأمر مُتَبَّر . أى أن العابد والمعبود مهلكان . وقوله : ﴿ وَبَاطِلٌ ﴾ أى ذاهب

(١) ينوطون بها سلاحهم ، أى يعلقونه .

(٢) القذة : ريش السهم . قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٣) فى قوله تعالى : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة .... » آية ٢٥

ومُضْمَحِل . ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « كانوا » صلة زائدة . ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ أى أطلب لكم إلهًا غيرَ الله تعـالى . يقال : بغيته و بغيت له . ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ أى على عالمِى زمانكم . وقيـل : فضلّهم بإهـلاك عدوهم ، و بمـا خصّهم به من الآيات .

قوله تعالى : وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

ذكّرهم منّته . وقيل : هو خطاب ليهود عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم . أى وآذكروا إذا أنجينا أسلافكم؛ حسب ما تقدّم بيانه فى سورة « البقرة »(١) .

قوله تعالى : وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذكر أن مما كرّم به موسى عليـه السلام هـذا . فكان وعده المناجاة إكرامًا له . ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ قال آبن عباس ومجاهد ومسروق رضى الله عنهم : هى ذو القَعدة وعشر من ذى الحجة . أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيـه بالعبادة؛ فلمـا صامه أنكر خُلوف فَمِـه فآستاك . قيل : بعود خَرْنُوب؛ فقالت الملائكة : إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسّواك . فزيد عليـه عشرُ ليالٍ من ذى الحجة . وقيل : إن الله تعالى أوْحَى إليه لمـا آستاك : " ياموسى لا أكلّمك حتى يعود

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

فُوك إلى ما كان عليه قبلُ . أمَا علمتَ أن رائحة الصائم أحبُّ إليّ من ريح المسك ". وأمره بصيام عشرة أيام . وكان كلام الله تعالى لموسى غداةَ النحر حين فَدَى إسماعيل من الذبح ، وأكمل لمحمد صلى الله عليه وسلم الحج . وحذفت الهاء من عشر لأن المعدود مؤنّث . والفائدة فى قوله « فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » وقد عُلم أن ثلاثين وعشرة أربعون ، لئلا يُتوهّم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها ؛ فبيّن أن العشر سوى الثلاثين . فإن قيل : فقد قال فى البقرة أربعين وقال هنا ثلاثين ؛ فيكون ذلك من البُداء . قيل : ليس كذلك ؛ فقد قال : « وأتممناها بعشر » والأربعون والثلاثون والعشرة قول واحد ليس بمختلف . وإنما قال القولين على تفصيل وتأليف ، قال أربعين فى قولٍ مؤلّف ، وقال ثلاثين ، يعنى شهرا متتابعا وعشرا . وكل ذلك أربعون ؛ كما قال الشاعر :

* عشر وأربع ... *

يعنى أربع عشرة ، ليلة البدر . وهذا جائز فى كلام العرب .

الثانية — قال علماؤنا : دلّت هذه الآية على أن ضَرْب الأجل للواعدة سُنّةٌ ماضية ، ومعنًى قديمٌ أسّسه الله تعالى فى القضايا ، وحَكَم به للأمم ، وعرّفهم به مقادير التأنّى فى الأعمال . وأوّل أجل ضربه الله تعالى الأيام السّتة التى خلق فيها جميع المخلوقات ، « وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ »(١) . وقد بيّنا معناه فيما تقدم فى هذه السورة من قوله : « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ »(٢) . قال ابن العربىّ : فإذا ضُرب الأجل لمعنًى يحاوَل فيه تحصيلُ المؤجَّل فجاء الأجل ولم يتيسّر زِيد فيه تبصرةً ومعذرة . وقد بيّن الله تعالى ذلك لموسى عليه السلام فضرب له أجلا ثلاثين ثم زاده عشرا تتمّة أربعين . وأبطأ موسى عليه السلام فى هذه العشر على قومه ؛ فما عَقَلوا جواز التأنّى والتأخر حتى قالوا : إن موسى ضلّ أو نَسِىَ ، ونكثوا عهده و بدّلوا بعده ، وعبدوا إلهًا غيرَ الله . وقال ابن عباس : إن موسى قال لقومه : إنّ ربّى وعدنى ثلاثين ليلة أن ألقاه ، وأُخلُف فيكم

(١) آية ٣٨ سورة ق . (٢) آية ٥٤

هارون ، فلمـا فَصَل(١) موسى إلى ربّه زاده الله عشرا ؛ فكانت فتنتهم فى العشر الذى زاده الله بما فعلوه من عبادة العجل ، على ما يأتى بيانه . ثم الزيادة التى تكون على الأجل تكون مقدّرة ؛ كما أن الأجل مقدّر . ولا يكون إلا بآجتهاد من الحاكم بعد النّظر إلى المعانى المتعلّقة بالأمر: من وقت وحال وعمل ، فتكون مثل ثلث المدة السالفة ؛ كما أجّل الله لموسى . فإن رأى الحاكم أن يجمع له الأصل فى الأجل والزيادة فى مدة واحدة جاز ، ولكن لابُدّ من التربّص بعـدها لمـا يطرأ من العـذر على البشر ؛ قاله ابن العربى . روى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " أعْذَر الله إلى آمرئ أخّر أجله حتى بلّغه ستين سنة(٢) " .

قلت : وهذا أيضا أصلٌ لأعذار الحُكّام إلى المحكوم عليه مرّة بعد أخرى . وكان هذا لُطْفًا بالخلق ، ولينفّذ القُيّام عليهم بالحق . يقال . أعْذَر فى الأمر أى بالغ فيه ؛ أى أعذر غاية الإعذار الذى لا إعذار بعده . وأكبر الإعذار إلى بنى آدم بعثة الرسـل إليهم لتتم حُجّته عليهم ؛ « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا(٣) » . وقال : «وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ(٤)» قيل: هم الرسل. ابن عباس : هو الشّيب ، فإنه يأتى فى سِنّ الآكتهال ، فهو علامة لمفارقة سِنّ الصِّبا . وجعل الستين غاية الإعذار لأن الستين قريب من معترَك العبـاد ، وهو سن الإنابة والخشوع والآستسلام لله ، وترقّب المنيّة ولقاء الله ؛ ففيه إعذار بعد إعذار . الأوّل بالنبىّ عليه السلام ، والثانى بالشّيب ؛ وذلك عند كمال الأربعين ؛ قال الله تعالى : « وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَـنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ(٥) » . فذكر عز وجل أن من بلغ أربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها . قال مالك : أدركت أهـل العلم ببلدنا ، وهم يطلبون الدنيا ويخالطون النـاس حتى يأتى لاحدهم أربعون سنة ؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس .

الثالثـــة ــ ودلّت الآية أيضـا على أن التاريخ يكون بالليالى دون الأيام ؛ لقوله : « ثَلَاثِينَ لَيْـلَةً » لأن الليالى أوائل الشهور . وبهـا كانت الصحابة رضى الله عنهم تخبر عن

(١) فصل : خرج . (٢) أى لم يبق فيه موضعا للاعتذار حيث أمهله طول هذه المدة ولم يعتذر .
(٣) آية ١٥ سورة الإسراء . (٤) آية ٣٧ سورة فاطر . (٥) آية ١٥ سورة الأحقاف .

الأيام؛ حتى رُوى عنها أنها كانت تقول : صمنا خمسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . والعجم تخالف فى ذلك، فتحسُب بالأيام لأن معوّلها على الشمس . ابن العربىّ : وحسابُ الشمس للمنافع، وحسابُ القمر للمناسك؛ ولهذا قال: « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » . فيقال: أرّخت تاريخا، وورّخت توريخا؛ لغتان .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ المعنى : وقال موسى حين أراد المُضِىّ للمناجاة والمَغيب فيها لأخيه هارون : كُنْ خليفتى؛ فدلّ على النيابة . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وَقّاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلىّ حين خلّفه فى بعض مغازيه : "أمَا تَرْضَى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى" . فاستدلّ بهذا الروافضُ الإماميّـة وسائرُ فِرقِ الشِّيعَة على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم استخلف عَلِيًّا على جميع الأمة ؛ حتى كفّر الصحابةَ الإماميةُ — قبحهم الله — لأنهم عندهم تركوا العمل الذى هو النّص على استخلاف علىّ واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم . ومنهم من كَفّر عَلِيًّا إذ لم يقم بطلب حقه . وهؤلاء لا شك فى كفرهم وكُفْر مَن تبعهم على مقالتهم، ولم يعلموا أن هذا استخلافٌ فى حياةٍ، كالوَكالة التى تنقضى بعزل الموكِّل أو بموته، لا يقتضى أنه متمادٍ بعد وفاة ؛ فينحلّ على هـذا ماتعلق به الإمامية وغيرهُم . وقد استخلف النبىّ صلى الله عليه وسلم على المدينة ابنَ أمّ مَكْتُوم وغيرَه . ولم يلزم من ذلك استخلافه دائما بالاتفاق . على أنه قد كان هارون شُرِّك مع موسى فى أصل الرسالة ، فلا يكون لهم فيـه على ماراموه دِلالة . والله الموفق للهداية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ أمرٌ بالإصلاح . قال ابن جُرَيج : كان من الإصلاح أن يزجر السامرِىّ ويغيّر عليه . وقيـل : أى ارفق بهم، وأصلح أمرهم، وأصلح نفسك؛ أى كن مصلحا . ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ لا تسلك سبيل العاصين، ولا تكن عونا للظالمين .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ أى فى الوقت الموعود . ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ أى أسمعه كلامه من غير واسطة . ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ سأل النّظر إليه ؛ وٱشتاق إلى رؤيته لمّا أسمعه كلامه . ف﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾ أى فى الدنيا . ولا يجوز الحمل على أنه أراد : أرنى آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ؛ لأنه قال « إليك » و« قال لن ترانى » . ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل ، كما أعطاه سائر الآيات . وقد كان لموسى عليه السلام فيها مَقْنَع عن طلب آية أخرى ؛ فبطل هذا التأويل . ﴿ وَلَكِنِ ٱنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ضَرب له مثالا مما هو أقوى من بنيته وأثبت . أى فإن ثبت الجبل وسكن فسوف ترانى ، وإن لم يسكن فإنك لاتطيق رؤيتى ، كما أن الجبل لايطيق رؤيتى . وذكر القاضى عِياض عن القاضى أبى بكر بن الطّيب ما معناه : أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خَرَّ صَعِقا ، وأن الجبل رأى ربّه فصار دكًّا بإدراكٍ خلقه الله له . وٱستنبط ذلك من قوله : « ولكن ٱنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى » . ثم قال ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ وتجلّى معناه ظهر ؛ من قولك : جَلَوْت العروس أى أبرزتها . وجَلَوْت السيف أبرزته من الصّدأ ؛ جِلاءً فيهما . وتجلّى الشىء ٱنكشف . وقيل : تجلّى أمره وقدرته ؛ قاله قُطْرُب وغيره . وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة « دَكًّا » . يدلّ على صحتها « دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا »(1) وأن الجبل مذكر . وقرأ أهل الكوفة « دَكَّاء » أى جعله مثل أرض دكاء ، وهى الناتئة لا تبلغ أن تكون جبلا . والمذكّر أدَكّ . وجمع دكاء دكّاوات ودُكّ ؛ مثل

---

(1) آية ٢١ سورة الفجر .

حَمْراوات وحُمْر . قال الكسائى : الدَّكّ من الجبال : العِراض ، واحدها أدَكّ . غيره : والدَّكاوات جمع دَكّاء : روابٍ من طين ليست بالغِلاظ . والدَّكادك كذلك من الرمل : ما التبد بالأرض فلم يرتفع . وناقة دَكّاء لا سَنام لها . وفى التفسير : فساخ الجبل فى الأرض ، فهو يذهب فيها حتى الآن . وقال ابن عبـاس : جعله ترابا . عَطِيّـة العَوْفى : رملا هائلا . ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ أى مغشيًّا عليه ؛ عن ٱبن عباس والحسن وقتادة . وقيل : ميتا ؛ يقال : صَعِق الرجل فهو صَعِق . وصُعِق فهو مصعوق . وقال قتادة والكلْبىّ : خَرّ موسى صَعِقا يومَ الخميس يوم عَرَفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النَّحر . ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ قال مجاهد : من مسألة الرؤية فى الدنيا . وقيل : سأل من غير ٱستئذان ؛ فلذلك تاب . وقيل : قاله على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات . وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية ؛ فإن الأنبياء معصومون . وأيضا عند أهل السنة والجماعة الرؤيةُ جائزةٌ . وعند المبتدِعة سأل لأجل القوم ليبيّن لهم أنها غير جائزة ، وهـذا لا يقتضى التوبة . فقيل : أى تبت إليك من قتل القبطى ؛ ذكره القُشَيْرِىّ . وقد مضى فى « الأنعام »[(1)] بيان أن الرؤية جائزة . قال علىّ بن مهدِىّ الطبرىّ : لو كان سؤال موسى مستحيلا ما أقدم عليه مع معرفته بالله ؛ كما لم يجز أن يقول له يا ربّ ألك صاحبة وولد . وسيأتى فى « القيامة » مذهب المعتزلة والردّ عليهم ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : من قومى . وقيل : من بنى إسرائيل فى هذا العصر . وقيل : بأنك لا تُرى فى الدنيا لوعدك السابق فى ذلك . وفى الحديث الصحيح من حديث أبى هريرة وغيره أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " لا تُخَيِّروا بين الأنبياء فإن الناس يَصْعَقون يوم القيامة فأرفع رأسى فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أصعق فيمن صعق فأفاق قبلى أو حُوسب بصعقته الأولى " . أو قال " كفته صعقته الأولى " . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن كعب قال : إن الله تبارك وتعـالى قسّم كلامه

(١) آية ١٠٣ ص ٥٤ من هذا الجزء .

ورؤيته بين محمد وموسى صلى الله عليهما؛ فكلّمه موسى مرّتين، ورآه محمد صلى الله عليه وسلم مرّتين .

قوله تعالى : قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ الاصطفاء : الاجتباء ؛ أى فضّلتك . ولم يقل على الخلق لأن من هذا الاصطفاء أنه كلّمه وقد كلّم الملائكة ، وأرسله وأرسل غيره . فالمراد « على الناس » المرسل إليهم . وقرأ « برسالتى » على الإفراد نافعٌ وآبنُ كَثير . والباقون بالجمع . والرسالة مصدر، فيجوز إفرادها . ومن جمع على أنه أرسل بضروب من الرسالة فاختلفت أنواعها ، فجمع المصدر لاختلاف أنواعه ؛ كما قال : « إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ » (١) . فجمع لاختلاف أجناس الأصوات واختلاف المصوتين . ووحّد فى قوله « لَصَوْتُ » لما أراد به جنسا واحدا من الأصوات . ودلّ هذا على أن قومه لم يشاركه فى التكليم ولا واحد من السبعين ؛ كما بيناه فى « البقرة » (٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ إشارة إلى القناعة ؛ أى اقنع بما أعطيتك . ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى من المظهرين لإحسانى إليك وفضلى عليك ؛ يقال : دابة شَكُور إذا ظهر عليها من السِّمن فوق ما تُعْطَى من العَلَف . والشاكر معرّض للمزيد كما قال : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » (٣) . ويروى أن موسى عليه السلام مكث بعد أن كلّمه الله تعالى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور الله عز وجل .

قوله تعالى : وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

---

(١) آية ١٩ سورة لقمان . (٢) راجع ج ٢ ص ١ طبعة ثانية . (٣) آية ٧ سورة إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد التوراة . ورُوى فى الخبر أنه قبض عليه جبريلُ عليه السلام بجناحه فمرّ به فى العُلَا حتى أدناه حتى سمع صَرِيف القلم حين كتب الله له الألواح ؛ ذكره التِّرمذِيّ الحكيم . وقال مجاهد : كانت الألواح من زُمُرُّدة خضراء . ابن جُبير : من ياقوتة حمراء . أبو العالية : من زَبَرْجَد . الحسن : من خشب ؛ نزلت من السماء . وقيل : من صخرة صمّاء ، ليّنها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقّقها بأصابعه ؛ فأطاعته كالحديد لداود . قال مُقاتل : أى كتبنا فى الألواح كنقش الخاتم . ربيع بن أنس : نزلت التوراة وهى سبعون وِقْر[1] بعير . وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف ؛ إذ هى مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذى كتب به الذّكر . وٱستمدّ من نهر النور . وقيل : هى كتابة أظهرها الله وخلقها فى الألواح . وأصل اللّوح : اللّمح (بفتح اللام) ؛ قال الله تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »[2] . فكأن اللّوح تلوح فيه المعانى . ويروى أنها لوحان ، وجاء بالجمع لأن الٱثنين جمع . ويقال : رجل عظيم الألواح إذا كان كبيرَ عظم اليدين والرجلين . ابن عباس : وتكسّرت الألواح حين ألقاها فرفعت إلا سُدْسها . وقيل : بقى سُبُعُها ورفعت ستّة أسباعها . فكان فى الذى رفع تفصيل كل شىء ، وفى الذى بقِى الهدى والرحمة . وأسند أبو نعيم الحافظ عن عمرو بن دِينار قال : بلغنى ان موسى بن عِمران نبىّ الله صلى الله عليه وسلم صام أربعين ليلة ؛ فلما ألقى الألواح تكسّرت فصام مثلها فردّت إليه . ومعنى ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاج إليه فى دينه من الأحكام وتبيين الحلال والحرام ؛ عن الثَّوْرِيّ وغيره . وقيل : هو لفظ يُذكر تفخيما ولا يراد به التعميم ؛ تقول : دخلت السّوق فٱشتريت كل شىء . وعند فلان كلّ شىء . وتُدمّر كلّ شىء . وأوتيت كل شىء . وقد تقدم . ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى لكل شىء أمِروا به من الأحكام ؛ فإنه لم يكن عندهم اجتهاد ، وإنما خصّ بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فقلنا له خذها

(١) الوقر (بكسر الواو) : الحمل الثقيل . وعم بعضهم به الثقيل والخفيف وما بينهما .

(٢) آخر سورة البروج .

بقوة؛ أى بجِدّ ونشاط . نظيره « خُذُوا مَا آتَيْنَا كُمْ بِقُوَّةٍ » (١) وقد تقدّم . ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ أى يعملوا بالأوامر ويتركوا النواهى ، ويتدبّروا الأمثال والمواعظ . نظيره « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » (٢) . وقال : « فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » (٣) . والعفـو أحسنُ من الاقتصاص . والصبر أحسن من الانتصار . وقيل : أحسنها الفرائض والنوافل . وأدونها المباح . ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال الكلبي : « دار الفاسقين » ما مرّوا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود ، والقرون التى أهلكوا . وقيـل : هى جهنم؛ عن الحسن ومجاهـد . أى فلتكن منكم على ذُكْر ، فاحْذَرُوا أن تكونوا منهـا . وقيل : أراد به مصر ؛ أى سأريكم ديار القِبط ومسا كن فرعون خاليةً عنهم؛ عن ابن جُبير . قَتادة: المعنى سأريكم منازل الكفار التى سكنوها قبلكم من الجبابرة والعمالقة لتعتبروا بها ؛ يعنى الشأم . وهذان القولان يدل عليهما « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ » (٤) الآية . « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ » (٥) الآية ، وقد تقدّم . وقرأ ابن عباس وقَسَامة بن زهير « سأورثكم » من ورِث . وهذا ظاهر . وقيل : الدار الهلاك ، وجمعه أدوار . وذلك أن الله تعـالى لمـا أغرق فرعون أوْحى إلى البحر أن اقذف بأجسادهم إلى الساحل، قال ففعل؛ فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم هلاك الفاسقين .

قوله تعـالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٥٥ سورة الزمر .
(٣) آية ١٨ سورة الزمر . (٤) آية ١٣٧ من هذه السورة . (٥) آية ٥ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ قال قتادة: سأمنعهم فَهْمَ كتابى . وقاله سُفيان بن عُيينة . وقيل : سأصرفهم عن الإيمان بها . وقيل : سأصرفهم عن نفعها ؛ وذلك مجازاة على تكبّرهم . نظيره : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ (١) » . والآيات على هذا المعجزاتُ أو الكتبُ المنزّلة . وقيل : خَلْق السموات والأرض . أى أصرفهم عن الاعتبار بها . ﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ يَرَوْن أنهم أفضل الخلق . وهذا ظنّ باطل ؛ فلهذا قال : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فلا يتبعون نبيًّا ولا يَصْغون إليه لتكبّرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ يعنى هؤلاء المتكبرون . أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتّبعون سبيل الغيّ والضلال ؛ أى الكفر يتخذوه دِينا . ثم علّل فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك الفعل الذى فعلته بهم بتكذيبهم . ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ أى كانوا فى تركهم تدبّر الحق كالغافلين . ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يُجازون به ؛ كما يقال : ما أغفل فلان عما يراد به . وقرأ مالك بن دِينار « وإن يُروا » بضم الياء فى الحرفين ؛ أى يفعل ذلك بهم . وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة « سَبِيلَ الرُّشْد » بضم الراء وإسكان الشين . وأهل الكوفة إلا عاصما « الرَّشَد » بفتح الراء والشين . قال أبو عبيد : فرّق أبو عمرو بين الرُّشْد والرَّشَد فقال : الرُّشْد فى الصلاح . والرَّشَد فى الدّين . قال النحاس : « سيبويه يذهب إلى أن الرُّشْد والرَّشَد مثل السُّخْط والسَّخَط ، وكذا قال الكسائى . والصحيح عن أبى عمرو غيرُ ما قال أبو عبيد . قال إسماعيل بن إسحاق : حدّثنا نصر بن علىّ عن أبيه عن أبى عمرو بن العلاء قال : إذا كان الرُّشْد وسط الآية فهو مسكّن ، وإذا كان رأس الآية فهو محرّك . قال النحاس : يعنى برأس الآية نحو « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (٢) » فهما عنده لغتان بمعنًى واحد ؛ إلا أنه فتح هذا لتتفق الآيات . ويقال : رَشَد يَرْشُد ، ورَشُد يَرْشُد . وحكى سيبويه رَشِد يَرْشَد . وحقيقة الرُّشْد والرَّشَد فى اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد ، وهو ضدّ الخيبة » .

---

(١) آية ٥ سورة الصف . (٢) آية ١٠ سورة الكهف .

قوله تعالى : وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد خروجه إلى الطُّور . ﴿ من حُلِيِّهِمْ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأهلِ البصرة . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « من حِلِيِّهِمْ » بكسر الحاء . وقرأ يعقوب « من حَلْيِهِمْ » بفتح الحاء والتخفيف . قال النحاس : جمع حَلْيٍ حُلِيٌّ وحِلِيٌّ ؛ مثل ثَدْى وثُدِيّ وثِدِيّ . والأصل « حلُوى » ثم أدغمت الواو فى الياء فآنكسرت اللام لمجاورتها الياء ، وتكسر الحاء لكسرة اللام . وضمها على الأصل . ﴿ عِجْلًا ﴾ مفعول . ﴿ جَسَدًا ﴾ نعت أو بدل . ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ رفع بالابتداء . يقال : خار يَخُور خُوارًا إذا صاح . وكذلك جَارَ يَجْأَر جُؤارا . ويقال : خَوِر يَخْوَر خَوَرا إذا جَبُن وضَعُف . ورُوِى فى قصص العجل : أن السّامِرِىّ ، وآسمه موسى بن ظفر، ينسب إلى قرية تدعى سَامِرة . وُلد عام قَتْل الأبناء، وأخفته أمه فى كهف جبل فغذّاه جبريل فعرفه لذلك ؛ فأخذ حين عبر البحر على فرس وَدِيق[(١)] ليتقدّم فرعونَ فى البحر قبضةً من أثر حافر الفرس . وهو معنى قوله « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ[(٢)] » . وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوما، فلما أبطأ فى العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبنى إسرائيل وكان مطاعا فيهم : إن معكم حُلِيًّا من حُلِىّ آل فرعون ، وكان لهم عيد يتزيّنون فيه ويستعيرون من القبط الحُلِىّ فاستعاروا لذلك اليوم ؛ فلما أخرجهم الله من مصر وغرّق القبط بَقِىَ ذلك الحُلِىّ فى أيديهم ، فقال لهم السّامِرِىّ : إنه حرام عليكم ، فهاتوا ما عندكم فنحرقه . وقيل : هذا الحلىّ ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق ، وأن هارون قال لهم : إن الحُلِىّ غنيمة ، وهى لا تَحِلّ لكم ؛ فجمعها فى حُفْرة حَفَرها فأخذها السّامِرِىّ . وقيل : استعاروا الحلىّ ليلة أرادوا الخروج من مصر، وأوهموا القبط أن لهم عرسا أو مجتمعًا،

(١) أى تشتهى الفحل . (٢) آية ٩٦ سورة طه .

وكان السّامِرِىّ سمع قولهم «ٱجْعَل لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» . وكانت تلك الآلهة على مثال البقر؛ فصاغ لهم عجلا جسدا ، أى مُصْمَتًا؛ غير أنهم كانوا يسمعون منه خُوارا . وقيل : قلبه الله لحما ودما . وقيل : إنه لما ألقى تلك القبضة من التراب فى النار على الحُلِىّ صار عجلا له خُوار؛ فخار خَوْرة واحدة ولم يُثَنّ . ثم قال للقوم : «هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ»(١) . يقول : نَسِيَه ها هنا وذهب يطلبه فضلّ عنه؛ فتعالَوْا نعبد هذا العجل . فقال الله لموسى وهو يناجيه : «فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ»(٢) . فقال موسى : يا ربّ، هذا السامرى أخرج لهم عجلا من حليهم، فمن جعل له جسدا ! يريد اللحم والدم ، ومن جعل له خوارا ! فقال الله : أنا . فقال : وعزّتك وجلالك ما أضلّهم غيرُك . قال : صدقت يا حكيم الحكماء . وهو معنى قوله : «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ»(٣) . وقال القفّال : كان السّامِرِىّ احتال بأن جوّف العجل ، وكان قابل به الريح، حتى جاء من ذلك ما يحاكى الخُوار، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح فى الجسد من التراب الذى كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل . وهذا كلام متهافت؛ قاله القُشَيْرِىّ .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بيّن أن المعبود يجب أن يتّصف بالكلام . ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أى طريقا إلى حجة . ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ أى إلها . ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أى لأنفسهم فيما فعلوا من اتخاذه . وقيل : وصاروا ظالمين أى مشركين لجعلهم العجل إلها .

قوله تعالى : وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى بعد عَوْد موسى من الميقات . يقال للنادم المتحيّر : قد سُقط فى يده . قال الأخفش : يقال سُقط فى يده، وأُسقط . ومن قال: سَقط فى أيديهم على بناء الفاعل؛ فالمعنى عنده : سَقط الندم؛ قاله الأزهرى والنحاس وغيرهما .

---

(١) آية ٨٨ سورة طه . (٢) آية ٨٥ سورة طه . (٣) آية ١٥٥ من هذه السورة .

والندم يكون فى القلب ، ولكنه ذكر اليد لأنه يقال لمن تحصّل على شىء : قد حَصل فى يده أمر كذا ؛ لأن مباشرة الأشياء فى الغالب باليد؛ قال الله تعالى : « ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ »(١) . وأيضا : الندم و إن حَلّ فى القلب فأثره يظهر فى البدن ؛ لأن النادم يعضّ يده، و يضرب إحدى يديه على الأخرى؛ قال الله تعالى : « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا »(٢) أى ندم . « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ »(٣) أى من الندم . والنادم يضع ذقنه فى يده . وقيل : أصله من الاستئسار، وهو أن يضرب الرجلُ الرجلَ أو يصرعه فيرمى به من يديه إلى الأرض ليأسره أو يكتّفه ؛ فالمرمىّ به مسقوط فى يد الساقط . ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ أى آبتلوا بمعصية الله . ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أخذوا فى الإقرار بالعبودية والاستغفار . وقرأ حمزة والكسائىّ « لئن لَمْ ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا » بالتاء على الخطاب . وفيه معنى الاستغاثة والتضرّع والآبتهال فى السؤال والدعاء . « ربَّنا » بالنصب على حذف النداء . وهو أيضا أبلغ فى الدعاء والخضوع . فقراءتهما أبلغ فى الآستكانة والتضرّع، فهى أَوْلى .

قوله تعالى : وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ لم ينصرف « غَضْبَانَ » لأن مؤنّثه غَضْبَى ، ولأن الألف والنون فيه بمنزلة ألفى التأنيث فى قولك حمراء . وهو نصب على الحال . و « أَسِفًا » شديد الغضب . قال أبو الدَّرداء : الأسف منزلةٌ وراء الغضب أشد من ذلك . وهو أَسِف وأسيف وأَسْفان وأُسُوف . والأسيف أيضا الحزين . ابن عباس

(١) آية ١٠ سورة الحج . (٢) آية ٤٢ سورة الكهف . (٣) آية ٢٧ سورة الفرقان .

والسُّدّى : رجع حزينا من صنيع قومه . وقال الطبرِىّ : أخبره الله عز وجل قبل رجوعه أنهم قد فُتِنوا بالعجل؛ فلذلك رجع وهو غضبان . ابن العربِىّ : وكان موسى عليه السلام من أعظم الناس غضبا، لكنه كان سريعَ الفَيئة (١) ؛ فتلك بتلك . قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : كان موسى عليه السلام إذا غَضِب طلع الدُّخَان من قَلَنْسُوَتِه، ورفع شعرُ بدنه جُبَّتَه . وذلك أن الغضب جَمْرة تتوقّد فى القلب . ولأجله أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم مَن غَضب أن يضطجع ، فإن لم يذهب غضبُه آغتسل ؛ فيُخْمِدها اضطجاعُه و يطفئها اغتساله . وسُرْعةُ غضبه كان سببا لصَكّه مَلَكَ الموت ففقأ عينَه . وقد تقدّم فى « المائدة » (٢) ما للعلماء فى هذا . وقال الترمذىّ الحكيم : و إنما آستجاز موسى عليه السلام ذلك لأنه كليم الله؛ كأنه رأى أن من آجترأ عليه أو مدّ إليه يدا بأذًى فقد عَظُم الخطب فيه . ألا ترى أنه آحتجّ عليه فقال : من أين تنزِع روحى ؟ أمن فِى وقد ناجيت به ربى! أمْ مِن سمعى وقد سمعتُ به كلام رَبِّى ! أمْ مِن يدى وقد قبضتُ منه الألواح ! أمْ مِن قدمى وقد قمتُ بين يديه أكلمه بالطُّور ! أمْ مِن عينى وقد أشرق وجهى لنوره . فرجع إلى ربّه مُفْحَمًا. وفى مُصَنَّف أبى داود عن أبى ذَرّ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا : "إذا غَضِب أحدكم وهو قائم فلْيجلس فإن ذهب عنه الغضب و إلا فلْيضطجع" . وروى أيضا عن أبى وائل القاص قال : دخلنا على عروة بن محمد السّعدىّ فكلمه رجل فأغضبه ؛ فقام ثم رجع وقد توضأ ، فقال : حدّثنى أبى عن جدّى عطيّة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ الغضب من الشيطان و إنّ الشيطان خُلق من النار و إنما تُطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فلْيتوضأ" .

قوله تعالى : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى ﴾ ذَمٌّ منه لهم ؛ أى بئس العملُ عمِلتم بعدى . يقال : خَلَفه ؛ بما يكره . ويقال فى الخير أيضا . يقال منه : خَلَفه بخير أو بشر فى أهله وقومه

(١) الفيئة (بفتح الفاء وكسرها) : الحالة من الرجوع عن الشيء الذى يكون قد لابسه الإنسان و باشره .

(٢) فى قوله تعالى : « قال فإنها محرمة عليهم ... » آية ٢٦ ج ٦ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

بعـد شخوصه . ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ أى سبقتموه . والعَجَلة : التقدّم بالشىء قبـل وقته، وهى مذمومة . والسرعة : عَمَل الشىء فى أول أوقاته ، وهى محمودة . قال يعقوب : يقال عجلت الشىء سبقته . وأعجلت الرجل ٱستعجلته ، أى حملته على العجلة . ومعنى « أَمْرَ رَبِّكُمْ » أى ميعاد ربكم ، أى وعد أربعين ليلة . وقيل : أى تعجّلتم سخط ربكم . وقيل : أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمرٌ من ربكم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ أى مما ٱعتراه من الغضب والأسف حين أشرف على قومه وهم عا كفون على عبادة العجل، وعلى أخيه فى إهمال أمرهم؛ قاله سعيد بن جُبير . ولهذا قيل : ليس الخبر كالمعاينة . ولا التفات لمـا رُوى عن قَتادة إن صح عنه . ولا يصح أنّ إلقاءه الألواح إنما كان لِمـا رأى فيها من فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن ذلك لأُمّته . وهذا قول ردىء لا ينبغى أن يضاف إلى موسى عليه السلام . وقد تقدّم عن ٱبن عباس رضى الله عنه أن الألواح تكسّرت، وأنه رُفع منها التفصيل وبَقِىَ الهدى والرحمة .

الثانيـــة — وقـد ٱستدلّ بعض جُهّال المتصوّفة بهذا على جواز رَمْى الثياب إذا ٱشتد طربُهم على المُغَنّى . ثم منهم من يرمى بها صِحاحا، ومنهم من يخَرقها ثم يرمى بها . قال : هؤلاء فى غيبة فلا يُلامون ؛ فإن موسى عليه السـلام لمـا غلب عليـه الغم بعبادة قومه العجلَ ، رمى الألواح فكسرها، ولم يدر ما صنع . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : من يصحّح عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْىَ كاسر ، والذى ذُكر فى القرآن ألقاها فمن أين لنا أنها تكسرت . ثم لو قيل تكسرت فمن أين لنا أنه قصـد كسرها . ثم لو صححنا ذلك عنه قلنا كان فى غيبة ، حتى لو كان بين يديه بحر من نار لخـاضه . ومَن يصحّح لهؤلاء غيبتهم وهم يعرفون المغنى من غيره ، ويحذرون من بئر لو كانت عندهم . ثم كيف تقاس أحوال الأنبياء على أحوال هؤلا السفهاء . وقد سئل ابن عقيل عن تواجدهم وتخريق ثيابهم فقال : خطأ وحرام ؛ وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إضاعة المـال . فقال له قائل : فإنهم لا يعقلون ما يفعلون . فقال :

إن حضروا هذه الأمكنة مع علمهم أن الطَّرَب يغلِب عليهم فيزيل عقولهم أثموا بما أدخلوه على أنفسهم من التخريق وغيره مما أفسدوا، ولا يسقط عنهم خطاب الشرع؛ لأنهم مخاطبون قبل الحضور بتجنّب هذا الموضع الذى يُفْضِى إلى ذلك . كما هم منهيُّون عن شرب المسكر، كذلك هذا الطَّرَب الذى يسمّيه أهل التصوف وَجْدًا إن صدقوا أن فيه سُكْرَ طبع ، و إن كذبوا أفسدوا مع الصَّحْو، فلا سلامة فيه مع الحالين، وتجنّب مواضع الرِّيَب واجب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ أى بلحيته وذؤابته . وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وأحبّ إلى بنى إسرائيل من موسى ؛ لأنه كان ليّن الغضب .

وللعلماء فى أخذ موسى برأس أخيه أربع تأويلات :

الأوّل — أن ذلك كان متعارَفًا عندهم ؛ كما كانت العرب تفعله من قبض الرجل على لحية أخيه وصاحبه إكراما وتعظيما ، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال .

الثانى — أن ذلك إنما كان لِيُسِرّ إليه نزول الألواح عليه ؛ لأنها نزلت عليه فى هذه المناجاة وأراد أن يخفيها عن بنى إسرائيل قبل التوراة . فقال له هارون : لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ؛ لئلا يشتبه سِرارُه على بنى إسرائيل بإذلاله .

الثالث — إنما فعل ذلك به لأنه وقع فى نفسه أن هارون مائلٌ مع بنى إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل . ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء .

الرابع — ضَمّ إليه أخاه ليعلم ما لديه ؛ فكره ذلك هارون لئلا يظن بنو إسرائيل أنه أهانه ؛ فبيّن له أخوه أنهم استضعفوه، يعنى عبدة العجل، وكادوا يقتلونه أى قاربوا . فلما سمع عذره قال : رب اغفرلى ولأخى ؛ أى اغفر لى ما كان من الغضب الذى ألقيت من أجله الألواح، ولأخى لأنه ظنّه مقصِّرا فى الإنكار عليهم و إن لم يقع منه تقصير ؛ أى اغفر لأخى أن قصّر. قال الحسن : عبد كلّهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثَمّ مؤمن غير موسى وهارون لما اقتصر على قوله اغفرلى ولأخى ، ولدَعَا لذلك المؤمن أيضا . وقيل : استغفر لنفسه من فعله بأخيه،

فعل ذلك لمَوْجِدته عليه ؛ إذ لم يلحق به فيعرّفه ماجرى ليرجع فيتلافاهم ؛ ولهذا قال : « يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَّا تَتَّبِعَنِ »(١) الآية . فبيّن هارون أنه إنما أقام خوفا على نفسه من القتل . فدلّت الآية على أن لمن خشى القتل على نفسه عند تغيير المنكر أن يَسْكُت . وقد تقدّم بيان هذا فى « آل عمران »(٢) . ابنُ العربيّ : وفيها دليل على أن الغضب لا يغيّر الأحكام كما زعم بعض النـاس ؛ فإن موسى عليـه السلام لم يغيّر غضبُه شيئا من أفعاله ، بل آطردت على مجراها من إلقاء لوح وعتاب أخ وصكّ مَلَك . المَهْدَوِيّ : لأن غضبه كان لله عزّ وجل ، وسكوته عن بنى إسرائيل خوفا أن يتحاربوا ويتفرّقوا .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ وكان آبنَ أمه وأبيه . ولكنها كلمةُ لِين وعطف . قال الزّجاج : قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه . وقُرئ بفتح الميم وكسرها ؛ فمن فتح جعل « آبن أم » آسما واحدا كخمسةَ عشر؛ فصار كقولك : ياخمسة عشر أقبلوا . ومن كسر الميم جعله مضافا إلى ضمير المتكلم ثم حذف ياء الإضافة ؛ لأن مبنى النداء على الحـذف ، وأبقى الكسرة فى الميم لتدُلّ على الإضافة ؛ كقوله : « يا عبادِ » . يدلّ عليه قراءة ابن السَّمَيْقَع « يابنَ أمّى » بإثبات الياء على الأصـل . وقال الكسائى والفرّاء وأبو عبيد : « يابن أمَّ » بالفتح ، تقديره يابن أمّاه . وقال البصريون : هذ القول خطأ ؛ لأن الألف خفيفة لا تحذف ، ولكن جعل الاسمين آسمـا واحدا . وقال الأخفش وأبو حاتم : « يابن أمِّ » بالكسر كما تقول : ياغلام غلامِ أقبل ، وهى لغة شاذّة والقراءة بها بعيدة . وإنما هذا فيما يكون مضافا إليك ؛ فأما المضاف إلى مضاف إليك فالوجه أن تقول : ياغلام غلامى ، ويابن أخى . وجوّزوا يابن أمَّ ، يابن عمَّ ؛ لكثرتها فى الكلام . قال الزجاج والنحاس : ولكن لها وجه حسن جيد ، يجعل الآبن مع الأم ومع العم آسما واحدا ؛ بمنزلة قولك : ياخمسة عشر أقبلوا ، فحذفت الياء كما حذفت من ياغلام . ﴿ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾ استذلّونى وعدّونى ضعيفا . ﴿ وَكَادُوا ﴾ أى قاربوا . ﴿ يَقْتُلُونَنِى ﴾ بنونين ؛ لأنه فعل مسـتقبل . ويجـوز الإدغام فى غير القرآن . ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَاءَ ﴾

---

(١) آية ٩٢ سورة طه . (٢) راجع جـ ٤ ص ٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

أى لا تسرّهم. والشماتة: السرور بما يصيب أخاك من المصائب فى الدّين والدنيا. وهى محرّمة مَنْهِيٌّ عنها. وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا تُظْهِر الشماتةَ بأخيك فيعافيه الله ويبتليك". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ منها ويقول: "اللّهُمّ إنى أعوذ بك من سوء القضاء ودَرْك الشقاء وشماتة الأعداء". أخرجه البخاريّ وغيره. وقال الشاعر:

إذا ما الدّهر جَرّ على أناس * كَلَاكِلَه أناخ بآخرينا

فقل للشّامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لَقِينا

وقرأ مجاهد ومالك بن دِينار «تَشْمَتَ» بالنصب فى التاء وفتح الميم، «الأعداءُ» بالرفع. والمعنى: لاتفعل بى ما تشمت من أجله الأعداء، أى لا يكون ذلك منهم لفعل تفعله أنت بى. وعن مجاهد أيضا «تشمت» بالفتح فيهما «الأعداءَ» بالنصب. قال ابن جِنّى: المعنى فلا تشمت بى أنت يارب. وجاز هذا كما قال: «الله يستهزئ بهم» ونحوه. ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به الأعداء؛ كأنه قال. ولا تشمت بى الأعداء. قال أبو عبيد: وحكيت عن حُميد «فلا تَشِمت» بكسر الميم. قال النحاس: ولا وجه لهذه القراءة؛ لأنه إن كان من شَمِت وجب أن يقول تَشْمَت. وإن كان من أشمت وجب أن يقول تُشمت. وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال مجاهد: يعنى الذين عبدوا العجل. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1] تقدّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الغضب من الله العقوبة. ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لأنهم أُمِروا بقتل بعضهم بعضا. وقيل: الذّلة الجِزْية.

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٣١ طبعة أولى أو ثانية.

وفيه بُعْدٌ ؛ لأن الجزية لم تؤخذ منهم و إنما أخذت من ذرياتهم . ثم قيل : هذا من تمام كلام موسى ، أخبر الله عز وجل به عنه ، وتم الكلام . ثم قال الله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ » . وكان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم ، فإنهم لما تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم — كما تقدم بيانه في « البقرة » (١) — أخبرهم أن من مات منهم قتيلا فهو شهيد ، ومن بقى حيًّا فهو مغفور له . وقيل : كان ثَمَّ طائفة أُشْرِبوا في قلوبهم العجل ، أي حُبَّه ، فلم يتوبوا ؛ فهم المعنيّون بقوله « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ » . وقيل : أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات . وقيل : أراد أولادهم . وهو ما جرى على قُرَيظة والنَّضير ؛ أي سينال أولادهم . والله أعلم . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ ﴾ أي مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بالمفترين . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ما من مُبْتَدِع إلا وتجد فوق رأسه ذِلّة ، ثم قرأ « إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ — حتى قال — وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ » أي المبتدعين . وقيل : إن موسى أمر بذبح العجل ، فجرى منه دَمٌ وبَرَده بالمِبْرَد وألقاه مع الدم في اليَمّ وأمرهم بالشرب من ذلك الماء ؛ فمن عَبَد ذلك العجل وأُشْرِبَه ظهر ذلك على أطراف فمه ؛ فبذلك عرف عبدة العجل . وقد مضى هذا في « البقرة » (٢) .

ثم أخبر الله تعالى أن الله يقبل توبة التائب من الشرك وغيره . وقد مضى هذا في غير موضع . ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أي الكفر والمعاصي . ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد فعلها . ﴿ وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي من بعد التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ أي سكن . وكذلك قرأها معاوية ابن قُرّة « سكن » بالنون . وأصل السكوت السكون والإمساك ؛ يقال : جرى الوادي ثلاثا

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٢ ص ٣١ طبعة ثانية .

ثم سكن، أى أمسك عن الجرى . وقال عكرمة : سكت موسى عن الغضب ؛ فهو من المقلوب . كقولك : أدخلت الأصبع فى الخاتم، وأدخلت الخاتم فى الأصبع . وأدخلت القَلَنْسُوَة فى رأسى، وأدخلت رأسى فى القَلَنْسُوة . ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ التى ألقاها . ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أى « هدى » من الضلالة ، « ورحمة » أى من العذاب . والنسخ : نقل ما فى كتاب إلى كتاب آخر . ويقال للاصل الذى كتبتَ منه : نسخة ، وللفرع نسخة . فقيل : لما تكسّرت الألواح صام موسى أربعين يوما، فرُدّت عليه وأعيدت له تلك الألواح فى لوحين، ولم يفقد منها شيئا ؛ ذكره ابن عباس . قال القُشَيْرِىّ : فعلى هذا « وفى نسختها » أى وفيما نُسخ من الألواح المتكسّرة ونُقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة . وقال عطاء : فيما بقى منها . وذلك أنه لم يبق منها إلا سبعها، وذهب ستّة أسباعها . ولكن لم يذهب من الحدود والأحكام شىء . وقيل : المعنى «وفى نسختها» أى وفيما نُسخ له منها من اللوح المحفوظ هدى . وقيل : المعنى وفيما كتب له فيها هدى ورحمة ، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه . وهذا كما يقال : انسخ ما يقول فلان ، أى أثبته فى كتابك .

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ أى يخافون . وفى اللام ثلاثة أقوال : قول الكوفيين هى زائدة . قال الكسائىّ : حدّثنى من سمع الفرزدق يقول : نقدت لها مائة درهم، بمعنى نقدتها . وقيل : هى لام أجْل ؛ المعنى : والذين هم من أجل ربّهم يرهبون لا رياء ولا سمعة ؛ عن الأخفش . وقال محمد بن يزيد : هى متعلقة بمصدر ؛ المعنى : للذين هم رهبتهم لربهم . وقيل : لما تقدّم المفعول حَسُن دخول اللام؛ كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ »[1] . فلما تقدّم المعمول وهو المفعول ضَعُف عملُ الفعل فصار بمنزلة مالا يتعدّى .

قوله تعالى : وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا

(١) آية ٤٣ سورة يوسف .

بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ مفعولان، أحدهما حذفت منه من ؛ وأنشد سيبويه :

مِنَّا الذى ٱختير الرجالَ سماحةً * وبِرًّا إذا هَبَّ الرِّياح الزَّعازعُ(١)

وقال الراعى يمدح رجلا :

اخترتك الناسَ إذ رَثَّت خلائقهُم * وٱختلَّ(٢) مَن كان يُرْجَى عنده السُّولُ

يريد : اخترتك من الناس . وأصل اختار ٱختير ؛ فلما تحركت اليـاء وقبلها فتحة قلبت ألفا، نحو قال وباع .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أى ماتوا . والرجفة فى اللغة الزّلزلة الشديدة . ويروى أنهم زُلزلوا حتى ماتوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ أى أمتّهم ؛ كما قال عز وجل : «إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ»(٣) . «وإيّاىَ» عطف . والمعنى : لو شئت أمتّنا من قبل أن نخرج إلى الميقات بمحضر بنى إسرائيل حتى لا يتهمونى . أبو بكر بن أبى شيبة : حدّثنا يحيى ابن سعيد القطّان عن سـفيان عن أبى إسحاق عن عمارة بن عبد عن علىّ رضى الله عنه قال : ٱنطلق موسى وهارون صلى الله عليهما وٱنطلق شَبَّر وشَبير – هما ابنا هارون – فانتهَوْا إلى جبل فيه سرير، فقام عليه هارون فقُبض روحه . فرجع موسى إلى قومه، قالوا : أنت قتلته، حسدتنا على لِينه وعلى خُلُقه، أوكلمـة نحوها، الشك من سفيان، فقال : كيف أقتـله ومعى ٱبناه ! قال : فاختاروا من شئتم ؛ فاختاروا من كل سِبْط عشرة . قال : فذلك قوله « وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا » فانتهوا إليـه ؛ فقالوا : مَن قتلك يا هارون ؟ قال : ما قتلنى

---

(١) البيت للفرزدق ؛ كما فى شواهد سيبويه . (٢) اختل : افتقر . (٣) آية ١٧٦ سورة النساء .

أحد ولكن الله توفّانى . قالوا : يا موسى، ما تُعْصَى . فأخذتهم الرجفة ، فجعلوا يتردّدون يمينا وشمالا، ويقول : « لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّاىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » . قال : فدعا الله فأحياهم وجعلهم أنبياء كلّهم . وقيل : أخذتهم الرجفة لقولهم أرنا الله جهرة؛ كما قال الله تعالى : « وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ» . على ماتقدّم بيانه فى « البقرة »(1) . وقال ابن عباس : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهَوْا مَن عبد العجل ، ولم يرضَوْا عبادته . وقيل : هؤلاء السبعون غيرُ من قالوا أرنا الله جهرة . وقال وهب : ما ماتوا، ولكن أخذتهم الرجفة من الهَيْبة حتى كادت أن تَبِين مفاصلُهم ، وخاف موسى عليهم الموت . وقد تقدّم فى «البقرة» عن وهب أنهم ماتوا يوما وليلة . وقيل غير هذا فى معنى سبب أخذهم بالرجفة . والله أعلم بصحة ذلك . ومقصود الاستفهام فى قوله «أَتُهْلِكُنَا» الجَحْد؛ أى لست تفعل ذلك . وهو كثير فى كلام العرب . و إذا كان نفيًا كان بمعنى الإيجاب؛ كما قال :

ألستمْ خير من ركب المطايا * وأندَى العالمين بطُونَ راح(2)

وقيل : معناه الدعاء والطلب ، أى لا تهلكنا ؛ وأضاف إلى نفسه . والمراد القوم الذين ماتوا من الرجفة . وقال المبرّد : المراد بالاستفهام استفهامُ استعظامٍ ؛ كأنه يقول : لا تهلكنا ، وقد علم موسى أن الله لا يهلك أحدا بذنب غيره ؛ ولكنه كقول عيسى «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ»(3) . وقيل : المراد بالسفهاء السبعون . والمعنى : أتهلك بنى إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء فى قولهم «أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً» . ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أى ما هذا إلا اختبارك وامتحانك . وأضاف الفتنة إلى الله عز وجل ولم يضفها إلى نفسه ؛ كما قال إبراهيم : «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»(4) فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى . وقال يُوشع : « وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ»(5) . وإنما استفاد ذلك موسى عليه السلام من قوله تعالى له : « فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

---

(١) راجع ج ١ ص ٤٠٣ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الراح : جمع راحة، وهى الكف .
(٣) آية ١١٨ سورة المائدة . (٤) آية ٨٠ سورة الشعراء . (٥) آية ٦٣ سورة الكهف .

قَوْمَكَ مِنْ بَعْـدِكَ (١) » . فلمـا رجع إلى قومه ورأى العجل منصوبا للعبادة وله خُوار قال : « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَـا » أى بالفتنة . ﴿ مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ ﴾ وهذا ردٌّ على القــدرية .

قوله تعالى : وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَـا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أى وفقنا للأعمال الصالحة التى تكتب لنا بها الحسنات . ﴿ وَفِى الْآخِرَةِ ﴾ أى جزاء عليها . ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تُبْنا؛ قاله مجاهد وأبو العالِيَة وقَتادة . والهَوْد : التوبة ؛ وقد تقدّم فى « البقرة (٢) » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ أى المستحقّين له ، أى هذه الرجفة والصاعقة عذاب مِنّى أصيب به من أشاء . وقيل : المعنى « من أشاء » أى من أشاء أن أضلّه .

قوله : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ عموم، أى لا نهاية لها، أى من دخل فيها لم تعجز عنه . وقيل : وسِعت كل شىء من الخلق حتى إن البهيمة لها رحمة وعطف على ولدها . قال بعض المفسرين : طمِع فى هذه الآية كلُّ شىء حتى إبليس ، فقال : أنا شىء؛ فقال الله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فقالت اليهود والنصـارى : نحن متقون؛ فقال الله تعـالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ » الآية . فخرجت الآية عن العموم ، والحمد لله . روى حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : كتبها الله عز وجل لهذه الأمة .

---

(١) آية ٨٥ سورة طه .

(٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — روى يحيى بن أبى كثير عن نَوف البِكَالىّ الحِمْيرىّ : لما آختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربّه قال الله تعالى لموسى : أن أجعل لكم الأرض مسجدا وطهورا تُصلّون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مِرْحاض أو حَمّام أو قبر، وأجعل السَّكينة فى قلوبكم، وأجعلكم تقرءون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرأها الرجل منكم والمرأةُ والحُرُّ والعبد والصغير والكبير . فقال ذلك موسى لقومه ، فقالوا : لا نريد أن نُصلّى إلا فى الكنائس، ولا نستطيع حمل السَّكينة فى قلوبنا ، ونريد أن تكون كما كانت فى التابوت ، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نَظَرًا . فقال الله تعالى : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ — إلى قوله — الْمُفْلِحُونَ » . فجعلها لهذه الأمة . فقال موسى : يارَبّ ، اجعلنى نبيّهم . فقال : نبيّهم منهم . قال : رَبّ اجعلنى منهم . قال : إنك لن تدركهم . فقال موسى : يارَبّ، أتيتك بوفد بنى إسرائيل، فجعلت وفادتنا لغيرنا . فأنزل الله عز وجل : « وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ[(1)] » . فرضِىَ موسى . قال نَوْف : فآحمدوا الله الذى جعل وفادة بنى إسرائيل لكم . وذكر أبو نعيم أيضا هذه القِصة من حديث الأوزاعىّ قال : حدّثنا يحيى بن أبى عمرو الشَّيْبانِىّ قال حدّثنى نَوْف البِكَالِىّ إذا افتتح موعظة قال : ألا تحمدون ربكم الذى حفظ غيبتكم وأخذ لكم بعد سهمكم وجعل وفادة القوم لكم . وذلك أن موسى عليه السلام

(١) آية ١٥٩ من هذه السورة .

وفد بنى إسرائيل فقال الله لهم : إنى قد جعلت لكم الأرض مسجدا حيثما صلّيتم فيها تقبّلتُ صلاتكم إلا فى ثلاثة مواطن من صلّى فيهن لم أقبل صلاته المقبُرة والحمام والمرحاض . قالوا: لا، إلا فى الكنيسة . قال : وجعلت لكم التراب طهورا إذا لم تجدوا الماء . قالوا : لا ، إلا بالماء . قال : وجعلت لكم حيثما صلى الرجل فكان وحده تقبّلت صلاته . قالوا : لا، إلا فى جماعة .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ هذه الألفاظ كما ذكرنا أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذى يظهر فى قوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » وحصلت هذه العِدة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس وابن جُبير وغيرهما . و ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ يعنى فى شَرْعه ودِينه وما جاء به . والرسول والنبيّ اسمان لمعنيين ؛ فإن الرسول أخصّ من النبيّ . وقدّم الرسول اهتماما لمعنى الرسالة ، وإلا فمعنى النبوّة هو المتقدّم ؛ ولذلك ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على البَرَاء حين قال : و برسولك الذى أرسلت . فقال له : " قل بنبيِّك الذى أرسلت " خرّجه فى الصحيح . وأيضا فإن فى قوله « و برسولك الذى أرسلت » تكرير الرسالة ؛ وهو معنًى واحد فيكون كالحَشْو الذى لا فائدة فيه . بخلاف قوله « و نبيّك الذى أرسلت » فإنهما لا تكرار فيهما . وعلى هذا فكل رسول نبيّ ، وليس كل نبيّ رسولا ؛ لأن الرسول والنبيّ قد اشتركا فى أمر عام وهى النبأ ، وافترقا فى أمر وهى الرسالة . فإذا قلت : محمد رسول من عند الله تضمّن ذلك أنه نبيّ ورسول . وكذلك غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ الْأُمِّيَّ ﴾ هو منسوب إلى الأمّة الأمّية، التى هى على أصل ولادتها ، لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ؛ قاله ابن العربى . وقال ابن عباس رضى الله عنه : كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسُب ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » (١) . ورُوى فى الصحيح عن ابن عمر عن النبيّ

(١) آية ٤٨ سورة العنكبوت .

صلى الله عليه وسلم قال : " إنّا أُمّةٌ أُمّيّة لا نكتب ولا نحسُب " . الحديث . وقيل : نسب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى مكّة أمّ القرى ؛ ذكره النحاس .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ روى البخاريّ قال : حدّثنا محمد بن سِنان قال حدّثنا فُليح قال حدّثنا هلال عن عطاء بن يَسار لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . فقال : أجَلْ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١) » وحِرْزًا للأمّيين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ ولا صَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به المِلّةَ العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعْيُنًا عُمْيًا ، وآذانا صُمًّا، وقلوبا غُلْفًا . قال عطاء : ثم لَقِيت كعبًا فسألته عن ذلك فما ٱختلفا حرفا ؛ إلا أن كعبا قال بلُغتِـه : قلوبا غُلُوفيا وآذانا صموميا وأعينا عموميا . قال ابن عطيـة : وأظن هـذا وَهْمًا أو عُجْمة . وقد روى عن كعب أنه قال : قلوبا غلوفا وآذانا صموما وأعينا عموما . قال الطبري : هي لغة حِمْيرِيّة . وزاد كعب في صـفة النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : مولده بمكة، وهجرته بطابة، وملكه بالشأم، وأمّته الحامدون ، يحمـدون الله على كل حال في كل منزل ، يُوضّئون أطرافهم ويأتزرون إلى أنصاف ساقهـم ، رعاة الشمس ، يُصلّون الصلوات حيثما أدركتهم ولو على ظهر الكناسة، صَفُّهم في القتال مثلُ صَفّهم في الصلاة. ثم قرأ « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ (٢) » .

الخامسـة — قوله تعـالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ قال عطاء : « يأمرهم بالمعروف » بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق ، وصـلة الأرحام . « وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ » عبادة الأصنام ، وقطع الأرحام .

---

(١) آية ٤٥ سورة الأحزاب . (٢) آية ٤ سورة الصف .

السادســـة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ مذهب مالك أن الطيبات هى المحلّلات ؛ فكأنه وصفها بالطِّيب ؛ إذ هى لفظة تتضمّن مَدْحًا وتشريفا . وبحسب هذا نقول فى الخبائث : إنها المحرّمات ؛ ولذلك قال ابن عباس : الخبائث هى لحم الخنزير والرِّبا وغيره . وعلى هــذا حلّل مالك المتقذّرات كالحيّات والعقارب والخنافس ونحوها . ومذهب الشافعىّ رحمــه الله أن الطيبات هى من جهــة الطعم ؛ إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها ؛ لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضى تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصّة فيما حلّله الشرع . ويرى الخبائث لفظا عاما فى المحرّمات بالشرع وفى المتقذرات ؛ فيحرّم العقارب والخنافس والوَزَغ وما جرى هــذا المجرى . والنــاس على هــذين القولين ، وقــد تقدّم فى « البقرة »[(١)] هذا المعنى .

السابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ الإِصْر : الثِّقل ؛ قاله مجاهد وقتادة وابن جُبير . والإِصْر أيضا : العهد ؛ قاله ابن عباس والضحّاك والحسن . وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بنى إسرائيل قد كان أُخِذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثِقال ؛ فوُضِع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك العهــدُ وثقلُ تلك الأعمال ؛ كغسل البول، وتحليل الغنائم، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها ؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوبَ أحدِهم بولٌ قرَضه . وروى : جِلْدَ أحدهم . وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها، إلى غير ذلك مما ثبت فى الصحيح وغيره .

الثامنـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال . ومن الأثقال تركُ الاشتغال يومَ السبت ؛ فإنه يُروى أن موسى عليــه السلام رأى يوم السبت رجلا يحمــل قصبا فضرب عنقه . هــذا قول جمهور المفسرين . ولم يكن فيهم الدِّيَة، وإنمــا كان القصاص . وأُمِروا بقتل أنفسهم علامةً لتوبتهم ، إلى غير ذلك . فشُبّه ذلك بالأغلال؛ كما قال الشاعر :

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٠٧ طبعة ثانية .

فليس كعهد الدّار يا أمّ مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ

وعاد الفتى كالكَهْل ليس بقائل * سوى العدل شيئا فٱستراح العواذل

فشبّه حدود الإسلام وموانعه عن التخطّى إلى المحظورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب . ومن هذا المعنى قول أبى أحمد بن جحش لأبى سفيان :

اِذهبْ بها اِذهبْ بها * طُوِّقتها طوقَ الحمامهْ

أى لزمك عارُها . يقال : طُوِّق فلان كذا إذا لزمه .

التاسعة — إن قيل : كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصْر وهو مفرد؛ فالجواب أن الإصر مصدر يقع على الكثرة . وقرأ ابن عامر « آصارهم » بالجمع؛ مثل أعمالهم . فجمعه لٱختلاف ضروب المآثم . والباقون بالتوحيد؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه . وقد أجمعوا على التوحيد فى قوله : « وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا »(١) . وهكذا كلما يَرِد عليك من هذا المعنى؛ مثل « وعلى سمعِهِم »(٢) . « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ »(٣) . و « مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ »(٤) . كلّه بمعنى الجمع .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أى وقّروه ونصروه . قال الأخفش : وقرأ الجَحْدرىّ وعيسى « وعَزَرُوه » بالتخفيف . وكذا « وعَزَرْتموهم »(٥) . يقال : عزره يعزره ويعزره . و « النور » القرآن « والفلاح » الظَّفَر بالمطلوب . وقد تقدّم(٦) .

قوله تعالى : قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

(١) آية ٢٨٦ سورة البقرة . (٢) آية ٧ سورة البقرة . (٣) آية ٤٣ سورة إبراهيم .
(٤) آية ٤٥ سورة الشورى . (٥) آية ١٢ سورة المائدة جـ ٦ ص ١١٤ .
(٦) راجع جـ ١ ص ١٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

ذكر أن موسى بشّر به، وأن عيسى بشّر به . ثم أمره أن يقول بنفسه إنى رسـول الله إليكم جميعا . و « كلماته » كلماتُ الله تعالى كتُبُهُ من التوراة والإنجيل والقرآن .

قوله تعـالى : وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

أى يدعون الناس إلى الهداية . و ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ معناه فى الحكم . وفى التفسير إن هؤلاء قوم من وراء الصين، من وراء نهر الرمل، يعبدون الله بالحق والعدل، آمنوا بمحمد وتركوا السبت، يستقبلون قبلتنا، لا يَصل إلينا منهم أحد، ولا منّا إليهم أحد . فرُوِى أنه لما وقع الاختلاف بعـد موسى كانت منهم أمة يهدون بالحق ، ولم يقدِروا أن يكونوا بين ظَهْرانى بنى إسرائيل حتى أخرجهـم الله إلى ناحيـة من أرضه فى عُزلة من الخلق ، فصار لهم سَرَب فى الأرض ، فمشَوْا فيه سنةً ونصفَ سنة حتى خرجوا وراء الصين ؛ فهم على الحق إلى الآن . وبين الناس وبينهم بحر لا يوصَل إليهم بسببه . ذهب جبريل بالنبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم ليلة المعراج فآمنوا به وعلّمهم سُوَرًا من القرآن وقال لهم : هـل لكم مكيال وميزان ؟ قالوا : لا، قال : فمن أين معاشكم ؟ قالوا : نخرج إلى البريّة فنزرع، فإذا حصدنا وضعناه هناك ، فإذا احتاج أحدنا إليـه يأخذ حاجته . قال : فأين نساؤكم ؟ قالوا : فى ناحيـة مِنّا ، فإذا احتاج أحدنا لزوجته صار إليها فى وقت الحاجة . قال : فيكْذِب أحدكم فى حديثه ؟ قالوا : لو فعل ذلك أحدُنا أخذته لَظَى، إن النار تنزل فتحرقه . قال : فما بال بيوتكم مستوية؟ قالوا : لئلا يعلُوَ بعضنا على بعض . قال : فما بال قبوركم على أبوابكم ؟ قالوا : لئلا نَغفُل عن ذكر الموت . ثم لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا ليلة الإسراء أنزل عليه : « وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١) » يعنى أمة محمد عليه السلام . يُعْلمه أن الذى أعطيتُ موسى فى قومه أعطيتك فى أمتك . وقيل : هم الذين آمنوا بنبيّنا محمد عليه السلام من أهل الكتاب . وقيل: هم قوم من بنى إسرائيل تمسّكوا بشرع موسى قبل نسخه، ولم يبدّلوا ولم يقتلوا الأنبياء.

(١) آية ١٨١ من هذه السورة .

قوله تعالى : وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ عدّد نعمه على بنى إسرائيل ، وجعلهم أسباطًا ليكون أمرُ كلّ سبط معروفا من جهة رئيسهم ؛ فيخفّ الأمر على موسى . وفى التنزيل « وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » وقد تقدّم[1] . وقوله : « ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ » والسِّبط مذكّر لأن بعده « أمما » فذهب التأنيث إلى الأمم . ولو قال : اثنى عشر لتذكير السبط جاز ؛ عن الفرّاء . وقيل : أراد بالأسباط القبائل والفِرَق ؛ فلذلك أنّث العدد . قال الشاعر :

وإن قريشا كلها عشر أبطن * وأنت برىء من قبائلها العَشر

فذهب بالبَطْن إلى القَبِيلة والفَصِيلة ؛ فلذلك أنثها . والبَطْن مذكّر ؛ كما أن الأسباط جمع مذكّر . الزجاج : المعنى قطعناهم اثنتى عشرة فرقة . ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ بدل من اثنتى عشرة ﴿ أُمَمًا ﴾ نعتٌ للأسباط . وروى المفضّل عن عاصم « وقطعناهم » مخففا . ﴿ أَسْبَاطًا ﴾ الأسباط فى ولد إسحاق بمنزلة القبائل فى ولد إسماعيل عليهما السلام . والأسباط مأخوذ من السَّبَط وهو شجر تَعلفه الإبل . وقد مضى فى « البقرة »[2] مستوفًى . وروى مَعْمَر عن همّام بن مُنبّه

(١) آية ١٢ سورة المائدة جـ ٦ ص ١١٢ . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٠ طبعة ثانية .

عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ قالوا : حَبّة في شعرة. وقيل لهم : « ٱدْخُلُوا البابَ سُجَّدًا » فدخلوا متورِّكين على أستاهِهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ مرفوع؛ لأنه فعل مستقبل وموضعه نصب. و « ما » بمعنى المصدر، أي بظلمهم . وقد مضى في « البقرة » ما في هذه الآية من المعاني والأحكام (١) . والحمد لله .

قوله تعالى : وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ أي عن أهل القرية؛ فعبّر عنهم بها لما كانت مستقَرًّا لهم وسبب اجتماعهم . نظيره « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا (٢) » . وقوله عليه السلام : " اهتز العرش لموت سعد بن معاذ " يعني أهل العرش من الملائكة ، فرحا واستبشارا بقدومه، رضي الله عنه . أي وٱسأل اليهود الذين هم جيرانك عن أخبار أسلافهم وما مسخ الله منهم قِردة وخنازير . وهذا سؤال تقرير وتوبيخ . وكان ذلك علامة لصدق النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلّم . وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحبّاؤه، لأنّا من سِبط خليله إبراهيم ، ومن سِبْط إسرائيل وهو بكر الله (٣) ، ومن سبط موسى كليم الله، ومن سبط ولده عُزير، فنحن من أولادهم. فقال الله عز وجل لنبيّه : سَلْهم يا محمد عن القرية، أما عذّبتهم بذنوبهم ؛ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٨٢ سورة يوسف .
(٣) زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى الى إسرائيل أن ولدك بكري من الولد . راجع جـ ٦ ص ١٢٠

وٱختُلف فى تعيين هذه القرية ؛ فقال ابن عباس وعِكرِمة والسُّدِّى : هى أَيْلة. وعن ٱبن عباس أيضا أنها مَدْين بين أيلة والطور . الزُّهْرِىّ : طَبَرِيّة . قَتادة وزيد بن أسلم : هى ساحل من سواحل الشأم، بين مَدْين وعَيْنون، يقال لها : مقناة . وكان اليهود يكتمون هذه القصة لمـا فيها من السُّبَّة عليهم . ﴿ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ أى كانت بقرب البحر ؛ تقول : كنت بحضرة الدار أى بقربها . ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أى يصيدون الحيتان ، وقد نهوا عنه ؛ يقال : سَبَتَ اليهودُ؛ تركوا العمل فى سبتهم . وسُبِت الرجل للفعول سُباتا أخذه ذلك ؛ مثل الخرس . وأسبت سكن فلم يتحرك . والقوم صاروا فى السّبت . واليهود دخلوا فى السبت، وهو اليوم المعروف. وهو من الراحة والقَطْع . ويجمع أَسْبُت وسُبُوت وأسبات. وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "ومن ٱحتجم يوم السبت فأصابه بَرَص فلا يلومنّ إلا نفسه" . قال علماؤنا : وذلك لأن الدم يجمد يوم السبت، فإذا مددته لتستخرجه لم يجر وعاد بَرَصًا . وقراءة الجماعة « يَعْدُون » . وقرأ أبو نَهيك « يُعِدّون » بضم الياء وكسر العين وشد الدال. الأولى من الأعتداء والثانية من الإعداد؛ أى يهيئون الآلة لأخذها. وقرأ ابن السَّمَيْقَع « فى الأسبات » على جمع السبت . ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ وقرئ أسباتهم . ﴿ شُرَّعًا ﴾ أى شوارع ظاهرة على الماء كثيرة . وقال اللّيث : حيتان شُرّع رافعة رءوسها . وقيل : معناه أن حيتان البحر كانت ترِد يوم السبت عُنُقًا(١) من البحر فتزاحم أَيْلة . ألهمها الله تعالى أنها لا تُصاد يوم السبت؛ لنهْيِه تعالى اليهودَ عن صيدها . وقيل : إنها كانت تشرع على أبوابهم ، كالكِباش البيض رافعةً رءوسها، حكاه بعض المتأخرين ؛ فتعدّوا فأخذوها فى السبت ؛ قاله الحسن . وقيل : يوم الأحد ، وهو الأصح على ما يأتى بيانه . ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ﴾ أى لا يفعلون السبت ؛ يقال : سبت يسبِت إذا عظّم السبت . وقرأ الحسن « يُسْبِتون » بضم الياء ، أى يدخلون فى السبت ؛ كما يقال : أجمعنا وأظهرنا وأشهرنا ، أى دخلنا فى الجمعة والظهر والشهر. ﴿ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أى حيتانهم . ﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾ أى نشدّد

(١) أى طوائف ؛ يقال : جاء القوم عنقا عنقا ، أى قطيعا قطيعا .

عليهم فى العبادة ونختبرهم . والكاف فى موضع نصب . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا، والحرام يأتيك جَزْفًا جَزْفًا ؟ قال : نعم ، فى قصة داود وأيلة « إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ » . ورُوى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود عليه السلام ، وأن إبليس أَوْحَى إليهم فقال : إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتّخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد . وروى أشهب عن مالك قال . زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطا ويضع فيه وَهَقة[1] ، وألقاها فى ذنب الحوت ، وفى الطرف الآخر من الخيط وتِد وتركه كذلك إلى الأحد ، ثم تطرّق الناس حين رأوا من صنع هذا لا يُبْتَلَى حتى كثُرَ صيد الحوت ، ومُشى به فى الاسواق، وأعلن الفسقة بصيده؛ فقامت فرقة من بنى إسرائيل ونهت، وجاهرت بالنهى واعتزلت . وقيل : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا : إن للناس لشأنا؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القِردة أنسابها من الإنس ، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القِردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكى ؛ فيقول : ألم ننهكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قردةً والشيوخُ خنازير ؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . فعلى هذا القول إن بنى إسرائيل لم تفترق إلا فرقتين . ويكون المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى قال الفاعلون للواعظين حين وعظوهم : إذا علمتم أن الله مهلكنا فلم تعظوننا ؛ فمسخهم الله قردة . ﴿ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى قال الواعظون : موعظتنا إياكم معذرة ؛ أى إنما يجب علينا أن نعظكم لعلكم تتقون . أسند

---

(١) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفيه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة والإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، اذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت كعقدة التكة .

وقد وردت هذه الكلمة محرفة فى الجزء الأول ص ٤٠٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

هذا القول الطبرى عن ابن الكلبى . وقال جمهور المفسرين : إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق ، وهو الظاهر من الضمائر فى الآية . فرقة عصت وصادت، وكانوا نحوا من سبعين ألفا . وفرقة نهت واعتزلت ، وكانوا اثنى عشر ألفا . وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الطائفة قالت للناهية : لم تعظون قوما — تريد العاصية — الله مهلكهم أو معذبهم على غلبة الظن ، وما عهد من فعل الله تعالى حينئذ بالأمم العاصية . فقالت الناهية : موعظتنا معذرة إلى الله لعلهم يتقون . ولو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية : ولعلكم تتقون، بالكاف . ثم اختلف بعد هذا؛ فقالت فرقة : إن الطائفة التى لم تنه ولم تعص هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهى ؛ قاله ابن عباس . وقال أيضا : ما أدرى ما فعل بهم ؛ وهو الظاهر من الآية . وقال عكرمة : قلت لابن عباس لما قال ما أدرى ما فعل بهم : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم؛ فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا ؛ فكسانى حلة . وهذا مذهب الحسن . ومما يدل على أنه إنما هلكت الفرقة العادية لا غير قوله «وأخذنا الذين ظلموا»[1] . وقوله : «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت»[2] الآية . وقرأ عيسى وطلحة «معذرة» بالنصب . ونصبه عند الكسائى من وجهين : أحدهما على المصدر . والثانى على تقدير فقلنا ذلك معذرة . وهى قراءة حفص عن عاصم . والباقون بالرفع، وهو الاختيار ؛ لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارا مستأنفا من أمر ليموا عليه، ولكنهم قيل لهم : لم تعظون؟ فقالوا : موعظتنا معذرة . ولو قال رجل لرجل : معذرة إلى الله و إليك من كذا، يريد اعتذارا ؛ لنصب . هذا قول سيبويه . ودلت الآية على القول بسد الذرائع . وقد مضى فى «البقرة»[3] . ومضى فيها الكلام فى الممسوخ هل ينسل أم لا، مبينا . والحمد لله . ومضى فى «آل عمران» و «المائدة»[4] الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ومضى فى «النساء»[5] اعتزال أهل الفساد ومجانبتهم ، وأن من جالسهم كان مثلهم؛ فلا معنى للإعادة .

(١) آية ١٦٥ من هذه السورة . (٢) آية ٦٥ سورة البقرة .
(٣) راجع جـ ١ ص ٤٤٠ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) فى قوله تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ... » آية ٢١ سورة آل عمران. وفى قوله تعالى : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » آية ٧٩ سورة المائدة .
(٥) فى قوله تعالى : « وقد نزل عليكم فى الكتاب ... » آية ١٤٠

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ١٦٥﴾

والنسيان يطلق على الساهى . والعامد : التارك ؛ لقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى تركوه عن قصد؛ ومنه « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ »[1] . ومعنى ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أى شديد . وفيه إحدى عشرة قراءة : الأولى — قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائيّ « بَئِيس » على وزن فَعِيل . الثانية — قراءة أهل مكة « بِئِيس » بكسر الباء والوزن واحد . الثالثة — قراءة أهل المدينة « بِيْسٍ » الباء مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها سين مكسورة منوّنة ، وفيها قولان . قال الكسائى : الأصل فيه « بِيِيس » خفيفة الهمزة، فالتقت ياءان فحذفت إحداهما وكُسر أوّله ؛ كما يقال : رِغيف وشِهيد . وقيل : أراد « بَئِس » على وزن فَعِل ؛ فكسر أوله وخفف الهمزة وحذف الكسرة ؛ كما يقال : رَحِم ورِحْم . الرابعة — قراءة الحسن ، الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها سين مفتوحة . الخامسة — قرأ أبو عبد الرحمن المقرئ « بَئِسٍ » الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مكسورة منوّنة . السادسة — قال يعقوب القارئ : وجاء عن بعض القراء « بعذاب بَئِسَ » الباء مفتوحة والهمزة مكسورة والسين مفتوحة . السابعة — قراءة الأعمش « بَيْئِسٍ » على وزن فَيْعِل . وروى عنه « بَيْأَسٍ » على وزن فيعل . وروى عنه « بَئِّسٍ » بباء مفتوحة وهمزة مشددة مكسورة ، والسين فى كله مكسورة منوّنة ، أعنى قراءة الأعمش . العاشرة — قراءة نصر بن عاصم « بعذاب بَيَّسَ » الباء مفتوحة والياء مشدّدة بغير همز . قال يعقوب القارئ : وجاء عن بعض القراء « بِئْيَسٍ » الباء مكسورة بعدها همزة ساكنة بعدها ياء مفتوحة . فهذه إحدى عشرة قراءة ذكرها النحاس . قال عليّ بن سليمان : العرب تقول جاء ببنات بِيسٍ ؛ أى بشىء ردىء . فمعنى « بعذاب بيس » بعذاب ردئ . وأما قراءة الحسن فزعم أبو حاتم أنه لا وجه لها ، قال : لأنه لا يقال مررت برجل بِئْس ، حتى يقال : بئس الرجل ، أو بئس رجلا . قال النحاس : وهذا مردود من

(١) آية ٦٧ سورة التوبة .

كلام أبي حاتم ، حكى النحويون : إن فعلت كذا وكذا فبِهاَ ونِعْمَتْ . يريدون فبها ونعمت الخصلة . والتقدير على قراءة الحسن : بعذاب بئس العذاب .

قوله تعالى : فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أى فلما تجاوزوا فى معصية الله . ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ يقال : خسأته خسأ؛ أى باعدته وطردته . وقد تقدّم فى « البقرة »(١) . ودلّ على أن المعاصى سبب النقمة . وهـذا لا خفاء به . فقيل : قال لهم ذلك بكلام يُسمع ، فكانوا كذلك . وقيل : المعنى كوّناهم قِردة .

قوله تعالى : وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

أى أعلم أسلافهم أنهم إن غيّروا ولم يؤمنوا بالنبيّ الأمىّ بعث الله عليهم من يعذّبهم . وقال أبو علىّ : « آذن » بالمد، أعلم . و « أذّن » بالتشديد، نادى . وقال قوم : آذن وأذّن بمعنى أعلم؛ كما يقال أيقن وتيقّن . قال زُهير :

فقلتُ تَعَلّمْ إن للصيد غِرّةً * فإلّا تُضَيّعها فإنك قاتِلُهْ

وقال آخر :

تعلّم إن شر الناس حىّ * يُنَادَى فى شعارهمُ يَسار

أى اعلم . ومعنى ﴿ يَسُومُهُمْ ﴾ يذيقهم؛ وقد تقدّم فى « البقرة »(٢) . قيـل : المراد بُخْتَنَصّر . وقيل : العرب . وقيل : أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وهو أظهر؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة . والله أعلم . قال ابن عباس : « سوء العذاب » هنا أخذ الجِزْية . فإن قيل : فقد

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة .   (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

مسخوا ، فكيف تؤخذ منهم الجزية ؟ فالجواب أنها تؤخذ من أبنائهم وأولادهم ، وهم أذل قوم ، وهم اليهود . وعن سعيد بن جُبير « سوء العذاب » قال : الخَراج ، ولم يَجب نبيٌّ قطّ الخَراج ، إلا موسى عليه السلام هو أول من وضع الخراج ؛ فجباه ثلاث عشرة سنة ، ثم أمسك ، ونبيّنا عليه السلام .

قوله تعالى : وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ أى فرقناهم فى البلاد . أراد به تشتيت أمرهم ، فلم تُجمع لهم كلمة . ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ رفع على الابتداء . والمراد من آمن بمحمد عليه السلام ، ومن لم يبدّل منهم ومات قبل نسخ شرع موسى . وهم الذين وراء الصين ؛ كما سبق . ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ منصوب على الظرف . قال النحاس : ولا نعلم أحدا رفعه . والمراد الكفار منهم . ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى آختبرناهم . ﴿ بِالْحَسَنَاتِ ﴾ أى بالخصب والعافية . ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ أى الجدب والشدائد . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ليرجعوا عن كفرهم .

قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ يعنى أولاد الذين فرقهم فى الأرض . قال أبو حاتم : «الخَلْف» بسكون اللام : الأولاد ، الواحد والجمع فيه سواء . و «الخلَف» بفتح اللام البَدَل ، ولدًا كان أو غريبًا . وقال آبن الأعرابيّ : «الخلف» بالفتح الصالح ، وبالجزم الطالح . قال لَبيد :

ذهبَ الذين يُعاش فى أكنافهم * وبقيت فى خلف كجلد الأجْرَبِ

ومنه قيل للرديء من الكلام : خَلْف . ومنه المثل السائر « سَكَت أَلْفًا ونطق خَلْفًا » . فخَلْف فى الذم بالإسكان ، وخَلَف بالفتح فى المدح . هـذا هو المستعمل المشهور . قال صلى الله عليه وسلم : "يَحْمِل هذا العلمَ مِن كل خَلَف عدوله" . وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر . قال حسان بن ثابت :

لنا القدم الأولى إليك وخَلْفنا * لأوّلنا فى طاعة الله تابع

وقال آخر :

إنا وجدنا خَلَفًا بئس الخَلَفْ * أغلق عنا بابَه ثم حَلَف (١)

لا يُدخل البوابُ إلا مَن عرفْ * عبدا إذا ما ناء بالحمل وقف

ويروى : خَضَف ؛ أى رَدَم (٢) . والمقصود من الآية الذم . ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ قال المفسرون : هم اليهود ، ورِثوا كتاب الله فقرءوه وعلموه ، وخالفوا حكمه وأتَوْا محارمه مع دراستهم له . فكان هذا توبيخا لهم وتقريعا . ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدّة حرصهم ونَهَمهم . ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ وهم لا يتوبون . ودلّ على أنهم لا يتوبون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ والعَرَض : متاع الدنيا ؛ بفتح الراء . وبإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير . والإشارة فى هـذه الآية إلى الرُّشا والمكاسب الخبيثة . ثم ذمّهم باغترارهم فى قولهم « سيغفر لنا » وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها ، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرون ، وإنما يقول سيغفر لنا من أقلع وندم .

قلت : وهذا الوصف الذى ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا . أسند الدارمىّ أبو محمد : حدّثنا محمد بن المبارك حدّثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يُكْنَى أبا عمرو عن معاذ

---

(١) كذا وردت هذه الأبيات فى الأصول . والذى فى اللسان « مادة خضف » :

انا وجدنا خلفا بئس الخلف * عبدا اذا ما ناء بالحمل خضف

أغلق عنا بابه ثم حلف * لا يدخل البوّاب إلا من عرف

(٢) الردم : الضراط .

ابن جبل رضى الله عنه قال : سَيَبْلَى القرآنُ فى صدور أقوام كما يَبْلَى الثوب فيتهافت ، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالُهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصروا قالوا سنبلغ ، و إن أساءوا قالوا سيغفر لنا ، إنا لا نشرك بالله شيئا . وقيل : إن الضمير فى «يأتهم» ليهود المدينة ؛ أى و إن يأت يهودَ يَثْرِبَ الذين كانوا على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم عَرَض مثلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ يريد التوراة . وهذا تشديد فى لزوم قول الحق فى الشرع والأحكام ، وألّا يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذى لزم هؤلاء وأُخذ عليهم به الميثاق فى قول الحق ، لازم لنا على لسان نبيّنا صلى الله عليه وسلم وكتابِ ربّنا ، على ما تقدّم بيانه فى «النساء»(1) . ولا خلاف فيه فى جميع الشرائع . والحمـــد لله .

والثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ أى قرءوه ، وهم قَرِيبُو عَهْد به . وقرأ أبو عبد الرحمن « وَآدّارسوا ما فيه » فأدغم التاء فى الدال . قال آبن زيد : كان يأتيهم المحِقّ برِشوة فيُخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم وحكموا له . وقال آبن عباس : «ألّا يقولوا على الله إلا الحقّ» وقد قالوا الباطل فى غُفران ذنوبهم الذى يوجبونه و يقطعون به . وقال ابن زيد : يعنى فى الأحكام التى يحكمون بها ؛ كما ذكرنا . وقال بعض العلماء : إن معنى «ودرسوا ما فيه» أى مَحَوْه بترك العمل به والفَهْم له ؛ من قولك : درستِ الريح الآثار ، إذا محتْها . وخط دارس ورَبْع دارس ، إذا آمحى وعفا أثره . وهذا المعنى مواطئ — أى موافق — لقوله تعالى : «نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ

(1) راجع آية ١٥٤ وما بعدها جـ ٦ ص ٧

الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم» (١) الآية . وقوله : « فنبذوه وراء ظهورهم » (٢) حسب ما تقدم بيانه في «البقرة» (٣) .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ أي بالتوراة ، أي بالعمل بها؛ يقال : مسك به وتمسك به أي استمسك به. وقرأ أبو العالية وعاصم في رواية أبي بكر« يمسكون » بالتخفيف من أمسك يمسك . والقراءة الأولى أولى ؛ لأن فيها معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى و بدينه فبذلك يمدحون . فالتمسك بكتاب الله والدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك . وقال كعب بن زهير :

فما تمسّكُ بالعهد الذي زعمت * إلا كما تُمسك الماءَ الغرابيلُ

فجاء به على طبعه يذم بكثرة نقض العهد .

قوله تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ ﴾ «نتقنا» معناه رفعنا. وقد تقدم بيانه في « البقرة » (٤) . ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي كأنه لارتفاعه سحابة تُظل . ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ أي بجد . وقد مضى في « البقرة » (٤) إلى آخر الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ

(١) آية ١٠١ سورة البقرة . (٢) آية ١٨٧ سورة آل عمران .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٤١ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا
مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ أى وآذكر لهم مع ما سبق من تذكّر المواثيق في كتابهم ما أخذتُ من المواثيق من العباد يوم الذّرّ . وهـذه آية مشكِلة، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليـه . فقال قوم : معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بنى آدم بعضهم من بعض . قالوا : ومعنى « أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » دلّهم بخلقه على توحيده؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورةً أن له ربًّا واحدا . ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى قال. فقـام ذلك مقام الإشهاد عليهم ، والإقرار منهـم ؛ كما قال تعالى في السموات والأرض : «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»[1] . ذهب إلى هذا القفّال وأطنب. وقيل : إنه سبحانه أخرج الأرواح قبـل خلق الأجساد ، وأنه جعل فيها من المعْرفة ما علمت به ما خاطبهـا .

قلت : وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم غيرُ هذين القولين ، وأنه تعالى اخرج الأشباح فيهـا الأرواح من ظهر آدم عليه السلام . روى مالك في موطّئه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» فقال عمر رضى الله عنه : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذُرّية فقال خلقتُ

(١) آية ١١ سورة فصلت .

هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فآستخرج منه ذُرِّية فقال خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون " . فقال رجل : ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا خلق العبد للجنة آستعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيُدخلَه الجنة وإذا خلق العبد للنار آستعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخلَه الله النار " . قال أبو عمر : هذا حديث منقطع الإسناد؛ لأن مسلم بن يسار لم يَلْقَ عُمر . وقال فيه يحيى بن مَعين : مسلم بن يسار لا يُعرف ، بينه وبين عمر نعيمُ بن ربيعة ، ذكره النسائي ، ونعيم غير معروف بحمل العلم . لكن معنى هذا الحديث قد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة كثيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعبدِ الله بن مسعود وعليّ بن أبي طالب وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم . روى الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لمّا خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كلُّ نَسَمة هو خالقها [من ذُرِّيته][(١)] إلى يوم القيامة وجعل بين عَيْنَيْ كلّ رجل منهم وَبيصًا من نُور ثم عرضهم على آدم فقال يارَبِّ مَن هؤلاء قال هؤلاء ذُرِّيتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وَبِيصُ ما بين عينيه فقال أيْ ربِّ مَن هذا فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود فقال ربِّ كم جعلت عُمْرَه قال ستّين سنة قال أيْ رَبِّ زِدْه من عُمْرِي أربعين سنةً فلما آنقضى عمر آدم عليه السلام جاءه مَلَك الموت فقال أوَلم يبق من عمري أربعون سنةً قال أوَلَم تُعْطِها آبنَك داود قال فجَحَد آدمُ فجحدت ذرّيته ونسي آدم فنسيت ذرّيته " . في غير الترمذي : فحينئذ أمر بالكُتَّاب والشهود . في رواية : فرأى فيهم الضعيف والغنيّ والفقير والمبتلى والصحيح . فقال آدم : يارَبّ ، ما هذا؟ ألا سوّيت بينهم ! قال : أردت أن أشكر . وروى عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أخِذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس " . وجعل الله لهم عقولا كنملة سليمان ، وأخذ عليهم العهد بأنه ربّهم وأن لا إله غيره . فأقرّوا بذلك وآلتزموه ، وأعلمهم

---

(١) الزيادة عن صحيح الترمذي .

بأنه سيبعث إليهم الرسل ؛ فشهد بعضهم على بعض . قال أُبَيّ بن كعب : وأشهد عليهم السموات السّبع ، فليس من أحد يُولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد .

وٱختُلف فى الموضع الذى أخذ فيه الميثاق حين أخرِجوا على أربعة أقوال؛ فقال ابن عباس : ببطن نَعْمان ، وادٍ إلى جنب عَرفة . وعنه أن ذلك برَهْبَا — أرض بالهند — الذى هبط فيه آدم عليه السلام . وقال يحيى بن سلام قال ابن عباس فى هذه الآية : أهبط الله آدم بالهند ، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كلّ نَسَمة هو خالقها إلى يوم القيامة، ثم قال : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلَى شَهِدْنَا » قال يحيى قال الحسن : ثم أعادهم فى صُلب آدم عليه السلام . وقال الكلْبِيّ : بين مكة والطائف . وقال السُّدّيّ : فى السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرّية بيضاء مثل اللّؤلؤ، فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتى . وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرّية سوداء وقال لهم ادخلوا النار ولا أُبَالِى . قال ابن جُريج : خرجت كلّ نفس مخلوقة للجنة بيضاء، وكلّ نفس مخلوقة للنار سوداء .

الثانيــة — قال ابن العربيّ : « فإن قيل فكيف يجوز أن يُعذّب الخلق وهم لم يذنبوا ، أو يُعاقبهم على ما أراده منهم وكتبه عليهم وساقهم إليه . قلنا : ومن أين يمتنع ذلك ، أعقلا أم شرعا . فإن قيل: لأن الرحيم الحكيم منا لا يجوز أن يفعل ذلك . قلنا : لأن فوقه آمرا يأمره وناهيًا ينهاه ، وربّنا تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يُسئلون، ولا يجوز أن يقاس الخلق بالخالق، ولا تُحمل أفعال العباد على أفعال الإله ، وبالحقيقة الأفعال كلّها لله جل جلاله ، والخلقُ بأجمعهم له، صَرّفهم كيف شاء، وحكَمَ بينهم بما أراد، وهذا الذى يجده الآدمىّ إنما تبعث عليه رِقّة الجِبِلّة وشفقة الجنسيّة وحبُّ الثناء والمدح ؛ لما يتوقع فى ذلك من الانتفاع ، والبارى تعالى متقدّس عن ذلك كله ، فلا يجوز أن يعتبر به » .

الثالثــة — واختُلف فى هذه الآية، هل هى خاصّة أو عامّة. فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالى قال : « من بنى آدم من ظهورهم » فخرج من هذا من كان من ولد آدم لصُلبه . وقال جل وعز : « أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ » فخرج منها كلُّ مَن لم يكن له آباء مشركون.

وقيل : هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء . وقيل : بل هي عامة لجميع الناس ؛ لأن كلّ أحد يعلم أنه كان طفلا فغُذّى ورُبّى ، وأن له مُدبّرا وخالقا . فهذا معنى «وأشهدهم على أنفسهم» . ومعنى ﴿قَالُوا بَلَى﴾ أى إن ذلك واجب عليهم . فلما ٱعترف الخلق لله سبحانه بأنه الربّ ثم ذهلوا عنه ذكّرهم بأنبيائه وختم الذّكر بأفضل أصفيائه لتقوم حجته عليهم فقال له : «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ»(١). ثم مكّنه من الصيطرة، وأتاه السلطنة ، ومكّن له دينه فى الأرض . قال الطُّرْطوشى(٢) : إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه فى هذه الحياة، كما يلزم الطلاق من شُهد عليه به وقد نَسِيَه .

الرابعة — وقد استدلّ بهذه الآية من قال : إن من مات صغيرا دخل الجنة لإقراره فى الميثاق الأوّل . ومن بلغ العقل لم يغنه الميثاق الأوّل . وهذا القائل يقول : أطفال المشركين فى الجنة ، وهو الصحيح فى الباب . وهذه مسألة ٱختُلف فيها لاختلاف الآثار ، والصحيح ما ذكرناه . وسيأتى الكلام فى هذا فى «الرّوم»(٣) إن شاء الله . وقد أتينا عليها فى كتاب «التذكرة» والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدل ٱشتمال من قوله « مِن بنى آدم » . وألفاظ الآية تقتضى أن الأخذ إنما كان من بنى آدم، وليس لآدم فى الآية ذِكْر بحسب اللفظ . ووجه النظم على هذا : وإذ أخذ ربُّك من ظهور بنى آدم ذرّيتهم . وإنما لم يذكر ظهر آدم لأن المعلوم أنهم كلّهم بَنُوه ، وأنهم أخرِجوا يوم الميثاق من ظهره . فاستغنى عن ذكره لقوله «من بنى آدم» . ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ الكوفيون وابن كثير بالتوحيد وفتح التاء، وهى تقع للواحد والجمع ؛ قال الله تعالى : « هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » فهذا للواحد ؛ لإنه إنما سأل هبة ولد فبُشّر بيحيي . وأجمع القراء على التوحيد فى قوله : « مِن ذرية آدم »(٤) ولا شيء أكثر من ذرية آدم . وقال : «وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ» فهذا للجمع . وقرأ الباقون

(١) آية ٢١ سورة الغاشية . (٢) فى بعض الأصول : «الطرطسى» بالسين المعجمة .
(٣) فى قوله تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفا ... » آية ٣٠ (٤) آية ٥٨ سورة مريم .

«ذرياتهم» بالجمع؛ لأن الذرّية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد بجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يَشْركها فيه شيء وهو الجمع؛ لأن ظهور بنى آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله؛ بجمع لهذا المعنى.

السادســة — قوله تعالى: ﴿ بَلَى ﴾ تقدّم القول فيها فى «البقرة» عند قوله: «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً» مُسْتَوْفًى، فتأمله هنـاك[1]. ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ ﴿ أَوْ يَقُولُوا ﴾ قرأ أبو عمرو باليـاء فيهما. ردّهما على لفظ الغَيْبة المتكرر قبله، وهو قوله «من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم». وقوله «قالوا بلى» أيضا لفظ غيبة. وكذا «وكُنَّا ذريةً مِن بعدِهِم» «ولعلهم» فحمله على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة. وقرأ الباقون بالتـاء فيهما؛ ردّوه على لفظ الخطاب المتقدّم فى قوله «أَلَسْتُ بِربكم قالوا بلى». ويكون «شهدنا» من قول الملائكة. لما قالوا «بلى» قالت الملائكة «شهدنا أن تقولوا» «أو تقولوا» أى لئلا تقولوا. وقيل: معنى ذلك أنهم لما قالوا بلى، فأقرّوا له بالرّبوبيّة، قال الله تعالى للملائكة: اشهدوا قالوا شهدنا بإقراركم لئلا تقولوا أو تقولوا. وهذا قول مجاهد والضحاك والسُّدّى. وقال ابن عباس وأُبَىّ بن كعب: قوله «شهدنا» هو من قول بنى آدم. والمعنى: شهدنا أنك ربُّنا وإلٰهُنَا. وقال ابن عباس: أشهد بعضهم على بعض؛ فالمعنى على هذا قالوا بلى شهد بعضنا على بعض؛ فإذا كان ذلك من قول الملائكة فيوقف على «بلى» ولا يحسن الوقف عليه إذا كان من قول بنى آدم؛ لأن «أن» متعلقة بما قبل بلى، من قوله «وأشهدهم على أنفسهم» لئلا يقولوا. وقد روى مجاهد عن ابن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا". أى شهدنا عليكم بالإقرار بالرُّبوبية لئلا تقولوا. فهذا يدلّ على التاء. قال مَكّىّ: وهو الاختيار لصحة معناه، ولأن الجماعة عليه. وقد قيل: إن قوله «شهدنا» من قول الله تعالى والملائكة. والمعنى: فشهدنا على إقراركم؛ قاله أبو مالك، وروى عن السُّدّى أيضا.

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١ طبعة ثانية.

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى آقتدينا بهم . ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ بمعنى : لست تفعل هذا ، ولا عذر للقلّد فى التوحيد .

قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها فى التوارة . وآختُلف فى تعيين الذى أوتى الآيات . فقال ابن مسعود وابن عباس : هو بلعام بن باعوراء، ويقال ناعم(١)، من بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش . وهو المعنىّ بقوله «وَٱتْلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا» ولم يقل آية، وكان فى مجلسه اثنتا عشرة ألف مِحْبرة للتعلمين الذين يكتبون عنه . ثم صار بحيث كان أوّل من صنّف كتابا «أن ليس للعالم صانع» . قال مالك بن دينار : بُعث بلعام بن باعوراء إلى مَلِك مَدْيَن ليدعوه إلى الإيمان ؛ فأعطاه وأقطعه فآتبع دينه وترك دين موسى ؛ ففيه نزلت هذه الآيات . المُعْتَمِر بنُ سليمان عن أبيه قال : كان بلعام قد أوتى النُّبوّة، وكان مجابَ الدّعوة ، فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل يريد قتال الجبّارين، سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعُوَ على موسى فقام ليدعُوَ فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه . فقيل له فى ذلك؛ فقال : لا أقدر على أكثر مما تسمعون؛ وآندلع لسانه على صدره . فقال : قد ذهبَتْ منى الآن الدنيا والآخرة ؛ فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة ، وسأمكر لكم، فإنى أرى أن تُخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزّنى، فإن وقعوا فيه هلكوا ؛ ففعلوا فوقع بنو إسرائيل فى الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . وقد ذكر هذا الخبر بكماله الثّعلبىّ وغيره . ورُوى أن بلعام بن باعوراء دعا ألّا يدخل موسى مدينة الجبارين، فاستُجيب له وبقى فى التّيه(٢) . فقال موسى : يارّب ، بأىّ ذنب بقينا فى التّيه . فقال : بدعاء بلعام . قال : فكما سمعت دعاءه علىّ فآسمع دعائى عليه . فدعا موسى أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم ؛ فسلخه

(١) فى بعض الأصول : «باعر» . (٢) التيه : موضع بين مصر والعقبة .

الله ما كان عليه . وقال أبو حامد فى كتاب منهاج العارفين له : وسمعت بعض العارفين يقول إن بعض الأنبياء سأل الله تعالى عن أمر بلعام وطرده بعد تلك الآيات والكرامات ، فقال الله تعالى : لم يشكرنى يوما من الأيام على ما أعطيته ، ولو شكرنى على ذلك مرّة لما سلبته . وقال عِكرمة : كان بلعام نبيًّا وأوتى كتابا . وقال مجاهد : إنه أوتى النبوّة ؛ فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه . قال الماوَرْدِىّ : وهذا غير صحيح ؛ لأن الله تعالى لا يصطفى لنبوّته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته . وقال عبد الله ابن عمرو بن العاص وزيد بن أسلم : نزلت فى أُمَيّة بن أبى الصَّلْت الثَّقَفِىّ ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولا فى ذلك الوقت ، وتمنى أن يكون هو ذلك الرسول ؛ فلما أرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به . وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آمن شِعْره وكَفَر قلبه " . وقال سعيد بن المُسَيَّب : نزلت فى أبى عامر بن صَيْفِىّ ، وكان يلبَس المُسُوح فى الجاهلية ؛ فكفَر بالنبىّ صلى الله عليه وسلم . وذلك أنه دخل على النبىّ صلى الله عليه وسلم المدينة فقال : يامحمد ، ما هذا الذى جئتَ به ؟ قال : " جئتُ بالحنيفيّة دينِ إبراهيم " . قال : فإنى عليها . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لستَ عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها " . فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " نعم أمات الله الكاذب منا كذلك " . وإنما قال هذا يُعَرِّض برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث خرج من مكة . فخرج أبو عامر إلى الشام ومَرّ إلى قَيْصر وكتب إلى المنافقين : استعدُّوا فإنى آتيكم من عند قَيْصر بجند لنُخرج محمدا من المدينة ؛ فمات بالشام وحيدا . وفيه نزل : « وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ »(١) وسيأتى فى براءة . وقال ابن عباس فى رواية : نزلت فى رجل كان له ثلاث دعوات يُستجاب له فيها ، وكانت له آمرأة يقال لها « البَسُوس » فكان له منها ولد ؛ فقالت : اجعل لى منها دعوة واحدة . فقال : لكِ واحدة ، فما تأمرين ؟ قالت : آدع الله أن يجعلنى أجمل آمرأة

(١) آية ١٠٧ سورة التوبة .

فى بنى إسرائيل . فلما علمت أنه ليس فيهم مثلُها رغِبتْ عنه؛ فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة . فذهب فيها دعوتان؛ بفاء بَنُوها وقالوا : لا صبر لنا عن هذا، وقد صارت أمُّنا كلبة يُعيِّرنا الناس بها، فآدعُ الله أن يردّها كما كانت ؛ فدعا فعادت إلى ما كانت، وذهبت الدعوات فيها . والقول الأوّل أشهر وعليه الأكثر . قال عُبادة بن الصّامت : نزلت فى قريش ، آتاهم الله آياته التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم فآنسلخوا منها ولم يقبلوها . قال آبن عباس : كان بلعام من مدينة الجبّارين . وقيل : كان من اليمن . ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أى من معرفة الله تعالى، أى نزع منه العلم الذى كان يعلمه . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "العلم علمان علمٌ فى القلب فذلك العلم النافع وعلمٌ على اللسان فذلك حُجّة الله تعالى على آبن آدم" . فهذا مثل علم بلعام وأشباهه ، نعوذ بالله منه ؛ ونسأله التوفيق والممات على التحقيق . والانسلاخ : الخروج ؛ يقال : آنسلخت الحيّة من جلدها أى خرجت منه. وقيل : هذا من المقلوب، أى انسلخت الآيات منه . ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ أى لحق به؛ يقال : أتبعت القوم أى لحقتهم . وقيل : نزلت فى اليهود والنصارى، آنتظروا خروج محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ يريد بلعام. أى لو شئنا لأمتناه قبل أن يعصى فرفعناه الى الجنة . ﴿ بِهَا ﴾ أى بالعمل بها . ﴿ وَلٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أى ركن إليها ؛ عن

ٱبن جُبير والسُّدّى . مُجاهد : سكن إليها ؛ أى سكن إلى لذّاتها . وأصل الإخلاد اللزوم . يقال : أخلد فلان بالمكان إذا أقام به ولزمه . قال زهير :

لمن الدّيارُ غشيتَها بالغرْقد * كالوَحْى فى حَجَر المَسيل المُخْلِد (١)

يعنى المقيم ؛ فكأن المعنى لزم لذّات الأرض فعبّر عنها بالأرض، لأن متاع الدنيا على وجه الأرض . ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أى ما زيّن له الشيطان . وقيل : كان هواه مع الكفار. وقيل: اتبع رِضا زوجته، وكانت رغبت فى أموالٍ حتى حملته على الدعاء على موسى . ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ شرط وجوابه . وهو فى موضع الحال ، أى فمثله كمثل الكلب لاهثًا . والمعنى : أنه على شىء واحد لا يَرْعَوِى عن المعصية ؛ كَمَثل الكلب الذى هذه حالته . فالمعنى : أنه لاهثٌ على كل حال، طردته أو لم تطرده. قال ابن جُرَيج: الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ؛ كذلك الذى يترك الهُدَى لا فؤاد له ، وإنما فؤاده منقطع . قال القُتَبِىّ : كلّ شىء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكَلال وحال الراحة وحال المرض وحال الصحة وحال الرِّىّ وحال العطش . فضربه الله مثلا لمن كذّب بآياته فقال : إن وعظتَه ضَلّ وإن تركته ضَلّ؛ فهو كالكلب إن تركته لَهَث وإن طردته لَهَث؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ » (٢) . قال الجوهرى : لَهَث الكلب (بالفتح) يَلْهَث لَهْثًا ولُهَاثًا (بالضم) إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ؛ وكذلك الرجل إذا أعيي . وقوله : « إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ » لأنك إذا حملت على الكلب نَبَح وولّى هاربا، وإذا تركته شدّ عليك ونَبَح ؛ فيُتعِب نفسه مُقبِلًا عليك ومُدْبِرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان . قال الترمذىّ الحكيم : إنما شبهه

(١) الغرقد : هو بقيع الغرقد، مقابر بالمدينة . والذى فى ديوانه « بالفدفد » وهو الموضع الذى فيه غلظ وارتفاع . الوحى : الكتاب؛ وإنما جعله فى حجر المسيل لأنه أصلب . عن شرح الديوان .

(٢) آية ١٩٣ من هذه السورة .

بالكلب من بين السباع لأن الكلب ميتُ الفؤاد ، وإنما لُهاثه لموت فؤاده . وسائر السباع ليست كذلك فلذلك لا يلهثن . وإنما صار الكلب كذلك لأنه لما نزل آدم عليه السلام إلى الأرض شَمِت به العدو ، فذهب إلى السباع فأشلاهم[(١)] على آدم ، فكان الكلب من أشدهم طلبا . فنزل جبريل بالعصا التى صُرفت إلى موسى بمَدْيَن وجعلها آية له إلى فرعون وملَئه ، وجعل فيها سلطانا عظيما وكانت من آس الجنة ؛ فأعطاها آدم عليه السلام ليطرد بها السباع عن نفسه ، وأمره فيما رُوِىَ أن يدنُوَ من الكلب ويضع يده على رأسه ، فمن ذلك أَلِفه الكلب ومات الفؤاد منه لسلطان العصا ، وأَلِف به وبولده إلى يومنا هذا ، لوضع يده على رأسه ، وصار حارسا مِن حُرّاس ولده . وإذا أُدّب وعُلّم الاصطياد تأدّب وقبل التعليم ؛ وذلك قوله : « تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ »[(٢)] . السُّدّى : كان بلعام بعد ذلك يلهث كما يلهث الكلب . وهذا المَثل فى قول كثير من أهل العلم بالتأويل عامٌّ فى كل من أُوتى القرآن فلم يعمل به . وقيل : هو فى كل منافق . والأول أصح . قال مجاهد فى قوله تعالى « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » : أى إن تحمل عليه بدابتك أو برجلك يَلْهث أو تتركه يَلهث . وكذلك من يقرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه . وقال غيره : هذا شرُّ تمثيل ؛ لأنه مثّله فى أنه قد غلب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضَرًّا ولا نفعا بكلب لاهثٍ أبدا ، حُمِل عليه أو لم يُحمل عليه ؛ فهو لا يملك لنفسه ترك اللَّهَثان . وقيل : من أخلاق الكلب الوقوعُ بمن لم يخفه على جهة الابتداء بالجفاء ، ثم تهدأ طائشته بنيل كل عِوض خسيس . ضربه الله مثلا للذى قَبِل الرِّشوة فى الدِّين حتى انسلخ من آيات ربّه . فدلت الآية لمن تدبّرها على ألّا يغتر أحد بعمله ولا بعلمه ؛ إذ لا يدرى بما يُختم له . ودلّت على منع أخذ الرِّشوة لإبطال حَقٍّ أو تغييره . وقد مضى بيانه فى « المائدة »[(٣)] . ودلت أيضا على منع التقليد لعالم إلا بحجة يبيّنها ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألّا يقبل منه إلا بحجة .

(١) الإشلاء : الإغراء . (٢) آية ٤ سورة المائدة .
(٣) فى قوله تعالى : «سماعون للكذب أكالون للسحت» آية ٤٢

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أى هو مثل جميع الكفار . وقوله ﴿سَاءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ يقال : ساء الشيءُ قَبُح، فهو لازم، وساءه يسوءه مَساءة، فهو متعدٍّ؛ أى قَبُح مثلُهم . وتقديره : ساء مَثَلًا مَثَلُ القوم؛ فحذف المضاف، ونصب «مثلا» على التمييز. قال الأخفش : فجُعِل المثلُ القومَ مجازا . والقوم مرفوع بالابتداء أو على إضمار مبتدأ . التقدير: ساء المثل مثلا هو مثل القوم . وقدّره أبو علىّ : ساء مَثَلًا مثلُ القوم . وقرأ عاصم الجَحْدَرِىّ والأعمش « ساء مثلُ القوم » رفع مَثَلًا بساء .

قوله تعالى : مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

تقدّم معناه فى غير موضع . وهذه الآية تردّ على القدرية كما سبق ، وتردّ على مَن قال إن الله تعالى هدى جميع المكلّفين ولا يجوز أن يُضلّ أحدا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

أخبر تعالى أنه خلق للنار أهلا بعدله ، ثم وصفهم فقال : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ أى بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بها، ولا يعقلون ثوابا ولا يخافون عقابا . و ﴿ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ الهُدَى . و ﴿ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ المواعظ . وليس الغرض نَفْىَ الإدراكات عن حواسهم جملةً كما بيناه فى «البقرة»[(١)] . ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ لأنهم لا يهتدون إلى ثوابٍ، فهم كالأنعام؛ أى هِمّتهم الأكل والشرب، وهم أضلّ لأن الأنعام تُبصر منافعها

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

ومضارها وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك . وقال عطاء : الأنعام تعرف الله، والكافر لا يعرفه . وقيل : الأنعام مطيعة لله تعالى، والكافر غير مطيع . ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ أى تركوا التدبر وأعرضوا عن الجنة والنار .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة المشركين والمُلْحِدين . قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت الآية فى رجل من المسلمين ، كان يقول فى صلاته : يا رحمن يا رحيم . فقال رجل من مشركى مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رَبًّا واحدا، فما بالُ هذا يدعُو ربّين اثنين ! فأنزل الله سبحانه وتعالى « وَلِلَّهِ الأسماءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » .

الثانية — جاء فى كتاب الترمذىّ وسنن ابن ماجه وغيرهما حديثٌ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم نصّ فيه [أن لله] تسعة وتسعين اسما؛ فى أحدهما ماليس فى الآخر . وقد بينا ذلك فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قال ابن عطية — وذكر حديث الترمذىّ — : وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث . وإنما المتواتر منه قوله صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة" . ومعنى « أحصاها » عدّها وحَفِظها . وقيل غير هذا مما قد بيناه فى كتابنا . وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذىّ ، وذكرنا من الأسماء ما اجتُمع عليه وما اختلف فيه مما وقفنا عليه فى كتب أئمتنا ما يُنَيِّف على مائتى اسم . وذكرنا قبل تعيينها فى مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلا فيما يتعلق بأحكامها ، فمن أراده وقف عليه هناك وفى غيره من الكتب الموضوعة فى هذا الباب . والله الموفق، لا ربَّ سواه .

الثالثــة — واختلف العلماء من هذا الباب فى الاسم والمُسَمَّى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك فى (الكتاب الأسنى) . قال ابن الحَصّار : وفى هـذه الآية وقوعُ الاسم على المُسمّى ووقوعه على التسمية . فقوله « ولله » وقع على المُسَمَّى، وقوله « الأسماء » وهو جمع اسم واقعٌ على التسميات . يدلّ على صحة ما قلناه قوله «فادعوه بها» ، والهاء فى قوله « فادعوه» تعود على المسمّى سبحانه وتعالى، فهو المدعُوّ . والهاء فى قوله «بها» تعود على الأسماء، وهى التّسميات التى يُدْعَى بها لا بغيرها . هـذا الذى يقتضيه لسان العرب . ومثل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد" الحديث . وقد تقدّم فى «البقرة» شىء من هذا[1] . والذى يذهب إليه أهلُ الحق أن الاسم هو المُسَمّى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية . قال ابن العربى عند كلامه على قوله تعالى « ولله الأسماء الحسنى » : فيـه ثلاثة أقوال . قال بعض علمائنا : فى ذلك دليل على أن الاسم المسمى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى . الثانى — قال آخرون : المراد به التسميات؛ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع .

قلت — ذكر ابن عطية فى تفسيره أن الأسماء فى الآية بمعنى التّسميات إجماعا من المتأولين لا يجوز غيره . وقال القاضى أبو بكر فى كتاب التمهيد : وتأويل قول النبى صلى الله عليه وسلم : "لله تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة" أى أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهى عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتّى ، منها ما يستحقه لنفسه ومنها ما يستحقه لصفة تتعلّق به ، وأسماؤه العائدة إلى نفسه هى هو ، وما تعلّق بصفة له فهى أسماء له . ومنها صفات لذاته . ومنها صفات أفعال . وهذا هو تأويل قوله تعالى : «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» أى التسميات الحسنى . الثالث — قال آخرون منهم : ولله الصفات .

الرابعــة — سَمّى الله سبحانه أسماءه بالحُسْنَى لأنها حسنة فى الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله . والحُسْنَى مصدرٌ وُصف به . ويجوز أن يقدّر

(١) راجع المسألة الثانية جـ ١ ص ٢٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

« الحسنى » فُعْلَى ، مؤنّث الأحسن ؛ كالكبرى تأنيث الأكبر ، والجمع الكُبَر والحُسَن . وعلى الأوّل أفرد كما أفرد وصف ما لا يعقل ؛ كما قال تعالى : « مآرِبُ أُخرى »(١) و « ياجبالُ أوِّبِي معهُ »(٢) .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ أى آطلبوا منه بأسمائه ؛ فيُطْلَب بكل آسم ما يليق به ، تقول : يارحيم ارحمنى ، ياحكيم آحكم لى ، يارازق آرزقنى ، ياهادى آهدنى ، يافتاح آفتح لى ، ياتوّاب تُبْ علىّ ؛ هكذا . فإن دعوت بآسم عامّ قلت : يا مالك آرحمنى ، ياعزيز آحكم لى ، يالطيف آرزقنى . وإن دعوت بالأعمّ الأعظم فقلت : يا ألله ؛ فهو متضمن لكل آسم . ولا تقول : يارزاق آهدنى ؛ إلا أن تريد يارزاق آرزقنى الخير . قال ابن العربىّ : وهكذا ، رتّب دعاءك تكن من المخلصين . وقد تقدّم فى « البقرة »(٣) شرائطُ الدعاء ، وفى هذه السورة أيضاً(٤) . والحمد لله .

السادسة — أدخل القاضى أبو بكر بن العربىّ عدّةً من الأسماء فى أسمائه سبحانه ، مثلُ متمّ نوره ، وخير الوارثين ، وخير الماكرين ، ورابع ثلاثة ، وسادس خمسة ، والطيّب ، والمعلم ؛ وأمثال ذلك . قال ابن الحصار : واقتدى فى ذلك بابن بَرّجان(٥) ، إذ ذكر فى الأسماء « النظيف » وغير ذلك مما لم يرد فى كتاب ولا سنة .

قلت : أمّا ما ذكر من قوله « مما لم يرد فى كتاب ولا سُنّة » فقد جاء فى صحيح مسلم « الطيّب » . وخرج الترمذىّ « النظيف » . وخرج عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه : " ربِّ أعِنّى ولا تُعِن علىّ وآنصرنى ولا تنصر علىّ وآمكُرْ لى ولا تمكُر علىّ " الحديث . وقال فيه : حديث حسن صحيح . فعلى هذا جائز أن يقال : ياخير الماكرين امْكُرْ لى ولا تمكر علىّ . والله أعلم . وقد ذكرنا « الطيب ، والنظيف » فى كتابنا وغيره مما جاء

---

(١) آية ١٨ سورة طه . (٢) آية ١٠ سورة سبأ . (٣) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ طبعة ثانية .
(٤) فى قوله تعالى : « ادعو ربكم ... » آية ٥٥ ص ٢٢٣ من هذا الجزء . (٥) برجان (بفتح الباء وتشديد الراء) : هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمى الأفريقى ثم الأشبيلى الصوفى المفسر . مات بمراكش سنة ٥٣٦ (عن طبقات المفسرين) .

ذكره فى الأخبار ، وعن السلف الأخيار ، وما يجوز أن يُسَمَّى به ويُدْعَى ، وما يجوز أن يُسَمَّى به ولا يُدْعَى ، وما لا يجوز أن يسمَّى به ولا يُدْعَى . حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرىّ . وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ الإلحاد: الميل وترك القصد؛ يقال : ألحد الرجل فى الدِّين . وألحد إذا مال . ومنه اللَّحْد فى القبر؛ لأنه فى ناحيته . وقرئ « يَلْحَدُونَ » لغتان . والإلحاد يكون بثلاثة أوجه : أحدها بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هى عليه فسَمَّوْا بها أوثانهم؛ فاشتَقُّوا اللات من الله، والعُزَّى من العزيز، ومَنَاة من المنّان ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الثانى — بالزيادة فيها . الثالث — بالنقصان منها ؛ كما يفعله الجُهّال الذين يخترعون أدعيةً يسمّون فيها الله تعالى بغير أسمائه ، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله ، إلى غير ذلك مما لا يليق به . قال ابن العربىّ : «فحذارِ منها ، ولا يدعوَنّ أحدكم إلا بما فى كتاب الله والكتب الخمسة ؛ وهى البخارىّ ومسلم والترمذىّ وأبو داود والنَّسائىّ . فهذه الكتب التى يدور الإسلام عليها ، وقد دخل فيها ما فى المُوَطَّأ الذى هو أصل التصانيف ، وذروا ما سواها ، ولا يقولَنّ أحدكم أختار دعاء كذا وكذا ؛ فإن الله قد آختار له وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله صلى الله عليه وسلم » .

الثانيــة — معنى الزيادة فى الأسماء التشبيه ، والنقصان التعطيلُ . فإن المشبِّهة وصفوه بما لم يأذن فيه ، والمعطِّلة سلبوه ما آتصف به ؛ ولذلك قال أهل الحق : إن ديننا طريق بين طريقين ، لا بتشبيه ولا بتعطيل . وسئل الشيخ أبو الحسن البُوشَنْجىّ عن التوحيد فقال : إثبات ذات غير مشبَّهة بالذوات ، ولا معطَّلة من الصفات . وقد قيل فى قوله تعالى « وَذَرُوا الذين يُلحِدون » : معناه اتركوهم ولا تحاجّوهم ولا تَعَرَّضوا لهم . فالآية على هذا منسوخةٌ بالقتال ؛ قاله ابن زيد . وقيل : معناه الوعيد ؛ كقوله تعالى : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ

وَحِيدًا (١) » وقوله « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا (٢) » . وهو الظاهر من الآية ؛ لقوله تعالى : « سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . والله أعلم .

قوله تعالى : وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

فى الخبر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " هم هذه الأمة ". ورُوى أنه قال : " هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها " . وقرأ هذه الآية وقال : " إنّ من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم " . فدلّت الآية على أن الله عز وجل لا يُخْلِى الدنيا فى وقت من الأوقات من داعٍ يدعُو إلى الحق .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

أخبر تعالى عمن كذّب بآياته أنه سيستدرجهم . قال ابن عباس : هم أهل مكة . والاستدراج هو الأخذ بالتدريج ، منزلةً بعد منزلة . والدَّرج : لَفّ الشىء؛ يقال : أدرجته ودرجته . ومنه أدْرَجَ الميّتَ فى أكفانه . وقيل : هو من الدّرجة ؛ فالاستدراج أن يحطّ درجة بعد درجة إلى المقصود . قال الضحاك : كلما جدّدوا لنا معصية جدّدنا لهم نعمة . وقيل لذى النُّون : ما أقصى ما يُخْدَعُ به العبد ؟ قال : بالألطاف والكرامات ؛ لذلك قال سبحانه : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » نُسبغ عليهم النعم ونُنسيهم الشكر؛ وأنشدوا :

أحسنت ظنّك بالأيام إذ حَسُنَتْ * ولم تخف سوءَ ما يأتى به القَدَرُ
وسالمتْكَ اللّيالى فاغتررتَ بها * وعند صَفْوِ الليالى يحدث الكَدَرُ

قوله تعالى : وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أى أُطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عقوبتهم . ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أى مكرى . ﴿مَتِينٌ﴾ أى شديد قوىّ . وأصله من المَتْن، وهو اللحم الغليظ الذى عن جانب

(١) آية ١١ سورة المدثر . (٢) آية ٣ سورة الحجر .

الصّلب . قيل : نزلت فى المستهزئين من قريش، قتلهم الله فى ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدّة . نظيره « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً »[1] . وقد تقدّم .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أى فيما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم . والوقف على « يتفكروا » حسن . ثم قال : ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ ردّ لقولهم « يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ »[2] . وقيل : نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليلة على الصفا يدعو قريشا، فخذا فخذا ؛ فيقول : "يا بنى فلان" . يحذّرهم بأس الله وعقابه . فقال قائلهم : إن صاحبهم هذا لمجنون ، بات يصوّت حتى الصباح .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ عجب من إعراضهم عن النظر فى آياته ؛ ليعرفوا كمال قدرته، حسب ما بيناه فى سورة « البقرة »[3] . والملكوت من أبنية المبالغة ، ومعناه الملك العظيم . وقد تقدّم[4] .

الثانيــة — استدلّ بهذه الآية — وما كان مثلها من قوله تعالى : « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ »[5] وقوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا »[6] وقوله

---

(١) آية ٤٤ سورة الأنعام . (٢) آية ٦ سورة الحجر . (٣) راجع جـ ١ ص١٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٤) راجع ص ٢٣ من هذا الجزء . (٥) آية ١٠١ سورة يونس . (٦) آية ٦ سورة ق .

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »(١) الآية . وقوله : « وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »(٢) — مَن قال بوجوب النظر فى آياته والاعتبار بمخلوقاته . قالوا : وقد ذم الله تعالى من لم ينظر ، وسلبهم الانتفاع بحواسهم فقال : « لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا » الآية .

وقد اختلف العلماء فى أوّل الواجبات ، هل هو النظر والاستدلال أو الإيمان الذى هو التصديق الحاصل فى القلب الذى ليس من شرط صحته المعرفة . فذهب القاضى وغيره إلى أن أوّل الواجبات النظر والاستدلال ؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يُعلم ضرورة ، وإنما يُعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التى نصبها لمعرفته . وإلى هذا ذهب البُخارِىّ رحمه الله حيث بَوّب فى كتابه (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عز وجل « فَاعلم أنه لا إله إلا الله ») . قال القاضى : من لم يكن عالما بالله فهو جاهل ، والجاهل به كافر . قال ابن رشد فى مقدماته : وليس هذا بالبَيِّن ؛ لأن الإيمان يصحّ باليقين الذى قد يحصل لمن هداه الله بالتقليد ، وبأوّل وهلة من الاعتبار بما أرشد الله إلى الاعتبار به فى غير ما آية . قال : وقد استدلّ الباجِىّ على مَن قال إن النظر والاستدلال أوّلُ الواجبات بإجماع المسلمين فى جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلّد مؤمنين . قال : فلو كان ما ذهبوا إليه صحيحا لما صح أن يسمَّى مؤمنا إلا مَن عنده علم بالنظر والاستدلال . قال : وأيضا فلو كان الإيمان لا يصحّ إلا بعد النظر والاستدلال لجاز للكفار إذا غلب عليهم المسلمون أن يقولوا لهم : لا يحل لكم قتلنا ؛ لأن من دينكم أن الإيمان لا يصح إلا بعد النظر والاستدلال فأخّرونا حتى ننظر ونستدل . قال : وهذا يؤدّى إلى تركهم على كفرهم ، وألّا يُقتلوا حتى ينظروا ويستدلّوا .

قلت : هذا هو الصحيح فى الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللهُ ويؤمنوا بى وبما جئتُ به فإذا فعلوا ذلك عصَموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " . وترجم ابن المنذر فى كتاب الاشراف (ذكر صفة كمال الإيمان) أجمع كل من يُحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن

(١) آية ١٧ سورة الغاشية . (٢) آية ٢١ سورة الذاريات .

لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن كلّ ما جاء به محمد حق ، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام — وهو بالغ صحيح العقل — أنه مسلم . وإن رجع بعد ذلك وأظهر الكفر كان مُرْتَدًّا يجب عليه ما يجب على المرتدّ . وقال أبو حفص الزَّنْجانِيّ وكان شيخنا القاضى أبو جعفر أحمد بن محمد السِّمنانىّ يقول : أوّل الواجبات الإيمان بالله وبرسوله وبجميع ما جاء به ، ثم النظر والاستدلال المؤدّيان إلى معرفة الله تعالى ؛ فيتقدّم وجوب الإيمان بالله تعالى عنده على المعرفة بالله . قال : وهذا أقرب إلى الصواب وأرفق بالخلق ؛ لأن أكثرهم لا يعرفون حقيقة المعرفة والنظر والاستدلال . فلو قلنا : إن أوّل الواجبات المعرفة بالله لأدّى إلى تكفير الجمّ الغفير والعدد الكثير، وألّا يدخل الجنة إلا آحاد الناس، وذلك بعيد ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قطع بأن أكثر أهل الجنة أُمّتُه ، وأن أمم الأنبياء كلّهم صف واحد وأمته ثمانون صفا . وهذا بيّن لا إشكال فيه . والحمد لله .

الثالثـــة — ذهب بعض المتأخرين والمتقـدّمين من المتكلمين إلى أن مَن لم يعرف الله تعالى بالطرق التى طرقوها والأبحاث التى حرّروها لم يصح إيمانه وهو كافر ؛ فيلزم على هذا تكفير أكثر المسلمين، وأوّل من يُبدأ بتكفيره آباؤه وأسلافه وجيرانه . وقد أورد على بعضهم هذا فقال : لا تشنّع علىّ بكثرة أهل النار . وكما قال —

قلت : وهذا القول لا يصدر إلا من جاهل بكتاب الله وسنّة نبيّه ؛ لأنه ضيّق رحمة الله الواسعة على شِرذمة يسيرة من المتكلّمين، واقتحموا فى تكفير عامّة المسلمين . أين هـذا من قول الأعرابى الذى كشف عن فرجه ليبول ، وٱنتهره أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم : اللّهُمّ ٱرحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لقد حَجَّرتَ واسعا" . خرّجه البخارىّ والترمذىّ وغيرهما من الأئمة . أترى هذا الأعرابىّ عَرَف الله بالدليل والبرهان والحجة والبيان، وأن رحمته وسعت كل شيء، وكم من مثله محكوم له بالإيمان . بل ٱكتفى صلى الله عليه وسلم من كثير ممن أسلم بالنطق بالشهادتين، وحتى إنه ٱكتفى بالإشارة فى ذلك . ألا تراه لما قال للسّوداء : "أين الله" ؟ قالت : فى السماء . قال : "من أنا" ؟ قالت :

أنت رسول الله . قال : "أعتقها فإنها مؤمنة" . ولم يكن هناك نظر واستدلال، بل حكم بإيمانهم من أول وهلة، وإن كان هناك عن النظر والمعرفة غفلة . والله أعلم .

الرابعة — ولا يكون النظر أيضا والاعتبار فى الوجوه الحسان من المُرْد والنّسوان . قال أبو الفرج الجَوْزِيّ : قال أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطَّبرِيّ بلغنى عن هذه الطائفة التى تسمع السماع أنها تضيف إليه النظر إلى وجه الأمرد، وربما زيّنته بالحلى والمصبغات من الثياب ، وتزعم أنها تقصد به الازدياد فى الإيمان بالنظر والاعتبار والاستدلال بالصنعة على الصانع . وهذه النهاية فى متابعة الهوى ومخادعة العقل ومخالفة العلم . قال أبو الفرج : وقال الإمام أبو الوفاء بن عقيل لم يُحِلّ الله النظر إلا على صورةٍ لا ميل للنفس إليها، ولا حظّ للهوى فيها؛ بل عبرةً لا يُمازجها شهوة، ولا يقارنها لذّة . ولذلك ما بعث الله سبحانه امرأة بالرسالة، ولا جعلها قاضيا ولا إماما ولا مؤذّنا؛ كل ذلك لأنها محل شهوة وفتنة . فمن قال : أنا أجد من الصُّوَر المستحسنة عِبرًا كذّبناه . وكل من ميّز نفسه بطبيعة تخرجه عن طباعنا كذبناه ، وإنما هذه خُدَع الشيطان للمدّعين . وقال بعض الحكماء : كلّ شىء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير؛ ولذلك قال تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»(١) وقال : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ»(٢) . وقد بينا وجه التمثيل فى أول «الأنعام» . فعلى العاقل أن ينظر إلى نفسه ويتفكّر فى خلقه من حين كونه ماءً دافقا إلى كونه خَلْقًا سَوِيًّا، يُعان بالأغذية ويُربّى بالرّفق، ويُحفظ باللّين حتى يكتسب القُوَى ويبلغ الأشُدّ . وإذا هو قد قال : أنا ، وأنا، ونسى حين أتى عليه حِينٌ من الدهر لم يكن شيئا مذكورا، وسيعود مقبورا؛ فياويحَه إن كان محسورا . قال الله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ — إلى قوله — تُبْعَثُونَ»(٣) فينظر أنه عبد مَرْبُوب مكلّف، مُخوَّف بالعذاب إن قصّر، مُرَجًّى بالثواب إن ائْتَمر، فيقبل على عبادة مولاه [فإنه](٤) وإن كان لا يراه يراه و[لا](٤) يخشى الناس

(١) آية ٤ سورة التين . (٢) آية ٢١ سورة الذاريات . (٣) آية ١٢ وما بعدها سورة المؤمنون .

(٤) الزيادة عن ابن العربى .

والله أحقّ أن يخشاه، ولا يتكبّر على أحد من عباد الله ؛ فإنه مؤلّف من أقـذار، [مشحون من أوضار](١)، صائر إلى جنة إن أطاع أو إلى نار . قال ابن العربي: وكان شيوخنا يستحبّون أن ينظر المرء في الآيات الحكمية التي جمعت هذه الأوصاف العلمية :

كيف يَزْهُو مَن رَجِيعه(٢) * أبـدَ الدّهر ضَجِيعُـه
فهـو منـه وإليـه * وأخـوه ورضـيعه
وهو يدعـوه إلى الحشـ * ـش(٣) بصُـغرْ فيُطيعـه

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ معطوف على ما قبله ؛ أي وفيما خلق الله من الأشـياء . ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَـدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي وفي آجالهم التي عسى أن تكون قد قَرُبت ؛ فهو في موضع خفض معطوف على ما قبله . وقال ابن عباس : أراد باقتراب الأجل يومَ بدر ويوم أُحُد . ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بأيّ قرآن غير ما جاء به محمد يصدّقون . وقيل : الهاء للأجل ، على معنى بأيّ حديث بعـد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمـان؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف .

قوله تعـالى : مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

بيّن أن إعراضهم لأن الله أضلهم . وهـذا ردّ على القدريّة . ﴿ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ بالرفع على الاستئناف . وقُرئ بالجزم حملا على موضع الفـاء وما بعدها . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يتحيّرون . وقيل : يترددون . وقد مضى في أوّل « البقرة »(٤) مستوفًى .

---

(١) الزيادة عن ابن العربي . والأوضار : الأوساخ . (٢) الرجيع : العذرة والروث .
(٣) الحش : (بالتثليث) : النخل المجتمع ، ويكنى به عن بيت الخلاء ، لما كان من عادتهم التغوط في البساتين .
(٤) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ « أيان » سؤال عن الزمان ؛ مثل مَتَى . قال الراجز :

أيَّانَ تقضى حاجتى أيان * أما ترى لنجحها أَوَانَــا

وكانت اليهود تقول للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيًّا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم . ورُوى أن المشركين قالوا ذلك لفَـرْط الإنكار . و ﴿ مُرْسَاهَا ﴾ فى موضع رفع بالابتداء عند سيبويه ، والخبر « أيان » . وهو ظرف مَبْنِيٌّ على الفتح ؛ بُنِى لأن فيه معنى الاستفهام . و « مُرْسَاها » بضم الميم ، من أرساها الله ، أى أثبتهـا ، أى متى مُثْبَتُهَا ، أى متى وقوعها . وبفتح الميم من رست ، أى ثبتت ووقفت ؛ ومنه «وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ»[(١)] . قال قتادة : أى ثابتات . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ﴾ ابتداء وخبر ، أى لم يبيِّنْها لأحد ؛ حتى يكون العبد أبدا على حذر . ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أى لا يظهرها . ﴿ لِوَقْتِهَا ﴾ أى فى وقتها ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ . والتَّجْلِيَة : إظهار الشيء ؛ يقال جَلَا لِى فلان الخبر إذا أظهره وأوضحه . ومعنى ﴿ ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خَفِى علمها على أهل السموات والأرض . وكل ما خَفِى علمه فهو ثقيل على الفؤاد . وقيل : كبر مجيئها على أهل السموات والأرض ؛ عن الحسن وغيره . ابن جُريج والسُّدّى : عَظُم وصفها على أهل السموات والأرض . وقال قتادة وغيره : المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها ؛ لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تَنْضُب . وقيل : المعنى ثقلت المسألة عنها . ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أى فجأة ، مصدرٌ فى موضع الحال . ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾

---

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

أى عالم بها كثيرُ السؤال عنها . قال ابن فارس : الحَفِيّ العالِم بالشيء . والحَفِيّ : المستقصِي فى السؤال . قال الأعشى :

فإن تسألى عنّى فيــا رُبَّ سائلٍ * حَفِيٍّ عن الأعشى به حيث أصْعَدا

يقــال : أحْفَى فى المسألة وفى الطلب ، فهــو مُحْفٍ وحَفِيّ على التكثير ، مثــل مُخْصِب وخصيب . قال محمد بن يزيد : المعنى يسئلونك كأنك حَفِيّ بالمسألة عنها ، أى مُلِحّ . يذهب إلى أنه ليس فى الكلام تقديم وتأخير . وقال ابن عباس وغيره : هو على التقــديم والتأخير ، والمعنى : يسئلونك عنها كأنك حَفِيّ بهم أى حفِيّ ببِرّهم وفَرِحٌ بسؤالهم . وذلك لأنهم قالوا : بيننا و بينــك قرابةٌ فأَسِرّ إلينا بوقت الساعة . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ليس هذا تكريرا، ولكن أحَدُ العِلْمين لوقوعها والآخر لكُنْهها .

قوله تعــالى : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٨٨﴾

قوله تعــالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى لا أملك أن أجلب إلى نفسى خيرا ولا أدفع عنها شرا؛ فكيف أملك عِلم الساعة . وقيل: لا أملك لنفسى الهُدَى والضلال. ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ فى موضع نصب بالاستثناء . والمعنى : إلا ما شاء الله أن يملكنى ويمكننى منه . وأنشد سيبويه :

* مهما شاء بالناس يفعل *

﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله عز وجل منى من قبل أن يعرفنيه لفعلته . وقيل : لو كنت أعلم متى يكون لى النصر فى الحرب لقاتلتُ فلم أُغْلَب . وقال ابن عباس : لو كنت أعلم سَنة الجَدْب لهيّأتُ لهــا فى زمن الخِصْب ما يكفينى . وقيل : المعنى لو كنت أعلم التجارة التى تنفق لاشتريتها وقت كسادها . وقيل :

المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح ؛ عن الحسن وابن جريج . وقيل : المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجَبْتُ عن كل ما أُسأل عنه . وكله مراد، والله أعلم . ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هـذا استئناف كلام، أى ليس بى جنون؛ لأنهـم نسبوه إلى الجنون . وقيل : هو متّصل، والمعنى لو علمتُ الغيب لما مسّنِي سوءٌ ولحذرت .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم . ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعنى حوّاء . ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله فى الجنة . ثم ابتدأ بحالة أخرى هى فى الدنيا بعد هبوطهما فقال : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ كناية عن الوقاع . ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ كل ما كان فى بطن أو على رأس شجرة فهو حَمْل بالفتح . وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حِمل بالكسر . وقد حكى يعقوب فى حِمل النخلة الكَسْر . وقال أبو سعيد السِّيرافِى : يقال فى حمل المرأة حَمْل وحِمْل، يُشَبَّه مرّة لاستبطانه بحَمْل المرأة ، ومرّة لبروزه وظهوره بحِمْل الدابة . والحَمْل أيضا مصدر حَمَل عليه يحمِل حَملا إذا مال . ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ يعنى المنِىّ؛ أى استمرت بذلك الحَمْل الخفيف . يقول : تقوم وتقعد وتَقَلّب، ولا تكترث بحمله إلى أن ثَقُل ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقيل : المعنى فاستمرّ بها الحمـل ، فهو من المقلوب ؛ كما تقول : أدخلت القَلَنْسُـوة فى رأسى . وقرأ

عبد الله بن عمر « فمَارَتْ بِهِ » بألف والتخفيف؛ من مار يَمُور إذا ذهب وجاء وتصرّف. وقرأ ٱبن عباس ويحيى بن يَعْمر « فمَرَت بِهِ » خفيفة من المِرْيَة، أى شكّت فيما أصابها؛ هل هو حمل أو مرض، أو نحو ذلك.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَتْ ﴾ صارت ذاتَ ثِقَل؛ كما تقول : أثمر النخل. وقيل : دخلت فى الثّقل؛ كما تقول : أصبح وأمسى. ﴿ دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا ﴾ الضمير فى « دَعَوا » عائد على آدم وحوّاء. وعلى هذا القول ما رُوِى فى قصص هذه الآية أن حواء لما حملت أوّل حمل لم تَدْرِ ما هو. وهذا يقوّى قراءة من قرأ « فَمَرَت به » بالتخفيف. فجزِعت بذلك؛ فوجد إبليسُ السبيلَ إليها. قال الكَلْبِيّ : إن إبليس أتى حواء فى صورة رجل لما أثقلت فى أوّل ما حملت فقال : ما هذا الذى فى بطنك؟ قالت : ما أدرى! قال : إنى أخاف أن يكون بهيمة. فقالت ذلك لآدم عليه السلام. فلم يزالا فى هَمّ من ذلك. ثم عاد إليها فقال : هو مِن الله بمنزلة، فإن دعوتُ الله فولدتِ إنسانا أفتسمّينه(1) بى؟ قالت نعم. قال : فإنى أدعو الله. فأتاها وقد وَلَدت فقال : سَمِّيه باسمى. فقالت : وما ٱسمك؟ قال : الحارث — ولو سَمَّى لها نفسَه لعرفته — فسمّته عبد الحارث. ونحو هذا مذكور فى ضعيف الحديث، فى الترمذىّ وغيره. وفى الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات؛ فلا يعوِّل عليها مَن له قلب، فإن آدم وحواء عليهما السلام وإن غرّهما بالله الغَرُورُ فلا يُلدغ المؤمن من جُحر مرّتين، على أنه قد سُطِّر وكُتب. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خدعهما مرّتين [خدعهما] فى الجنة وخدعهما فى الأرض". وعُضِد هذا بقراءة السُّلَمِىّ « أتشركون » بالتاء. ومعنى ﴿ صَٰلِحًا ﴾ يريد ولدا سَوِيًّا. ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ وٱختلف العلماء فى تأويل الشِّرْك المضاف إلى آدم وحواء، وهى : —

الثالثــة — قال المفسرون : كان شِرْكا فى التسمية والصفة، لا فى العبودية والربوبية. وقال أهل المعانى : إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث،

(1) فى نسخ الأصل : « فتسميه ».

لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد فسمياه به كما يسمّى الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له، لا على أن الضيف ربُّه؛ كما قال حاتم :

وإنّى لعبد الضيف ما دام ثاوياً * وما فىّ إلّا تيك من شِيمة العبد

وقال قوم : إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرية آدم عليه السلام، وهو الذى يُعوَّل عليه . فقوله « جعلا له » يعنى الذكر والأنثى الكافرَيْن ، ويعنى به الجنسان . ودلّ على هذا « فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ولم يقل يُشركان . وهذا قول حَسَن . وقيل : المعنى « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » من هيئة واحدة وشكل واحد « وجعل منها زوجها » أى من جنسها « فلما تغشاها » يعنى الجنسين . وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحواء ذكر فى الآية ؛ فإذا آتاهما الولد صالحا سليما سوِيًّا كما أراداه صرفاه عن الفِطرة إلى الشرك ، فهذا فعل المشركين . قال صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة — فى رواية الملة — أبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه " . قال عكرمة : لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم . وقال الحسين بن الفضل : وهذا أعجب إلى أهل النظر، لما فى القول الأول من المضاف من العظائم بنبىّ الله آدم . وقرأ أهل المدينة وعاصم «شِرْكًا» على التوحيد . وأبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع، على مثل فُعَلاء، جمع شريك . وأنكر الأخفش سعيد القراءة الأولى، وهى صحيحة على حذف المضاف، أى جعلا له ذا شرك؛ مثلُ « واسأل القرية » فيرجع المعنى على أنهم جعلوا له شركاء .

الرابعة — ودلّت الآية على أن الحمل مرض من الأمراض . روى ابن القاسم ويحيى عن مالك قال : أوّل الحمل بشر وسرور، وآخره مرض من الأمراض . وهذا الذى قاله مالك « إنه مرض من الأمراض » يعطيه ظاهر قوله « دَعَوَا الله ربهما » وهذه الحالة مشاهدة فى الحُمّال، ولأجل عظم الأمر وشدّة الخطب جعل موتها شهادة ؛ كما ورد فى الحديث (١) . وإذا

(١) فى قوله صلى الله عليه وسلم : " الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله : المطعون شهيد والغَرِق شهيد وصاحب ذات الجَنب شهيد والمبطون شهيد والحَرِق شهيد والذى يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجُمْع شهيد " . أى تموت وفى بطنها ولد .

ثبت هذا من ظاهر الآية فحال الحامل حال المريض فى أفعاله . ولا خلاف بين علماء الأمصار أن فعل المريض فيما يَهَب ويُحابِي فى ثلثه . وقال أبو حنيفة والشافعىّ : إنما يكون ذلك فى الحامل بحال الطَّلْق ، فأما قبل ذلك فلا . واحتجّوا بأن الحمل عادةٌ والغالب فيه السلامة . قلنا : كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة ، وقد يموت من لم يمرَض .

الخامسة — قال مالك: إذا مضت للحامل ستة أشهر من يوم حملت لم يجز لها قضاءٌ فى مالها إلا فى الثلث . ومن طلّق زوجته وهى حامل طلاقا بائنا فلما أتى عليها ستة أشهر أراد ارتجاعها لم يكن له ذلك ؛ لأنها مريضة ونكاح المريض لايصح .

السادسة — قال يحيى : وسمعت مالكا يقول فى الرجل يحضر القتال : إنه إذا زحف فى الصف للقتال لم يجزله أن يقضى فى ماله شيئا إلا فى الثلث ، وإنه بمنزلة الحامل والمريض المَخُوف عليه ما كان بتلك الحال . ويلتحق بهذا المحبوسُ للقتل فى قصاص . وخالف فى هذا أبو حنيفة والشافعىّ وغيرهما . قال ابن العربىّ : وإذا استوعبت النظر لم تَرْتَب فى أن المحبوس على القتل أشدّ حالا من المريض ، وإنكار ذلك غفلةٌ فى النظر ؛ فإن سبب الموت موجود عندهما ، كما أن المرض سبب الموت ، قال الله تعالى: « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١) » . وقال رُوَيشد الطائىّ :

يأيها الراكب المُزْجِى مَطِيَّتَه * سائِلْ بنى أسَدٍ ماهذه الصَّوْتُ (٢)
وقل لهم بادروا بالعذر وآلتمسوا * قولًا يُبَرِّئُكم إنى أنا المَوْتُ

ومما يدلّ على هذا قوله تعالى : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (٣) » . فكيف يقول الشافعىّ وأبو حنيفة : الحال الشديدة إنما هى المبارزة ؛ وقد أخبر الله عز وجل عن مقاومة العدوّ وتدانى الفريقين بهذه الحالة العظمى من بلوغ القلوب الحناجر، ومن سوء الظنون بالله ، ومن زلزلة القلوب واضطرابها ؛

---

(١) آية ١٤٣ سورة آل عمران .
(٢) الصوت : الجَرْس ؛ مذكر . وإنما أنثه هنا لأنه أراد به الضوضاء والجلبة ؛ على معنى الصيحة أو الاستغاثة .
(٣) آية ١٠ سورة الأحزاب .

هل هذه حالة ترى على المريض أم لا. هذا ما لا يشك فيه منصف، وهذا لمن ثبت فى اعتقاده، وجاهد فى الله حق جهاده، وشاهد الرسول وآياته ؛ فكيف بنا .

السابعـــة — وقد اختلف علماؤنا فى راكب البحر وقت الهَوْل ؛ هل حكمه حكم الصحيح أو الحامل . فقال ابن القاسم : حكمه حكم الصحيح . وقال ابن وهب وأشهب : حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر . قال القاضى أبو محمد : وقولهما أقْيَس ؛ لأنها حالة خوف على النفس كاثقال الحمل . قال ابن العربي : وابن القاسم لم يركب البحر، ولا رأى دودا على عود . ومن أراد أن يوقن بالله أنه الفاعل وحده لا فاعل معه، وأن الأسباب ضعيفة لا تعلّق لموقن بها، ويتحقّق التوكل والتفويض فليركب البحر .

قوله تعالى : أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ أى أيعبدون ما لا يقدر على خلق شيء . ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ أى الأصنام مخلوقة . وقال « يخلقون » بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس ؛ كقوله : « فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »[(١)] . وقوله : « يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ »[(٢)] . ﴿ ولا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ أى الأصنام، لا تنصر ولا تنتصر .

قوله تعالى : وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ قال الأخفش : أى وإن تدعو الأصنام إلى الهدى لا يتبعوكم . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ قال أحمد بن يحيى :

---

(١) آية ٣٣ سورة الأنبياء . (٢) آية ١٨ سورة النمل .

لأنه رأس آية . يريد أنه قال : « أم أنتم صامتون » ولم يقل أم صمتم . وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد . وقيل : المراد من سبق فى علم الله أنه لا يؤمن . وقرئ « لا يتبعوكم » مشددا ومخففا ، لغتان بمعنى . وقال بعض أهل اللغة : « أتبعه » — مخففا — إذا مضى خلفه ولم يدركه . و « اتّبعه » — مشددا — إذا مضى خلفه فأدركه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ حاجّهم فى عبادة الأصنام . ﴿ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون . وقيل : تدعونها آلهة . ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من غير الله . وسميت الأوثان عِبادا لأنها مملوكة لله مسخرة . الحسن : المعنى أن الأصنام مخلوقة أمثالكم . ولما اعتقد المشركون أن الأصنام تضر وتنفع أجراها مجرى الناس فقال : ﴿ فَادْعُوهُمْ ﴾ ولم يقل فادعوهن . وقال « عِباد » ، وقال « إن الذين » ولم يقل إن التى . ومعنى « فادعوهم » فاطلبوا منهم النفع والضر . ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أن عبادة الأصنام تنفع . وقال ابن عباس : معنى فادعوهم فاعبدوهم . ثم وبخهم الله تعالى وسفّه عقولهم فقال : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآية . أى أنتم أفضل منهم فكيف تعبدونهم . والغرض بيان جهلهم ؛ لأن المعبود يتّصف بالجوارح . وقرأ سعيد بن جُبير « إِنِ الذين تدعون من دون الله عبادًا أمثالَكم » بتخفيف « إن » وكسرها لالتقاء الساكنين ، ونصب « عبادًا » بالتنوين ، « أمثالكم » بالنصب . والمعنى : ما الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم ، أى هى حجارة وخشب ؛ فأنتم تعبدون ما أنتم أشرف منه .

قال النحاس : وهذه قراءة لا ينبغى أن يُقرأ بها من ثلاث جهات : أحدها — أنها مخالفة للسّواد . والثانية — أن سيبويه يختار الرفع فى خبر إنْ إذا كانت بمعنى ما ، فيقول : إنْ زيد منطلق ؛ لأن عمل « ما » ضعيف ، و « إنْ » بمعناها فهى أضعف منها . والثالثة — أن الكسائىّ زعم أن « إنْ » لا تكاد تأتى فى كلام العرب بمعنى « ما » ، إلا أن يكون بعدها إيجاب ؛ كما قال عز وجل : « إِنِ الكافرون إلا فِى غُرُورٍ »(١) . ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ الأصل أن تكون اللام مكسورة ، فحذفت الكسرة لثقلها . ثم قيل : فى الكلام حذف ، المعنى : فادعوهم إلى أن يتّبعوكم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين أنهم آلهة . وقرأ أبو جعفر وشَيْبة « أم لهم أيد يَبْطُشون بها » بضم الطاء ، وهى لغة . واليد والرجل والأذن مؤنّثات يُصَغّرن بالهاء . وتزاد فى اليد ياء فى التصغير ، تُرَدّ إلى أصلها فيقال يُدَيّة بالتشديد لاجتماع الياءين .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى الأصنام . ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ أنتم وهى . ﴿ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى فلا تؤخّرون . والأصل « كيدونى » حذفت الياء لأن الكسرة تدلّ عليها . وكذا « فلا تنظرونِ » . والكيد المكر . والكيد الحرب ؛ يقال : غَزَا فلم يَلْقَ كَيْدًا . ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ ﴾ أى الذى يتولّى نصرى وحفظى الله . ووَلِىُّ الشىء : الذى يحفظه ويمنع عنه الضرر . والكتاب : القرآن . ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ ﴾ أى يحفظهم . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا غير سِرّ يقول : "ألا إنّ آل أبِى — يعنى فلانا(٢) — ليسوا لى بأولياء إنما وَلِيِّىَ اللهُ وصالحُ المؤمنين". وقال الأخفش : وقُرِئَ « إنّ وَلِىَّ اللهِ الذى نزّل الكتاب » يعنى جبريل . النحاس : هى قراءة عاصم الجَحْدرِىّ . والقراءة الأولى أبْيَن ؛ لقوله : « وهو يتولى الصّالحين » .

---

(١) آية ٢٠ سورة الملك .

(٢) فى شرح النووى على صحيح مسلم : « هذه الكناية بقوله : يعنى فلانا ، هى من بعض الرواة خشى أن يسميه فيترتّب عليه مفسدة وفتنة ؛ إما فى حق نفسه ، وإما فى حقه وحق غيره فكنى عنه ... قال القاضى عياض رضى الله عنه : قيل إن المكنى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص والله أعلم » .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ كرّره ليبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر . ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ شرط، والجواب ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ . ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ مستأنف . ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فى موضع الحال . يعنى الأصنام . ومعنى النظر فتح العينين إلى المنظور إليه؛ أى وتراهم كالناظر إليك . وخَبّر عنهم بالواو وهى جماد لا تُبصر؛ لأن الخبر جَرَى على فعل مَن يعقل . وقيل : كانت لهم أعْيُن من جواهر مصنوعة فلذلك قال «وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ» . وقيل : المراد بذلك المشركون ؛ أخبر عنهم بأنهم لا يبصرون حين لم ينتفعوا بأبصارهم .

قوله تعالى : خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — هذه الاية من ثلاث كلمات ، تضمّنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيّات . فقوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل فى قوله ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلةُ الأرحام، وتقوى الله فى الحلال والحرام ، وغَضّ الأبصار، والاستعدادُ لدار القرار . وفى قوله : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحضّ على التخلّق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزّه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة .

قلت : هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر بن سليم . قال جابر بن سليم أبو جُرَىّ : ركبت قَعودى ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله صلى

الله عليه وسلم، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلُّونى على رســول الله صلى الله عليــه وسلم، فإذا هو جالس عليه بُرْد من صوف فيه طرائقُ حُمر؛ فقلت : الســلام عليك يارســول الله . فقال : "وعليك السلام". فقلت : إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء؛ فعلّمنى كلماتٍ ينفعنى الله بها . قال : "آدْن" ثلاثا، فدنَوْت فقال : "أعِد علىّ" فأعدتُ عليه فقال : "آتق الله ولا تحقرنّ من المعروف شـيئا وأن تلق أخاك بوجه منبسط وأن تُفرِغ من دَلْوك فى إناء المستسق وإن امرؤ سَبّك بمـا لا يعلم منك فلا تَسُبّه بمـا تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وِزْرًا ولا تسبّن شيئا ممـا خَوّلك الله تعالى" . قال أبو جُرَىّ : فوالذى نفسى بيده ، ما سَبَبْت بعده شاة ولا بعيرا . أخرجه أبو بكر البزّار فى مسنده بمعناه . وروى أبو سعيد المَقْبُرِىّ عن أبيه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق" . وقال ابن الزبير : ما أنزل الله هذه الاية إلا فى أخلاق الناس . وروى البخارىّ من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله آبن الزبير فى قوله « خُذِ العفو وأْمُر بِالعُرْف » قال : ما أنزل الله هــذه الآية إلا فى أخلاق الناس . وروى سـفيان بن عُيَيْنة عن الشَّعْبىّ أنه قال : إن جبريل نزل على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما هذا ياجبريل" ؟ فقال : "لا أدرى حتى أسأل العالِم" فى رواية "لا أدرى حتى أسأل ربى" فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال : "إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك" . فنظمه بعض الشعراء فقال :

مكارم الأخــلاق فى ثلاثة * من كَمُلت فيــه فذلك الفتَى
إعطاء من تحرِمه ووصل من * تقطعه والعفو عمن آعتــدَى

وقال جعفر الصادق : أمر الله نبيّه بمكارم الأخلاق فى هذه الآية، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هــذه الاية . وقال صلى الله عليه وســلم : "بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" . وقال الشاعر :

كل الأمور تزول عنك وتنقضي * إلا الثناء فإنــه لك باقي

ولو أنني خُـيِّرت كلّ فضـيلة * ما آخترت غير مكارم الأخـلاق

وقال سهل بن عبـدالله : كلّم الله موسى بطُورسَيْناء . قيـل له : بأىّ شيء أوصاك ؟ قال : بتسعة أشياء، الخشية فى السر والعلانية، وكلمة الحق فى الرضا والغضب، والقصد فى الفقر والغِنى ، وأمرنى أن أصل مَن قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون نطقى ذكرا ، وصَمتِي فكْرا، ونظرى عبرة .

قلت : وقد روى عن نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أمرنى ربى بتسع الإخلاص فى السر والعلانية والعدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمنى وأصل من قطعنى وأعطى من حرمنى وأن يكون نطقى ذكرا وصمتى فكرا ونظرى عبرة" . وقيل : المراد بقوله « خذ العفو » أى الزكاة؛ لأنها يسير من كثير . وفيه بُعْد؛ لأنه من عَفَا إذا دَرَس . وقد يقال : خذ العفو منه، أى لا تنقص عليـه وسامحه . وسبب النزول يردّه ، والله أعلم . فإنه لمـا أمره بمحاجّة المشركين دلّه على مكارم الأخلاق، فإنها سبب جرّ المشركين إلى الإيمان . أى آقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر؛ تقول : أخذت حقى عَفْوًا صَفْوًا ، أى سهلا .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أى بالمعروف . وقرأ عيسى بن عمـر « العُرُف » بضمتين؛ مثل الحُلُم ؛ وهما لغتان . والعرف والمعروف والعارفة : كل خصـلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس .

قال الشاعر :

من يفعل الخير لا يَعْدَم جَوازِيَه * لا يذهب العُرْف بين الله والناس

وقال عطاء : « وأمر بالعُرْف » يعنى بلا إله إلا الله .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم؛ صيانة له عليهم و رفعًا لقدره عن مجاوبتهم . وهذا و إن

كان خطابا لنبيّه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه. وقال ابن زيد وعطاء : هى منسوخة بآية السيف . وقال مجاهد وقتادة : هى مُحْكَمة ؛ وهو الصحيح لما رواه البُخارِىّ عن عبد الله ابن عباس قال : قدم عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحُرّ بن قيس ابن حِصن، وكان من النفر الذين يُدنيهم عُمَر، وكان القراءُ أصحابَ مجالس عُمَرَ ومشاورته، كُهولًا كانوا أو شُبّانا . فقال عيينة لابن أخيه : يابن أخى، هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لى عليه . قال : سأستأذن لك عليه؛ فآستأذن لعُيينة . فلما دخل قال : يا بن الخطاب، والله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل ! قال: فغضب عمر حتى همّ بأن يقع به. فقال الحُرّ : يا أمير المؤمنين، إن الله قال لنبيّه عليه السلام «خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأعرض عن الجاهلين» وإن هذا من الجاهلين . فوالله ما جاوزها عُمَرُ حين تلاها عليه، وكان وقّافا (١) عند كتاب الله عز وجل .

قلت : فاستعمال عمر رضى الله عنه لهذه الآية واستدلالُ الحُرّ بها يدل على أنها مُحْكَمة لا منسوخة . وكذلك استعملها الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما ؛ على ما يأتى بيانه . وإذا كان الجفاء على السلطان تعمّدًا واستخفافا بحقه فله تعزيره . وإذا كان غير ذلك فالإعراض والصفح والعفو؛ كما فعل الخليفة العدل .

قوله تعالى : وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

فيه مسألتان :

الأولى — لما نزل قوله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال عليه السلام : " كيف يارب والغضب " ؟ فنزلت :﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ ونَزْغُ الشيطان : وساوسه . وفيه لغتان : نزغ ونغز ؛ يقال : إيّاك والنّزاغ والنّغاز، وهم المُورَّشون (٢) . الزجاج: النّزغ أدنى حركة تكون، ومن الشيطان

(١) أى لا يتجاوز حكمه . (٢) التوريش : التحريش ؛ يقال : ورش بين القوم وأرّش .

أدنى وسوسة . قال سعيد بن المُسيَّب : شهدت عثمان وعليًّا وكان بينهما نَزْغ من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئا، ثم لم يبرحا حتى استغفر كلّ واحد منهما لصاحبه . ومعنى ﴿ يَنْزَغَنَّكَ ﴾ : يصيبنَّك ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحلّ . ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أى اطلب النجاة من ذلك بالله . فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالألتجاء إليه والآستعاذة به ؛ ولله المَثَل الأعلى . فلا يستعاذ من الكلاب إلا بربّ الكلاب . وقد حُكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : هذا يطول ، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنع من العبور ما تصنع ؟ قال : أكابده وأردّه جهدى . قال : هذا يطول عليك ، ولكن استغث بصاحب الغنم يكفّه عنك .

الثانيـــة — النَّغْز والنَّزْغ والهَمْز والوَسْوَسة سواء ؛ قال الله تعالى : «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَـزَاتِ الشَّيَاطِينِ» (١) وقال : « مِنْ شَرِّ الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ » (٢) . وأصل النَّزْغ الفساد ؛ يقال : نزغ بيننا ؛ أى أفسد . ومنه قوله : « نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » (٣) أى أفسد . وقيل : النَّزْغ الإغواء والإغراء ؛ والمعنى متقارب .

قلت : ونظير هذه الآية ما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يأتى الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربَّك فإذا بلغ ذلك فَلْيَستعذ بالله ولْيَنْتَهِ " . وفيه عن عبدالله قال : سُئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة قال : " تلك مَحْضُ الإيمـان " . وفى حديث أبى هريرة : " ذلك صَرِيح الإيمان " والصريح الخالص . وهذا ليس على ظاهره ؛ إذ لا يصح أن تكون الوسوسة نفسها هى الإيمان ، لأن الإيمـان اليقين ، وإنما الإشارة إلى ما وجدوه من الخوف من الله تعـالى أن يعاقَبوا على ما وقع فى أنفسهم. فكأنه قال جَزَعكم من هذا هو محض الإيمان وخالصه ؛ لصحة إيمانكم ، وعلمكم بفسادها . فسمّى الوسوسة إيمانا لمـا كان دفعها والإعراض عنها والرّد لهـا وعَدم قبولهـا

(١) آية ٩٧ سورة المؤمنون . (٢) سورة النـاس . (٣) آية ١٠٠ سورة يوسف .

والجزعُ منها صادرا عن الإيمان . وأما أمره بالاستعاذة فلكون تلك الوساوس من آثار الشيطان. وأما الأمر بالانتهاء فعن الركون إليها والالتفات نحوها . فمن كان صحيحَ الإيمان واستعمل ما أمره به ربه ونبيه نفعه وانتفع به . وأما من خالجته الشبهة وغَلَب عليه الحِسّ ولم يقدر على الانفكاك عنها فلا بُدّ من مشافهته بالدليل العقلي؛ كما قال صلى الله عليه وسلم للذى خالطته شبهة الإبل الجُرْب حين قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا عَدْوَى" . وقال أعرابى : فما بال الإبل تكون فى الرّمل كأنها الظباء فإذا دخل فيها البعير الأجرب أجْرَبها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "فمن أعدى الأوّل" فآستأصل الشبهة من أصلها . فلما يئس الشيطان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالإغراء والإضلال أخذ يشوّش عليهم أوقاتهم بتلك الألقيات . والوَساوس : التُّرّهات؛ فنفرت عنها قلوبهم وعظم عليهم وقوعها عندهم فجاءوا — كما فى الصحيح — فقالوا : يارسول الله ، إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلّم به . قال : "أوَقد وجدتموه" ؟ قالوا نعم . قال : "ذلك صريح الإيمان رَغْمًا للشيطان حسب ما نطق به القرآن فى قوله « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » " . فالخواطر التى ليست بمستقرّة ولا آجتلبتها الشبهة فهى التى تُدفع بالإعراض عنها؛ وعلى مثلها يطلق آسم الوسوسة . والله أعلم . وقد مضى فى آخر « البقرة » هذا المعنى، والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ﴾ يريد الشرك والمعاصى . ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ﴾ هذه قراءة أهل البصرة وأهل مكة . وقراءة أهلِ المدينة وأهلِ الكوفة « طائف » . وروى عن سعيد بن جُبير « طيّف » بتشديد الياء . قال النحاس : كلام العرب فى مثل هذا « طَيْف » بالتخفيف؛ على أنه مصدر من طاف يَطيف. قال الكسائى:

هو مخفف من « طَيِّف » مثـل مَيْت ومَيِّت . قال النحاس : ومعنى « طَيْف » فى اللغـة ما يُتخيَّـل فى القلب أو يُرَى فى النوم؛ وكذا معنى طائف . وقال أبو حاتم : سألت الأَصْمَعِيّ عن طَيِّف؛ فقال : ليس فى المصادر فيعل . قال النحاس : ليس هو بمصدر ، ولكن يكون بمعنى طائف . والمعنى : إن الذين ٱتَّقوا المعاصى إذا لحقهم شىء تفكّروا فى قدرة الله عز وجل وفى إنعامه عليهم فتركوا المعصية . وقيل : الطّيف والطائف معنيان مختلفان . فالأوّل — التخيُّل . والثانى — الشيطان نفسُه . فالأوّل مصدر طاف الخيال يَطوف طَيْفا ؛ ولم يقولوا من هذا طائف فى اسم الفاعل . قال السُّهَيْلِيّ : لأنه تخيُّلٌ لا حقيقةَ له . فأما قوله : «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ » فلا يقال فيه : طيف؛ لأنه اسم فاعل حقيقة، ويقال إنه جبريل . قال الزجاج : طفت عليهم أطوف، وطاف الخيال يَطيف . وقال حسّان :

فدَعْ هذا ولكن مَنْ لِطَيف * يؤرّقنى إذا ذهب العِشاء

مجاهد : الطيف الغضب . ويُسمَّى الجنون والغضب والوسوسة طَيْفا ؛ لأنه لَمَّـة من الشيطان تُشَبَّه بلَمّة الخيال . ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ أى منتهون . وقيل : فإذا هم على بصيرة . وقرأ سعيد بن جُبير : « تَذَكَّروا » بتشديد الذال . ولا وجه له فى العربية ؛ ذكره النحاس .

الثانيـة — قال عصام بن المُصْطَلِق : دخلت المدينـة فرأيت الحسن بن علىّ عليهما السلام، فأعجبنى سَمْته وحُسْن رُوائه؛ فأثار منّى الحسد ما كان يُجِنّه صدرى لأبيه من البُغْض، فقلت : أنت ٱبن أبى طالب ! قال نعم . فبالغت فى شتمه وشتم أبيـه ؛ فنظر إلىّ نظرة عاطف رءوف، ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » فقـرأ إلى قوله : « فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» ثم قال لى : خفّض عليك ، أستغفر الله لى ولك ، إنك لو استعنتنا أعنّاك، ولو اسْتَرْفَدْتَنَا أرفدناك ،

ولو استرشدتنا أرشدناك . فتوسّم فىّ الندمَ على ما فرط منّى فقال : «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[(١)] أمن أهل الشأم أنت؟ قلت نعم . فقال :

* شِنْشِنَةٌ أعْرفها من أخزمِ[(٢)] *

حيّاكَ الله وبيّاك، وعافاك، وآداك[(٣)]؛ انبسط[(٤)] إلينا فى حوائجك وما يعرض لك، تجدنا عند أفضل ظنك، إن شاء الله . قال عصام : فضاقت علىّ الأرض بما رَحُبَت، ووددت أنها ساخت بى؛ ثم تسلّلت منه لِواذًا[(٥)]، وما على وجه الأرض أحبّ إلىّ منه ومن أبيه .

قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: المعنى وإخوان الشياطين وهم الفجار من ضُلّال الإنس تمدّهم الشياطين فى الغىّ . وقيل للفُجّار إخوانُ الشياطين لأنهم يقبلون منهم . وقد سبق فى هذه الآية ذكر الشيطان . هذا أحسن ما قيل فيه ؛ وهو قول قتادة والحسن والضّحاك . ومعنى ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ أى لا يتوبون ولا يرجعون . وقال الزجاج : فى الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى : والذين تدعون من دونه لا يستطيعون لكم نصرا ولا أنفسهم ينصرون، وإخوانهم يمدونهم فى الغىّ؛ لأن الكفار إخوان الشياطين . ومعنى الآية : إن المؤمن إذا مسّه طَيْف من الشيطان تنبّه عن قُرْب، فأما المشركون فيمدّهم الشيطان. و ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل : يرجع إلى الكفار على القولين جميعا. وقيل : يجوز أن يرجع إلى الشيطان. قال قَتادة : المعنى ثم لا يُقصِرون عنهم ولا يرحمونهم . والإقصار : الانتهاء عن الشىء ، أى لا تقصر الشياطين فى مدهم الكفارَ بالغىّ . وقوله ﴿فِي الْغَيِّ﴾ يجوز أن يكون متّصلا بقوله

(١) آية ٩٢ سورة يوسف . (٢) الشنشنة (بكسر الشين) : العادة والطبيعة . قال الأصمعى : وهذا بيت رجز تمثل به لأبى أخزم الطائى وهو :

* إن بَنِيّ زَمّلُونى بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم * من يلق آساد الرجال يكلم *

قال ابن برى : وكان أخزم عاقا لأبيه ، فمات وترك بنين عقوا جدّهم وضربوه وأدموه، فقال ذلك . أى إنهم أشبهوا أباهم فى العقوق . (٣) قوله : حياك الله وبياك ، أى ملكك واعتمدك بالتحية . وبياك : معناه بوأك منزلا؛ إلا أنها لما جاءت مع حياك تركت همزتها وقلبت واوها ياء . وآداك : قواك وأعانك .

(٤) الانبساط : ترك الاحتشام . (٥) اللواذ : الاستتار .

« يَمُدُّونَهم » ويجوز أن يكون متصلا بالإخوان . والغىّ : الجهل . وقرأ نافع « يُمِدونهم » بضم الياء وكسر الميم . والباقون بفتح الياء وضم الميم . وهما لغتان مدّ وأمدّ . ومدّ أكثر، بغير الألف؛ قاله مكّىّ . النحاس : وجماعة من أهل العربية ينكرون قراءة أهل المدينة؛ منهم أبو حاتم وأبو عبيد، قال أبو حاتم : لا أعرف لها وجها، إلا أن يكون المعنى يزيدونهم فى الغىّ . وحكى جماعة من أهل اللغة منهم أبو عبيد أنه يقال إذا كثّر شىء شيئا بنفسه مدّه(١)، وإذا كثّره بغيره قيل أمدّه؛ نحو « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(٢) » . وحكى عن محمد ابن يزيد أنه احتج لقراءة أهل المدينة قال : يقال مددت له فى كذا أى زيّنته له واستدعيته أن يفعله . وأمددته فى كذا أى أعنته برأى أو غير ذلك . قال مكّىّ : والاختيار الفتح ؛ لأنه يقال : مددت فى الشر، وأمددت فى الخير؛ قال الله تعالى : « وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٣) » . فهذا يدلّ على قوّة الفتح فى هذا الحرف ؛ لأنه فى الشر، والغىّ هو الشر، ولأن الجماعة عليه. وقرأ عاصم الجَحْدَرِىّ « يُمَادُّونهم فى الغىّ » . وقرأ عيسى بن عمر « يَقْصُرُون » بفتح الياء وضم الصاد وتخفيف القاف . الباقون « يُقْصِرون » بضده، وهما لغتان . قال امرؤ القيس :

* سَمَالك شوقٌ بعد ما كان أقْصَرَا *

قوله تعالى : وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ ﴾ أى تقرؤها عليهم . ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ لولا بمعنى هلّا، ولا يليها على هذا المعنى إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا، وقد تقدّم القول فيها فى « البقرة » مستوفًى(٤) . ومعنى ﴿ اجْتَبَيْتَهَا ﴾ اختلقتها من نفسك . فأعلمهم أن الآيات من قبل الله

---

(١) فى الأصول : « مدّه » . (٢) آية ١٢٥ سورة آل عمران . (٣) آية ١٥ سورة البقرة .
(٤) راجع جـ ٢ ص ٩١ طبعة ثانية .

عز وجل، وأنه لا يقرأ عليهم إلا ما أنزله عليه . يقال: اجتبيت الكلام أى ارتجلته واختلقته واخترعته إذا جئت به من عند نفسك . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ أى من عند الله لا من عند نفسى . ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعنى القرآن، جمع بصيرة، وهى الدلالة والعبرة . أى هذا الذى دللتكم به على أن الله عز وجل واحد بصائر، أى يُستبصر بها . وقال الزجاج : «بصائر» أى طرق . والبصائر طرق الدِّين . قال الجُعْفِيّ :

راحوا بصائرُهم على أكتافهم * وبَصيرتى يَعْدُو بها عَتِدٌ وأَى (١)

﴿ وَهُدًى ﴾ رشد وبيان . ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أى ونعمة .

قوله تعالى : وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ قيل : إن هذا نزل فى الصلاة ، رُوى عن ابن مسعود وأبى هريرة وجابر والزُّهْرِىّ وعبيد الله بن عمير وعطاء بن أبى رَبَاح وسعيد بن المسيِّب . قال سعيد : كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى، فيقول بعضهم لبعض بمكة : « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » (٢) . فأنزل الله جل وعز جوابا لهم « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » . وقيل : إنها نزلت فى الخطبة ؛ قاله سعيد بن جُبير ومجاهد وعطاء وعمرو بن دِينار وزيد بن أسلم والقاسم بن مُخَيْمِرة ومسلم بن يسار وشَهر بن حَوْشَب وعبد الله بن المبارك . وهذا ضعيف؛ لأن القرآن فيها قليل، والإنصات يجب فى جميعها؛ قاله ابن العربىّ . النقّاش : والآية مكية ، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة . وذكر الطبرىّ عن سعيد بن جُبير أيضا أن هذا فى الإنصات يوم الأضحى ويومَ الفطر ويوم الجمعة، وفيما يَجْهَر به الإمام فهو عامّ . وهو الصحيح ؛ لأنه

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء . (٢) آية ٢٦ سورة فصلت .

يجمع جميع ما أوْجبته هذه الآية وغيرها من السُّنّة فى الإنصات . قال النقاش : أجمع أهل التفسير أن هذا الآستماع فى الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة . النحاس : وفى اللغة يجب أن يكون فى كل شيء ، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء . وقال الزجاج : يجوز أن يكون « فآستمعوا له وأنصتوا » اعملوا بما فيه ولا تُجاوِزُوه . والإنصات : السكوت للآستماع والإصغاء والمراعاة . أنصت ينصت إنصاتا ونصت أيضا؛ قال الشاعر :

قال الإمام عليكم أمْرَ سيّدكم * فلم نُخالف وأنصتنا كما قالا

ويقال : أنصتوه وأنصتوا له؛ قال الشاعر :

إذا قالت حَذامِ فأنصتوها * فإن القول ما قالت حَذامِ

وقال بعضهم فى قوله « فآستمعوا له وأنصتوا » : كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصا لِيَعِيَه عنه أصحابه .

قلت : هذا فيه بُعْدٌ، والصحيح القول بالعموم؛ لقوله : « لعلكم ترحمون » والتخصيص يحتاج إلى دليل . وقال عبد الجبار بن أحمد فى فوائد القرآن له : إن المشركين كانوا يكثرون اللغط والشغب تَعَنُّتاً وعنادا؛ على ماحكاه الله عنهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » . فأمر الله المسلمين حالة أداء الوَحْى أن يكونوا على خلاف هذه الحالة وأن يستمعوا، ومدح الجن على ذلك فقال : « وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ »(١) الآية . وقال محمد بن كعب القُرَظِىّ : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ فى الصلاة أجابه مَن وراءه؛ إذا قال بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا مثلَ قوله ، حتى يقضىَ فاتحة الكتاب والسُّورة . فَلَبِث بذلك ما شاء الله أن يلبث؛ فنزل « وإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » فأنْصَتُوا . وهذا يدلّ على أن المعنى بالإنصات تركُ الجهر على ما كانوا يفعلون من مجاوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة فى هذه الاية : كان الرجل يأتى وهُمْ فى الصلاة فيسألهم كم صليتم ، كم بقِىَ؛ فأنزل الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ القرآن فآستمعوا له

---

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

وأنصِتُوا » . وعن مجاهد أيضا : كانوا يتكلمون فى الصلاة بحاجتهم ؛ فنزل قوله تعالى : « لعلكم ترحمون » . وقد مضى فى الفاتحة الاختلاف فى قراءة المأموم خلف الإمام . ويأتى فى « الجُمُعة » حكم الخطبة، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ نظيره « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً »[1] وقد تقدّم . قال أبو جعفر النحاس : ولم يُختلف فى معنى « وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ » أنه فى الدعاء .

قلت : قد رُوى عن ابن عباس أنه يعنى بالذكر القراءةَ فى الصلاة . وقيل : المعنى اقرأ القرآن بتأمّل وتدبّر . « تَضَرُّعًا » مصدر، وقد يكون فى موضع الحال . « وَخِيفَةً » معطوف عليه . وجمع خيفة خِوَف؛ لأنه بمعنى الخَوْف؛ ذكره النحاس . وأصل خِيفة خِوْفة، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . خاف الرجل يَخاف خَوْفا وخِيفة ومَخافة، فهو خائف، وقوم خُوّف على الأصل، وخُيّف على اللفظ . وحكى الفراء أنه يقال أيضا فى جمع خِيفة خِيف . قال الجوهرى : والخِيفة الخوف، والجمع خِيف، وأصله الواو . ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ ﴾ أى دون الرفع من القول . أى أسمِع نفسك ؛ كما قال : « وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا »[2] أى بين الجهر والمخافتة . ودلّ هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع؛ على ما تقدّم فى غير موضع . ﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ قال قتادة وابن زيد : الآصال العَشِيّات . والغُدُوّ جمع غُدْوة . وقرأ أبو مِجْلَز « بالغُدُوّ والإيصال » وهو مصدر آصلنا، أى دخلنا فى العَشِىّ . والآصال جمع أُصُل؛ مثل طُنُب وأطناب؛ فهو جمع الجمع، والواحد أصيل، جُمع على أُصُل؛ عن الزجاج .

---

(١) آية ٥٥ من هذه السورة ص ٢٢٣ من هذا الجزء . (٢) آية ١١٠ سورة الإسراء .

الأخفش : الآصال جمع أصيل؛ مثل يمين وأيمـان . الفَراء: أُصُل جمع أصيل، وقد يكون أُصُل واحدا؛ كما قال الشاعر :

* ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصُلُ *

الجوهريّ : الأَصِيل الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه أُصُـل وآصال وأصائل؛ كأنه جمع أَصِيلة؛ قال الشاعر :

لعمرِى لأنت البيتُ أُكرِمُ أهلَه * وأقعــد فى أفيائه بالأصـائل

ويجمع أيضا على أُصلان؛ مثل بعير وبُعران؛ ثم صغّروا الجمـع فقالوا أُصَيْلان ، ثم أبدلوا من النون لاما فقالوا أصيلال؛ ومنه قول النابغة :

وقفت فيها أُصَيْلالًا أسائلها * عَيّتْ جوابا وما بالرَّبع من أحدِ

وحكى اللّحيانِىّ لقيته أُصَيْلالا . ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى عن الذكر .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ عِنـدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

فيــه ثمـان مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعنى الملائكة بإجماع . وقال « عنـد ربك » والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله عز وجل فهو عنـده ؛ عن الزجاج . وقال غيره : لأنهم فى موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله . وقيل : لأنهم رسل الله؛ كما يقال : عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم؛ فهو عبارة عن قربهم فى الكرامة لا فى المسافة . ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ أى و يعظمونه و ينزهونه عن كل سوء . ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ قيل يصلّون . وقيـل يَذِلون، خلاف أهل المعـاصى .

الثانيـــة — والجمهور من العلماء فى أن هذا موضعُ سجود للقارئ. وقد اختلفوا فى عدد سجود القرآن؛ فأقصى ما قيل : خمس عشرة . أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العَلَق . وهو قول ابن حبيب وابن وهب — فى رواية — و إسحاق . ومن العلماء من زاد سجدة الحِجر، قوله تعـالى : « وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . فعلى هذا تكون ست عشرة . وقيـل : أربع عشرة ؛ قاله ابن وهب فى الرواية الأخرى عنـه . فأسـقط ثانية الحج . وهو قول أصحاب الرأى، والصحيح سقوطها؛ لأن الحديث لم يصح بثبوتها. ورواه ابن ماجه وأبو داود فى سننهما عن عبد الله بن مُنَين من بنى عبد كُلال عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن؛ منها ثلاث فى المفصّل ، وفى الحج سجدتان . وعبد الله بن مُنين لا يُحتج به؛ قاله أبو محمـد عبد الحق . وذكر أبو داود أيضا من حديث عقبة بن عامر قال قلت : يا رسول الله ، أفى سورة الحج سجدتان؟ . قال : "نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما" . فى إسناده عبد الله بن لَهِيعة، وهـو ضعيف جدا . وأثبتهما الشافعىّ وأسقط سجدة ص . وقيل : احدى عشرة سجدة ، وأسقط آخرة الحج وثلاث المفصّل . وهو مشهور مذهب مالك . وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهم. وفى سنن ابن ماجه عن أبى الدرداء قال : سجدت مع النبىّ صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة سجدة ليس فيهـا من المفصّل شىء، الأعراف والرعد والنحل و بنى إسرائيل ومريم والحج سجدة والفرقان وسليمان سورة النمل والسجدة وص وسجدة الحواميم . وقيل : عشر، وأسقط آخرة الحج وص وثلاث المفصل؛ ذُكر عن ابن عباس . وقيل : إنها أربع، سجدة الم تنزيل وحم تنزيل والنجم والعلق . وسبب الخلاف اختـلاف النقـل فى الأحاديث والعمل . واختلافهـم فى الأمر المجرّد بالسجود فى القرآن هل المراد به سجود التلاوة أو سجود الفرض فى الصلاة .

الثالثـــة — واختلفوا فى وجوب سجود التلاوة؛ فقال مالك والشافعىّ : ليس بواجب. وقال أبو حنيفـة : هو واجب . وتعلّق بأن مطلق الأمر بالسـجود على الوجوب، و بقوله عليه السلام : "إذا قرأ ابن آدم سجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول يا وَيْلَه". وفى رواية

أبى كُرَيب "ياوَيْلِي"، وبقوله عليه السلام إخبارا عن إبليس لعنه الله : "أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار". أخرجه مسلم . ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحافظ عليه . وعوّل علماؤنا على حديث عمر الثابت ـ خرّجه البخاريّ ـ أنه قرأ آية سجدة على المِنبر [فنزل] فسجد وسجد الناس معه، ثم قرأها فى الجمعة الأخرى فتهيّأ الناس للسجود، فقال : أيها الناس على رِسْلكم ! إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء". وذلك بمحضر الصحابة أجمعين من الأنصار والمهاجرين . فلم ينكر عليـه أحد فثبت الإجماع به فى ذلك . وأما قوله : " أُمِر ابن آدم بالسجود " فإخبار عن السجود الواجب . ومواظبة النبيّ صـلى الله عليه وسلم تدلّ على الاستحباب، والله أعلم .

الرابعــة ـــ ولا خلاف فى أن سجود القرآن يحتاج إلى ما تحتاج إليه الصلاة من طهارة حدث ونجس ونية واستقبالِ قبلةٍ ووقت . إلا ما ذكر البخاريّ عن ابن عمر أنه كان يسجد على غير طهارة . وذكره ابن المنذر عن الشعبيّ . وعلى قول الجمهور هل يحتاج إلى تحريم ورفع يدين عنده وتكبير وتسليم . اختلفوا فى ذلك ؛ فذهب الشافعيّ وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع للتكبير لهـا . وقد روى فى الأثر عن ابن عمـر أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم كان إذا سجد كبر ، وكذلك إذا رفع كبر . ومشهور مـذهب مالك أنه يكبر لهـا فى الخفض والرفـع فى الصلاة . وآختُلف عنه فى التكبير لهـا فى غير الصلاة؛ وبالتكبير لذلك قاله عامة الفقهاء، ولا سـلام لهـا عند الجمهور . وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم منها . وعلى هـذا المذهب يتحقق أن التكبير فى أوّلهـا للإحرام . وعلى قول من لا يسـلم يكون للسـجود فحسب . والأوّل أولى؛ لقوله عليه السلام : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" . وهـذه عبادة لهـا تكبير، فكان لهـا تحليل كصلاة الجنازة بل أولى ؛ لأنها فعـل وصلاة الجنازة قول . وهذا آختيار ابن العربيّ .

الخامســـة ـــ وأما وقته فقيل : يسجد فى سائر الأوقات مطلقا؛ لأنها صلاة لسبب . وهو قول الشافعيّ وجماعة . وقيل : ما لم يُسفِر الصبح(١)، أو ما لم تصفر الشمس بعد العصر .

(١) فى الأصول : «بعد الصبح» والتصويب من كتب المالكية .

وقيل : لا يسجد بعـد الصبح ولا بعد العصر . وقيل : يسجد بعـد الصبح ولا يسجد بعد العصر . وهذه الثلاثة الأقوال فى مذهبنا . وسبب الخلاف معارضة ما يقتضيه سبب قراءة السجدة من السجود المرتّب عليها لعموم النّهى عن الصلاة بعد العصر وبعـد الصبح . وآختلافهم فى المعنى الذى لأجله نُهى عن الصلاة فى هذين الوقتين، والله أعلم .

السادسـة — فإذا سجد يقول فى سجوده : اللّهُمّ آحطط عنى بها وِزْراً، واكتب لى بها أجرا، واجعلها لى عندك ذُخْرا . ورواه ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره ابن ماجه .

السابعـة — فإن قرأها فى صلاة، فإن كان فى نافلة سجـد إن كان منفردا أو فى جماعة وأمن التخليط فيها . وإن كان فى جماعة لا يأمن ذلك فيها فالمنصوص جوازه . وقيل : لا يسجد فيها . وأما فى الفريضة فالمشهور عن مالك النّهيُ عنه فيها ، سواء كانت صلاة سر أو جهر ، جماعة أو فرادى . وهو معلّل بكونها زيادة فى أعداد سجود الفريضة . وقيل : معلل بخوف التخليط على الجماعة ؛ وهذا أشبه . وعلى هـذا لا يمنع منه الفرادى ولا الجماعة التى يأمن فيها التخليط .

الثامنـة — روى البخارىّ عن أبى رافـع قال : صلّيت مع أبى هريرة العَتَمة ، فقرأ « إذا السماء آنشقّت » فسجد؛ فقلت : ما هذه ؟ قال : سجدت بها خلف أبى القاسم صلى الله عليه وسلم ، فلا أزال أسجـد فيها حتى ألقاه . انفرد بإخراجه . وفيه « وقيل لعمران بن حُصين : الرجل يسمع السجدة ولم يجلس لها؟ قال : أرأيت لو قعد لها! كأنه لا يوجبه عليه . وقال سلمان : ما لهذا غدونا . وقال عثمان : إنما السجدة على من آستمعها . وقال الزُّهرى : لا يسجد إلا أن يكون طاهرا، فإذا سجدت وأنت فى حَضَر فاستقبل القبلة، فإن كنت راكبا فلا عليك حيث كان وجهك . وكان السائب لا يسجد لسجود القاصّ (١) » والله أعلم .

(١) القاص (بتشـديد الصاد المهملة) : الذى يقرأ القصص والأخبار والمواعظ ؛ لكونه ليس قاصدا لتلاوة القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

ســورة الأنفــال

مدنيــة بدرية فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس : هى مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا[(1)] » إلى آخر السبع آيات .

قوله تعالى : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — روى عُبادة بن الصّامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فَلَقُوا العدو ، فلما هزمهم الله ٱتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستولت طائفة على العسكر والنهب؛ فلما نفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم قالوا : لنا النَّفَل، نحن الذين طلبنا العدوّ وبنا نفاهم الله وهزمهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنتم بأحقّ به منا، بل هو لنا ، نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا ينال العدوُّ منه غِرّة. وقال الذين اسْتَلْوَوا [على] العسكر والنهب : ما أنتم بأحقّ منا، هو لنا، نحن حَوَيْناه واستوْلَينا عليه؛ فأنزل الله عز وجل : « يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فُوَاقٍ بينهم . قال أبو عمر : قال أهل العلم بلسان العرب : استلْوَوْا أطافوا وأحاطوا؛ يقال : الموت مُسْتَلْوٍ على العباد . وقوله « فقسـمه عن فُواق » يعني عن سرعة . قالوا : والفُوَاق ما بين حَلْبَتَي الناقة . يقال : انتظره فُوَاقَ ناقة ، أى هذا

(١) آية ٣٠

المقدار . ويقولونها بالضم والفتح : فُواق وفَواق . وكانَ هذا قبل أن ينزل : « وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» الآية . وكأن المعنى عند العلماء : أى إلى الله وإلى الرسول الحكم فيها والعملُ بها بما يقرب من الله تعالى . وذكر محمد ابن إسحاق قال : حدثني عبد الرحمن بن الحارث وغيره من أصحابنا عن سليمان بن موسى الأشدق عن مكحول عن أبي أُمامة الباهليّ قال : سألت عُبادة بن الصّامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بَواء . يقول : على السّوَاء . فكان ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البَيْن . وروى الصحيح عن سعد بن أبي وَقّاص قال : أغنم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة ، فإذا فيها سيف ، فأخذتُه فأتيت به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : نفِّلْني هذا السيف، فأنا من قد علمتَ حاله . قال : "ردّه من حيث أخذته" فانطلقت حتى أردت أن ألقيه فى القَبَض (١) لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه . قال : فشدّ لى صوته "ردّه من حيث أخذته" فانطلقت حتى أردت أن ألقيَه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه، قال : فشدّ لى صوته "ردّه من حيث أخذته" فأنزل الله « يسئلونك عن الأنفال » . لفظ مسلم . والروايات كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق للهداية .

الثانيــة — الأنفال واحدها نَفَل بتحريك الفاء، قال (٢) :

إنّ تَقْـوَى رَبِّنا خـيرُ نَفَـلْ * وبإذن الله رَيْثِي والعَجَـل

أى خير غنيمة . والنَّفْل : اليمين، ومنه الحديث "فتبرئكم يهود بنَفْل خمسين منهم" . والنّفْل الأنتفاء، ومنه الحديث "فأنتفل من ولدها" . والنَّفَل : نبت معروف . والنَّفْل : الزيادة على الواجب ، وهو التطوع . وولد الولد نافلة، لأنه زيادة عل الولد . والغنيمة نافلة، لأنها

---

(١) القبض (بالتحريك) بمعنى المقبوض ، وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم .

(٢) القائل هو لبيد، كما فى اللسان (مادة نفل) .

زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرّما على غيرها . قال صلى الله عليه وسلم : "فُضِّلت على الأنبياء بست — وفيها — وأحلّت لِيَ الغنائم". والأنفال : الغنائم نفسها . قال عنترة :

إنّا إذا آحمـر الوَغَى نُروِى القنا * ونَعِفّ عنـد مقاسم الأنفال

أى الغنائم .

الثالثـة — وآختلف العلماء فى محـل الأنفال على أربعة أقوال : الأول — محلها فيما شـذ عن الكافرين إلى المسلمين وأخذ بغير حرب . الثانى — محلها الخمس . الثالث — خمس الخمس . الرابع — رأس الغنيمة ؛ حسب ما يراه الإمام . ومذهب مالك رحمـه الله أن الأنفال مواهب الإمام من الخمس، على ما يرى من الاجتهاد، وليس فى الأربعة الأخماس نفل، وإنما لم ير النفل من رأس الغنيمة لأن أهلها معيَّنون وهم المُوجِفون، والخمس مردود قسمه إلى آجتهاد الإمام. وأهلُه غير معيَّنين . قال صلى الله عليه وسلم : "مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم" . فلم يمكن بعد هذا أن يكون النفل من حق أحد، وإنما يكون من حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخمس. هذا هو المعروف من مذهبه . وقد روى عنه أن ذلك من خمس الخمس . وهو قول ابن المسيِّب والشافعىّ وأبى حنيفة . وسبب الخلاف حديثُ ابن عمر، رواه مالك قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيّة قِبَل نَجْد فغَنِموا إبلا كثيرة ، وكانت سُهْمانهم آثْنَىْ عشر بعيرا أو أحد عشر بعيرا ؛ ونُفِّلُوا بَعيراً بعيراً . هكذا رواه مالك على الشك فى رواية يحيى عنه، وتابعـه على ذلك جماعةُ رواةِ الموطأ إلا الوليد بن مسـلم فإنه رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر، فقال فيه : فكانت سُهْمانهم اثنى عشر بعيرا، ونُفِّلُوا بعيرا بعيرا . ولم يشُـك . وذكر الوليد بن مسـلم والحكم بن نافع عن شعيب بن أبى حمزة عن نافع عن آبن عمر قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جيش قبل نجد — فى رواية الوليـد : أربعة آلاف — وآنبعثت سرية من الجيش — فى رواية الوليد : فكنت ممن خرج فيها — فكان سهمان الجيش آثنى عشر بعيرا، اثنى عشر بعيرا، ونفل أهل السرية بعيرا بعيرا، فكان سهمانهم ثلاثة عشر بعيرا، ذكره أبو داود . فآحتج بهـذا من

يقول : إن النَّفل إنما يكون من جملة الخمس . وبيانه أن هذه السرية لو نُزِّلت على أن أهلها كانوا عشرةً مثلا أصابوا فى غنيمتهم مائة وخمسين ، أخرج منها خمسها ثلاثين وصار لهم مائة وعشرون ، قُسِّمت على عشرة وجب لكل واحد اثنا عشر بعيرا، اثنا عشر بعيرا، ثم أعطى القوم من الخمس بعيرا بعيرا؛ لأن خمس الثلاثين لا يكون فيه عشرة أبعرة . فإذا عرفت ما للعشرة عرفت ما للمائة والألف وأزيد . واحتج من قال : إن ذلك كان من خمس الخمس بأن قال: جائز أن يكون هناك ثياب تباع ومتاع غير الإبل ، فأعطى من لم يبلغه البعير قيمة البعير من تلك العُرُوض . ومما يَعضُد هذا ما روى مسلم فى بعض طرق هذا الحديث : فأصبنا إبلا وغنما؛ الحديث . وذكر محمد بن إسحاق فى هذا الحديث أن الأمير نفّلهم قبل القَسْم، وهذا يوجب أن يكون النفل من رأس الغنيمة، وهو خلاف قول مالك . وقول من روى خلافه أولى لأنهم حفاظ ؛ قاله أبو عمر رحمه الله . وقال مكحول والأوزاعى : لا ينفّل بأ كثر من الثلث ؛ وهو قول الجمهور من العلماء . قال الأوزاعى : فإن زادهم فَلْيَفِ لهم ويجعل ذلك من الخمس . وقال الشافعى : ليس فى النَّفَل حدّ لا يتجاوزه الإمام .

الرابعة — ودلّ حديث ابن عمر على ما ذكره الوليد والحكم عن شعيب عن نافع أن السريّة إذا خرجت من العسكر فغَنِمت أن العسكر شركاؤهم . وهذه مسألة وحُكْمٌ لم يذكره فى الحديث غير شعيب عن نافع، ولم يختلف العلماء فيه، والحمد لله .

الخامسة — واختلف العلماء فى الإمام يقول قبل القتال : من هدم كذا من الحِصْن فله كذا ، ومن بلغ إلى موضع كذا فله كذا، ومن جاء برأس فله كذا، ومن جاء بأسير فله كذا؛ يُضَرِّيهم[1] . فرُوِى عن مالك أنه كرهه . وقال : هو قتال على الدنيا . وكان لا يجيزه . وقال الثَّوْرِى : ذلك جائز ولا بأس به .

قلت : وقد جاء هذا المعنى مرفوعا من حديث ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال النبى صلى الله عليه وسلم : "من قتل قتيلا فله كذا ومن أسر أسيرا فله كذا". الحديثَ بطوله.

(١) التضرية : الاغراء .

وفى رواية عكرمة عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : "من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا" . فتسارع الشُّبان وثبت الشيوخ مع الرايات ؛ فلما فُتح لهم جاء الشبان يطلبون ما جُعل لهم فقال لهم الأشياخ : لا تذهبون به دوننا ، فقد كنا رِدْءاً لكم ؛ فأنزل الله تعالى : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » ذكره إسماعيل بن إسحاق أيضا . وروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لجرير بن عبد الله البَجَلِي لما قدم عليه فى قومه وهو يريد الشام : هل لك أن تأتى الكوفة ولك الثلث بعد الخمس من كل أرض وسَبْي . وقال بهذا جماعة فقهاء الشأم : الأوزاعى ومكحول وابن حَيْوَة وغيرهم . ورأوا الخمس من جملة الغنيمة، والنَّفَل بعد الخمس ثم الغنيمة بين أهل العسكر؛ وبه قال إسحاق وأحمد وأبو عبيد . قال أبو عبيد : والناس اليوم على أن لا نفل من جهة الغنيمة حتى تخمس . وقال مالك : لا يجوز أن يقول الإمام لسَرِيّة : ما أخذتم فلكم ثلثه . قال سُحْنُون : يريد ابتداء . فإن نزل مضى ، ولهم أنصباؤهم فى الباقى . وقال سحنون : إذا قال الإمام لسَرِيّة ما أخذتم فلا خمس عليكم فيه؛ فهذا لا يجوز؛ فإن نزل رددته؛ لأن هذا حكم شاذّ لا يجوز ولا يمضى .

السادسة — واستحب مالك رحمه الله ألا ينفّل الإمام إلا ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف . ومنع بعض العلماء أن ينفّل الإمام ذهبا أو فضة أو لؤلؤا ونحوه . وقال بعضهم : النفل جائز من كل شىء . وهو الصحيح لقول عمر ومقتضى الآية، والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمر بالتقوى والإصلاح، أى كونوا مجتمعين على أمر الله فى الدعاء : اللّهمّ أصلح ذات البَيْن ، أى الحال التى يقع بها الاجتماع . فدلّ هذا على التصريح بأنه شَجَر بينهم اختلاف، أو مالت النفوس إلى التشاحّ؛ كما هو منصوص فى الحديث . وتقدّم معنى التقوى (١) ، أى اتقوا الله فى أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ذات بينكم . ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى الغنائم ونحوها . ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن سبيل المؤمن أن يمتثل ما ذكرنا . وقيل : «إنْ» بمعنى « إذ » .

(١) راجع جـ١ ص ١٦١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : هذه الآية تحريض على إلزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من قسمة تلك الغنيمة . والوجل : الخوف . وفي مستقبله أربع لغات : وَجِل يَوْجَل ويَاجَل ويَيْجَل ويِيجل ؛ حكاها سيبويه . والمصدر وَجِل وَجَلا ومَوْجِلا ؛ بالفتح . وهذا مَوْجِله (بالكسر) للموضع والاسم . فمن قال : ياجَل في المستقبَل جعل الواو ألفا لفتحة ما قبلها . ولغة القرآن الواو « قَالُوا لَا تَوْجَلْ »(١) . ومن قال : « يِيجل » بكسر الياء فهي على لغة بني أسد ، فإنهم يقولون : أنا إيجل ، ونحن نِيجل ، وأنت تِيجل ؛ كلها بالكسر . ومن قال : « يَيْجل » بناه على هذه اللغة ، ولكنه فتح الياء كما فتحوها في يَعلم ، ولم تكسر الياء في يعلم لاستثقالهم الكسر على الياء . وكسرت في « يِيجل » لتقوِّى إحدى الياءين بالأخرى . والأمر منه « إيجَلْ » صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وتقول : إنِّي منه لأَوْجَل . ولا يقال في المؤنث : وَجْلاء ، ولكن وَجِلة . وروى سفيان عن السّدّى في قوله جل وعز : « الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » قال : إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له : اتق الله ، كَفّ ووَجِل قلبه .

الثانية — وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوَجَل عند ذكره . وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربّهم ، وكأنهم بين يديه . ونظير هذه الآية « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ »(٢) . وقال : « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ »(٣) . فهذا يرجع إلى كمال

(١) آية ٥٣ سورة الحجر . (٢) آية ٣٤ سورة الحج . (٣) آية ٢٨ سورة الرعد .

المعرفة وثقة القلب . والوَجَل : الفزع من عذاب الله؛ فلا تناقض . وقد جمع الله بين المعنيين في قوله : «اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»(١). أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله . فهذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته؛ لا كما يفعله جهال العوامّ والمبتدعة الطَّغَام(٢) من الزَّعيق والزَّئير ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وَجْد وخشوع : لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله ، والخوف منه ، والتعظيم لجلاله ؛ ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفا من الله . ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال : «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»(٣) . فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم . ومن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على طريقتهم؛ فمن كان مُسْتَنًّا فليستنّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجُنُون فهو من أخسّهم حالا ؛ والجنون فنون . روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى أَحْفَوْه(٤) في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المِنْبر فقال : "سَلُونِي لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمتُ في مقامي هذا" . فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا(٥) ورَهِبوا أن يكون بين [يَدَيْ](٦) أمرٍ قد حضر . قال أنس : فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي . وذكر الحديث . وروى الترمذيّ وصححه عن العِرْباض بن سارِيَة قال : وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذَرَفت منها العيون ، ووَجِلت منها القلوب . الحديث . ولم يقل : زَعَقْنا ولا رَقَصْنا ولا زَفَنّا(٧) ولا قُمْنا .

---

(١) آية ٢٣ سورة الزمر .

(٢) الطغام والطغامة : أرذال الناس وأوغادهم .

(٣) آية ٨٣ سورة المائدة .

(٤) أي أكثروا عليه . وأحفى في السؤال وألحف بمعنى ألح .

(٥) أرم الرجل إرماما : إذا سكت فهو مرم .

(٦) زيادة عن صحيح مسلم .

(٧) زفن (من باب ضرب) : رقص ؛ وأصله الدفع الشديد والضرب بالرجل ، كما يفعل الراقص .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ أى تصديقا . فإن إيمان هذه الساعة زيادةٌ على إيمان أمس ؛ فمن صدّق ثانيا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم . وقيل : هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة ؛ وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران »(1) . ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ تقدّم معنى التوكل فى « آل عمران »(2) أيضا . ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تقدّم فى أوّل سورة « البقرة »(3) . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أى الذى آستوى فى الإيمان ظاهرُهم وباطنهم . ودلّ هذا على أن لكل حق حقيقة؛ وقد قال عليه السلام لحارثة: "إنّ لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك"؟ الحديث .
وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ — إلى قوله — أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » فوالله ما أدرى أنا منهم أملا . وقال أبو بكر الواسطى : من قال أنا مؤمن بالله حقا ، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف وآطلاع وإحاطة ؛ فمن فقده بطل دعواه فيها . يريد بذلك ما قاله أهل السنة : إن المؤمن الحقيق من كان محكوما له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سِرّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (٥)

قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ قال الزجاج : الكاف فى موضع نصب ؛ أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . أى مثل إخراجك ربّك من بيتك بالحق . والمعنى : امض لأمرك فى الغنائم ونفّل من شئت وإن كرهوا ؛ لأن بعض

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٤ ص ١٨٩ طبعة أولى أو ثانية .
(3) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا قال : يبقى أكثر الناس بغير شيء . فموضع الكاف فى « كما » نَصْبٌ كما ذكرنا . وقاله الفرّاء أيضا . قال أبو عبيدة : هو قَسَم ، أى والذى أخرجك ؛ فالكاف بمعنى الواو ، وما بمعنى الذى . وقال سعيد بن مَسْعَدة : المعنى أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق . قال : وقال بعض العلماء « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » فاتقوا الله وأصلحوا ذات بَيْنِكم . وقال عكرمة : المعنى أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك . وقيل : « كما أخرجك » متعلّق بقوله « لهم درجات » المعنى : لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . أى هذا الوعد للؤمنين حقٌّ فى الآخرة كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له ؛ فأنجزك وَعْدَك وأظفرك بعدوّك وأوْفَى لك ؛ لأنه قال عز وجل : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . فكما أنجز هذا الوعد فى الدنيا كذا يُنجز ما وعدكم به فى الآخرة . وهذا قول حَسن ذكره النحاس واختاره . وقيل : الكاف فى « كما » كافُ التشبيه ، ومخرجه على سبيل المجازاة ؛ كقول القائل لعبده : كما وجّهتك إلى أعدائى فاستضعفوك وسألت مددا فأمددتك وقوّيتك وأزحت علّتك ، فخذهم الآن فعاقبهم بكذا . وكما كسوتك وأجريت عليك الرزق فاعمل كذا وكذا . وكما أحسنت إليك فاشكرنى عليه . فقال : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغشّاكم النُّعاس أَمَنَةً منه — يعنى به إياه ومن معه — وأنزل من السماء ماء ليطهركم به ، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مُرْدِفين ؛ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . كأنه يقول : قد أزحت عِلَلكم ، وأمددتكم بالملائكة فاضربوا منهم هذه المواضع ، وهو المَقْتل ؛ لتبلغوا مراد الله فى إحقاق الحق وإبطال الباطل . والله أعلم . ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ أى لكارهون ترك مكة وترك أموالهم وديارهم .

قوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (٦)

قوله تعالى : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ مجادلتهم : قولهم لما ندبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال ولم يكن معهم كبير أُهبة شق ذلك عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدّة . ومعنى ﴿ فِي الْحَقِّ ﴾ أى فى القتال . ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله . وقيل : بعد ما تبيّن لهم أن الله وعدهم إمّا الظّفر بالعير أو بأهل مكة ، وإذ فات العير فلا بدّ من أهل مكة والظّفر بهم . فمعنى الكلام الإنكارُ لمجادلتهم . ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ كراهة للقاء القوم . ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى يعلمون أن ذلك واقع بهم ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ »(١) أى يعلم .

قوله تعالى : وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ «إحدى» فى موضع نصب مفعول ثان . «أنها لكم» فى موضع نصب أيضا بدل من «إحدى» . ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أى تحبون . ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ قال أبو عبيدة : أى غير ذات الحدّ . والشوكة : السلاح . والشوك : النبت الذى له حدٌّ ؛ ومنه رجل شائك السلاح ، أى حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكِى السلاح . أى تودّون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ولا فيها حرب ؛ عن الزجاج . ﴿ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى أن يظهر الإسلام . والحقُّ حقٌّ أبدا ، ولكن إظهاره تحقيق له من حيث إنه إذا لم يظهر أشبه الباطل . ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بوعده ؛ فإنه وعد نبيّه ذلك فى سورة «الدّخان» فقال : « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ »(٢) أى من أبى جهل وأصحابه . وقال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ »(٣) . وقيل : « بكلماته » أى

(١) آخر سورة النبأ . (٢) آية ١٦ (٣) آية ٣٣ سورة التوبة .

بأمره؛ إياكم أن تجاهدوهم. ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك. ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أى يظهر دين الإسلام ويُعزّه. ﴿ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ أى الكفر. و إبطاله إعدامه؛ كما أن إحقاق الحق إظهاره «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ»(١). ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

قوله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الاستغاثة: طلب الغَوْث والنَّصر. غوّث الرجل قال: واغوثاه. والاسم الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث. واستغاثنى فلان فأغثته؛ والاسم الغِياث؛ عن الجوهرى. وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وسبعة عشر(٢) رجلا؛ فاستقبل نبىّ الله صلى الله عليه وسلم القِبلة، ثم مدّ يديه، فجعل يهتِف بربه: "اللهم أنجز لى ما وعدتنى. اللهم ائتنى ما وعدتنى. اللهم إن تهلِك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض". فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبىّ الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين» فأمده الله بالملائكة. وذكر الحديث. ﴿ مردَفين ﴾ بفتح الدال قراءة نافع. والباقون بالكسر اسم فاعل، أى متتابعين، تأتى فرقة بعد فرقة، وذلك أهْيب فى العيون. و«مردَفين» بفتح الدال على مالم يسم فاعله؛ لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أردفوا بألف من الملائكة، أى أنزلوا إليهم لمعونتهم على

(١) آية ١٨ سورة الأنبياء. (٢) الذى فى صحيح مسلم: «... تسعة عشر...».

الكفار . «مردَفين» بفتح الدال نعت لألف . وقيل : هو حال من الضمير المنصوب في «مُمِدُّكم» . أى مُمِدّكم في حال إردافكم بألف من الملائكة ؛ وهذا مذهب مجاهد . وحكى أبو عبيدة أنّ رَدِفنى وأردفنى واحد . وأنكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ردِف ؛ قال لقول الله عز وجل : «تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ»[1] ولم يقل المُرْدِفة . قال النحاس ومكّيّ وغيرهما : وقراءة كسر الدال أَوْلى ؛ لأن أهل التأويل على هذه القراءة يفسرون . أى أردف بعضهم بعضا ، ولأن فيها معنى الفتح على ماحكى أبو عبيدة ، ولأن عليه أكثر القراء . قال سيبويه : وقرأ بعضهم «مُرَدِّفين» بفتح الراء وشدّ الدال . وبعضهم «مُرِدِّفين» بكسر الراء . وبعضهم «مُرُدِّفين» بضم الراء . والدال مكسورة مشدّدة في القراءات الثلاث . فالقراءة الأولى تقديرها عند سيبويه مرتدفين ، ثم أدغم التاء فى الدال ، وألقى حركتها على الراء لئلا يلتقى ساكنان . والثانية كسرت فيها الراء لالتقاء الساكنين . وضُمّت الراء فى الثالثة إتباعا لضمة الميم ؛ كما تقول : رُدُّ يا هذا . وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجَحْدَرِيّ «بآلُف» جمع ألف ؛ مثل فَلْس وأفلس . وعنهما أيضا «بأَلْف» . وقد مضى فى «آل عمران» ذكر نزول الملائكة وسِيماهم وقتالهم[2] . وتقدّم فيها القول فى معنى قوله : «وَمَا جَعَلَهُ اللّٰهُ إِلَّا بُشْرَى»[3] . والمراد الإمداد . ويجوز أن يكون الإرداف . ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ نبّه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة ؛ أى لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة .

قوله تعالى : إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ مفعولان . وهى قراءة أهل المدينة ، وهى حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره فى قوله : «وما النصر إلا من عند الله» .

(١) آية ٧ سورة النازعات . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) جـ ٤ ص ١٩٨

ولأن بعـده « ويُنَزِّلُ عليكم » فأضاف الفعل إلى الله عز وجل . فكذلك الإغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَغشاكم النعاسُ » بإضافة الفعل إلى النعاس . دليله « أَمَنَةً نُعاساً يَغْشَى »(١) فى قراءة من قرأ باليـاء أو بالتاء ؛ فأضاف الفعل الى النعاس أو إلى الأَمَنة . والأمنة هى النعاس ؛ فأخبر أن النعاس هـو الذى يغشى القوم . وقرأ الباقون « يُغَشِّيكم » بفتح الغين وشـد الشين . « النعاسَ » بالنصب على معنى قراءة نافع ، لغتان بمعنى غَشَّى وأغشى؛ قال الله تعالى : « فأغشيناهم »(٢) . وقال : « فغَشَّاها ما غَشَّى »(٣) . وقال : « كأنما أُغْشِيَتْ وُجوهُهم »(٤) . قال مَكّىّ : والاختيار ضم الياء والتشديد ونصب النعاس؛ لأن بعده « أَمَنَةً منه » والهـاء فى « منه » لله، فهو الذى يغشيهم النعاس، ولأن الأكثر عليه . وقيل : أمنة من العـدوّ . و﴿ أَمَنَةً ﴾ مفعول من أجله أو مصـدر ؛ يقال : أمِن أَمَنة وأمْنا وأمانا ؛ كلها سواء . والنعاس حالة الأمن الذى لا يخاف . وكان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها؛ فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهِم، ولكن الله ربط جأشهم . وعن علىّ رضى الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المِقْداد على فرس أبلق ، ولقـد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليـه وسلم تحت شجرة يصـلى ويبكى حتى أصبح ؛ ذكره البَيْهَقى . المـاوردِىّ : وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هـذه الليلة وجهان : أحدهمـا — أن قوّاهم بالاسـتراحة على القتال من الغـد . الثـانى — أن أمّنهم بزوال الرعب من قلوبهم ؛ كما يقال : الأمن مُنِيم ، والخوف مُسْهِر . وقيل : غشاهم فى حال التقاء الصفين . وقد مضى مثل هذا فى يوم أُحُد فى « آل عمران »(٥) .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر . وقال ابن أبى نَجِيح : كان المطر قبل النعاس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليـه وبقى المؤمنون لا ماء لهم فوجَسَت نفوسهم وعَطِشوا وأجنبوا وصلّوا

(١) آية ١٥٤ سورة آل عمران . (٢) آية ٩ سورة يس . (٣) آية ٥٤ سورة النجم .
(٤) آية ٢٧ سورة يونس . (٥) راجع ﺟ ٤ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

بذلك؛ فقال بعضهم فى نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هـذه والمشركون على المـاء . فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية ؛ فشربوا وتطهروا وسقوا الظَّهْر (١) وتلبّدت السَّبَخة (٢) التى كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . وقد قيـل : إن هذه الأحوال كانت قبـل وصولهم إلى بدر ؛ وهـو أصح ، وهو الذى ذكره ابن إسحاق فى سيرته وغيره . وهـذا اختصاره : قال ٱبن عباس لمـا أُخْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان أنه مقبل من الشأم ندب المسلمين إليهم وقال : " هـذه عِير قريش فيها الأموال فآخرجوا إليهم لعـل الله يُنَفِّلُكُموها " قال : فآنبعث معه من خفّ؛ وثقل قوم وكرهوا الخروج، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لايلوِى (٣) على من تعذّر ، ولا ينتظر من غاب ظَهْره، فسار فى ثلثمائة وثلاثة عشر من أصحابه من مهاجرِىّ وأنصارىّ . فى البخارىّ عن البراء بن عازب قال : كان المهـاجرون يوم بدر نَيِّفا وثمـانين، وكان الأنصار نيفا وأربعين ومائتين . وخرّج أيضا عنـه قال : كنا نتحـدّث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، على عدد أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جاز معـه إلا مؤمن . وذكر البَيْهَقِىّ عن أبى أيوب الأنصارى قال : نخرجنا — يعنى إلى بدر — فلمـا سرنا يوما أو يومين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا، فأخبرنا النبىّ صلى الله عليه وسلم بعدّتنا ، فسُرّ بذلك وحمد الله وقال : " عِدّة أصحاب طالوت " . قال ٱبن اسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايَلْقَى حَرْبًا فلم يكثر استعدادهم . وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ويسأل من لقِىَ من الركبان تخوّفا على أموال الناس ، حتى أصاب خبرا من بعض الركبان أن محمدا رسول الله صلى الله عليـه وسلم قد ٱستنفر لكم الناس ؛ فحذِر عنـد ذلك واستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفارىّ وبعثـه إلى مكة، وأمره أن يأتِىَ قريشا

(١) الظهر : الابل التى يحمل عليها ويركب . (٢) السبخة (محركة) : أرض ذات ملح ونزّ .

(٣) لوى عليه : عطف أو انتظر .

يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عرّض لها فى أصحابه ؛ ففعل ضمضم . فخرج أهـل مكة فى ألف رجل أو نحو ذلك ، وخرج النبيّ صلى الله عليـه وسلم فى أصحابه ، وأتاه الخبر عن قريش بخروجهم ليمنعوا عِيرهم ؛ فآستشار النبيّ صلى الله عليه وسلم الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن ، وقام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المِقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله، اِمض لما أمرك الله ، فنحن معك ، واللهِ لا نقول كما قالت بنـو إسرائيل « اِذهب أنت وربك فقاتِلا إنا هاهنا قاعِدون » ولكن آذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، والذى بعثك بالحق لو سِرْت إلى بَرْك الغماد — يعنى مدينـة الحبشة — لجالدنا معك من دونه ؛ فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير . ثم قال : "أشِيروا علىّ أيها الناس" يريد الأنصار . وذلك أنهم عدد الناس ، وكان حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسـول ، إنا برآء من ذِمامك حتى تصِـل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذِممنا ، نمنعك مما نمنع منـه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينـة، وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بغـير بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليـه وسلم كلمه سعد بن معاذ — وقيل سعد بن عُبادة ، ويمكن أنهما تكلما جميعا فى ذلك اليوم — فقال: يارسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار ؟ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "أجل" فقال : إنا قد آمنا بك وآتبعناك، فآمض لما أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك . فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "اِمضـوا على بركة الله فكأنى أنظر إلى مصارع القوم" . فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبق قريشا إلى ماء بدر . ومنع قريشا من السبق إليـه مطر عظيم انزله الله عليهم، ولم يصب منـه المسلمين إلا ما شدّ لهم دَهْس الوادى وأعانهم على السير . والدَّهْس : الرمل اللين الذى تسوخ فيه الأرجل . فنزل رسـول الله صلى الله عليه وسلم على أدنى ماء من ميـاه بدر إلى المدينة ، فأشار عليه الحُبَاب

ابن المنذر بن عمرو بن الجَمُوح بغير ذلك وقال له : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال عليه السلام: "بل هو الرأى والحرب والمكيدة". فقال : يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونُعوِّر(١) ما وراءه من القُلُب(٢)، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه فنشرب ولا يشربوا . فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من رأيه ، وفَعَله . ثم التقوا فنصر الله نبيّه والمسلمين ، فقتل من المشركين سبعين وأسر منهم سبعين ، وانتقم منهم للؤمنين ، وشفى الله صدر رسوله عليه السلام وصدور أصحابه من غيظهم . وفى ذلك يقول حسان :

عَرفتُ ديار زينب بالكثِيب * كخطّ الوَحْىِ فى الوَرق القَشِيب(٣)
تَداوَلُها الرياح وكلُّ جَوْنٍ * من الوَسْمِىّ منهمرٍ سَكُوب(٤)
فأمسى رَبْعُها خَلَقا وأمستْ * يَبَاباً بعد ساكنها الحبيب(٥)
فدَعْ عنك التذكُّر كلّ يوم * ورُدّ حرارة الصّدر الكئيب
وخَبِّرْ بالذى لا عَيْب فيه * بِصدق غيرِ إخبارِ الكذوبِ
بما صنع الإله غداةَ بدرٍ * لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأنّ جَمْعَهم حِراءٌ * بدت أركانه جُنْحَ الغروب
فلاقيناهُمُ منا بجَمْع * كأُسْد الغاب مُرْدانٍ وشِيبِ
أمام محمد قد وازَروه * على الأعداء فى لَفْح الحروب
بأيديهم صوارِمُ مُرْهفاتٌ * وكلّ مجرِّب خاظِى الكُعوب(٦)

(١) عوّر عيون المياه : إذا دفنها وسدها . (٢) القلب : جمع قليب ، وهى البئر العادية القديمة التى لا يُعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى . (٣) الوحى : الكتابة . والقشيب : الجديد .
(٤) الجون : السحاب . والوسمى : المطر الذى يأتى فى الربيع . (٥) اليباب : الخراب .
(٧) الخاظى : الكثير اللحم .

بنـو الأوْس الغطارِفُ وازرتْها * بنو النجار فى الدِّين الصليب (١)
فغـادَرْنا أبا جهـل صـرِيعا * وعتبـةَ قـد تركْنا بالجَبُـوب (٢)
وشـيبةَ قـد تركْنا فى رجال * ذوِى نَسَب إذا نُسِبوا حَسيبِ
ينـاديهـم رسـول الله لمـا * قذفنـاهم كَبَاكِب فى القليب (٣)
ألم تجِـدوا كلامِى كان حقا * وأمرُ الله يأخـذ بالقـلوب
فمـا نطقوا ، ولو نطقوا لقـالوا * أصبتَ وكنتَ ذا رأى مصيب

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — قال مالك : بلغنى أن جبريل عليه السـلام قال للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : "كيف أهل بدر فيكم" ؟ قال : "خيارنا" فقال : "إنهم كذلك فينا" . فدلّ هذا على أن شرف المخلوقات ليس بالذوات ، وإنما هو بالأفعال . فللملائكة أفعالها الشريفة من المواظبة على التسبيح الدائم . ولنـا أفعالنا بالإخلاص بالطاعة . وتتفاضل الطاعات بتفضيل الشرع لهـا ، وأفضلها الجهاد ، وأفضل الجهاد يوم بدر ؛ لأن بناء الإسلام كان عليه .

الثانيـــة — ودلّ خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلقى العِير على جواز النَّفِير للغنيمة لأنها كسب حلال . وهو يردّ ما كرِه مالك من ذلك ؛ إذ قال : ذلك قتـال على الدنيا ، وما جاء أن من قاتل لتكون كلمـة الله هى العليا فهو فى سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة ، يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدِّين فيـه حظّ . وروى عِكرمة عن ابن عباس قال : قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسـلم حين فرغ من بدر : عليك بالعير ، ليس دونها شىء . فناداه العباس وهو فى الأسرى : لا يصلح هـذا . فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولِمَ" ؟ قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك . فقال النبيّ صلى الله عليـه وسلم :

---

(١) الغطارف : جمع الغطريف ، وهو السيد الشريف السخى . (٢) الجبوب : وجه الأرض .
(٣) كباكب : جمع كبكبة وهى الجماعة الكثيرة .

" صدقت " . وعلم ذلك العباس بحديث أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وبما كان من شأن بدر، فسمع ذلك فى أثناء الحديث .

الثالثة – روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم قام عليهم فناداهم فقال : "يا أبا جهل بنَ هشام يا أمية بنَ خلف يا عتبةَ بنَ ربيعة يا شيبةَ بنَ ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا " . فسمع عمر قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، كيف يسمعون، وأنّى يجيبون وقد جَيَّفوا ؟ قال : "والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يُجيبوا" . ثم أمر بهم فسُحِبوا فألقوا فى القَلِيب ، قليبِ بدر . « جَيَّفوا » بفتح الجيم والياء، ومعناه أنتنوا فصاروا جِيَفًا . وقول عمر : « يسمعون » استبعاد على ما جرت به العادة . فأجابه النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنهم يسمعون كسمع الأحياء . وفى هذا ما يدل على أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدّل حالٍ وانتقال من دار إلى دار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الميت إذا وضع فى قبره وتولّى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم " الحديث . أخرجه الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ الضمير فى « به » عائد على الماء الذى شدّ دهس الوادى، كما تقدّم. وقيل : هو عائد على ربط القلوب؛ فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى موطن الحرب .

قوله تعالى : إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ ﴾ العامل فى « إذ ، يثبت » أى يثبت به الأقدام ذلك الوقت . وقيل : العامل « لِيَرْبِطَ » أى وليربط إذ يوحى . وقد يكون التقدير : اذكر إذ يوحى ربك إلى الملائكة . « أنى معكم » فى موضع نصب ، والمعنى : بأنى معكم ، أى بالنصر والمعونة . « معكم » بفتح العين ظرف ، ومن أسكنها فهى عنده حرف . ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال ؛ فكان الملك يسير أمام الصف فى صورة الرجل ويقول : سيروا فإن الله ناصركم . ويظن المسلمون أنه منهم ؛ وقد تقدّم فى « آل عمران »(١) أن الملائكة قاتلت ذلك اليوم . فكانوا يرون رءوسا تَنْدُرُ(٢) عن الأعناق من غير ضارب يرونه . وسمع بعضهم قائلا يُسمع قولُه ولا يُرَى شخصُه : أَقْدِم حَيْزُوم(٣) . وقيل : كان هذا التثبيت ذِكْرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم للؤمنين نزول الملائكة مددا .

قوله تعالى : ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾(٤) تقدّم فى « آل عمران » بيانه . ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ هذا أمر للملائكة . وقيل : للؤمنين ، أى اضربوا الأعناق ، و « فوق » زائدة ؛ قاله الأخفش والضحاك وعطية . وقد روى المسعودِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله وإنما بعثت بضرب الرّقاب وشدّ الوَثاق " . وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ؛ لأن « فوق » تفيد معنًى فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنهم أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها . وقال ابن عباس : كل هامٍ وجُمْجُمة . وقيل : أى ما فوق الأعناق ، وهو الرءوس ؛ قاله عِكرمة . والضرب على الرأس أبلغ ؛ لأن أدنى شىء يؤثر فى الدماغ . وقد مضى شىء من هذا المعنى فى « النساء » وأن « فوق » ليست بزائدة ، عند قوله : « فوق اثنتين »(٥) . ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال الزجاج : واحد البنان بنانة ، وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء . والبنان مشتق من

---

(١) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) ندر : سقط .
(٣) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة . (٤) راجع جـ ٤ ص ٢٣٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٥) راجع جـ ٥ ص ٦٣ طبعة أولى أو ثانية .

قولهم : أبَنَّ الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُعتمل به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل: المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرّجلين . وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب ؛ فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . قال عنترة :

وكان فَتَى الهيجاء يحمِى ذِمارها * ويضرب عند الكَرْب كلّ بنانِ

ومما جاء أن البنان الأصابع قول عنترة أيضا :

وأن الموت طوْع يدى إذا ما * وصَلْتُ بنانها بالهُنْدُوانِي

وهو كثير فى أشعار العرب، البنان : الأصابع . قال ابن فارس : البنان الأصابع ، ويقال الأطراف . وذكر بعضهم أنها سُمّيت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقرّ الإنسان ويَبِنّ[1] . وقال الضحاك : البنان كل مَفْصِل .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ ﴾ « ذلك » فى موضع رفع على الابتداء، والتقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك . ﴿ شَآقُّوا ٱللَّهَ ﴾ أى أولياءه . والشِّقاق : أن يصير كل واحد فى شِق . وقد تقدّم[2] . ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ قال الزجاج : « ذلكم » رفع بإضمار الأمر أو القصة ، أى الأمر ذلكم فذوقوه . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بذوقوا ؛ كقولك : زيدا فاضربه . ومعنى الكلام التوبيخ للكافرين . « وأنّ » فى موضع رفع عطف على ذلكم . قال الفرّاء : ويجوز أن يكون فى موضع نصب بمعنى و بأن للكافرين . قال : ويجوز أن يضمر واعلموا أن . الزجاج : لو جاز إضمار واعلموا لجاز زيد منطلق وعمرا

(١) بنّ بالمكان : أقام . (٢) راجع ج ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .

جالسا ، بل كان يجوز فى الابتداء زيدا منطلقا ؛ لأن المخبر معلِم ، وهـذا لا يقوله أحد من النحويين .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦) ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ زَحْفًا ﴾ الزّحف الدنو قليلا قليلا . وأصـله الآندفاع على الألْيَـة ؛ ثم سُمّى كل ماشٍ فى الحرب إلى آخر زاحفا . والتزاحف : التـدانى والتقارب ؛ يقال : زحف إلى العـدو زحفا . وآزدحف القوم ، أى مشى بعضهـم إلى بعض . ومنه زِحاف الشّعر ، وهو أن يسقط بين الحرفين حرف فيَزْحَف أحدهما إلى الآخر . يقول : إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفِرّوا عنهم ولا تعطوهم أدباركم . حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار . قال ابن عطية : والأدبار جمع دُبُر . والعبارة بالدّبر فى هـذه الآية متمكنة الفصاحة ؛ لأنها بشِيعة على الفارّ ، ذامّة له .

الثانيــة — أمر الله عز وجل فى هذه الآية ألا يُوَلِّيَ المؤمنون أمام الكفار . وهـذا الأمر مقيّد بالشريطة المنصوصة فى مِثْلَى المؤمنين ؛ فإذا لَقِيتْ فئةٌ من المؤمنين فئةً هى ضِعف المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يفِرّوا أمامهم . فمن فرّ من آثنين فهو فارّ من الزحف . ومن فرّ من ثلاثة فليس بفارّ من الزحف ، ولا يتوجّه عليـه الوعيد . والفرار كبيرة مُوبِقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة منهم ابن المـاجشون فى الواضحة : إنه يراعى الضّعف والقوّة والعُدّة ؛ فيجوز على قولهم أن يفِرّ مائة فارس من مائة فارس إذا علموا أن ما عند المشركين من النّجدة والبسالة ضعفُ ما عندهم . وأما على قول الجمهور فلا يحل فِرار مائة إلا

ما زاد على المائتين ، فمهما كان فى مقابلة مسلم أكثر من آثنين فيجوز الأنهزام ، والصبر أحسن . وقد وقف جيش مُؤْتة وهم ثلاثة آلاف فى مقابلة مائتى ألف ، منهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من المستعربة من لَخْم وجُذام .

قلت : ووقع فى تاريخ فتح الأندلس ، أن طارقا مَوْلَى موسى بن نصير سار فى ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس، وذلك فى رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة؛ فآلتق وملك الأندلس لذريق وكان فى سبعين ألف عِنان؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق ، وكان الفتح . قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن القوم يَلْقَوْن العدوّ ويكونون فى مَحْرس يحرسون فيأتيهم العدوّ وهم يسير ، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال : إن كانوا يَقْوَون على قتالهم قاتلوهم، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم .

الثالثة — واختلف الناس هل الفرار يوم الزّحف مخصوص بيوم بدر أم عام فى الزُّحوف كلها إلى يوم القيامة؛ فروى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن ذلك مخصوص بيوم بدر، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبى حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة . وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو آنحازوا لآنحازوا للمشركين ، ولم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا للمسلمين فئة إلا النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئةٌ لبعض . قال الكِيَا : وهذا فيه نظر ؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبىّ صلى الله عليه وسلم بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال ، وإنما ظنوا أنها العِير ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن خفّ معه . ويُروى عن ابن عباس وسائرِ العلماء أن الآية باقية الى يوم القيامة . اِحتج الأوّلون بما ذكرنا ، وبقوله تعالى : « يومئذ » فقالوا : هو إشارة إلى يوم بدر، وأنه نسخ حكم الاية بآية الضِّعف. وبقى حكم الفِرار من الزحف ليس بكبيرة . وقد فرّ الناس يوم أُحُد فعفا الله عنهم ، وقال الله فيهم يوم حُنَين « ثم ولّيتم مُدْبِرين »(١) ولم يقع على ذلك تعنيف . وقال الجمهور من العلماء : إنما ذلك إشارة

---

(١) آية ٢٥ سورة التوبة .

الى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى : « إذا لقيتم » . وحكم الآية باقٍ إلى يوم القيامة بشرط الضِّعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى ، وليس فى الآية نسخ . والدليل عليـه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه . وإلى هذا ذهب مالك والشافعىّ وأكثر العلمـاء . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : "اِجتنبوا السبع المو بِقات — وفيه — والتولّى يوم الزّحف" وهذا نصٌّ فى المسألة . وأما يوم أُحُد فإنمـا فرّ النـاس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عُنِّفوا . وأما يوم حُنين فكذلك من فرّ إنمـا انكشف عن الكثرة ؛ على ما يأتى بيانه .

الرابعــة — قال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فرّ من الزحف، ولا يجوز لهم الفِرار وإن فرّ إمامهم ؛ لقوله عز وجل : « ومَن يُوَلِّهِم يومئذ دُبُرَهُ » الآية . قال : ويجوز الفِرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين آثنى عشر ألفا ؛ فإن بلغ اثنى عشر ألفا لم يحِل لهم الفِرار و إن زاد عدد المشركين على الضِّعف؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولن يُغلب آثنا عشر ألفا من قِلّة" فإن أكثر أهل العلم خصّصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية .

قلت — رواه أبو بشر وأبو سـلمة العاملىّ ، وهو الحكم بن عبـد الله بن خطـاف وهو متروك . قالا : حدّثنا الزُّهرِىّ عن أنس بن مالك عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال : "يا أكثم بنَ الجـوْن اغزُ مع غير قومك يحسن خلقك وتكرم على رفقائك . يا أكثم ابن الجون خير الرفقاء أربعة وخير الطلائع أربعون وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يُؤتَى آثنا عشر ألفا من قِلة" . وروى عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبـه وهو قوله للعُمَرِىّ (١) العابد إذ سأله هل لك سَعة فى ترك مجاهدة مَن غيّر الأحكام و بدّلها ؟ فقال : إن كان معك آثنا عشر ألفا فلا سَعة لك فى ذلك .

---

(١) العُمَرى (بضم العين وفتح الميم) وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كان من أزهد زمانه . مات سنة ١٨٤ هـ (عن أنساب السمعانى) .

الخامسة — فإن فرّ فليستغفر الله عز وجل . روى الترمذيّ عن بلال بن يسار بن زيد قال : حدّثني أبي عن جدّي سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غفر الله له وإن كان قد فرّ من الزحف". قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ التحرّف : الزوال عن جهة الاستواء . فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم ؛ وكذلك المتحيز إذا نوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضا . روى أبو داود عن عبد الله بن عمر أنه كان في سرِيّة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فحاص الناس حَيْصة (١) ، فكنت فيمن حاص ، قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبُؤْنا بالغضب . فقلنا : ندخل المدينة فنتثبّت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال : فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن كانت لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال : فجلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر ، فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرّارون ؛ فأقبل إلينا فقال : "لا بل أنتم العكّارون". قال : فدنونا فقبلنا يده . فقال : "أنا فئة المسلمين". قال ثعلب : العكّارون هم العطّافون . وقال غيره : يقال للرجل الذي يُوَلّي عند الحرب ثم يكرّ راجعا : عكَرَ واعتكر . وروى جرير عن منصور عن إبراهيم قال : انهزم رجل من القادسية فأتى المدينة إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، هلكت ! فررت من الزحف . فقال عمر : أنا فئتك . وقال محمد بن سِيرين : لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال : لو انحاز إليّ لكنت له فئة ، فأنا فئة كل مسلم . وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفِرار كبيرة ؛ لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا . وعلى القول الآخر يكون كبيرة ؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب . هذا على قول الجمهور أن الفِرار من الزحف كبيرة . قالوا : وإنما كان ذلك القول

(١) حاص : جال ؛ أي جالوا جولة يطلبون الفرار .

من النبيّ صلى الله عليه وسلم وعمر على جهة الحِيطة على المؤمنين ، إذ كانوا فى ذلك الزمان يثبتون لأضعافهم مرارا . والله أعلم . وفى قوله "والتولّى يوم الزحف" ما يكفى .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى استحق الغضب . وأصل « باء » رجع . وقـد تقدّم.(١) ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أى مقامه . وهذا لا يدل على الخلود؛ كما تقدّم فى غير موضع . وقد قال عليه السلام : "من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحيّ القيوم غُفر له وإن كان قد فرّ من الزحف" .

قوله تعـالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أى يوم بدر . رُوى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتلت كذا ، فعلت كذا ؛ فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله تعـالى هو المميت والمقدّر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنمـا يشارك بتكسبه وقصده . وهذه الآية تردّ على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم . فقيل : المعنى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم . وقيل : ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ مثله ، ولكن الله رمى . واختلف العلماء فى هذا الرّمى على أربعة أقوال :

الأوّل — إن هذا الرمى إنما كان فى حَصْب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين ؛ رواه ابن وهب عن مالك . قال مالك : ولم يبق فى ذلك اليوم أحد إلا وقـد أصابه ذلك . وكذلك روى عنه ابن القاسم أيضا .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

الثاني — أن هذا كان يوم أُحُد حين رمى أبيّ بن خلف بالحربة فى عنقه ؛ فكرّ أبيّ منهزما . فقال له المشركون : والله مابك من بأس . فقال : والله لو بصق عليّ لقتلني . أليس قد قال : بل أنا أقتله . وكان قد أوعد أبيٌّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالقتل بمكة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل أنا أقتلك" فمات عدو الله من ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرجعه إلى مكة ، بموضع يقال له « سَرِف » . قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب : لما كان يوم أحد أقبل أُبَيّ مقنعا فى الحديد على فرسه يقول : لا نجوتُ إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله . قال موسى بن عقبة قال سعيد بن المسيب : فاعترض له رجال من المؤمنين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخلّوا طريقه ؛ فاستقبله مصعب بن عمير يقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقُتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم تَرْقُوة أبيّ بن خلف من فُرجة بين سابغة البيْضة والدّرع ؛ فطعنه بحربته فوقع أبيّ عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم . قال سعيد : فكسر ضِلعا من أضلاعه ؛ فقال : ففى ذلك نزل « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ » . وهذا ضعيف ؛ لأن الآية نزلت عقيب بدر .

الثالث — أن المراد السّهم الذى رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حِصن خَيْبر ، فسار فى الهواء حتى أصاب ابن أبى الحُقَيق وهو على فراشه . وهذا أيضا فاسد ، وخَيْبر وفتحُها أبعد من أُحُد بكثير . والصحيح فى صورة قتل ابن أبى الحُقَيق غير هذا .

الرابع — أنها كانت يوم بدر ؛ قاله ابن إسحاق . وهو أصح ؛ لأن السورة بدرية ، وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : "خذ قبضة من التراب" فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة ؛ وقاله ابن عباس ، وسيأتى . قال ثعلب : المعنى «وما رميت» الفزع والرعب فى قلوبهم «إذ رميت» بالحصباء فانهزموا « ولكن الله رمى » أى أعانك وأظفرك . والعرب تقول : رمى الله لك ، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . حكى هذا أبو عبيدة

فى كتاب المجاز . وقال محمد بن يزيد: وما رميت بقوتك إذ رميت، ولكنك بقوّة الله رميت .
﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ البـلاء ها هنا النعمة . واللام تتعلق بمحذوف؛ أى وليبلى المؤمنين فعل ذلك . ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوَهِّنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ قراءة أهل الحرمين وأبى عمرو. وقراءة أهل الكوفة « مُوهِنُ كَيدَ الكافِرِين » . وفى التشديد معنى المبالغة . وروى عن الحسن « مُوهِنُ كَيْدِ الكافِرين » بالإضافة والتخفيف . والمعنى : أن الله عز وجل يلقى فى قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا . والكيد : المكر . وقد تقدّم(١) .

قوله تعـالى : إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ شرطٌ وجوابه . وفيه ثلاثة أقوال : يكون خطابا للكفار؛ لأنهم استفتحوا فقالوا : اللّهُمّ أقطَعُنا للرّحِم وأظلَمُنا لصاحبه فانصره عليه؛ قاله الحسن ومجاهـد وغيرهما . وكان هـذا القول منهم وقت خروجهم لنُصرة العير . وقيل : قاله أبو جهل وقت القتال . وقال النّضر بن الحارث : اللهم إن كان هـذا هو الحق من عنـدك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعـذاب أليم . وهو ممن قتل ببـدر . والاسـتفتاح : طلب النصر؛ أى قـد جاءكم الفتح ولكنه كان للسلمين عليكم . أى فقـد جاءكم ما بان به الأمر ، وانكشف لكم الحق . ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ عن الكفر ﴿ فهو خير لكم ﴾ . ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ أى إلى هـذا القول وقتال محمد . ﴿ نَعُدْ ﴾ إلى نصر المؤمنين . ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أى جماعتكم ﴿ شَيْئًا ﴾ . ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أى فى العدد .

الثـانى — يكون خطابا للؤمنين؛ أى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر . وإن « تنتهوا » أى عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الإذن؛ فهو خير لكم . « وإن تعودوا » أى إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم . كما قال : « لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ(٢) » الآية .

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٦٨ من هذه السورة .

والقول الثالث — أن يكون « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح » خطابا للمؤمنين ، وما بعده للكفار . أى وإن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر . القشيرى : والصحيح أنه خطاب للكفار ؛ فإنهم لما نَفَروا إلى نصرة العير تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم آنصر أهدى الطائفتين ، وأفضل الدِّينين . المهدوِى : وروى أن المشركين خرجوا معهم بأستار الكعبة يستفتحون بها ، أى يستنصرون .

قلت : ولا تعارض لاحتمال أن يكونوا فعلوا الحالتين . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكسر الألف على الاستئناف ، وبفتحها عطف على قوله : « وأنّ الله مُوهِنُ كيدِ الكافِرِين » . أو على قوله : « أنى معكم » . والمعنى : ولأن الله ؛ والتقدير لكثرتها وأن الله . أى من كان الله فى نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين المصدّقين . أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالا لهم . جدّد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ، ونهاهم عن التولى عنه . هذا قول الجمهور . وقالت فرقة : الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين . والمعنى : يأيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملا على بعد فهو ضعيف جدا ؛ لأن الله تعالى وصف من خاطب فى هذه الآية بالإيمان . والإيمان التصديق ، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء . وأبعد من هذا من قال : إن الخطاب لبنى إسرائيل ، فإنه أجنبىّ من الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولّى الإعراض . وقال « عنه » ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته ؛ وهو كقوله تعالى : « وَاللهُ وَرَسُولُهُ أحق أن يرضوه »[1] . ﴿ وَأَنتُمْ

(١) آية ٦٢ سورة التوبة .

يَسْمَعُونَ ﴾ ابتداء وخبر فى موضع الحال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين فى القرآن .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ أى كاليهود أو المنافقين أو المشركين . وهو من سماع الأذن . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أى لا يتدبرون ما سمعوا ، ولا يفكرون فيه ؛ فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق . نهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم . فدلّت الآية على أن قول المؤمن : سمعت وأطعت ، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله . فإذا قصر فى الأوامر فلم يأتها ، واعتمد النواهى فاقتحمها فأىّ سمع عنده وأى طاعة ! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذى يظهر الإيمان ، ويُسر الكفر ؛ وذلك هو المراد بقوله : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » . يعنى بذلك المنافقين ، أو اليهود أو المشركين ؛ على ما تقدم . ثم أخبر تعالى أن الكفار شرُّ ما دبّ على الأرض . وفى البخارىّ عن ابن عباس « إنّ شرّ الدوابّ عِند اللهِ الصُّمّ البُكْمُ الذين لا يعقلون » قال : هم نفر من بنى عبد الدار . والأصل أشرّ ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال . وكذا خير ؛ الأصل أخير .

قوله تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ قيل : الحجج والبراهين ؛ إسماع تفهّم . ولكن سبق علمه بشقاوتهم . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أى لو أفهمهم لما آمنوا بعد علمه الأزلىّ بكفرهم . وقيل : المعنى لأسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قُصَىّ ابن كلاب وغيره ليشهدوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . الزجاج : لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه . ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ إذ سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢٤)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ هذا الخطاب للؤمنين المصدّقين بلا خلاف . والاستجابة : الإجابة . و ﴿ يُحْيِيكُمْ ﴾ أصله يحييكُم، حذفت الضمة من الياء لثقلها . ولا يجوز الإدغام . قال أبو عبيدة : معنى « استجيبوا » أجيبوا ؛ ولكن عُرْف الكلام أن يتعدّى استجاب بلام، ويتعدّى أجاب دون لام . قال الله تعالى: « يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ » (١) . وقد يتعدّى استجاب بغير لام؛ والشاهد له قول الشاعر (٢) :

وداعٍ دعا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فلم يستجبه عند ذاك مُجيبُ

تقول : أجابه وأجاب عن سؤاله . والمصدر الإجابة . والاسم الجابة ؛ بمنزلة الطاقة والطاعة . تقول : أساء سَمْعاً فأساء جابة (٣) . هكذا يتكلم بهذا الحرف . والمجاوبة والتجاوب : التحاور . وتقول : إنه لحسَن الجِيبة (بالكسر) أى الجواب . ﴿ لِمَا يُحْيِيكُم ﴾ متعلق بقوله : « استجيبوا » . المعنى : استجيبوا لما يحييكم إذا دعاكم . وقيل : اللام بمعنى إلى ؛ أى إلى ما يحييكم ، أى يُحيي دينكم ويعلمكم . وقيل : أى إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحّدوه . وهذا إحياء مستعار ؛ لأنه من موت الكفر والجهل . وقال مجاهد والجمهور : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهى ؛ ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية ، وقيل : المراد بقوله « لما يحييكم » الجهاد ؛ فإنه سبب الحياة فى الظاهر، لأن العدوّ إذا لم

---

(١) آية ٣١ سورة الأحقاف .	(٢) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار .

(٣) أصل هذا المثل على ما ذكر الزبير بن بكار أنه كان لسهل بن عمرو ابن مضعوف فقال له إنسان : أين أمك (بفتح الهمزة وتشديد الميم المضمومة) أى أين قصدك ؛ فظن أنه يقول له : أين أمك ؛ (بضم الهمزة والميم) فقال : ذهبت تشترى دقيقا . فقال أبوه : أساء سمعا ... الخ . (عن اللسان) .

يُغز غَزا ، وفى غزوه الموت ، والموت فى الجهاد الحياةُ الأبدية ؛ قال الله عز وجل : «ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا في سَبِيلِ اللهِ أمواتا بل أحياءٌ»(١) والصحيح العموم كما قال الجمهور .

الثانيــة — روى البخاريّ عن أبى سعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أُجبه ، ثم أتيته فقلت : يارسول الله ، إنى كنت أصلى . فقال : " ألم يقل الله عز وجل « اِسْتَجِيبُوا لِلهِ وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم » " وذكر الحديث . وقد تقدّم فى الفاتحة(٢) . وقال الشافعىّ رحمه الله : هذا دليل على أن الفعل الفرضَ أو القول الفرضَ إذا أُتِي به فى الصلاة لا تبطل؛ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإجابة وإن كان فى الصلاة .

قلت : وفيــه حجة لقول الأوزاعى : لو أن رجلا يصلى فأبصر غلاما يريد أن يسقط فى بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن بذلك بأس . والله أعلم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قيل : إنه يقتضى النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان فيحول بين المرء الكافر وبين الإيمان الذى أمره به، فلا يكتسبه إذ لم يُقدره عليه بل أقدره على ضدّه وهو الكفر . وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر . فبان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرّها . وهذا معنى قوله عليه السلام : " لا ، ومُقَلِّبِ القلوب " . وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ؛ إذ لم يمنعهم حقا وجب عليه فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم . قال السُّدّى : يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه، ولا يكفر أيضا إلا بإذنه؛ أى بمشيئته . والقلب موضع الفكر . وقد تقدّم فى « البقرة »(٣) بيانه . وهو بيد الله، متى شاء حال بين العبد وبينه بمرض أو آفة كيلا يعقل . أى بادروا إلى الاستجابة قبل ألا تمكنوا منها بزوال العقل . وقال مجاهد : المعنى يحول بين المرء

(١) آية ١٦٩ سورة آل عمران . (٢) راجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ١ ص ١٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

وعقله حتى لا يدرى ما يصنع . وفى التنزيل : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »[1] أى عقل . وقيل : يحول بينه و بينه بالموت ، فلا يمكنه استدراك ما فات . وقيل : خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدوّ فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدّلهم بعد الخوف أمْنًا ، ويبدّل عدوّهم من الأمن خوفا . وقيل : المعنى يقلّب الأمور من حال إلى حال؛ وهذا جامع . واختيار الطبرى أن يكون ذلك إخبارا من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب العباد منهم ، وأنه يحول بينهم و بينها إذا شاء ؛ حتى لا يدرك الإنسان شيئا إلا بمشيئة الله عز وجل . ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ عطف . قال الفرّاء : ولو استأنفت فكسرت « وإنه » كان صوابا .

قوله تعالى : وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يُقِرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم العذاب . وكذلك تأوّل فيها الزبير بن العوّام فإنه قال يوم الجمل ، وكان سنة ست وثلاثين : ما علمت أنا أُرِدنا بهذه الآية إلا اليوم ، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب ذلك الوقت . وكذلك تأوّل الحسن البصرِى والسدّى وغيرهما . قال السدّى : نزلت فى أهل بدر خاصة ؛ فأصابتهم الفتنة يوم الجمل فاقتتلوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : نزلت هذه الآية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أمر الله المؤمنين ألا يقِرّوا المنكر فيما بينهم فيعمهم الله بالعذاب . وعن حُذيفة بن اليمَان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يكون بين ناس من أصحابى فتنة يغفرها الله لهم بصحبتهم إياى يستنّ بهم فيها ناس بعدهم يدخلهم الله بها النار" .

قلت : وهذه التأويلات هى التى تَعْضُدها الأحاديث الصحيحة ؛ ففى صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يارسول الله، أنهلك وفينا

(١) آية ٣٧ سورة ق .

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث". وفى صحيح الترمذى : "أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده" وقد تقدمت هذه الأحاديث . وفى صحيح البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا[1] على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا و إن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا" . ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة . وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال علماؤنا : فالفتنة إذا عملت هلك الكل . وذلك عند ظهور المعاصى وانتشار المنكر وعدم التغيير ، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها . وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم ؛ كما فى قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم . وبهذا قال السلف رضى الله عنهم . روى ابن وهب عن مالك أنه قال : تهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها . واحتج بصنيع أبى الدرداء فى خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا ، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها . خرجه الصحيح . وروى البخارى عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم" . فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طهرة للؤمنين ومنه ما يكون نقمة للفاسقين . وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : عبث[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه ، فقلت : يارسول الله ، صنعت شيئا فى منامك لم تكن تفعله ؟ فقال : "العجب ، إن ناسا من أمتى يؤمون هذا البيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم" . فقلنا : يارسول الله، إن الطريق

---

(١) استهموا : اقترعوا .

(٢) عبث : معناه اضطرب بجسمه . وقيل : حرك أطرافه كمن يأخذ شيئا أو يدفعه .

قد يعم الناس . قال : " نعم . فيهم المستبصر والمجبور[(١)] وآبن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله تعالى على نياتهم " . فإن قيل : فقد قال الله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[(٢)] . « كل نفس بما كسبت رهينة »[(٣)] . « لها ما كسبت وعليها ما آكتسبت »[(٤)] . وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب . فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكتوا عليه فكلهم عاص . هذا بفعله وهذا برضاه . وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل ؛ فآنتظم في العقوبة[(٥)]؛ قاله آبن العربي . وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا . ومقصود الآية : وآتقوا فتنة تتعدى الظالم، فتصيب الصالح والطالح .

الثانيـــة ــ واختلف النحاة في دخول النون في « لا تصيبن » . قال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك؛ فهو جواب الأمر بلفظ النهي؛ أي إن تنزل عنها لا تطرحنك . ومثله قوله : « ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم »[(٦)] . أي إن تدخلوا لا يحطمنكم؛ فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء . وقيل : لأنه خرج مخرج القسم ، والنون لا تدخل إلا على فعل النهي أو جواب القسم . وقال أبو العباس المبرد : إنه نهي بعد أمر ، والمعنى النهي للظالمين؛ أي لا تقربن الظلم . وحكى سيبويه : لا أرينك ها هنا؛ أي لا تكن ها هنا؛ فإنه من كان ها هنا رأيته . وقال الجرجاني : المعنى آتقوا فتنة تصيب الذين ظلموا خاصة . فقوله « لا تصيبن » نهي في موضع وصف النكرة؛ وتأويله الإخبار بإصابتها الذين ظلموا . وقرأ علي وزيد بن ثابت وأبي وآبن مسعود « لتصيبن » بلا ألف . قال المهدوي : من قرأ «لتصيبن» جاز أن يكون مقصورا من « لا تصيبن » حذفت الألف كما حذفت من « ما » وهي أخت « لا » في نحو أم والله لأفعلن ، وشبهه . ويجوز أن تكون مخالفة لقراءة الجماعة؛ فيكون المعنى أنها تصيب الظالم خاصة .

(١) المستبصر : هو المستبين للأمر، القاصد لذلك عمدا . والمجبور : المكره .
(٢) آية ١٥ سورة الإسراء . (٣) آية ٣٨ سورة المدثر . (٤) آخر سورة البقرة .
(٥) عبارة آبن العربي : « فانتظم الذنب بالعقوبة » . (٦) آية ١٨ سورة النمل .

قوله تعالى : وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ ﴾ قال الكلبيّ : نزلت فى المهاجرين؛ يعنى وصف حالهم قبل الهجرة وفى ابتداء الإسلام . ﴿ مُسْتَضْعَفُونَ ﴾ نعت . ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أرض مكة . ﴿ تَخَافُونَ ﴾ نعت . ﴿ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ﴾ فى موضع نصب . والخطف : الأخذ بسرعة . ﴿ النَّاسُ ﴾ رفع على الفاعل . قَتادة وعِكرمة : هم مشركو قريش . وهب بن منبّه : فارس والروم . ﴿ فَآوَاكُمْ ﴾ قال ابن عباس : إلى الأنصار . السُّدّى : إلى المدينة ؛ والمعنى واحد . آوى إليه (بالمد) : ضمّ إليه . وأوى إليه (بالقصر) : انضمّ إليه . ﴿ وَأَيَّدَكُمْ ﴾ قوّاكم . ﴿ بِنَصْرِهِ ﴾ أى بعونه . وقيل : بالأنصار . وقيل : بالملائكة يوم بدر . ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى الغنائم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ قد تقدّم معناه (١) .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

رُوى أنها نزلت فى أبى لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بنى قُريظة بالذبح . قال أبو لُبابة : والله ما زالت قدماى حتى علمت أنى قد خنت الله و رسوله ؛ فنزلت هذه الآية . فلما نزلت شدّ نفسه إلى سارية من سوارى المسجد، وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت، أو يتوب الله علىّ . الخبر مشهور . وعن عكرمة قال : لما كان شأن قريظة بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم عليًّا رضى الله عنه فيمن كان عنده من الناس؛ فلما انتهى إليهم وقعوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس أبلق فقالت عائشة رضى الله عنها : فلكأنّى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجه

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

جبريل عليهما السلام ؛ فقلت : هذا دحية يارسول الله . فقال : "هذا جبريل عليه السلام". قال : "يارسول الله ما يمنعك من بنى قُريظة أن تأتيهم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فكيف لى بحصنهم"؟ فقال جبريل : "فإنى أدخل فرسى هذا عليهم". فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا مُعْرَوْرًى(١) ؛ فلما رآه علىّ رضى الله عنه قال : يارسول الله ، لا عليك ألّا تأتيهم ، فإنهم يشتمونك . فقال : "كلا إنها ستكون تحيّة". فأتاهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : "يا إخوة القردة والخنازير" فقالو : يا أبا القاسم ، ما كنت فحاشا ! فقالوا : لا ننزل على حكم محمد ، ولكنا ننزل على حكم سعد بن معاذ ؛ فنزل . فحكم فيهم أن تقتل مقاتِلتهم وتُسْبَى ذراريهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بذلك طرقنى المَلَك سَحَرًا" فنزل فيهم « يأيها الذين آمنوا لا تخُونُوا اللهَ والرسولَ وتَخُونُوا أماناتِكم وأنتم تعلمون » . نزلت فى أبى لُبابة ، أشار إلى بنى قُريظة حين قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ ، لا تفعلوا فإنه الذبح ، وأشار إلى حلقه . وقيل : نزلت الآية فى أنهم كانوا يسمعون الشىء من النبىّ صلى الله عليه وسلم فيُلقونه إلى المشركين ويُفشونه . وقيل : المعنى بغلول الغنائم ونسبتها إلى الله ؛ لأنه الذى أمر بقسمتها . و إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه المؤدّى عن الله عز وجل والقيِّم بها .

والخيانة : الغدر و إخفاء الشىء ؛ ومنه : « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ »(٢) وكان عليه السلام يقول : "اللهم إنى أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البِطانة". خرّجه النَّسائى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ... ؛ فذكره .

﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ فى موضع جزم ، نسقا على الأول . وقد يكون على الجواب ؛ كما يقال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن . والأمانات : الأعمال التى آئتمن الله عليها العباد . وسميت أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق ؛ مأخوذة من الأمن . وقد تقدّم فى « النساء »(٣) القول فى أداء الأمانات والودائع وغير ذلك . ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى ما فى الخيانة من القبح والعار . وقيل : تعلمون أنها أمانة .

---

(١) عريانا .	(٢) آية ١٩ سورة غافر .	(٣) راجع جـ ٥ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ كان لأبي لُبابة أموال وأولاد في بني قُريظة، وهو الذي حمله على ملاينتهم؛ فهذا إشارة إلى ذلك . ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أي آختبار، آمتحنهم بها . ﴿ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فآثِروا حقّه على حقكم .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قد تقدّم معنى « التقوى » . وكان الله عالما بأنهم يتقون أم لا يتقون . فذكر بلفظ الشرط؛ لأنه خاطب العباد بما يخاطِب بعضهم بعضا . فإذا آتقى العبد ربّه — وذلك بآتباع أوامره واجتناب نواهيه — وترَكَ الشبهات مخافة الوقوع في المحرّمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفّظ من شوائب الشرك الخفيّ والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعِفة عن المال جعل له بين الحق والباطل فرقانا، ورزقه فيما يريد من الخير إمكانا . قال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله « إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » قال : مخرجا، ثم قرأ « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا »[(١)]. وحكى ابن القاسم وأشهب عن مالك مثله سواء، وقاله مجاهد قبله . وقال الشاعر :

مَالكَ من طُول الأسَى فُرقان * بعـد قَطِينٍ رَحلوا وبَانُوا

وقال آخر :

وكيف أُرَجّي الخلد والموت طالبي * ومالي من كاس المنيـة فرقان

ابن إسحاق : « فرقانا » فَصْلا بين الحق والباطل؛ وقاله ابن زيد . السّدّيّ : نجاة . الفرّاء : فتحا ونصرا . وقيل : في الآخرة، فيدخلكم الجنة ويدخل الكفار النار .

(١) آية ٢ سورة الطلاق .

قوله تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

هذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي صلى الله عليه وسلم فى دار النَّدْوة ؛ فاجتمع رأيهم على قتله فبيّتوه ، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج ؛ فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ، ودعا الله أن يُعمى عليهم أمره ؛ فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غَشِيَهم النوم ، فوضع على رءوسهم ترابا ونهض . فلما أصبحوا خرج عليهم على فأخبرهم أن ليس فى الدار أحد ، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فات ونجا . الخبر مشهور فى السيرة وغيرها . ومعنى « لِيُثْبِتُوكَ » ليحبسوك ؛ يقال : أثبتّه اذا حبسته . وقال قتادة : « لِيُثْبِتُوكَ » وَثاقا . وعنه أيضا وعبدِ الله بن كَثير : ليسجنوك . وقال أبَان بن تَغْلِب وأبو حاتم : ليثخنوك بالجراحات والضرب الشديد . قال الشاعر :

فقلت ويحكما ما فى صحيفتكم * قالوا الخليفة أمسى مُثبتاً وجعا

﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ عطف . ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ مستأنف . والمكر : التدبير فى الأمر فى خفية . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ابتداء وخبر . والمكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

نزلت فى النَّضر بن الحارث ، كان خرج إلى الحيرة فى التجارة فاشترى أحاديث كَلِيلة ودِمنة ، وكِسرى وقيصر ؛ فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال النضر : لو شئت لقلت مثل هذا . وكان هذا وَقاحة وكذِبا . وقيل : إنهم توهموا أنهم

يأتون بمثله ، كما توهمت سحرة موسى ، ثم راموا ذلك فعجزوا عنه وقالوا عِنادا : إن هـذا إلا أساطير الأولين . وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

القراء على نصب « الحقّ » على خبر « كان » . ودخلت « هو » للفصل . ويجوز « هو الحق » بالرفع . ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾ قال الزجاج : ولا أعلم أحدا قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين فى إجازتها ، ولكن القراءة سنة ، لا يقرأ فيها إلا بقراءة مرضية . واختلف فيمن قال هـذه المقالة ؛ فقال مجاهد وابن جُبير : قائل هـذا هو النضر بن الحارث . أنس ابن مالك : قائله أبو جهل ؛ رواه البخارىّ ومسلم . ثم يجوز أن يقال : قالوه لشبهة كانت فى صدورهم ، وعلى وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة ، ثم حلّ بهم يوم بدر ما سألوا . حُكى أن ابن عباس لقِيَه رجل من اليهود ؛ فقال اليهودىّ : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال : أنت من القوم الذين قالوا : «اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عِندك» الآية . فهلّا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ! إنّ هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلىّ ، من القوم الذين لم تَجِف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجى موسى وقومه ؛ حتى قالوا : « اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة » (٢) فقال لهم موسى : « إنكم قوم تجهلون » فأطرق اليهودىّ مفحما . ﴿ فَأَمْطِرْ ﴾ أمطر فى العذاب . ومطر فى الرحمة ؛ عن أبى عبيدة . وقد تقدّم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

(١) آية ٢٥ سورة الأنعام . (٢) آية ١٣٨ سورة الأعراف .

لما قال أبو جهل : «اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ مِن عِندك» الآية، نزلت «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنْتَ فِيهِمْ» كذا فى صحيح مسلم . وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون، ويلحقوا بحيث أُمِروا . ﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ابن عباس : كانوا يقولون فى الطواف : غفرانك . والاستغفار وإن وقع من الفجار يُدفع به ضرب من الشرور والإضرار . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم . أى وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين؛ فلما خرجوا عذبهم الله يوم بدر وغيره؛ قاله الضحاك وغيره . وقيل : إن الاستغفار هنا يراد به الإسلام . أى «وما كان الله معذبهم وهم يستغفِرون» أى يسلمون؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقيل : «وهم يستغفرون» أى فى أصلابهم مَن يستغفر الله . روى عن مجاهد أيضا . وقيل : معنى «يستغفرون» لو استغفروا . أى لو استغفروا لم يعذبوا . استدعاهم إلى الاستغفار ؛ قاله قتادة وابن زيد . وقال المدائنى عن بعض العلماء قال : كان رجل من العرب فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُسْرِفا على نفسه، لم يكن يتحرج؛ فلما أن تُوُفِّى النبيّ صلى الله عليه وسلم لبس الصوف ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدِّين والنسك . فقيل له : لو فعلت هذا والنبيّ صلى الله عليه وسلم حيّ لفرِح بك . قال : كان لى أمانان ، فمضى واحد وبقى الآخر؛ قال الله تُبارك وتعالى : «وما كان الله لِيعذِّبهم وأنت فِيهم» فهذا أمان . والثانى «وما كان اللهُ معذِّبهم وهم يستغفِرون» .

قوله تعالى : وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ المعنى : وما يمنعهم من أن يعذّبوا . أى إنهم مستحقون العذاب لما ٱرتكبوا من القبائح والأسباب، ولكن لكل أجل كتاب؛ فعذبهم الله

بالسيف بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفى ذلك نزلت : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ »(١)
وقال الأخفش : إنّ « أنْ » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال لرفع « يعذبهم » .
﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى إن المتقين أولياؤه .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عُراة، يصفّقون ويَصفِرون ؛ فكان ذلك عبادة فى ظنهم . والمُكَاء : الصّفير . والتَّصدية : التصفيق ؛ قاله مجاهد والسدّى وابن عمر رضى الله عنهم . ومنه قول عنترة :

وحَليلِ غانيـةٍ تركتُ مُجدَّلا * تَمْكُو فريصتُه كشِدْقِ الأعْلَمِ(٢)

أى تصوّت . ومنه مكَتِ آستُ الدابة إذا نَفخت بالريح . قال السُّدّى : المُكاء الصفير، على نحو طائر أبيض بالحجاز يقال له المكاء . قال الشاعر :

إذا غَرّد المُكّاء فى غير رَوْضة * فوَيْلٌ لأهل الشّاءِ والحُمُرات

قتادة : المُكاء ضرب بالأيدى ، والتّصدية صياح . وعلى التفسيرين ففيه ردّ على الجهال من الصوفية الذين يَرقُصون ويُصفّقون . وذلك كله منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت . وروى ابن جُريج وآبن أبى نَجيح عن مجاهد أنه

---

(١) سورة المعارج . (٢) الحليل : الزوج . ويروى : وخليل بالخاء المعجمة . الفريصة : الموضع الذى يرعد من الدابة والانسان إذا خاف . والأعلم : المشقوق الشفة العليا .

قال : المُكَاء إدخالهم أصابعهم فى أفواههم . والتَّصدية : الصَّفير، يريدون أن يُشغلوا بذلك محمدا صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . قال النحاس : المعروف فى اللغة ما روى عن ابن عمر. حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال : مَكَا يَمْكُو مَكْوًا ومُكاء إذا صَفَر . وصَدّى يُصدّى تصدية إذا صفق؛ ومنه قول عمرو بن الإطْنابة[1] :

وظلّوا جميعا لهم ضجّة * مُكاء لدى البيت بالتَّصدية

أى بالتصفيق . سعيد بن جُبير وابن زيد : معنى التّصدية صدّهم عن البيت؛ فالأصل على هذا تصددة، فأبدل من أحد الدالين ياء. ومعنى ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أى المؤمن من الكافر . وقيل : هو عام فى كل شيء، من الأعمال والنفقات وغير ذلك .

قوله تعالى : قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار هذا المعنى، وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما ذكر الكسائيّ أنه فى مصحف عبد الله بن مسعود « قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم » لما تأدّت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها، هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِن يَنتَهُوا ﴾ يريد عن الكفر . قال ابن عطية : ولا بُدّ؛ والحامل على ذلك جواب الشرط « يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَفَ » ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمُنْتَهٍ عن الكفر . ولقد أحسن القائل أبو سعيد أحمد بن محمد الزبيرى :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف * ثم انتهى عما أتاه واقترفْ

لقوله سبحانه فى المعترف * إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

(١) فى القاموس وشرحه : « والإطنابة امرأة من بنى كنانة بن القيس بن جسر بن قضاعة، وعمرو ابنها شاعر مشهور، واسم أبيه زيد مناة» .

روى مسلم عن أبى شُماسة المَهْرِىّ قال : حضرْنا عمرو بنَ العاص وهو فى سِياقة الموت يبكى طويلا . الحديث . وفيه : فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أما علمت أن الإسلام يَهدِم ما كان قبله وأن الهجرة تَهدِم ما كان قبلها وأن الحج يهدِم ما كان قبله " الحديث . قال ابن العربىّ : هذه لطيفة من الله سبحانه منّ بها على الخلق ؛ وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم ، ويرتكبون المعاصى والمآثم ؛ فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لما استدركوا أبدا توبة ، ولا نالتهم مغفرة . فيسّر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الإنابة ، وبذل المغفرة بالإسلام ، وهدم جميع ما تقدم ؛ ليكون ذلك أقربَ لدخولهم فى الدّين ، وأدعى إلى قبولهم لكلمة المسلمين ، ولو علموا أنهم يؤاخذون لما تابوا ولا أسلموا . وفى صحيح مسلم : أن رجلا فيمن كان قبلكم قتل تسعة وتسعين نفسا ثم سأل هل له من توبة فجاء عابدا فسأله هل له من توبة فقال لا توبة لك فقتله فكمّل به مائة ؛ الحديث . فانظروا إلى قول العابد : لا توبة لك ؛ فلما علم أنه قد أيئسه قتله ، فِعْل الآيس من الرحمة . فالتنفير مفسدة للخليقة ، والتيسير مصلحة لهم . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان إذا جاء اليه رجل لم يقتل فسأله : هل لقاتلٍ من توبة ؟ فيقول : لا توبة ؛ تخويفا وتحذيرا . فإذا جاءه مَن قتل فسأله : هل لقاتل من توبة ؟ قال له : لك توبة ؛ تيسيرا وتأليفا . وقد تقدم .

الثالثــة — قال ابن القاسم وابن وهب عن مالك فيمن طلّق فى الشرك ثم أسلم : فلا طلاق له . وكذلك من حلف فأسلم فلا حنث عليه . وكذا من وجبت عليه هذه الأشياء ؛ فذلك مغفور له . فأما من آفترى على مسلم ثم أسلم أو سَرق ثم أسلم أقيم عليه الحدّ للفِرية والسرقة . ولو زنى وأسلم ، أو آغتصب مسلمة ثم أسلم سقط عنه الحدّ . وروى أشهب عن مالك أنه قال : إنما يعنى الله عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام ، من مال أودم أو شىء . قال ابن العربىّ : وهذا هو الصواب ؛ لما قدّمناه من عموم قوله تعالى : « قل لِلذين كفروا إن يَنْتَهُوا يغفرلهم ما قد سلف » ، وقولِه : "الإسلام يهدِم ما قبله" ، وما بيناه من المعنى من التيسير وعدم التنفير .

قلت : أما الكافر الحربِىّ فلا خلاف فى إسقاط ما فعله فى حال كفره فى دار الحرب . وأما إن دخل إلينا بأمان فقذف مسلما فإنه يحدّ ، وإن سرق قطع . وكذلك الذّمىّ إذا قذف

حدّ ثمانين، وإذا سرق قطع، وإن قتل قتل. ولا يُسقط الإسلام ذلك عنه لنقضه العهد حال كفره، على رواية ابن القاسم وغيره . قال ابن المنذر : واختلفوا فى النصرانى يزنى ثم يسلم، وقد شهدت عليه بينة من المسلمين ؛ فحكى عن الشافعيّ رضى الله عنه إذ هو بالعراق لا حدّ عليه ولا تغريب؛ لقول الله عز وجل : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » . قال ابن المنذر : وهذا موافق لما روى عن مالك . وقال أبو ثور : إذا أقرّ وهو مسلم أنه زنى وهو كافر أقيم عليه الحدّ . وحكى عن الكوفى أنه قال : لا يحدّ .

الرابعـــة — فأما المرتد إذا أسلم وقد فاتته صلوات، وأصاب جناياتٍ وأتلف أموالا؛ فقيل : حكمه حكم الكافر الأصلى إذا أسلم ؛ لا يؤخذ بشىء مما أحدثه فى حال ارتداده ، وقال الشافعيّ فى أحد قوليه : يلزمه كل حق لله عز وجل وللآدمى؛ بدليل أن حقوق الآدميين تلزمه فوجب أن تلزمه حقوق الله تعالى . وقال أبو حنيفة : ما كان لله يسقط ، وما كان للآدمى لا يسقط . قال ابن العربيّ : وهو قول علمائنا؛ لأن الله تعالى مستغنٍ عن حقـه ، والآدميّ مفتقر إليه . ألا ترى أن حقوق الله عز وجل لا تجب على الصبى وتلزمه حقوق الآدميين . قالوا : وقوله تعالى « قل للذين كفروا إن يَنْتَهُوا يُغفر لهم ما قد سلف » عام فى الحقوق التى لله تعالى .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ يريد إلى القتال ؛ لأن لفظة « عاد » إذا جاءت مطلقة فإنما تتضمن الرجوع إلى حالة كان الإنسان عليها ثم انتقل عنها . قال ابن عطية : ولسنا نجد فى هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال . ولا يجوز أن يتأول الى الكفر؛ لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا ذلك فى «عاد» إذا كانت مطلقة لأنها قـد تجىء فى كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر ، فيكون معناها معنى صار ؛ كما تقول : عاد زيد ملِكا؛ يريد صار . ومنه قول [أمية بن] أبى الصلت : —

تلك المكارم لا قَعبانِ من لبن * شِيبا بمـاء فعادا بعـدُ أبوالَا

وهـذه لا تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان العائد عليها قبل . فهى مقيّدة بخبرها لا يجـوز الاقتصار دونها ؛ فحكمها حكم صار .

قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله .

قوله تعالى : وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى كفر . إلى آخر الآية تقدم معناها وتفسير ألفاظها فى « البقرة »(١) وغيرها والحمد لله .

(١) راجع ج ٢ ص ٣٥٣ طبعة ثانية .

تم الجزء السابع من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن ، وأوّله قوله تعالى :

« واعلموا انما غنمتم من شىء »

كَمُلَ طبع الجزء السابع من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبى "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ١٤ شوّال سنة ١٣٥٧
(٦ ديسمبر سنة ١٩٣٨ م)

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٣٣/١٩٣٧/٣٠٠٠)

COLUMBIA UNIVERSITY
0026815028

DATE DUE | DATE DUE

GL MAY 11

GL JUN 12 1961
GL JUN 12 1961

09748300

INSERT

BOOK CARD
PLEASE DO NOT REMOVE.
A TWO DOLLAR FINE WILL
BE CHARGED FOR THE LOSS
OR MUTILATION OF THIS CARD.

CALL NUMBER / MAIN ENTRY

PRINTED IN U.S.A.

Columbia University
in the City of New York

09748300

JAN 15 1962